

الأمثال

مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

فَإِبي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَكِيمُ التُّرْمُذِيُّ
مِنْ عُلَمَاءِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْخَوَاصِ

مُتَّقَهُ وَنُتِقَ عَلَيْهِ وَنُتِقَ لَهُ
الدُّكْتُورُ السَّيِّدُ أَحْمَدُ الْجَمِيلِيُّ

كَارِهُنْ دَكْدُورْ
بِيروتن

الأُشال
نظمت
مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي
من علماء القرن الثالث الهجري

محققه وعلق عليه وقّعه له
الدكتور السيد الجميلي

دار أسامة
سوريا / دمشق / ص. ب. ٤٣٠٦

دار ابن زيدون
بيروت / لبنان

الأمثال
مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار القرآن للأدب
للطباعة والنشر والتوزيع



شارع الاستقلال - بيروت ٢٤٦٩٥٠ - ٢٢٢٨٨٨ - ٢٢٢٤٢٤ - ٢٢٢٤٢٤ - ٢٢٢٤٢٤ - ٢٢٢٤٢٤ - ٢٢٢٤٢٤ - ٢٢٢٤٢٤
Ishtikal St. - Phone 247950 - 225888 - 255454 - Cable JABAHA BKOU - P.O. Box 7846 - Beirut (Lebanon)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وبعد لقد جاء القرآن الكريم بأمثال مضرورية ، بقصد الإفهام والتفهم والتوضيح والبيان في روعة بلاغية يقف عندها ، ويتقاعس إزاءها فهم وعقل وفكر البشر ، من روعة وقدسية ما يحتوي السمع إذ ينتشي ويغبط الفؤاد وينشرح الصدر إجلالاً وخشية للحق سبحانه وتعالى .

وهذه الأمثال المضرورية في مجملها لم تترك للعقل البشري شيئاً ، فهو مسبوق بها في كل أطواره ، وهذا هو سر إعجازها ومناط عظمتها وجلال عزتها ، وحقيقة جدتها المطلقة التي لا تبلى ولا تخلق وهي قديمة جديدة متجددة رغم صروف الزمان وحدثانه ، لأن الذي أنزلها أخلد من الزمان والحدثان لأنه خالق كل شيء ، وبيده مقاليد كل شيء ، سبحانه وتعالى .

وهذه الأمثال قد اجتمعت أدواتها ، واستحكمت معانيها ، وأبرمت أفكارها ، وكملت رصانتها ، وتشعبت فوائدها ، فالألفاظ مشاكلة

للمعاني ، في الحسن والبهاء والقيمة ، وكذلك فالمعاني موافقة
للألفاظ في جمالها ، وهي في انسجام تركيبها كالعقد النظيم ، وقد
صفت درره ، واتسقت أطرافه ، وتماسكت أنحاؤه .

ومما جعل لها هذا القدر من التقييم والإجلال أنها تخاطب الفطرة
البشرية المجبول عليها تكوين النفس الإنسانية ، وليس ثمة من يعرف
دقائقها أو طبائعها ولا أحد أقدر على سبر أغوارها مثل خالقها جل شأنه
لأنه هو الذي جمع شتاتها وركب أسرارها وهو أعرف برصيد العقل
الإنساني من الفهم والإدراك والوجدان في مختلف أطواره ومتباين
أحواله .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا قد جمع كثيراً من الأمثال القرآنية
كنماذج لكنه لم يحشدّها جميعاً ، وإلا لصار أضعاف حجمه .

وعلى كل حال فإن للمؤلف رحمه الله جهده وسبقه وفضله في
هذا العمل الجيد وله على جهده ووقته المبذول في هذه المادة كل
تقدير حيث أفرغ مجهوده في الترتيب والتنقيح فله من الله سبحانه
وتعالى حسن الجزاء وأكرم المثوبة أجزل الله له الثواب والرحمة
والرضوان .

وقد استقى المؤلف مادة الكتاب من القرآن الكريم ، والسنة
النبوية الشريفة ، ثم من أقوال العلماء والحكماء والبلغاء في تناسب
وتناسق جميل ، ولذلك فقد لوحظ أن الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام :
الأمثال من القرآن ، والأمثال من الحديث النبوي ، والأخبار ، ثم
الأمثال التي تفوه بها كبار الحكماء .

وقد أخذ الإمام القرطبي (رحمه الله) من هذا الكتاب وأشار إليه في تفسيره الشهير (الجامع لأحكام القرآن) وهو يذكر كتابنا هذا باسم (نواذر الأصول)^(١) .

وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي ، وقد اعتمدنا عليها أيضاً في ضبط النص وتحقيقه .

ولقد أردت أن يكون لي شرف التحقيق والشرح والتعليق على هذا السفر الممتع ، فدققت النظر فيه ، وتأملت عباراته ملياً ، وأمعت البحث والتدقيق في مراد المؤلف من كل منها فقامت بضبط النص وشرح عباراته الغامضة وتخريج آياته وأحاديثه ، كما اهتممت بتراجم الأعلام الهامة ، ثم صوبت كثيراً من الأخطاء الواردة في النص من تصحيف وتحريف وأخطاء أخرى غيرها ، انشائية ونحوية .

وفي معرض تفسير بعض الآيات ذكرت آراء الأئمة وعلماء التفسير مشيراً إلى المرجع الذي أخذت منه حتى ينتفع به القراء ويتهياً للباحثين أكبر قدر من الفائدة والمعونة ، والله سبحانه من وراء القصد ! .

السيد الجميلي

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٢٢ / ٧) ط . دار الكتب المصرية سنة ١٩٥١ م .

هذا الكتاب والحكم عليه

يمتاز هذا الكتاب بلطف أسلوبه ، وجميل عباراته ، ورقيق معانيه ، وبديع إشارات ، وجزالة ألفاظه الموحية المعبرة عن مراد المؤلف في سهولة ويسر .

إلا أنني لاحظت التكرار لألفاظ كثيرة وردت أعادها المؤلف رحمه الله أكثر من مرة ، وهذا قد يستدل به من لا يعرف الحكيم الترمذي على أنه ذو رصيد لغوي قليل لا يسعفه أن يأتي بمرادف للكلمة عوضاً عن تكرارها مرة بعد مرة .

وقد ورد في أحيان شتى صوغ المؤلف عبارات شائعة في أسلوب ساذج سطحي خال من البيان أو البلاغة لكنني أعذره ولا أعذله في هذا فقد يرجع هذا إلى محاولته التفهيم للبسطاء ، وعلى كل حال فإن هذا لا يوافي ولا ينهض بعظمة الكتاب وصدق مراده وشرف مقصده . ولفت نظري أيضاً أن مؤلفه كان ذا نزعة صوفية باطنية مما يجعلني أرجح - وأستغفر الله من الظن - صحة ما نسب إليه من الإلتواء لفكر الباطنية ، وإن لم تكن الأدلة محمولة على اليقين فإن أمره إلى الله ، وما لنا إلا أن نأخذ منه ما أحسن فيه وصدق .

وإن كان الباطنية والروافض هم أشد خلق الله ، وأكثر المخالفين
المبتدعين جناية وهم من أكبر النحل التي خرجت على السنة
والجماعة ، إلا أننا مأمورون أن نحسن الظن بالعلماء المجتهدين
فنستغفر لنا ولهم ونسأله سبحانه وتعالى العفو والصفح الجميل عما
فرطنا في جنبه ، ولأنني أرى أن تتبع سقطات العلماء ، والاستدراك
المشين على أفكارهم ومعتقداتهم في كثير من الأحيان ليس له مسوغ
لأنه يحرمنا من جوانب الخير الكثيرة عندهم وفيهم فلنأخذ من كل منهم
ما أحسن فيه ونستغفر له عما لم يوفق فيه وكلنا معرضون للخطأ
والصواب ، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجنبنا الخطأ وأن يثبتنا على
جادة السواء وسبيل الاستقامة .

وقد أشرنا إلى هذه اللمحات الباطنية والإشارات الصوفية في
مواضعها من الكتاب ليقف عليها القارئ ، وعلقنا عليها ، ونوهنا
عنها . فلعل الكتاب بهذا الجهد الكبير المتواضع المبذول في مادته مع
جهد مؤلفه رحمه الله قد أصبح أتم وأقرب إلى الكمال وأجدى وأنفع
 للقارئ الكريم .

والكتاب في جملة جيد في موضوعه شيق في أسلوبه ، فنسأل
الله جل شأنه أن ينفعنا بما علمنا ، ويعيننا على البحث والدراسة فإنه
خير مأمول وأكرم مسؤول ، وهو وحده على كل فضل وخير مستعان ! .
القاهرة في مارس سنة ١٩٨٥ م .

السيد الجميلي

ص . ب ٤٠٣ المعادي

ت ٩٨٤٤٨٠

مؤلف الكتاب

هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر ، أبو عبد الله ، الحكيم الترمذي وهو باحث ، صوفي ، سني ، عالم بالحديث والفقه ، حنفي المذهب ، ولد في (ترمذ) ثم نفي منها حيث قذعه أهلها بالسوء وطاخوه بالقبيح ورموه بالمنكرات ، وقد وصل الحد إلى تكفيره ، لأنه ألف كتاباً في الإشارات الصوفية الباطنية ، وقال البعض لأنه ادعى الكشف والولاية وقد قال البعض إنه قال إن الأولياء أكرم من الأنبياء وأفضل وقال إنه ثم خاتم الأولياء مثل خاتم الأنبياء ، وهذا ما لم يقل به مسلم^(١) .

وإن كنت لا أستبعد هذا لا سيما وأن أسلوبه في هذا الكتاب وأحزابه يجلي لنا مسلكه الصوفي في استعمالاته لكثير من إشارات

(١) راجع ترجمة الحكيم الترمذي في لسان الميزان لابن حجر (٣٠٨ / ٥) ومفتاح السعادة (١٧٠ / ٢) والفهرس التمهيدي ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٩ وكشف الظنون (١ / ٩٣٨) ودائرة المعارف الإسلامية (٥ / ٢٢٧) وطبقات السبكي (٢ / ٢٠) ودار الكتب (١ / ٣٤٥) والكتبخانة (٧ / ١٧٧) .

ومصطلحات الصوفية إلا أنني أرجو أن يكون هذا الإتهام كاذباً ، ومفترياً عليه فيه .

وقد قال صاحب لسان الميزان (٣٠٨ / ٥) : إن أهل ترمذ هجروه في آخر عمره لتأليفه كتاب (ختم الولاية وعلل الشريعة) .

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته ، فقال البعض أنه توفي سنة ٢٥٥هـ^(١) .

وقال آخرون : بل توفي سنة ٢٨٥هـ^(٢) .

ولكن ابن الأنباري قال إنه سمع منه سنة ٣١٨هـ^(٣) .

ولكن خير الدين الزركلي قال : توفي نحو سنة ٣٢٠هـ^(٤) .

ومؤلفات الحكيم الترمذي تقع في نحو ثلاثين مصنفاً بين مخطوط ومطبوع منها هذا الكتاب وله كتاب (غرس الموحدين) و (أدب النفس) و (المسائل المكنونة) وكتاب (بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب) .

(١) راجع لسان الميزان (٣١٠ / ٥) .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (٢٢٧ / ٥) .

(٣) لسان الميزان (٣١٠ / ٥) بتصرف .

(٤) الإعلام (١٥٦ / ٧) .

بسم الله الرحمن الرحيم

[٤٣] عونَكَ اللَّهُمَّ وَحَدِّكَ ، الحمدُ لِلَّهِ وَلِيَّ الحمدِ وأَهله ،
والصَّلَاةُ على رسوله محمد وآله أجمعين .

قال الإمام محمد بن علي التُّرْمِذِيُّ الحكيم رَحِمَهُ الله :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ سَأَلْتَنِي عَنْ شَأْنِ الْأَمْثَالِ وَضَرْبِهَا لِلنَّاسِ ؛ فاعلم أَنَّ
الله تعالى ضَرَبَ الْأَمْثَالَ لِلْعِبَادِ فِي تَنْزِيلِهِ ؛ لقوله تعالى (١) :
﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . وقال جلَّ
ذِكْرُهُ (٢) : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ . وقال جلَّ ذِكْرُهُ (٣) : ﴿ ضَرَبَ
لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ .

ثم اعْلَمْ أَنَّ ضَرْبَ الْأَمْثَالِ لِمَنْ غَابَ عَنِ الْأَشْيَاءِ ، وَخَفِيَ عَلَيْهِ

(١) النور (٣٥/٢٤) .

راجع تفسير الآية الشريفة في الطبري (١٠٩/١٨) والقرطبي (٢٣١/١٢) واللسان

(٦٦/١) لابن منظور ، (٣٦٨/٥) .

(٢) إبراهيم (٤٥/١٤) .

(٣) الروم (٢٨/٣٠) .

راجع تفسير القرطبي (٢٩٧/٢٣) و (٤١٠/٢٣) .

الأشياء ؛ فالعباد يحتاجون إلى ضَرْب الأمثال لَمَّا خفيت عليهم الأشياء ؛ فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم ، لا مِنْ عند نفسه ؛ لِيُذَرِّكُوا ما غاب عنهم ؛ فَأَمَّا مَنْ لا يَخْفَى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء فلا يحتاجُ إلى الأمثال ، تعالى اللهُ عن ذلك علُوًّا كبيراً .

فَلَا جَرَمَ^(١) ما ضرب الأمثال من نفسه لنفسه ؛ وكيف ولا مِثْلَ له ، ولا شبيه له ؛ فلذلك قال جلُّ ذكره^(٢) : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ .

فالأمثالُ نموذجاتُ الحكمةِ لَمَّا غابَ عن الأسماع والأبصار ؛ لتَهْدِيَ النفوسَ بما أدرَكَتْ عَيَانًا .

فمن تدبیر الله لعباده أَنْ ضَرْبَ لهم الأمثالُ من أنفسهم ، لحاجتهم إليها ، لِيَعْقِلُوا بها ، فيدركوا ما غابَ عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة ؛ فَمَنْ عَقَلَ^(٣) الأمثالَ سَمَّاهُ اللهُ تعالى في كتابه عالماً ؛ لقوله تعالى^(٤) : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

الأمثال مرآة النفس

فالأمثالُ مِرْآةُ النفسِ ، والأنوار - أنوار الصفات - مرآةُ القلبِ ؛ وإنَّ الله تعالى جعل على الأفئدة أسماعاً وأبصاراً ، وجعل في الرؤوسِ

(١) لاجرم : لا محالة ، حقاً .

(٢) النحل (٧٤/١٦)

(٣) عقل الأمثال : وعاما وفهم مقصودها والمراد منها .

(٤) العنكبوت (٤٣/٢٩) .

أَسْمَاعاً وَأَبْصَاراً ، فما أدركت أَسْمَاعُ الرُّؤُوسِ وَأَبْصَارُهَا أَيْقَنَ بِهِ
الْقَلْبُ ، واستقرَّتْ النَّفْسُ ، واتَّسَعَتْ فِي عِلْمٍ [ذَلِكَ] ^(١) وانشَرَحَ
صَدْرُهُ بِذَلِكَ ؛ وما غاب عن أَسْمَاعِ الرُّؤُوسِ وَأَبْصَارِهَا ، وجاءت
أَخْبَارُهَا عَنِ اللَّهِ - وتلك الأشياءُ مكنونة - أَيْقَنَ الْقَلْبُ بِذَلِكَ ، ولكن
تَحَيَّرَتِ النَّفْسُ وَتَذَبَّدَتِ .

وإنَّ النفسَ مستقرُّها في الجَوْفِ ، والقلبُ مستقرُّه في الصِّدْرِ فوق
النفسِ ؛ فالقلبُ كدَلْوٍ معلقٍ في الصِّدْرِ بعُرْوَةٍ وبما فيه من المكنون ؛
وتحتَه النَّفْسُ ، وفيها الشهواتُ ، والهوى رِيحٌ مِنْ تَنْفُسِ النَّارِ خَرَجَتْ
إِلَى مَحَلِّ الشَّهَوَاتِ بِيَابِ النَّارِ ، واحتملتْ نَسِيمَهَا وَأَفْرَاحَهَا حَتَّى
أَوْرَدَتْهَا عَلَى النَّفْسِ ، فَإِذَا هَبَّتْ رِيحُ الْهَوَى ^(٢) بِأَمْرِ ، وجاءتْ بِذَلِكَ
النَّسِيمِ وَالْفَرَحِ إِلَى النَّفْسِ ، تحركتْ النفسُ وفارت ، ودَبَّ ^(٣) فِي
العُرُوقِ طَيْبُهَا وَلَذَّتْهَا فِي أَسْرَعِ مِنَ اللَّحْظَةِ ، فَإِذَا أَخَذَتِ النَّفْسُ فِي
التَّذَبُّدِ وَالتَّمَايْلِ وَالْإِهْتِشَاشِ ^(٤) إِلَى مَا تَصَوَّرَ وَتَمَثَّلَ ^(٥) لَهَا فِي الصِّدْرِ
تَحَرُّكُ الْقَلْبِ وَتَمَايِلُ هَكَذَا وَهَكَذَا مِنْ وَصُولِ تِلْكَ اللَّذَّةِ إِلَيْهِ ، فَإِذَا لَمْ
يَكُنْ فِي الْقَلْبِ شَيْءٌ يُثْقِلُهُ وَيَسْكُنُهُ مَالٌ إِلَى النَّفْسِ ، فَاتَّفَقَا وَاتَّسَقَا عَلَى
تِلْكَ الشَّهَوَاتِ ؛ فَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ مَنَهِياً عَنْهَا ، فَبَرَزَ إِلَى الْأَرْكَانِ فَعَلَهَا ؛
فَصَارَتْ مَعْصِيَةً وَذَنْباً .

وإنَّما يثقلُ الْقَلْبُ بِالْعِلْمِ بِاللَّهِ ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِاللَّهِ يُورِثُ الْخَشْيَةَ ،

(١) ما بين المعقوفين من (ب) و (ج) .

(٢) الهواء [ج]

(٣) كذا في [أ] و [ج] .

(٤) الإهتِشَاشُ : الخفة والنشاط .

(٥) ويمثل [أ] .

فإذا تَأَدَّتْ تلك الخَشْيَةُ إلى النفس ذَبَلَتْ وتركت التردد ؛ فاستقرَّ القلبُ .

العلم بالله يورث الحياء

والعلم بالله يُورث الحياء ، فإذا تَأَدَّى ذلك الحياءُ إلى النفس انكسرت وَخَجَلَتْ ؛ فإذا جهل القلبُ رَبَّهُ صار صفةُ القلبِ مع النفس على ما وصفنا بَدِيًّا^(١) .

والقلبُ موقِنٌ بالله تعالى ييقن التوحيد ، فإذا جاءت نوائِبُ الأمور استقرَّ القلبُ بذلك اليقين ؛ لأنَّه ليس في القلبِ شهوةٌ ، وتذبذبت النفسُ ، وترددت بالشهوة التي فيها .

فإذا ضُربت لها الأمثالُ صار ذلك الأمرُ لها بذلك المَثَلُ كالمُعَايَنَةِ ؛ كالذي ينظرُ في المرآة فيُبَصِّرُ فيها وَجْهَهُ ، وَيُبَصِّرُ بها مَنْ خَلْفَهُ ؛ لأنَّ ذلك المَثَلَ قد عاينَهُ يَبَصِّرُ الرَّأْسَ ، فإذا عاينَ هذا أدركَ ذلك الذي غاب عنه بهذا ؛ فسكنت النَّفْسُ ، وانقادت للقلبِ ، واستقرَّت تحت القلبِ في معدنها ؛ فهي كالْعِمَادِ لِسَطْحِ البيت ؛ فإذا تحرَّك العِمَادُ تحرَّك السُّطْحُ وانهار وتبدَّد العِمَادُ .

الأمثال من القرآن

فضرب الله الأمثالَ لِنُفُوسِ الْعِبَادِ ، حتى يُذَكِّرُوا ما غاب عن

(١) بديا : ابتداء .

أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارَهُم الظَّاهِرَةَ ، بِمَا عَايَنُوا^(١) ؛ فَابْتَدَأَ فِي تَنْزِيلِهِ ، فَضَرَبَ مَثَلَ الْمُنَافِقِينَ ؛ فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ^(٢) : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ^(٣) فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ^(٤) ﴾ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ^(٥) فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ^(٦) نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيَ فِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾^(٧) .

مثل المنافقين

قال : مَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي تَكَلَّمَ بِكَلِمَةِ الْإِيمَانِ مُرَائِيًا لِلنَّاسِ ، كَانَ لَهُ نُورٌ ، بِمَنْزِلَةِ الْمُسْتَوْقَدِ نَارًا يَمْشِي فِي ضَوْئِهَا مَا دَامَتْ تَتَّقُدُ نَارُهُ ، فَإِذَا تَرَكَ الْإِيمَانَ صَارَ فِي ظُلْمَةٍ كَمَنْ أَطْفِئَتْ نَارُهُ ، فَقَامَ لَا يَهْتَدِي وَلَا يُبْصِرُ ذَلِكَ .

(١) والمُشَاهِدَةُ والمُعَايَنَةُ والمُكَاشَفَةُ كُلُّهَا مُصْطَلَحَاتٌ صُوفِيَّةٌ تَأْتِي بِهَا الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، فَتَأَمَّلْ .

(٢) البقرة (١٤/٢ - ١٨) .

(٣) يمدُّهُمْ : يَتِمَادِي بِهِمْ وَيُطِيلُ لَهُمْ .

(٤) الْعَمَى : هُوَ عَمَى الْبَصِيرَةِ وَمَعْنَى يَعْمَهُونَ أَيِ يَتَخَبِّطُونَ وَيَرْكَبُونَ رُؤُوسَهُمْ فَلَا يُبْصِرُونَ . رَاجِعِ الْبَحْرَ الْمَحِيطَ بِتَصْرِفٍ وَزِيَادَةٍ (٦٣/١) وَرَجُلٌ عَمَى وَعَامَهُ أَيِ حَائِدٌ عَنِ الطَّرِيقِ . تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (٢١٠/١) بِتَصْرِفٍ .

(٥) اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ : اسْتَبَدَّلُوا ، وَمَنْ اشْتَرَى شَيْئًا بِشَيْءٍ فَقَدْ اسْتَبَدَّلَ مِنْهُ .

(٦) اسْتَوْقَدَ نَارًا : أَوْقَدَهَا .

(٧) رَاجِعِ الْجَامِعَ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِلْقُرْطُبِيِّ (٢٠٦/١) .

ثم قال : ذهب الله بنورهم ؛ أي بإيمانهم الذي تكلموا به ؛ وتركهم في ظلمات لا يُبصرون . في ضلالة لا يُبصرون الهدى . هذا قول مقاتل^(١) .

وقال قتادة : هذا مثل ضرب به الله تعالى للمنافق الذي تكلم بكلمة الإيمان ظاهراً ؛ فناكح ووارث بها ، وحقن بها دمه وماله ؛ فلما كان عند الموت ولم يك مُصدّقاً بها سلبت عنه ، فترك في كرب وظلمة ، فتحيّر فيها كما كانت معاملته في الدنيا في حق الله سبحانه وتعالى .

وقال مجاهد رحمه الله : أضاءت ما حوله^(٢) إلى إقبالهم إلى المؤمنين . وذهب بنورهم ، يعني ذهاب نورهم عند إقبالهم إلى المشركين : فالمنافق قلبه متحدر^(٣) لا يستقر فيه شيء كلما برق فيه نور الحق خرج من الجانب الآخر ، فقلبه كنق اليربوع^(٤) ، يدخل من باب [٤٤] ويخرج من باب .

مثل اليهود مع النبي

وهذه الآية مثل اليهود مع نبينا صلى الله عليه وسلم ، مثلهم

(١) وهو مقاتل بن سليمان ، من أعلام المفسرين توفي سنة ١٥٠ هـ . راجع وفيات الأعيان لابن خلكان (١١٢/٢) وتهذيب التهذيب (٢٧٩/١٠) وميزان الاعتدال (١٩٦/٣) وتاريخ بغداد (١٦٠/١٣) .

(٢) يقول ابن كثير : - « أما إضاءة ما حولهم فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى » اهـ . تفسير ابن كثير (٥٣/١) ط . الحلبي .

(٣) منحدر [ج] .

(٤) نفق اليربوع : إحدى حجر اليربوع يكتمها ويظهر غيرها ، فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق . راجع القاموس المحيط - مادة نفق .

كمثل رجل يكون في ضيق وتعب وشدة وظلمة ، ينتظر الفرج والمخرج والضياء والنور ؛ كانوا ينتظرون خروج محمد صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا أنه الحق فكذبوه وحسدوه مخافة أن يذهب عنهم عزهم ومآكلتهم^(١) .

ذهب الله بنورهم ، أي بالحلاوة التي كانت في قلوبهم عقوبة لهم بجحودهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون الهدى .

وأيضاً مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً في مفازة^(٢) مهلكة ليأمن بها ، فلما أضاءت ما حوله أطفئت ناره ، وبقي في ظلمة ، فكذلك اليهود استنصروا به قبل خروجه ، وطلبوا خروجه ليأمنوا من سيف الفرقة ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعن الله على الكافرين - يعني اليهود - .

وبش ما اشتروا به أنفسهم : بش ما ربخوا بعوض^(٣) قليل من الدنيا ، وهو ما كانوا يصيبون من سفلة^(٤) اليهود من المأكلة في كل عام .

مثل المنافقين بتكذيب القرآن

وقيل^(٥) : ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٥) ، أي مثل المنافقين في

(١) المأكلة : ما يأكلونه ويمتارونه .

(٢) المفازة : الصحراء القاحلة الممحلة لا ماء فيها .

(٣) بعوض : ببديل .

(٤) سفلة اليهود : غرأؤهم وساقطوهم .

(٥) البقرة (١٩/٢) والصيب : المطر .

القرآن مع القرآن كَقَوْمٍ نزلوا في فَلَاةٍ^(١) لَيْلًا ، فجاءهم مطرٌ شديد ؛
وإنَّما شَبَّهَ القرآن بالمطر ؛ لأنَّ حياةَ الناس في المطر ، كما أن في
القرآن حياةً ومنفعةً لمن آمَنَ به .

فمثلُ المنافقين بتكذيب القرآن كمثل مطر نزل من السماء ليلاً
قُرْأ^(٢) وفيه البرق وشدة الرعد .

يقول : ﴿ فيه ظلمات ﴾ : يقول في هذا المطر ظلمات ورَعْدٌ
وبرقٌ ، يقول : يمطر في ليلةٍ مُظلمة ؛ وفي ذلك المطر رَعْدٌ وبرقٌ ،
فمثلُ المطر مثل القرآن ، كما أنَّ في المطر حياةً ، كذلك في القرآن
حياةً لمن آمَنَ به ، وحياة الآخرة بالإيمان .

ومثل الظلمات مثل الكفر . ومثل الرُّعد ما خُوفوا به من الوعيد ،
ومثل البرق الذي في المطر مثل الإيمان ، وهو النور الذي في القرآن
يهتدي الناسُ ببيان القرآن كما يَهْتَدِي الناسُ في مثل تلك الليلة
بالبرق . شَبَّهَ القرآن بالمطر ، وشَبَّهَ تخويف القرآن بالرعد .

مثل آخر قوله^(٣) : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ
حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ . أي من خوف الصَّوتِ مِنْ شِدَّةِ الرُّعد ، هكذا مثلُ
المنافق إذا سمع قراءة القرآن مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ختم على
أُذُنَيْهِ كراهةً له ، بمنزلة الذي يجعلُ إصبعيه في أُذُنَيْهِ من شِدَّةِ الصاعقة
حَذَرَ الموت ؛ فالمنافقُ يجعلُ إصبعيه في أُذُنَيْهِ ، ولا يسمَعُ إلى صوتِ

(١) الفلاة : الصحراء لا ماء فيها .

(٢) قرى [ج] وقد وردت كذا كما أوردنا في [أ، ب] والقر : البرد .

(٣) البقرة (١٩/٢) .

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَخَافَةً أَنْ يَتَّعِظَ بِهِ وَتَدْخُلَ حَلَاوَةُ قِرَاءَتِهِ فِي قَلْبِهِ .

مثل الذين كفروا

مَثَلُ (١) الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةٌ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً ،
ثم وصف أنَّ من الحجارة ما قد يخرج منها الرطوبة ، وَيَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ
اللَّهِ ؛ أَيِ يَخِرُّ سَاجِدًا ؛ [وَالْقُلُوبُ الْقَاسِيَةُ لَا تَلِينُ ، وَلَا تَرْطُبُ ، وَلَا
تَخْشَعُ ، وَلَا تَخِرُّ سَاجِدَةً] (٢) .

﴿ وَمَثَلُ (٣) الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً
وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَيِ لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَ الْكَلَامِ الَّذِي
يَتَّعِظُ بِهِ ، لَيْسَ لَهُ مِنْ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الْخَيْرِ إِلَّا دَوْرَةٌ (٤) الْكَلَامِ .

مثل محمد صلى الله عليه وسلم مع الكافر

يَعْنِي مَثَلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الرَّاعِي
مَعَ الْبَهِيمَةِ يَنْعِقُ الرَّاعِي بِالْبَهِيمَةِ ؛ وَلَا تَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، أَيِ تَسْمَعُ
الصَّوْتَ وَلَا تَعْقِلُ مَا يُقَالُ لَهَا ، كَذَا الْكَافِرُ يَسْمَعُ مَوَاعِظَ الْقُرْآنِ وَلَا

(١) البقرة (٢/٧٤) .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من [ب] و[ج] .

(٣) البقرة (٢/١٧١) .

(٤) كذا ورد في [ج] وفي [ب] دورة وفي [أ] وردة .

يَعْقِلُ كَالْبَهِيمَةِ^(١) ، لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا صَوْتًا .

ثم قال^(٢) : صُمُّ عَنْ الْحَقِّ فَلَا يَسْمَعُونَ الْهُدَى ؛ وَبُكْمٌ ، أَيْ خُرْسٌ عَنِ الْكَلَامِ بِالْحَقِّ يَتَبَاكُمُونَ^(٣) فَلَا يَتَكَلَّمُونَ بِالْهُدَى ، عُمِي عَنْ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَ الْهُدَى ، فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ ؛ يَعْنِي لَا يَعْقِلُونَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا يَرْغَبُونَ فِي الْحَقِّ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَمَوَاعِظِ الْقُرْآنِ حَيْثُ قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ^(٤) : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا^(٥) عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۖ ﴾ فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : قُلْ أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ ، وَلَا يَقْرَوْنَ بُوْحْدَانِيَةَ اللَّهِ ، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفَتَتَّبِعُونَهُمْ ؟

ثم ضرب لهم مثل البهيمة في قوله عَزَّ وَجَلَّ^(٦) : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ : أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . قَالَ : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى

(١) أي كالأنعام التي لا تنتفع بما تسمع .

(٢) راجع تأويل مشكل القرآن ص ١٥٦ .

(٣) يتباكمون : يظهرون عدم القدرة على الكلام .

راجع أيضاً في تفسير الآية الطبري (٣١٣/٣) والبحر المحيط (٤٨١/١ - ٤٨٤) .

(٤) البقرة (١٧٠/٢) .

(٥) أَلْفَيْنَا : وجدنا وفي الأصول : وجدنا وهو تحريف من الناسخ .

(٦) البقرة (٢٥٩/٢) راجع القرطبي (٢٩٣/٣) والطبري (٤٦١/٥) والبحر المحيط

(٢٨٥/٢) .

العِظَامَ كَيْفَ تُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا ، فلما تَبَيَّنَ لَهُ قال : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ على كل شيء قَدِيرٌ ﴿١﴾ .

فَتَحَيَّرَتْ نَفْسُهُ كَيْفَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهَ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ، ثُمَّ بَعَثَهُ ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى جِمَارِهِ كَيْفَ أَحْيَاهُ ، فَأَرَاهُ بِمَا حَضَرَهُ مَا غَابَ عَنْهُ .

في شأن الخليل :

وقال في شأن الخليل صلوات الله عليه (٢) : ﴿ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ . فَتَحَنَّنَ قَلْبُهُ إِلَى رُؤْيَا صُنْعِ اللَّهِ ، فَأَكْرَمَهُ بِالْمُعَايَنَةِ لِأَحْيَاءِ تِلْكَ الطُّيُورِ ، وَقَدْ كَانَ مُوقِنًا بِأَنَّهُ فَاعِلٌ ، وَلَكِنَّهُ حَنَّ قَلْبُهُ إِلَى رُؤْيَا صُنْعِ رَبِّهِ ، فَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهَا (٣) . . . حَتَّى أَطْمَأَنَّ قَلْبُهُ وَسَكَنَ الْحَيْنِ .

مثل المنفق ماله في طاعة الله

مثل المُنْفِقِ مَالَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى [٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَى (٤) :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ

(١) قال القرطبي أن الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها هو عزيز أو أرمياء وكان نبياً . الجامع لأحكام القرآن (٢٨٩/٣) وأرجو مراجعة اختلاف أهل التأويل فيه في تفسير الطبري (٤٣٩/٥ - ٤٤٤) .

(٢) البقرة (٢٦٠/٢) .

راجع الدر المنثور (٣٣٤/١) وجامع البيان للطبري (٤٨٥/٥) .

(٣) بياض في [أ] وطوى له [ج] .

(٤) البقرة (٢٦١/٢) .

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ . كَذَاكَ الَّذِي يَتَصَدَّقُ بِمَالِهِ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى . وَاللَّهُ يَضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ؛ أَيُّ يَضَاعِفُ لَهُ ثَوَابَهُ فِي الْآخِرَةِ بِالتَّزْيِينِ (١) مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ، وَإِلَى سَبْعِمِائَةِ أَلْفٍ ، وَإِلَى أَلْفِي أَلْفٍ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْإِضْعَافِ مِمَّا لَا غَايَةَ لَهُ . وَاللَّهُ وَاسِعٌ : يَعْنِي جَوَادٌ بَتِلْكَ الْأَضْعَافِ ؛ وَأَضْعَافُ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِمْ بِمَا نَوَوْا فِيهَا .

ثُمَّ قَالَ (٢) : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا ﴾ عَلَى اللَّهِ ﴿ وَلَا أَذًى ﴾ لِصَاحِبِهَا ، أَيُّ الْفَقِيرِ . وَالْمَنْ عَلَى اللَّهِ إِلَّا يَرَى التَّوْفِيقَ مِنْهُ ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ مَنْ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بَأَلَّا يَرَى التَّوْفِيقَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيُؤْذِي الْفَقِيرَ ؛ فَقَالَ : مِثْلُهُ كَمَثَلِ (٣) ﴿ الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ (٤) النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ يَعْنِي لَا يُصَدِّقُ بِالْبَعْثِ الَّذِي فِيهِ جَزَاءُ الْأَعْمَالِ ؛ فَهَذَا مُنْفِقٌ أَنْفَقَ مَالَهُ فَأَبْطَلَ شِرْكَهُ إِنْفَاقَهُ وَصَدَقَتَهُ ، كَمَا أَبْطَلَ الْمَنْ وَالْأَذَى صَدَقَةَ الْمُؤْمِنِ .

ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ نَفَقَةِ الْمَصَدَّقِ بِالْبَعْثِ الْمُحْتَسِبِ بِالْإِيتَاءِ ، يَرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ مَنْ وَلَا أَذًى ، فَقَالَ (٥) [٤٥] : وَمِثْلُ الَّذِينَ

(١) التَّزْيِينُ : التَّنْمِيَةُ وَالْإِكْثَارُ ، وَمِنْهَا اشْتَقَّ الرَّبَا .

(٢) الْبَقْرَةُ (٢/٢٦٢) .

(٣) الْبَقْرَةُ (٢/٢٦٤) رَاجِعَ تَفْسِيرِ الْإِمَامِ الطَّبْرِيِّ (٥/٥٢٤) .

(٤) رِثَاءُ النَّاسِ : لِكَسْبِ ثَنَائِهِمْ .

(٥) الْبَقْرَةُ (٢/٢٦٥) .

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءً^(١) مَرْضَاةَ اللَّهِ وَتَثْبِيَةً^(٢) مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؛ أَيَّ تَحْقِيقًا وَتَصَدِيقًا مِنْ قُلُوبِهِمْ ، كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ^(٣) ، أَيَّ بَسْتَانٍ فِي بُقْعَةٍ مُرْتَفَعَةٍ طَيِّبَةٍ ، فَأَصَابَهَا وَايِل ؛ أَيَّ الْمَطَرِ الشَّدِيدِ ، فَآتَتْ أَكْلَهَا^(٤) ضِعْفَيْنِ ، أَيَّ أَخْرَجَتْ ثَمَرَهَا ضِعْفَيْنِ .

مثل المرائي والمُشرك

ثم ذكر مَثَلَ^(٥) المُرَائِي والمُشْرِك كَمَثَلِ صَفْوَانَ^(٦) عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَايِل : الْمَطَرِ الشَّدِيدِ ، فَلَا يَبْقَى مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ عَلَى ذَلِكَ الصِّفَا^(٧) شَيْءٌ ، كَذَلِكَ صَدَقَةُ الْمُشْرِكِ وَالْمُرَائِي الَّذِي يَمْنُ وَيُؤْذِي الْفَقِيرَ لَا يَحْصُلُ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الثَّوَابِ يَوْمَ الْجَزَاءِ .

مثل ما ينفقون في هذه الدنيا

مثل سَفَلَةِ الْيَهُودِ قَوْلُهُ تَعَالَى^(٨) : مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا - يَعْنِي سَفَلَةَ الْيَهُودِ - مِنَ الطَّعَامِ وَالثَّمَارِ عَلَى رُؤُسَائِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ ،

(١) ابْتِغَاءً : طَلَبٌ .

(٢) وَتَثْبِيَةً مِنْ أَنْفُسِهِمْ : أَيَّ تَحْقِيقًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ . رَاجِعِ الْمَطْبُوعَةَ .

(٣) الْجَنَّةُ : الْبَسْتَانُ وَالرَبْوَةُ : الْمُرْتَفَعُ مِنَ الْمَكَانِ . رَاجِعِ الطَّبْرِي (٥ / ٥٣٦) .

(٤) أَكْلَهَا : ثَمَرَهَا الَّذِي يُؤْكَلُ .

(٥) الْآيَةُ السَّابِقَةُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ .

(٦) الصَّفْوَانُ : الْحَجَرُ الْكَبِيرُ الْأَمْلَسُ .

(٧) الصِّفَاةُ : الْحَجَرُ الصَّلْدُ الْكَبِيرُ وَيَجْمَعُ عَلَى صِفَا وَصَفَوَاتٍ .

(٨) آلْ عِمْرَانَ (٣ / ١١٧) .

وهم كَعَب بن الأشرف وأصحابه ، يريدون بها الآخرة ، مثلهم كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ^(١) - يعني برد شديد - ، أَصَابَت الرِّيحُ الباردة حَرِثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَأَهْلَكَتْهُ ، وما ظلمهم الله ، فلم يُبْقِ منه شيئاً ، كذلك أَهْلَكَ الله نفقة اليهود فلم تنفعهم نفقاتهم .

ويقال : مَثَلُ ما يَنْفِقُونَ فِي هذه الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي غير طَاعَةِ الله تعالى - يعني اليهود - وَيَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي عداوة مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ عَلَى أَحْبَارِهِمْ لِيَذُبُوا^(٢) عَنْ دِينِهِمْ ، وَيَعَادُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ، بَرْدٌ ، وَهُوَ السَّمُومُ ، أَصَابَت زَرْعَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ لَمَنْعِ حَقِّ الله عَلَيْهِمْ ، فَأَحْرَقَتْهُ الرِّيحُ ، وما ظلمهم الله بهلاك حَرْثِهِمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بِمَنْعِ حَقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْهُ .

ويقال : هذا مَثَلٌ فِي شَأْنِ الكُفَّارِ ، قال : مَثَلُ نَفَقَتِهِمْ فِي أَعْمَالِ الخَيْرِ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ، أي برد ؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ خَلَّتْ عَنْ حَرَارَةِ نُورِ الإِيمَانِ ، فَمَاتَتْ عَنْ الله تعالى وبردت ، فَذَلِكَ الْبَرْدُ أَهْلَكَ أَعْمَالَهُمْ الْحَسَنَةَ ، فَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهَا شَيْءٌ ؛ لِأَنَّهَا صَارَتْ إِلَى الله بِلَا حَرَارَةٍ مِنْ نُورِ التَّوْحِيدِ وَنُورِ الْحَيَاةِ بِالْإِيمَانِ .

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَيِّتَ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ الرُّوحُ وَالنَّفْسُ كَيْفَ يَبْرُدُ وَيَجْمَدُ الَّذِي فِيهِ مِنَ الدَّمِ .

(١) القروالصر: البرد . « وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قد نهى عما قتله الصر من الجراد » راجع اللسان (١١٩/٦) .

(٢) يذبوا : يدافعوا .

وضرب فيهم مثلاً آخر في سورة إبراهيم عليه السلام ، فقال^(١) :
﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ ، فلم يَرَوْا منه شيئاً من ذلك التراب .

كذا الكفار لا يَقْدِرُونَ على ثواب شيءٍ مما عملوا في الدنيا ، ولا يَنْفَعُهُمْ ؛ لأنهم اتَّخَذُوا أَهْوَاءَهُمْ آلِهَةً من دون الله ، وعملوا بأهوائهم لا بنور الإيمان ، فجاءت رِيحُ الهوى فَذَرَتْهُ في النار .

مثل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها

مَثَلُ^(٢) الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها^(٣) فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكَهُ يَلْهَثُ^(٤) ؛ وذلك^(٥) لَأَنَّ الْكَلْبَ مَيِّتُ الْفُؤَادِ من بين السباع ؛ وذلك فيما رُوي لنا عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : لما أُهبط آدمُ عليه السلام إلى الأرض وَسُوسَ الْعَدُوِّ إِلَى السَّبَاعِ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكُمْ فَاقْتُلُوهُ ، جاءت الوحوش فاحتوشته^(٦) واجتمعوا عليه ، وجاء العدو فأسلَى^(٧) الْكَلْبَ حتى ينبح ، فَأَوَّلُ مَنْ حَمَلَ عَلَيْهِ

(١) إبراهيم (١٨/١٤) .

(٢) الأعراف (١٧٥/٧ ، ١٧٦) .

راجع تفسير الطبري (٨٥/٩) .

(٣) انسلخ منها : نزع منه ما تعلمه من علم .

(٤) يقال لهث الكلب : إذا أخرج لسانه من شدة العطش أو الجري .

(٥) راجع الجامع لأحكام القرآن (٣٢٣/٧) وفيه عزى القرطبي هذا الكلام للحكيم

الترمذي في نواذر الأصول .

(٦) احتوشته : أحذقت به .

(٧) أسلَى : أغرى ، والإشلاء هو الإغراء .

الكلب ؛ فتخوف آدم عليه السلام فنودي أن يا آدم لا تخف . فأعطي العصا الذي^(١) لموسى عليه السلام فضربه بذلك ، فذلّله وهزمه^(٢) ، ثم أمر بأن يمسح يده على رأسه فألف به وبولده بعد التذلل ؛ ثم أشلاه على السباع ، فحمل عليها معادياً لها إلى يوم القيامة ، وصار يحرسهم ويصطاد لهم . فلما وصل إليه سلطان العصا [الذي]^(٣) جعل فيها صار الكلب ميت الفؤاد فبقي فيه اللّه إلى يوم القيامة ، حملت عليه أو لم تحمل ، فلم تزل تلك العصا في حفظ الله تتداولها الأيدي إلى وقت موسى عليه السلام .

ويقال : كانت تلك العصا من آسِ الجنة^(٤) ، فذلك الذي آتاه الله من الكرامة ما لو أراد أن يصرفها إلى الآخرة لحصل له ذلك ؛ لقوله تعالى^(٥) : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ^(٦) بِهَا ﴾ ؛ أي لو صرفها إلى الآخرة آتيناه ذلك ، ولكنه أُخْلد^(٧) إلى الأرض ، صرفها في وجوه الدنيا التي هي للفناء ، وركب الهوى ، وقصد إلى كليتنا ، كما قصد الكلب إلى صَفِينَا ؛ فصار مثله مثل الكلب ؛ فمعنى قوله : مثله كمثّل الكلب ؛ أي إن هذا الذي صار كلباً وهو بلعم^(٨) إن رأى آياتنا وعبرنا لم يتعظ ، وإن لم ير لم يتعظ ؛ لأنه انسلخ مما آتيناه .

(١) قال الإمام القرطبي : - « فنزل جبريل بالعصا التي صرفت إلى موسى بمدين » اهـ .

(٢) وهربه [ب] .

(٣) كذا في [ج] .

(٤) راجع الجامع لأحكام القرآن (٣٢٣/٧) .

(٥) الأعراف (١٧٦/٧) راجع تأويل مشكل القرآن ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٦) المقصود هو بلعام بن باعوراء .

(٧) أخلد إلى الأرض : سكن وركن إليها .

(٨) الأصح (بلعام) ولعله تحريف .

مثل الحياة الدنيا

وقال (١) : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ (٢) مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا (٣) وَازْيَنْتَ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ (٤) عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا (٥) لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا (٦) كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نَفْصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

فأراهم الله عاقبة أمر الدنيا وفنائها بما عاينوا من انقضاء أيام الربيع كيف تلاشت زينتها وبهجتها ، كذا حال زينة الدنيا .

وقال في شأن الرؤيا من أمر الكواكب والشمس والقمر ، فهي شعبة من هذا ، وأريها في منامه ، وضرب له شأن الآخرة بالكواكب والشمس والقمر مثلاً : ﴿ وَكُلًّا (٨) نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ .

فإذا كانت الأخبار المتقدمة فيها تثبت للفؤاد كان فيما أراك الله يبصر رأسك وسمع أذنك ما له تثبت للفؤاد .

(١) يونس (٢٤/١٠) .

(٢) اختلط به نبات الأرض : أي شرب النبات من المطر فتندى وحسن واخضر .

(٣) زخرفها : حسنها وزيتها .

(٤) قادرون عليها : على الانتفاع بها .

(٥) أمرنا : هلاكها وعذابها .

(٦) حصيداً : مجذوفة مقطوعة لا شيء فيها .

(٧) كأن لم تغن بالأمس : كأن لم تكن حافلة عامرة ممرعة خصيبة بالأمس .

(٨) هود (١٢٠/١١) .

راجع تفسير الطبري (٨٨/١١) .

وقال في شأن داود صَلَّى الله عليه وسلّم من قول الملكين (١) : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ : أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ (٢) يُعَرِّفُهُ قُبْحَ مَا أَتَاه .

مثل الماء الذي جرى في الأودية

وضرب الله مثلاً لُبِّيْنِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فَقَالَ (٣) : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا (٤) فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا (٥) وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً (٦) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

فَالْحَقُّ مِثْلُ الْمَاءِ الَّذِي جَرَى فِي الْأَوْدِيَةِ . فسالت أودية بقدرها ؛ أي اختلط الحق بالباطل ، لأن النفس جاءت بأباطيلها ومناها وشهواتها التي هي إلى فناء ، فميتها فاعتر بها القلب ، والحق لا يفنى ولا يبلى . فقوله : أنزل من السماء ماء ؛ أي القرآن ؛ شبه القرآن بالماء ، لأن فيه منفعة الدين من الأحكام والشرائع ، كما أن في المطر منفعة الدنيا ، ثم

(١) ص (٢٣/٣٨) انظر تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/١٧٤).

(٢) عزني في الخطاب : غلبنى فيه ، ويقال صار أعز مني ، ويقال عاززته ، فعززته

وعزني ، راجع تفسير الطبري (٢٣/٩١ ، ٩٢) والقرطبي (١٥/١٧٤ ، ١٧٥).

(٣) الرعد (١٣/١٧).

(٤) بقدرها : بقدر ما تمتلىء .

(٥) زبداً رابياً : زبداً عالياً في الماء .

(٦) الجفاء : ما أجفاه الوادي أي رمى به .

شَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالْأُودِيَةِ لِأَنَّهُ وَجَدَ النُّورَ فِي الْقَلْبِ مَنفَذًا وَمَجَازًا ، كَمَا وَجَدَ الْمَاءَ فِي هَذِهِ الْأُودِيَةِ مَنفَذًا وَمَجَازًا . ثُمَّ شَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالسَّيْلِ ، وَشَبَّهَ الْبَاطِلَ بِالزَّبَدِ الَّذِي يَعلُو فَوْقَ الْمَاءِ ؛ فَكُلُّ قَلْبٍ لَمْ يَتَفَكَّرْ وَلَمْ يَعتَبِرْ ، وَلَمْ يَرغَبْ فِي الْحَقِّ خَذَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَوَجَدَتِ الظُّلْمَةُ وَالْهَوَى فِي قَلْبِهِ مَنفَذًا وَمَجَازًا ، كَمَا أَنَّ السَّيْلَ وَجَدَ فِي الْأُودِيَةِ مَنفَذًا وَمَجَازًا ، فَلَمَّا خُذِلَ هَذَا الْقَلْبُ احْتَمَلَ الْبَاطِلُ كَمَا احْتَمَلَ السَّيْلُ الزَّبَدَ الرَّابِي . وَإِذَا وَجَدَ الْقَلْبُ التَّوْفِيقَ فَتَفَكَّرَ وَاعْتَبَرَ احْتَمَلَ الْحَقَّ كَمَا انْتَفَعَ النَّاسُ مِنَ الْمَاءِ الصَّافِي ؛ ثُمَّ وَصَفَ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ لِصَاحِبِهِمَا فَقَالَ : فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ [٤٦] جُفَاءً ، يَعْنِي تَذْهَبُ مَنفَعَتُهُ ، كَذَا الْبَاطِلُ تَذْهَبُ مَنفَعَتُهُ عَلَى صَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ؛ وَهُوَ الْمَاءُ الصَّافِي . كَذَلِكَ الْحَقُّ : شَبَّهَ الْحَقَّ بِالْمَاءِ الصَّافِي ؛ لِأَنَّهُ تَبَقَّى مَنفَعَتُهُ لِصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا يَبْقَى الْمَاءُ لِمَنْ أَخَذَهُ .

مثل الكافر إذا دعا

ومثل (١) الكافر إذا دعا كباسطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَأَهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ؛ أَيْ لَا يُسْتَجَابُ دَعَاؤُ الْكَافِرِ كَمَا لَا يَبْلُغُ الْمَاءُ الَّذِي بَسَطَ كَفَّيْهِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ؛ أَيْ إِلَّا فِي بَاطِلٍ .

(١) الرعد (١٣/١٤)

راجع تفسير الطبري (١٣/٨٦)

مثل كلمة طيبة

وقال^(١) : ومَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ^(٢) كشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ؛ وهي كلمةُ الشهادة ، طابَتْ واستنارت ، وتفرَّغَتْ بالأعمال الصَّالحة ، وكلمة الشُّرِكِ كشجرة خَيْبَةٍ^(٣) ، وهي الحنْظَلَةُ ، ليس لها قرار ولا قائمة ، فهي ساقطةٌ بالأرض .

مثل أعمال الكفار

وقال^(٤) : مَثَلُ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ . فَالْكُفَّارِ اتَّخَذُوا أَهْوَاءَهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَعَمَلُوا بِأَهْوَائِهِمْ ؛ فَجَاءَتْ رِيحُ الْأَهْوَاءِ فَذَرَتْهُ فِي النَّارِ .

(١) إبراهيم (١٤/٢٤ ، ٢٥) .

(٢) الكلمة الطيبة : هي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) والشجرة الطيبة : النخلة وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « الكلمة الطيبة لا إله إلا الله ، والشجرة الطيبة المؤمن ، وقال مجاهد : الكلمة الطيبة الإيمان » اهـ .

راجع القرطبي (٩/٣٥٩) بتصرف .

(٣) إبراهيم (١٤/٢٦) .

الكلمة الخبيثة : قال القرطبي « هي كلمة الكفر والشجرة الخبيثة هي شجرة الحنظل » اهـ .

راجع الجامع لأحكام القرآن (٩/٣٦٠) بتصرف .

وارجو مراجعة الطبري أيضاً (١٣/١٤١) .

(٤) إبراهيم (١٤/١٨) .

واليوم العاصف : شديد الريح ، شبه أعمالهم بذلك ؛ لأنه يبطلها ويمحقها .

وقال فيمن افترى على الله كذباً^(١) : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ .

أي إن كنتم لا تَرْضُونَ لأنفسكم البنات وتؤثرون لأنفسكم البنين فكيف نسبتم إلي ما لا تَرْضون لأنفسكم .

وقال^(٢) : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾^(٣) ؛ فإذا أشرك بالله فقد سقط عند الله ، وبِرِيء الله منه ، فاخطفه العدو ، وهوى به ريح الهوى إلى قعر النار .

مثل الوثن الذي يعبدونه من دون الله

ومثل الوثن الذي يعبدونه من دون الله كمثل عبد مملوك لا يقدر على دائق ولا حبة قوله تعالى^(٤) : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٥) . قال : فكيف

(١) النحل (٥٧/١٦) .

سبحانه : تنزيهاً له عن ذلك ، ولهم ما يشتهون : أي من البنين . يقول القرطبي : - « نزلت في خزاعة وكنانة ؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون : الحقوا البنات بالبنات » اهـ .

الجامع لأحكام القرآن (١١٦/١٠)

(٢) الحج (٣١/٢٢) .

(٣) المكان السحيق : البعيد وتخطفه الطير : تقطعه مخالِبها .

(٤) النحل (٧٥/١٦) .

(٥) راجع الطبري (١٠٠/١٤) .

سَوِّتُمُوهُ بِي وَأَنَا الرَّاازِقُ أَنْفِقُ عَلَيْكُمْ .

وضرب مثلاً آخر ، فقال^(١) : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ^(٢) عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، كيف عدلتموه بي في العبادة وأنا لستُ بأبكم ، خلقتكم بكلمة واحدة ، وأقدرتكم مِنْ قُدْرَتِي عَلَى دُنْيَا مُحْشَوَّةٍ بِالنَّعْمِ ، أَغُولُكُمْ وَأُطْعِمُكُمْ وَلَا تَطْعَمُونِي . وهذه الآية والآية التي قبلها قد ذكرنا معانيهما في مَوْضِعٍ آخَرَ وَسَطَرْنَاهُمَا .

مثل ناقض العهد

وضربَ الله في ناقض العهد مثلاً ؛ فقال^(٣) : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَظَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ؛ فقال : مثل الذي نقض العهد كمثل الغزل التي نقضت تلك المرأة الحمقاء .

= ومعنى الآية أي كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر على شيء من أمره ورجل حر قد رزق رزقاً حسناً فكذلك أنا وهذه الأصنام .

(١) النحل (١٦/٧٦) .

(٢) كلٌّ على مولاة : ثقل على وليه وقرابته .

(٣) النحل (١٦/٩٢) .

راجع تفسير القرطبي (١٧١/١٠) وتأويل مشكل القرآن ص ٣٠١ بتصرف

والأنكاث : ما نقض من غزل الشعر وغيره .

أمة : فريقٌ منكم ، أربى من أمة : أغنى من فريق .

كان لعمر بن كعب بن سعد بنت تسمى رَيْطَة ، وكانت إذا غزلت الصوف أو شيئاً آخر نقضته لحُمَقِها ، فقال : ولا تَنَقِّضُوا ؛ أي لا تنكثوا العهود بعد توكيدها كما نقضت تلك الحمقاء غزلها من بعد قُوَّةٍ : من بعد إبرامه . أنكاثاً : يعني نَقْضاً ، فلا هو غزل تَنَفَّعَ به ولا صوف يُتَنَفَّعُ به ، فكذا الذي يُعْطَى العهد ثم ينقضه لا هو وفى بالعهد إذا أعطاه ولا هو ترك العهد فلم يُعْطه .

وضرب مثلاً آخر لناقض العهد ، فقال^(١) : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ ﴾^(٢) بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ ؛ أي عهدكم بالمكر والخديعة . فَتَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها : يَقُولُ إِنَّ نَاقِضَ الْعَهْدِ يَزِلُّ فِي دِينِهِ عَنْ الطَّاعَةِ كَمَا تَزِلُّ قَدَمُ الرَّجُلِ بَعْدَ الْإِسْتِقَامَةِ .

مثل لأصنام أهل مكة

وضرب مثلاً لأصنام أهل مكة ، فقال^(٣) : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُونَهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾^(٤) .

(١) النحل (٩٤/١٦) .

(٢) ذوق السوء في الدنيا : ما يتأبهم من المواقع والمكاره .

(٣) الحج (٧٣/٢٢) .

(٤) الاستقاذ : التخليص .

قال : أَرَاهِمُ اللَّهَ ضَعْفَ الذُّبَابِ وَعَجْزَهُ عَنِ الْقُدْرَةِ لِيَعْلَمُوا عَجْزَ
أَصْنَامِهِمُ الَّتِي لَا تَتَحَرَّكُ وَلَيْسَ فِيهَا حَيَاةٌ ، أَنَّهُمَا أَقْلٌ وَأَضْعَفُ غِيَاثًا عَنِ
الذُّبَابِ ، فَكَيْفَ تَكُونُ شَرِيكَةً لِلْقَادِرِ ؟

وقال (١) : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، يُرِيهِمْ أَنَّ الشُّرَكَاءَ يَتَزَاخَمُونَ وَيَتَفَاوَتُونَ
بِأَهْوَائِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ ، فَلَوْ كَانَ لِي شُرَكَاءُ كَمَا تَزْعُمُونَ لَفَسَدَ التَّدْبِيرُ
وَلَزَالَتَا . وقال (٢) : ﴿ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى
بَعْضٍ ﴾ .

مثل قلب المؤمن وأعماله وقلب الكافر وأعماله

وضرب مثلاً لقلب المؤمن وأعماله وقلب الكافر وأعماله ؛
فقال (٣) : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ
شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

(١) الأنبياء (٢٢/٢١) .

(٢) المؤمنون (٩١/٢٣) .

(٣) النور (٣٥/٢٤) .

راجع في تفسير الآية الطبري (١٠٩/١٨) والبحر المحيط (٤٥٦/٦) والجامع
لأحكام القرآن للقرطبي (٢٣١/١٢) .

(٤) المشكاة : الكوة غير النافذة ، وقيل عمود القنديل الذي فيه الفتيلة . المصباح :
السراج .

ضرب المثل لنوره في قلب المؤمن ليُعلمه قدره ومَنْزِلَتَه ؛ فدلّه بالحاضر على ما أعدّ له في الآجل ؛ فنفس المؤمن مثل بيتٍ ، وقلبه مثل قنديل ، ومعرفته مثل السراج ، وفمه مثل الباب ، ولسانه مثل المفتاح . والقنديل معلق فيه دهنها من اليقين ، والفتيلة من الزهد ، وزُجّاجها من الرضا ، وعلائقها من العقل ؛ إذا فتح المؤمن لسانه بإقرار ما في قلبه ، فاستضاء المصباح من كوّته^(١) إلى عرش الله تعالى ؛ فكلامه نورٌ ، وعمله نورٌ ، وظاهره نورٌ ، وباطنه نورٌ ، ومدخله في الأعمال نورٌ ، ومخرجه منها نورٌ ، ومصيره يوم القيامة إلى النور .

مثل أعمال الكفرة

وقال^(٢) : مثل أعمال الكفرة كالسراب الذي يحسبه الظمآن^(٣) ماءً ، حتى إذا قدم عليه غداً أكذبه^(٤) أمّنيته ، وساقه عطشان^(٥) إلى النار ؛ وهو قوله تعالى^(٦) : ﴿ فَوَفَاءٌ حِسَابُهُ ﴾ ، مستعداً لعذابه ، ويُجازيه بعمله .

ظلمات^(٧) بعضها فوق بعض : ضرب مثل صدره وقلبه وعمله

(١) الكوة : الخرق في الحائط .

(٢) النور (٣٩/٢٤ ، ٤٠) .

(٣) السراب : ما يرى من الشمس كالماء نصف النهار في اشتداد الحر . الظمآن : العطشان . راجع الطبري (١١٤/١٨) والقرطبي (٢٨٢/١٢) .

(٤) كذا في [أ] و [ب] وفي [ج] كذبه .

(٥) عطشاناً في [ج] .

(٦) النور (٣٩/٢٤) وال « بقية » والقيعة هي القاع .

(٧) النور (٤٠/٢٤) .

بظلمة البحر والمَوْج والسحاب ؛ فالبَحْرُ قَلْبُهُ الْمُظْلِمُ والمُتَحَيِّرُ ،
والمَوْجُ ^(١) شِرْكُهُ ، والسَّحَابُ أَعْمَالُهُ السَّيِّئَةُ ؛ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذُ
يَرَاهَا ؛ أَيُّ لَمْ يَرَهَا [هُوَ] ^(٢) البَتَّةُ . ولم يكذ ؛ أَيُّ وَلَمْ يَكْذُ أَنْ يَرَاهَا ؛
فَكَذَا قَلْبُ الْكَافِرِ مُظْلِمٌ فِي صَدْرِ مُظْلَمٍ ، فِي جَسَدٍ مُظْلَمٍ ، لَا يُبْصِرُ نُورَ
الْإِيمَانِ ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَرَاهُ .

ويقال : سَمِعُهُ ظُلْمَةٌ ، وَبَصَرُهُ ظُلْمَةٌ ، وَلِسَانُهُ ظُلْمَةٌ ، وَقَلْبُهُ
ظُلْمَةٌ ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ^(٣) : ﴿ ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ . وَمَنْ لَمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

مثل بيت العنكبوت

ثم ضرب مثلاً آخر للكافر ؛ فقال ^(٤) : ﴿ مثل الذين اتخذوا من
دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ .

قوله : اتَّخَذُوا ؛ أَيُّ عَبْدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ؛ أَيُّ بِالرَّبُوبِيَّةِ ،
لَا يَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا لَا يَنْفَعُ بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ الْعَنْكَبُوتُ فِي حَرٍّ وَلَا
قُرٍّ ^(٥) ؛ فَكَذَا ضَعْفُ الصَّنَمِ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَإِنَّ أَوْهَنَ ^(٦) الْبُيُوتِ لَبَيْتُ
الْعَنْكَبُوتِ لَا يَسْتَرُ ، وَلَا يَنْفَعُ ، وَلَا يَذْفَعُ حَرًّا وَلَا بَرْدًا ؛ كَذَا كُلُّ مَعْبُودٍ

(١) والمورد [ج] .

(٢) مأخوذة من هامش [ب] .

(٣) النور (٢٤ / ٣٩) .

(٤) العنكبوت (٢٩ / ٤١) .

(٥) القر: البرد .

(٦) أوهن البيوت : أضعفها .

دُونَهُ ؛ أَيِ إِنْ الْكَافِرَ عَارٍ^(١) عَنْ سِتْرِ اللَّهِ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ عَارِيًّا فَلَا يَكْسِي ، وَتَبْدُو فَضَائِحُهُ وَقَبَائِحُهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ .

مثل الشرك

وَضَرَبَ مَثَلًا آخَرَ لِلشَّرْكِ ؛ قَالَ^(٢) : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . معناه : هل أنتم تجعلون عبيدكم شركاء فيما أعطيناكم ؛ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ . تَخَافُونَهُمْ ؛ أَيِ تَخَافُونَ مِنْ لَائِمَةِ عبيدكم إِنْ لَمْ تَشَارِكُوهُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ [٤٧] كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ؛ أَيِ كَلَائِمَةِ أَهْلِ المِيرَاثِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْقَرَابَاتِ إِنْ لَمْ يُعْطُوا المِيرَاثَ .

معناه لا يخافُ المخلوقُ من شركة عبده في ماله في حياته وبعد مماته ، كما يخافُ من أهله وأولاده وقرباته ؛ فكذا جميع الخلائق عبيده ، وإماؤه ، لا يخافُ منهم الشركة في ملكه .

(١) عاري [ج] .

(٢) الروم (٢٨/٣٠) .

راجع تفسير القرطبي (٢٩٧/٢٣) و (٤١٠/٢٣) .

مثل المشرك

وضرب مثلاً آخر لأهل الشرك ، فقال^(١) : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ^(٢) وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فالموحدُ أسلم وجهه لله وحده ، والمشرِكُ أسلم وجهه لأرباب متفرقين ، فكيف حاله في الدنيا في بعث عبوديته^(٣) لهم ؟ وكيف حاله في الآخرة ؛ فهو وأربابه في النار .

مثل المنافقين

مَثَلُ^(٤) المنافقين^(٥) مع بني قُرَيْظَةَ وَيَبْعَتُهُمْ إِيَّاهُمْ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ مع برصيصا ؛ إذ قال للإنسان : اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَهُ :

(١) الزمر (٢٩/٣٩) .

(٢) متشاكسون : مختلفون يتنازعون ويتشاحنون فيه ، ورجل شكس : سيء الخلق ، ورجلاً سلاً : أي خالصاً لسيد واحد . راجع الجامع لأحكام القرآن (٢٥٢/١٥) ، (٢٥٣) والطبري (١٣٦/٢٣) وقال قتادة : « هو الرجل الكافر ، والشركاء هم الشياطين » اهـ .

راجع الدر المنثور (٣٢٧/٥) والطبري (١٣٧/٢٣) أما قوله تعالى : ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا ﴾ فهو المؤمن يعمل لله وحده .

(٣) عبودته [في الأصول] وهي العبودية .

(٤) الحشر (١٦/٥٩) .

(٥) «وهذا مثل ضرب للمنافقين واليهود في تقاعسهم وتخاذلهم وعدم الوفاء في نصرتهم» راجع الجامع لأحكام القرآن (٣٧/١٨) بتصرف .

إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ - تَبَرَّأْتُ مِنْهُ - تَبَايَعُوا مَعَ يَهُودِ بَنِي قَرِيزَةَ إِنَّا مَعَكُمْ لِلْقِتَالِ
عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا آلَ الْأَمْرُ إِلَى الْقِتَالِ تَبَرَّءُوا
مِنْهُمْ ، وَعَاقِبَةُ الْكُلِّ فِي النَّارِ كَعَاقِبَةِ الَّذِينَ^(١) فِي النَّارِ .

مثل الذين حملوا التوراة

وقال^(٢) : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ
الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾^(٣) .

شَبَّهَ الْيَهُودَ بِالْحُمُرِ ، لِأَنَّهُمْ تَحَمَّلُوا دِرَاسَةَ التَّوْرَةِ ، وَتَرَكُوا الْعَمَلَ
بِهَا ، فَاتَّعَبُوا أَبْدَانَهُمْ ، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا .

فهذه الأمثال نموذجات ما غاب عن العين والأسماع لِتُدْرِكَ
النفوس ما أدركت عياناً لما أنبىء .

الأمثال من الأخبار

وما في الأخبار مِنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى ، نَذَكِرُ
بَعْضَهَا :

(١) اللذين [في الأصول] وهو تحريف من الناسخ .

(٢) الجمعة (٥/٦٢) .

راجع تفسير الإمام الطبري (٦٣/٢٨) والفخر الرازي (١٥٠/٨) والجامع لأحكام
القرآن (٦٤/١٨) ط . دار الكتب .

(٣) السفر : الكتاب الكبير ، والمقصود في الآية الجزء من أجزاء التوراة وهي كتاب
اليهود المقدس .

قال : حدثنا سفيان ، حَدَّثَنِي أَبُو الزُّعْرَاءِ عَمْرُو بْنُ عَمْرٍو ،
وسمعه ابن عمه ، أي الأحوص ، عن أبيه ، عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ
عليه وسلَّم ، قال : أَرَأَيْتَ لو كان لك عَبْدَانِ أحدهما يكذبك ويخونك
ولا يصدقك ، والآخر لا يكذبك ولا يَخُونُكَ ويصدقك ؛ أَيُّهُمَا أَحَبُّ
إِلَيْكَ ؟ قلتُ : الذي لا يكذبني ولا يخونني ويصدقني . قال : فكذلك
أَنْتُمْ عَبِيدُ رَبِّكُمْ ، أَرَأَيْتَ لو كان لك إِبِلٌ (١) ؛ فجدعتَ هذه ، فقلت
صَرْمَاءُ (٢) ، وتشقَّ هذه وتقول بِحِيرَةٌ (٣) ، فساعِدُ اللهُ أَشَدُّ ، ومُوسَاةُ
أَحَدٌ ، لو شاءَ أَنْ يَأْتِيكَ بها صَرْمَاءُ فَعَلَّ .

عن عُثْمَانَ رضي الله عنه قال : قَيِّدُوا الْعِلْمَ . قلنا : وما تَقْيِيدُهُ ؟
قال : تَعْلَمُوهُ وَعَلِّمُوهُ وَاسْتَنْسِخُوهُ ؛ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ الْعِلْمَاءُ وَيَبْقَى
الْقُرَاءُ لَا يَجَاوِزُ قِرَاءَةَ أَحَدِهِمْ تَرَاقِيَهُ (٤) .

مثل العالم

ومنها : قال عليه السلام : إِنَّمَا مَثَلُ الْعَالِمِ كَمَثَلِ يَنْبُوعٍ مِنْ مَاءٍ
يَسْقِي بِلَدَهُ وَمَنْ مَرَّ بِهِ ، كَذَا الْعَالِمُ يَنْتَفِعُ بِهِ أَهْلُ بِلَدِهِ وَمَنْ مَرَّ بِهِ .

(١) وردت بالأصل [إبلا] وهو تحريف من الناسخ .

(٢) صرماء : من صرم أي قطع والصرماء هي مقطوعة الأذن والصرم جمع صريمة .

راجع مختار الصحاح ص ٣٦٢ ط . دار القلم .

(٣) بحيرة : هي التي يبحر أذنها أي شقت .

(٤) التراقي : جمع مفردة ترقوة ، وهي العظمة التي بين ثغرة النحر والعاتق ، وهما
ترقوتان من الجانبين .

مثل الرسول في الدعوة

ومنها : قال عليه السلام : مَثَلِي فِي الدُّعْوَةِ مَثَلُ سَيِّدِ بَنِي دَارٍ ،
وَاتَّخَذَ مَادِبَةً ، وَبِعَثَ دَاعِيًا يَدْعُو إِلَى مَادِبَتِهِ فِي دَارِهِ ، فَالْسيِّدُ هُوَ اللَّهُ
تَعَالَى ، وَالْمَادِبَةُ الْجَنَّةُ ، وَالْدَاعِي أَنَا .

مثل الآدمي ومثل الموت

ومنها قال عليه السلام^(١) : مَثَلُ الْآدَمِيِّ وَمَثَلُ الْمَوْتِ كَمَثَلِ رَجُلٍ
لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْخِلَائِنِ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمْ لَهُ : هَذَا مَالِي فَخُذْ مِنْهُ مَا شِئْتَ ،
وَأَعْطِ مِنْهُ مَا شِئْتَ ، وَدَعْ مَا شِئْتَ .

وقال الآخر : أَنَا مَعَكَ أَحْمَلُكَ لِي مَا دُمْتَ حَيًّا ، فَإِذَا مِتُّ
تَرَكْتُكَ .

وقال الثالث : أَنَا مَعَكَ أَدْخِلْ مَعَكَ ، وَأَخْرِجْ مَعَكَ مَتَّ أَوْ
حَيِّيت .

فَالْأَوَّلُ مَالُهُ . وَالثَّانِي عَشِيرَتُهُ . وَالثَّالِثُ عَمَلُهُ حَيْثَمَا كَانَ فَهُوَ
مَعَهُ .

مثل القرآن

ومنها مَا رَوَى نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٢) : مَثَلُ الْقُرْآنِ

(١) راجع الإصابة (٢١٨/٤) ط . نهضة مصر بتحقيق علي محمد البجاوي .

(٢) صحيح مسلم (٥٤٣) وفي رواية (إنما مثل صاحب القرآن) .

مثل الإبلِ المَعْقَلَةِ^(١) إِنَّ عَقْلَهَا صَاحِبُهَا أَمْسَكَهَا عَلَيْهِ ، وَإِنْ أَرْسَلَهَا مِنْ عَقْلَهَا ذَهَبَتْ .

مثل من لعب الميسر

ومنها قوله عليه السلام : مثل مَنْ لَعِبَ الميسر ثم قام يصلي كمثل الذي يتوضأ بالقَيْحِ وَدَمِ الخنزير ثم قام فصلَّى ، فيقول : قد يقبلُ اللَّهُ صَلَاتَهُ .

مثل قارئ القرآن

ومنها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَثَلُ الْقُرْآنِ مَثَلُ جِرَابٍ فِيهِ مِسْكٌ قَدْ رُبَطَ فَمُهُ ، فَإِنْ فَتَحَهُ فَاحَ رِيحُ الْمِسْكِ ، وَإِنْ تَرَكَهُ مَرْبُوطاً كَانَ مِسْكَاً مَوْضُوعاً ؛ فَإِنْ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ وَإِلَّا فَهُوَ فِي صَدْرِكَ .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضاً^(٢) : مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَةِ^(٣) ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ . ومثل المؤمن الذي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا .

(١) الإبل المعقلة : المشدودة بالعقال .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه (٥٤٩) .

(٣) الأترجة : مفرد جمعه (الأترج) وهي نبت طيب الطعم طيب الرائحة حسن اللون .

مثل المنافق القارئ للقرآن وغير القارئ له

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرِّيحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مَرٌّ . وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ ، طَعْمُهَا مَرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا .

مثل الكافر

وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ طَعْمُهَا مَرٌّ خَبِيثٌ لَا خَيْرَ وَلَا أَصْلَ ، اجْتَسَتْ ؛ أَيِ انْتَزَعَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ؛ أَيِ مِنْ أَصْلٍ ، بِأَدْنَى رِيحٍ تَقَعُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَتَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا ؛ كَذَا كَلِمَةُ الْكَافِرِ^(١) .

مثل كلمة الشهادة

وَمَثَلُ كَلِمَةِ الشَّهَادَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ^(٢) .

مثل من يقرأ القرآن وهو يعلم تفسيره أو لا يعلم

ومنها ما حدثني به عمر بن أبي عمر بإسناده عن سفيان بن

(١) راجع سورة إبراهيم (٢٦/١٤) .

(٢) إبراهيم (١٤/٢٤ ، ٢٥) .

حسين ، قال : قال لي إياس بن معاوية : إني أراك قد لهجت بعلم القرآن ، فاقراً عليّ سورةً وفسّرها حتى أنظر أين تقع . فقرأت عليه سورةً وفسّرتها ، فقال : يا سفيان ، لا علم أشرف من علم القرآن . هل تدري ما مثل من يقرأ القرآن وهو يعلم تفسيره أو لا يعلم ؟

مثله مثل قوم جاءهم كتاب من صاحب لهم ليلاً ، وليس عندهم مصباح ، فقد دخلهم بهذا الكتاب روعة^(١) ، لا يذكرون ما فيه ؛ فهم خائفون ، فإذا جاءهم المصباح عرفوا ما فيه .

مثل من أُعطي القرآن ولم يعط الإيمان

وعن علي رضي الله عنه قال : أخبركم بمن أُعطي القرآن ولم يُعط الإيمان ، ومن أُعطي الإيمان ولم يُعط القرآن ، ومن أُعطي القرآن والإيمان . ومن لم يُعط القرآن ولا الإيمان : فأما من أُعطي الإيمان ولم يُعط القرآن فهو بمنزلة ثمرة طيبة الطعم لا ربح لها ؛ ومنزلة من أُعطي القرآن ولم يُعط الإيمان منزلة الآس^(٢) طيبة الرائحة الطعم ؛ ومنزلة من أُعطي القرآن والإيمان بمنزلة الأترجة طيبة الطعم ، طيبة الرائحة ؛ ومنزلة من لم يُعط القرآن ولا الإيمان مثل الحنظل خبيثة الطعم خبيثة الرائحة .

(١) الروعة : الفزعة من الخوف والرهبة .

(٢) الآس : شجرة جمعها آس .

مثل الرسول والأنبياء

ومنها ما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال^(١) : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا ، فَعَجِبَ لَهُ النَّاسُ فَقَالُوا : وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا الْبُنْيَانِ لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبْنَةِ ؛ فَكُنْتُ أَنَا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبْنَةِ^(٢) .

مثل المنفق ومثل البخيل

ومنها ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال^(٣) : مَثَلُ الْمُنْفِقِ وَمَثَلُ الْبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ لَدُنْ تُدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ شَيْئًا إِلَّا سَبَغَتْ^(٤) عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تَوَارِيَ بَنَانُهُ وَتَعْفُو أَثَرُهُ^(٥) .

مثل الصلوات الخمس

[٤٨] ومنها^(٦) ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١٧٩١) .

(٢) حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

(٣) الحديث أخرجه بنحوه أحمد في مسنده ، والبخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١٥٣/٢) ط . دار الكتب العلمية .

(٤) سبغت : اتسعت .

(٥) تعفو أثره : تمحي أثر سيره بسبوغها .

(٦) حديث صحيح رواه الإمام مسلم .

قال : أَرَأَيْتَ (١) لو أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ [مِنْهُ] كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مرات ما تقولون ؟ هل يَبْقَى مِنْ ذَرَنِيهِ (٢) شَيْءٌ ؟

قالوا : لا . قال : ذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا .

مثل لموت المرأة المعجب بها زوجها

وعن القاسم بن محمد أنه قال : هلكت امرأة لي ، فأتاني محمد ابن كعب القرظي يُعْزِينِي بها ، فقال لي : إنه كان عالم في بني إسرائيل ، وكان له امرأة وكان بها مُعْجَبًا ، فماتت فوجدَ عليها (٣) وَجْدًا شديدًا ، وَلَقِيَ عليها أَسْفًا (٤) ، حتى خلا في بيت ، وأغلق على نفسه ، واحتجب عن الناس ، فلم يكن يدخلُ عليه أحدٌ ؛ وإنَّ امرأةً سمعت به ، فجاءته فقالت : إن لي إليه حاجةٌ أَسْتَفْتِيهِ (٥) فيها ، وليس يُجْزِينِي إِلَّا مُشَافَهَتُهُ .

فذهب الناس ولزمت بابَه ، وقالت : ما لي منه بُدٌّ . فقال له قائل : إِنَّ هَا هُنَا امرأةً أرادت أَنْ تَسْتَفْتِيكَ ، وقالت : إني أريد مُشَافَهَتَهُ ؛ وقد ذهب الناس ؛ وهي لا تفارقُ البابَ . قال : ائذنوا لها .

(١) وقد وردت « أَرَأَيْتَ » في صحيح مسلم .

(٢) الدرن : الوسخ والقاذورات .

(٣) وجد عليها : حزن عليها ومنها الموجدة وجمعها مواجيد .

(٤) الأسف : شدة الحزن .

(٥) أستفتيه : أطلب منه الفتيا ، أو الفتوى .

فدخلت عليه فقالت : إني جئتُ أَسْتَفْتِيكَ في أمر . قال : وما هو ؟ قالت : إني استَعَرْتُ من جارة لي حُلِيًّا ، فكنت ألبسه وأعيره ؛ فلبث عندي زماناً ، ثم إنَّهم أَرْسَلُوا إِلَيَّ فيه ، أَفَأَرُدُّهُ عليهم ؟ قال : نعم . قالت : إنَّه مكثَ عندي زماناً . قال : ذاكَ أَحقُّ لِرَدِّكَ إياه عليهم حينَ أَعَاروكه^(١) . فقالت : أيَ رحمك الله ! أَفتَسْأَلُ على ما أَعَارَكَ الله تعالى ، ثم أَخذه ، وهو أَحقُّ به منك !

فأَبصر ما هو فيه ، ونفعه الله تعالى بقولها .

الصيام جنة

ومنها ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال^(٢) :
الصَّيَامُ جُنَّةٌ كَجُنَّةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ .

وعنه صلى الله عليه وسلم قال : حُسْنُ الْحِفَازِ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنَ الشَّهْرِ .

مثل من جاء مسجده

ومنها ما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال

(١) أَعَاروكه : أَعَاروكَ إياه .

(٢) اتفق الشيخان على روايته عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد رواه أحمد والنسائي وابن ماجه عن عثمان بن أبي العاص بلفظ الصيام جنة من النار كجنة أحدكم من القتال . اهـ .

راجع كشف الخفا ومزيل الإلباس للعجلوني (٤٣/٢) بتصرف .
والجنة : هي الستر والوقاية .

رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم : مَنْ جاءَ مسجدي هذا لم يَأْتِ إِلَّا
لخير يتعلَّمه أو يُعلِّمه ؛ فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله تعالى ، وَمَنْ
جاءَ لغير ذلك فهو بمنزلة رجل ينظرُ إلى متاعٍ غيره .

مثل الرؤيا حين تعبر

وروي عن أبي قلابَةَ رَوَاهُ قال : مثل الرؤيا حين تعبر كمثل رجلٍ
أمر أن يرفع إحدى رجلَيْهِ ويضعَ أخرى ، فهو ينتظرُ متى يُؤمَرُ بوضعِها
فتستقرَّ الرؤيا على ما تعبرُ عليه ، فلا يحدثُ إِلَّا عالماً أو ناصحاً^(١) .

مثلكم ومثل اليهود والنصارى

ومنها ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُصْلًا ؛ فَقَالَ : مَنْ
يَعْمَلُ عَمَلًا مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيْرَاطٍ قِيْرَاطٍ ؟
فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ .

ثم قال : مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى
قِيْرَاطٍ قِيْرَاطٍ ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى . ثم قال : مَنْ يَعْمَلُ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ

(١) وقد روي الحديث بلفظ (الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت) .

رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه عن أبي رزين ، كذا في الدرر ، وقال
الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد إسناده صحيح على شرط مسلم ، وذكره العجلوني
في كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس
(٥١٧/١) وما بعدها .

إلى صلاة المغرب على قيراطين قيراطين ؟ أَلَا فَانْتُمْ .

فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، وقالوا : نحن أكثرُ أعمالاً ، وأقلُّ عطاءً . فقال : أَظْلَمْتُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئاً ؟ قالوا : لا . قال : فَإِنَّمَا هُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءَ .

الناس كإبل مائة

ومنها ما رُوي عن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم أنه قال : إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة^(١) .

مثل المؤمن مثل النخلة

ورُوي عن مجاهد رحمه الله ، قال : صحبتُ ابنِ عمر رضي الله عنه من مكة إلى المدينة ، فما سمعته يحدثُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هذا الحديث^(٢) : مثل المؤمن مثل النخلة إن جالسته نفعك ، وإن شاركته نفعك ، وإن شاورته نفعك ، وإن صاحبته نفعك ، وكلُّ شيء من شأنه منافع ؛ فكذلك النخلة كلُّ شيء من شأنها منافع .

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه . (١٩٧٣) .

(٢) وقد ورد الحديث بلفظ :

مثل المؤمن مثل النخلة إن أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقعت على عود نخر لم تكسره ، ومثل المؤمن مثل سبيكة الذهب ، إن نفخت عليها احمرت وإن وزنت لم تنقص .

رواه البيهقي عن ابن عمر وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (١٥٥/٢) .

مثل الصحابة

ومنها ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : مَثَلُ أَصْحَابِي فِي النَّاسِ كَمَثَلِ الْمَلْحِ فِي الطَّعَامِ ؛ لَا يَصْلِحُ الطَّعَامُ إِلَّا بِالْمَلْحِ .

مثل الرسول صلى الله عليه وسلم

ومنها ما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ مَثَلُ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً فَهُوَ يَذُبُّ^(١) عَنْهَا أَنْ يَقَعَ فِيهَا الْجَرَادُ وَالْفَرَّاشُ ، وَإِنِّي آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ^(٢) أَنْ تَقَعُوا فِي النَّارِ .

مثل المؤمنين

ومنها ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال^(٣) : مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى شَيْءٌ مِنْهُ تَدَاعَى^(٤) سَائِرُهُ بِالْحُمَى وَالسَّهَرِ .

(١) يَذُبُّ عَنْهَا : يدافع عنها .

(٢) الحجز : جمع حجة وهي معقد الإزار والسروال .

(٣) الحديث رواه بنحوه الإمام مسلم بلفظ (عضو منه) والإمام أحمد في مسنده عن

النعمان بن بشير ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١٥٥/٢) .

(٤) تداعى : دعا بعضه بعضاً للمشاركة في ذلك .

ومنها ما رُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال^(١) :
مَثَلُ الَّذِي اسْتَرَدَّ مَا وَهَبَ مَثَلُ الْكَلْبِ يَقِيءُ فَيَأْكُلُ قَيْئَهُ .

مثل التاجر

ومنها ما روي عن علي بن الحسين رحمهم الله أنه قال : إنما
مَثَلُ أَحَدِكُمْ مَثَلُ التَّاجِرِ يَحْسِبُ الرَّبْحَ وَلَا يُوْفِي رَأْسَ مَالِهِ ، يُوْفِي
أَحَدَكُمْ التَّطَوُّعَ ، وَلَا يُوْفِي الْفَرِيضَةَ .

ومنها ما رُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : مَثَلُ
الْمُؤْمِنِ وَمَثَلُ الْإِيمَانِ كَمَثَلِ فَرَسٍ فِي آخِيَّتِهِ^(٢) يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى
آخِيَّتِهِ ؛ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْهُو ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَأَطْعَمُوا طَعَامَكُمْ
الْأَتَقِيَاءَ ، وَأَوَّلُوا مَعْرُوفَكُمْ الْمُؤْمِنِينَ .

مثل المنافق

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم^(٣) : مَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلُ الشَّاةِ
الْعَائِرَةِ^(٤) بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَتَرَدَّدُ بَيْنَهُمَا مَرَّةً إِلَى هَذِهِ وَمَرَّةً إِلَى هَذِهِ .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : مَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلُ رَجُلٍ فِي نَهْرٍ

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه (١٢٤٠ ، ١٢٤١)

(٢) الآية : حبل يعرض في الحائط يدفن طرفاه فيه ويصبح وسطه كالعروة تشد فيها الدابة ، وجمع الآية أواخي .

(٣) حديث صحيح على شرط مسلم .

(٤) الشاة العائرة : التي تتردد حائرة بين قطيعين .

يَسْبَحُ فِيهِ ، فلما بلغ أَنَّ يَقْطَعَهُ نُودِي من الجانب الآخر ، فرجع إلى ذلك الصَّوت ، ثم نُودِي من ها هنا فأجاب ، ثم رجع ؛ فبينما هو في تردده إذ عَلَا آذِيٌّ ، وهو الموج ، فغرقه .

مثل النبي ومثل الساعة

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : مثلي ومثل الساعة كفرسي^(١) رَهَان سبق أحدهما الآخر بأذنه .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : مثلي كمثلي قومٍ بَعَثُوا طَلِيعَةً^(٢) ، فرأى العدو فجاء ليخبرهم أَنَّ العدو قد هجم فَلَاحَ^(٣) بِشَوِيهِ مَخَافَةً أَنَّ يَسْبِقَهُ العدو .

خمس كلمات وأمثالها

وقال صلى الله عليه وسلم : إِنَّ يَحْيَى بن زَكَرِيَّا عليهما السَّلام أمره اللَّهُ تعالى أَنْ يَأْمُرَ قَوْمَهُ بِخَمْسِ كلمات ، وَأَنْ يَضْرِبَ لَهُمْ مَثَلًا ، فقال : إِنَّ اللَّهَ تعالى أمرني أَنْ أَمُرَّكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ؛ وَمَثَلُ ذَلِكَ كمثلي رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا من خَالِص ماله ، فذهب الْعَبْدُ فَعَمِلَ لغيره ، فَأَيُّكُمْ يحب أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ ذَلِكَ .

وَأمرني أَنْ أَمُرَّكُمْ بالصلاة ؛ وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ دخل على

(١) فرسي رهان : متسابقان لغاية .

(٢) الطليعة : هي ما يبعث به في المقدمة ليستكشف أمر العدو .

(٣) لاح : ظهر ، وبان .

ملك فهو يُنَاجِيهِ حَوَائِجِهِ وهو يَسْمَعُ له وَيَقْضِي له الحَوَائِجَ .

وَأَمَرَنِي أَنْ أَمْرَكُم بِالصَّدَقَةِ ؛ وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ قَتَلَ قَتِيلًا
فَهَرَبَ مِنْ وَطَنِهِ مَخَافَةً أَنْ يُؤْخَذَ بِهِ ، فَبَعَثَ [٤٩] إِلَى أَهْلِهِ ، فَقَالَ :
مَا يَنْفَعُكُمْ إِزْعَاجِي مِنْ وَطَنِي ، فَأَنَا أُؤَدِّي إِلَيْكُمْ دِيَّةَ قَتِيلِكُمْ نَجُومًا^(١) ،
وَأَرْجِعُ إِلَى وَطَنِي ، فَرَضُوا بِذَلِكَ ؛ فَمَا زَالَ يُؤَدِّي نُجُومَهُ حَتَّى فَكَ
رَقَبَتَهُ .

وَأَمَرَكُم بِالصِّيَامِ ؛ وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ لَقِيَ الْعَدُوَّ فِي جُنَّةِ
حَصِينَةٍ ، فَمَا وَجَدَ فِي الْجُنَّةِ مِنْ خَلَلٍ وَصَلَ إِلَيْهِ سِلَاحُ الْعَدُوِّ .

وَأَمَرَكُم بِذِكْرِ اللَّهِ ؛ وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَاهُ فَوْجٌ مِنْ عَدُوٍّ مِنْ
نَاحِيَةٍ ، فَهُوَ يَحَارِبُهُمْ ؛ ثُمَّ أَتَاهُ فَوْجٌ آخَرٌ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، وَأَتَاهُ الْفَوْجُ
مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ؛ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ تَرَكَ مُحَارَبَتَهُمْ ، وَدَخَلَ الْحِصْنَ . .
وَأَغْلَقَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى .

مثل المصلي الذي لا يتم ركوعه وسجوده

وَرُويَ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى ، عَنْ أَبِي سَلَامٍ الْأَسْوَدِ
- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا يَنْقُرُ^(٢)
فِي صَلَاتِهِ ، لَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ ، فَقَالَ : لَوْ مَاتَ هَذَا مَاتَ عَلَى

(١) نجومًا : المقصود بها تنجيم الدين أي تقديمه على دفعات في أوقات معلومة متتابعة
إما مياومة أو مشاهرة أو مساناة .

(٢) رجل ينقر في صلاته : وهو يصلي النقرى ، إذا نقر في صلاته نقر الديك . راجع
أساس البلاغة للزمخشري ص ٩٨٤ ط . الشعب .

غير ملة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإذا صَلَّيْتُمْ فَأَتِمُّوا الرُّكُوعَ
والسجودَ ؛ فَإِنَّ مَثَلَ الْمُصَلِّيِّ الَّذِي لَا يُتِمُّ رُكُوعَهُ وَلَا سَجُودَهُ كَمَثَلِ
الْجَائِعِ الَّذِي يَأْكُلُ الْمَرَّةَ وَالْمَرَّتَيْنِ لَا تُغْنِيَانِ عَنْهُ شَيْئاً .

قال أبو بُرْدَةَ : قلت لأبي سلام : مَنْ حَدَّثَكَ بِهَذَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قال : حَدَّثَنِي أَمْرَاءُ الْأَجْنَادِ : يَزِيدُ بْنُ أَبِي
سَفْيَانَ^(١) ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَشَرْحِبِيلُ بْنُ
حَسَنَةَ^(٢) .

فهذه الأمثال كلها ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم لِئُرِيَهُمْ
مَا غَابَ عَنْهُمْ بِمَا حَضَرَ .

الحكماء يضربون الأمثال

ولم يزل الحكماء يضربون الأمثال :

(١) يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي أبو خالد ، أمير ، صحابي من رجال بني أمية
شجاعة وحزماً ، أسلم يوم فتح مكة ، واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم
على صدقات بني فزاس وكانوا أخواله ، توفي سنة ١٨ هـ . راجع تهذيب التهذيب
(٣٣٢/١١) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢٥/٢) والبداية والنهاية لابن كثير (٩٥/٧)
وسير أعلام النبلاء (٢٣٧/١) ومجمع الزوائد (٤١٣/٩) .

(٢) شرحبيل بن حسنة : هو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن الغطريف ، الكندي ،
حليف بني زهرة ، صحابي من القادة ، يعرف بشرحبيل بن حسنة (وهي أمه) وقد أسلم
بمكة ، وهاجر إلى الحبشة ، وغزا مع النبي صلى الله عليه وسلم فأوفده رسولاً إلى
مصر ، وتوفي صلى الله عليه وسلم وشرحبيل بمصر ، وقد افتتح الأردن عنوة ما خلا
طبرية فصالحه أهلها ، توفي سنة ١٨ هـ . راجع تهذيب ابن عساكر (٢٩٩/٦) وتهذيب
الأسماء واللغات للنووي (٢٤٢/١) .

مثل العلماء

مثل العلماء مثل النجوم التي يُقْتَدَى بها ، والأعلام التي يُهْتَدَى بها إذا تَغَيَّبَتْ عنهم تحيُّروا ، وإذا تركوها ضَلُّوا .

مثل الإمام

مثل الإمام مثل عين صافية^(١) يخرج منها نهر عظيم ، يخوضه الناس ، فيكدرونه ؛ فيأتي عليها صفوة العين ؛ فيصير صافياً من تلك الكدورة ، فإذا كانت الكدورة من قبل العين فسَدَ النهر فكيف يصفو؟ فلم يكن من الحيلة إلا سدُّ النهر .

مثل الناس والإمام

مَثَلُ الناسِ والإمامِ كمَثَلِ الفُسْطَاطِ^(٢) لا يقوم إلا بعمود ، ولا يقوم العمود إلا بالأوتاد ، فكلما نُزِعَ وتَدَّ^(٣) ازداد العمودُ وهناً^(٤) .

(١) صافي [أ، ب، ج] وما أوردناه أصح ولعل ذلك تحريف من الناسخ .

(٢) الفسطاط : السرادق والخيمة المضروبة .

(٣) وردت وتَدَّ في الأصول ، وهذا خطأ تحريف لأن (وتد) نائب فاعل حكمه الرفع بالضممة الظاهرة .

(٤) الوهن : الضعف .

مثل المجلس الصالح والسوء

مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مِثْلُ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِنْ لَمْ يُصِيبْكَ مِنْهُ شَيْءٌ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ . وَمِثْلُ جَلِيسِ السُّوءِ مِثْلُ كَيْرٍ ^(١) الْحَدَّادِ ، إِذَا جَالَسْتَهُ إِنْ لَمْ يُصِيبْكَ مِنْ سَوَادِهِ أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ .

مثل القلب

مَثَلُ الْقَلْبِ مِثْلُ حَذَقَةِ الْعَيْنِ فَإِنْ أَذْنَى ^(٢) شَيْءٍ يَشْغُلُ الْعَيْنَ . وَالْقَلْبُ أَيْضًا يَشْغُلُهُ أَذْنَى شَيْءٍ .

مثل العالم

مَثَلُ الْعَالَمِ مِثْلُ الْعِطَّارِ إِنْ مَرَّرْتَ بِهِ وَجَدْتَ رَائِحَةَ الطَّيِّبِ ؛ وَإِنْ جَالَسْتَهُ أَصَابَكَ اللَّطِخُ ^(٣) مِنَ الْعِطْرِ ؛ وَإِنْ صَاحَبْتَهُ تَنَاوَلْتَ مِنْهُ الطَّيِّبَ ؛ فَتَرْجِعُ إِلَى أَهْلِكَ بِذَلِكَ .

مثل المؤمن المتنبه

مَثَلُ الْمُؤْمَنِ الْمُتَنَبِّهِ مِثْلُ وَلَدٍ فَتَحَ عَيْنَيْهِ مِنَ النَّوْمِ فَأَبْصَرَ مِائَةَ أَلْفٍ

(١) الكير : هوزق ينفخ فيه الحداد .

(٢) أدنى : أقل .

(٣) اللطخ : التلوث .

ثُدِّي ، وَحَجَّرَ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهَا مَا لَمْ يَجِدْ رِيحَ أُمِّهِ ، فَحِينَئِذٍ يَتَعَلَّقُ بِثَدْيِهَا ، وَيَدْخُلُ فِي حَجَرِهَا ؛ لِأَنَّ رِيحَ الْأُمِّ رِيحَ الرَّأْفَةِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ الصَّدِيقُ لِعَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، حِينَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَأَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ وَلَدَهُ مِنْهَا ؛ فَمَنْعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَضَى بِهِ لِلْأُمِّ ؛ وَقَالَ : رِيحُهَا وَلِقَاحُهَا^(١) خَيْرٌ لَهُ مِنْكَ يَا عُمَرُ .

فَالْعَاقِلُ أَيْضاً لَمَّا وَجَدَ رَائِحَةَ رَأْفَةِ الرُّؤُوفِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ ، وَنَظَرَ إِلَى إِحْسَانِهِ لَدَيْهِ ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ سِوَاهُ ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهِ ؛ فَهَذَا الصَّادِقُ فِي قَوْلٍ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، عَلِمَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَضُرُّ وَتَنْفَعُ كُلُّهَا مِنْ اللَّهِ ، فَلَمْ يَتَعَلَّقْ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَرَدَّ وَلَهُ^(٢) قَلْبُهُ فِي تِلْكَ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْوَهْمَةِ اللَّهُ تَعَالَى ؛ لِأَنَّهُ عَايَنَ أَنَّ هَذِهِ الْأَوْدِيَةَ كُلُّهَا تَتَفَجَّرُ مِنْ تِلْكَ الْعَيْنِ ، وَبِقَدْرِ^(٣) مَا يَنْصَبُ مِنْ تِلْكَ الْعَيْنِ الَّتِي مِنْهَا تَسِيلُ هَذِهِ الْأَوْدِيَةُ ، فَلَمْ يَغْتَرِ بِالْأَوْدِيَةِ ؛ وَمَنْ حُجِبَ عَنْ رُؤْيَا تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ ؟ وَمَتَى يَقْدَرُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِشَيْءٍ مِنْهَا ؟ لِأَنَّ كُلَّ وَادٍ يَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهِ ، فَقَلْبُهُ ذُو شُعَبٍ ، وَنَفْسُهُ غَيْرُ مَطْمَئِنَةٍ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُمْ^(٤) ؛ فَهِيَ كَالرَّيْشَةِ ؛ يَطِيرُ مَرَّةً إِلَى هَذَا ، وَمَرَّةً إِلَى هَذَا إِلَى مَا لَا يَتَنَاهَى .

(١) لِقَاحُهَا : لَبْنُهَا .

(٢) الْوَلَةُ : ذَهَابُ الْعَقْلِ مِنْ شِدَّةِ الْحُبِّ ، يُقَالُ وَلَهُ فُلَانٌ ، وَلَهَتْ الْأُمُّ عَلَى وَلِيدِهَا ،

كَمَا يُقَالُ وَلَهُ الصَّبِيُّ إِلَى أُمِّهِ أَيْ فَرَعَ إِلَيْهَا .

رَاجِعَ أَسَاسَ الْبَلَاغَةِ لِلزَّمْخَشَرِيِّ ص ١٠٤٢ .

(٣) فَبِقَدْرِ [ج.] وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٤) كَذَا وَرَدَ بِالْأَصُولِ .

مثل المؤمن المخطيء الغافل

ومثل المؤمن المخطيء^(١) الغافل مثل رجلٍ في خربةٍ في فلاةٍ من الأرض يأتيه صوتٌ من كلِّ جانبٍ يدعوه ولا يدري مَنْ يجيب ولمنَّ يجيب ، وإلى مَنْ يطمئنُّ ، فهو أسيرٌ كلِّ ناعقٍ ؛ فالمؤمن من شرطه أن يطمئنَّ إلى ربه ، ويفرغ في كلِّ شيءٍ إلى ربِّه ، ويتعلق في كلِّ أمرٍ برَّبِّه .

مثل العاقل المحق

ومثل العاقل المحقِّ في إسلامه مثل رجلٍ باع داراً هو ساكنها ، فقليل له : سلّم ما بعث ، فخرج من ساعته ، وترك ثقله^(٢) ثمة ، وقال للمشتري : هذا كله لك مع الدار من غير بيع ، ووهبت الثمن لك أيضاً .

مثل المؤمن المخلط

ومثل المؤمن المخلط^(٣) مثل مَنْ باع داراً هو فيها ساكن ، فلما قيل له سلّم ما بعث قام من موضعه ، وجمع ثقله في زاوية أخرى من

(١) المخط في [ب] و [ج] .

(٢) الثقل : متاع المسافر وحشمه ، وهو أيضاً كل نفيس مصون مضمون به .

(٣) المخلط : الذي يخلط الأشياء فيلبسها على الناظرين والسامعين كما يقال فلان (خولط في عقله) إذا لم يستقم منطقته وأصابته لؤة .

الدار ، وجلس ثَمَّة ؛ فإذا قيل له ثانياً : سَلِّمْ ما بَعْتَ ذهب إلى زاوية أخرى مع ثَقْلَه ، ولا يزال دَأْبُه ^(١) هكذا في التسليم ؛ يتحوَّل من مكانٍ إلى مكان ، ويفرغ ناحية ، ويشغل أخرى إلى أَنْ يَقْبِضَ الثَّمَنَ ، ويسلم ويخرج منها ؛ فالمُؤْمِنُ مِنْ شَرْطِه تسليمُ النَّفْسِ إلى الله تعالى في كل شيء ، فلو اقتحم النَّهْيَ ، وَفَرَطَ في الأمر ، صار كمن سَلِّمْ بَعْضَ النفس دُونَ البعض ، كمن تحوَّل من زاوية إلى زاوية ؛ لا تَسْخُو نَفْسُه بتسليم ما باع ؛ فالمسلم باع نَفْسَه وماله مِنْ مَوْلَاهُ يقول له ^(٢) : ﴿ إِنْ اللّٰهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ ^(٣) الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّٰهِ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ وصيِّر تسليمه في عشر خصال مذكورة في الآية ، وجعل منها الجنة ؛ فكلَّمَا وَفَى تحصيله ^(٤) منها فقد سَلِّمْ جُزْءاً من المَبِيع ، ثم مع هذا يقتضي رَبُّه الثَّمَنَ ، فلو عقل هذا كيف

(١) دَأْبُه : شأنه وعادته .

(٢) التوبة (١١١/٩ ، ١١٢) .

(٣) السائحون الصائمون ، وأصل السائح الذاهب يضرب في الأرض ، ومنه يقال : ماء سائح وسيح : إذا جرى وذهب ، ويقال السائح في الأرض ممتنع من الشهوات ، فشبّه الصائم به ، وذلك لإمساكه عن المطعم والمشرب والنكاح . راجع تفسير الطبري (٢٨/١١) وفيه عن أبي هريرة قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : السائحون : هم الصائمون .

وقال الزجاج كما في اللسان (٣/٣٢٣) « السائحون في قول أهل التفسير واللغة جميعاً : الصائمون » اهـ .

(٤) تحصيله [ج] وهو تحريف خطير .

يَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّهِ الْيَوْمَ إِلَى أَنْ يَجِيءَ قَبْضُ الثَّمَنِ ؟

مثل المصلي الساهي

مَثَلُ الْمُصَلِّيِّ الَّذِي يُصَلِّي وَيَكُونُ سَاهِيًا فِي قَلْبِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ جَنَى فِي حَقِّ الْأَمِيرِ ثُمَّ نَدِمَ ، فَاسْتَجْمَعَ خَدَمَهُ وَخَوَّلَهُ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى بَابِ الْمَلِكِ مُعْتَذِرًا ، فَلَمَّا قَامَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ بِشَاكِرِيَّتِهِ ^(١) وَخَدَمِهِ ، وَوَقَفَ بِهِمْ عَلَيْهِ مُعْتَذِرِينَ مِمَّا كَانَ مِنْهُ وَمِنْ خَدَمِهِ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ ، صَفَحَ عَنْهُ وَحَيَّيْ وَأَكْرَمَ ، وَمَنْ أَقْبَلَ إِلَى الْمَلِكِ ثُمَّ زَاغَ عَنْهُ فِي الطَّرِيقِ وَبَعَثَ بِشَاكِرِيَّتِهِ وَخَدَمِهِ حَتَّى وَقَفُوا مَقَامَ الْإِعْتِذَارِ وَمَحَلَّ الْكِرَامَةِ ، وَلَمَّا أَقْبَلَ الْمَلِكُ إِلَيْهِ لِيَقْبَلَ عُذْرَهُ ، وَيُحَسِّنَ إِلَيْهِ ، أَعْرَضَ عَنْ مَقَامِ [٥٠] الْإِعْتِذَارِ ، وَشَغَلَ بِنَهْمَاتِهِ ^(٢) ، وَتَرَكَ خَدَمَهُ وَخَوَّلَهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ مُعْتَذِرًا مِنْهُ ؛ أَفَلَيْسَ مِنْ مَقَالَةِ الْمَلِكِ أَنْ يَقُولَ : أَنْتَ الَّذِي جَنَيْتَ فِي حَقِّي ، وَتَرَكَتْ أُمْرِي ، وَضَيَّعْتَ أُمُورِي ؛ وَهَؤُلَاءِ الْخَدَمُ إِنَّمَا حَضَرُوا لِأَجْلِكَ ، فَأَقَمْتَهُمْ مَقَامَ الْإِعْتِذَارِ عَنْكَ ، وَاشْتَغَلْتَ بِنَهْمَاتِكَ ^(٢) ! أَلَيْسَ أَنَّهُ مَمْقُوتٌ ، وَلَا يُعْبَأُ بِإِعْتِذَارِ خَوَّلِهِ فِيمَا هُنَاكَ ؟

مثل الدعوات دون حضور القلب

وَكَذَا مِثْلُ دَعَوَاتِهِ الَّتِي تَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ بَدُونِ حُضُورِ الْقَلْبِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً كَمَثَلِ سَائِلٍ يَقِفُ عَلَى بَابٍ يَسْأَلُ شَيْئًا ، وَلَمْ يَلْبَثْ ، وَمَضَى

(١) الشاكري : هو الأجير والمستخدم .

(٢) النهمة : الحاجة ، والكلف بالشيء والولوع به يقال فلان منهمم بكذا .

لسبيله ، فأخرج له ما طلب فلم يجدوه ، فُيَدْخَلُ في الدار مع ما أُخرج له ويقول : لم يمكث السائل على بابنا ، فلم يزل هذا دَابَّ (١) هذا المسكين على كل باب حتى صار محروماً ؛ كذا هذا الداعي ؛ والتقريبُ معلوم .

مثل من يثني على ربه عن غفلة

ومثل مَنْ يُثْنِي على رَبِّهِ عن غَفْلَةٍ كَمَثَلِ مَنْ جَنَى إِلَيْكَ جَنَابَةً ، فلم يَعْتَذِرْ حالة الإفاقة حتى شَرِبَ وَسَكِرَ ، فجاء في حال سُكْرِهِ ووقف بين يديك ، وَقَبْلَ قَدَمَيْكَ ، ومدَحَكَ بمدائح السَّكَارَى ؛ أوليس مِنْ مَقَالَتِكَ إن هذا لا يَعْقِلُ ما يقول ، ولا مَا يَعْمَلُ ، فَلَسْتَ تَعْبَأُ بِقَوْلِهِ وَفَعْلِهِ ؛ كذا هذا .

مثل من يثني ولا يعلم معنى ما نطق به

وَمَثَلُ مَنْ يُثْنِي على رَبِّهِ في غَفْلَةٍ ولا يَعْلَمُ ما معنى ما نطق به كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى بِشِعْرِ فِي دَفْتَرِ بَابِ الْمَلِكِ ، فقرأه عليه من الدَّفْتَرِ ؛ فقال له الملك : ما هذا ؟ قال : هذا مَدْحُكَ الذي مدحتك . فقال له الملك : عقلتَ ما أثبتت ؟ قال : لا ، إلا أَنِّي علمتُ أَنَّ هذا ثناء . فقال له الملك : فَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ عقلتَ أَنَّهُ ثناء ، فلعله هجاء ؛ فتحيّر الرَّجُلُ فلم يَبَيِّنْ له شيء إلا أَن يَقُولَ : هذا طمع في نَوَالٍ (٢) شيء ؛

(١) دأبه : عادته وشأنه .

(٢) نوال الشيء : اقتناؤه والحصول عليه .

فجعل هذا الثناء سبباً لنواله ؛ فيعطونه شيئاً ويخرجونه من بابه .

مثل من يثني ويعقل معنى الثناء تعريفاً

ومثل مَنْ يُثْنِي عَلَى رَبِّهِ وَهُوَ يَعْقِلُ مَعْنَاهُ ، وَلَكِنْ لَا يَعْقِلُهُ عَقْلَ الْمُشَاهَدَةِ ، كَمَثَلِ شَاعِرٍ أَتَى بَابَ الْمَلِكِ بِشِعْرِ يُثْنِي عَلَيْهِ ، فَلَمَّا أُنْشِدَهُ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : عَرَفْتَنِي بِهَذِهِ الْخِصَالِ أَمْ عُرِّفْتُ بِهِ ؟ قَالَ : لَا ، بَلْ عُرِّفْتُ بِهِ فِي السُّوقِ أَنْكَ هَذَا (١) .

فَسَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ الْمَلِكِ ، وَأَنَالَهُ مِنْ مَعْرُوفِهِ عَلَى قَدَرِ انْحِطَاطِ قَدْرِهِ وَسُقُوطِ مَنْزِلَتِهِ .

مثل من يثني ويعقل عقل مشاهدة

ومثل مَنْ عَقَلَهُ عَقْلَ مُشَاهَدَةِ بِقَلْبِهِ ، فَقَالَ : عَرَفْتُكَ بِهَذِهِ الْخِصَالِ مَعْرِفَةً أَشَدَّ مِنْ مَعْرِفَتِي بِنَفْسِي ، فَإِنْ مَعْرِفَتِي بِكَ لَا تُصِيرُ نَكْرَةً أَبَدًا .
فيقول له الملك : إِذَا لَا أَجْهَلُكَ (٢) عِلْمَكَ فِيَّ ، وَلَا أَجْعَلُ مَعْرِفَتَكَ لِي نَكْرَةً أَبَدًا ، وَلَا يَقِينَكَ شَكًّا ، وَلَا بَصْرَكَ عَمًى ، وَلَا هَذَاكَ حَيْرَةً وَضَلَالَةً ؛ وَأَوْفِي لَكَ بِجَمِيعِ مَا عَرَفْتَنِي ؛ إِنْ عَرَفْتَنِي جَوَادًا فَجُودِي لَكَ ، وَإِنْ عَرَفْتَنِي رَحِيمًا فَرَحْمَتِي لَكَ ، وَإِنْ عَرَفْتَنِي كَرِيمًا فَكَرَمِي لَكَ ، وَإِنْ عَرَفْتَنِي رَوْفًا فَرَأْفَتِي لَكَ ، وَإِنْ عَرَفْتَنِي لَطِيفًا فَلُطْفِي لَكَ ، وَإِنْ عَرَفْتَ قَدْرِي فَمَحَبَّتِي لَكَ ، وَلَكَ الْمَزِيدُ مِنْ فَضْلِي وَدَوَامُ هَذِهِ

(١) كذا ورد بالأصول .

(٢) أَجْهَلُكَ : أَنْسَبُكَ إِلَى الْجَهْلِ .

الأشياء ؛ وليس يحسنُ بي أنْ تعرّفني بشيءٍ فأريك من نفسي خلافَ ذلك حتى تصيرَ معرفتُك لي نكرةً ؛ أنا كما عرفتني ^(١) حق المعرفة ، وأنا أوجبُ لك ما عرفتني به ليكونَ ما عرفتني به ظاهراً مكشوفاً بارزاً ؛ وهو قوله صَلَّى الله عليه وسلّم : لو عرّفتم الله حقَّ معرفته لزالَ بدعائكم الجبالُ ، ولو خِفْتُم الله خيفته ^(٢) لتعلمتم العِلْمَ الذي لا جَهْلَ معه ؛ فمن عرّفه حقَّ المعرفة عرفه بالقُدرة ، ومن عرفه بالقُدرة لم تعظُم في عينه زوالُ الجبال عن مكانها ، ومن عرف كرمه حقيقةً لم تعظُم في عينه أنْ تُجاب دعوته في إزالةِ الجبال عن مكانها ، ومن خافه حقَّ الخيفة زال عنه الجهلُ ؛ لأنَّ نورَ الخوفِ من الذّات ، فإذا أشرقَ ذلك النورُ خاف حقَّ الخيفة وطار الجهلُ ؛ لأنَّ القلبَ حييٌّ بالله ؛ وإنما الجهلُ من الموت والعِلْمُ من الحياة .

مثل التالي كتاب الله في غفلة

ومثّلُ التالي كتابَ الله في غَفْلَةٍ كمثّل رجُلٍ بين يديه حِقَاق ^(٣) ، في كل حُقّة منها جَوْهَرٌ بعثه إليه الملكُ ، فهو في غَطَاءٍ عن تلك الجواهر ؛ ففي حَقّة منها ياقوتة حمراء ؛ وفي أُخرى منها ياقوتة صفراء ؛ وفي أُخرى ياقوتة زرقاء ؛ وفي أُخرى ياقوتة خضراء ، وفي أُخرى لؤلؤة بيضاء صافية ؛ فليس له من تلك الجواهر إلا عَدُّ الحِقَاق

(١) كما عرفتني في حق المعرفة [ب] و[ج] .

(٢) خيفته : خوفه .

(٣) الحِقَاق : جمع مفردة حقة وتجمع أيضاً على حق ، وحقوق وهي الوعاء من الخشب .

وإحصاؤها ، وهو يَعْلَمُ أنها ثَمِينَةُ نَفِيسَةٍ^(١) ، ولكن لا يَلْتَذُّ بها ولا يتَغْنَّى بها ؛ لأنَّ عَيْنَهُ إنما تَأْخُذُ الْحَقَاقَ ، وَنَفْسُهُ تُحَسِّنُ ما تَرَى عَيْنُهُ ، وَعِلْمُهُ يَنْفَاسَتُهَا وَأَثْمَانُهَا عِلْمٌ لا يَحْرُكُهُ ، ولا يَبْعَثُهُ ، ولا يَهْيِجُهُ إلى شيءٍ ؛ فهو كالنَّاعَسِ قد أَخَذَهُ رِيحُ النُّومِ ، فهو في نفسه ثَقِيلٌ ؛ فإذا فَتَشَ الْحَقَّةَ فَأَبْصَرَ جَوَاهِرَ تَتَلَأَلُ ، ونَظَرَ إلى شيءٍ مَلَأَ نَفْسَهُ سروراً ، وَسُبَّيَ قَلْبُهُ بها ، فإذا نَظَرَ فِيهَا فَوَجَدَ اسْمَهُ مَكْتُوباً عَلَيْهَا مَنْقُوشاً فَاشْتَدَّ عَجَبُهُ ، وتَضَاعَفَ سرورُهُ وَبَهَّجَتْهُ ، وتاه في البهجة ، فسُروره بنفاسةٍ تلك الجوهرة يَهْنِيهِ ، وَيُهْنِيهِ في اسْمِهِ الذي وجده مَنْقُوشاً على تلك الياقوتة ؛ فقال في نفسه : صار لي إلى الملك محلاً ؛ بعث إليَّ جوهراً مِثْلَ هذه ، وَأَسْمِي مَنْقُوشٌ عَلَيْهَا ، يُعَرِّفُنِي ذلك مَحَلِّيَ عنده ؛ إني قد أَعَدَدْتُ لَكَ هذه الجواهر وَبِاسْمِكَ ؛ لَعَظِيمَ قَدْرِكَ عِنْدِي ، وَكَثْرَةَ بَالِي بِكَ ، وَرَفِيعَ مَحَلِّكَ عِنْدِي ، وَحُبِّي لَكَ ؛ فكيف يكون حالُ هذا العبد من الفَرَحِ والسرور ؛ ككِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى . كلامَ عَزِيزٍ ، حُرُوفٍ مَنْسُوقَةٍ^(٢) ، مَوْأَلَفَةٍ ، أَلْفَهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ بِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ - ومعنى قوله الْبَالِغَةُ ؛ أي بلغت تلك الْحِكْمَةُ يَوْمَ الْمَقَادِيرِ ، ومنها خَرَجَتْ إلى الْعِبَادِ ، فَصَارَتْ حِكْمَةً ؛ فَقِيلَ : حِكْمَةُ الْبَالِغَةِ ؛ أي تَبْلُغُ بِصَاحِبِهَا عِلْمَ الْمَقَادِيرِ ، فَمَنْ بَلَغَ عِلْمَ الْمَقَادِيرِ فَقَدْ وَفَّرَ حَظَّهُ مِنَ الْعِلْمِ ، كما وَفَّرَ^(٣) الْحَظَّ لِلْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى سَاحَ فِي الْمَقَاوِزِ ، وَخَاضَ الْبَحَارَ ، وَعَبَّرَ مَعَابِرَ الْعِبَرِ بِحَظِّهِ مِنَ الْعِلْمِ^(٤)

(١) النفيسة : ذات القدر والقيمة والتي يتنافس فيها .

(٢) منسوقة : منظومة في طريقة بديعة ، ويقال نسقت الدر نسقاً ، ونسقت الكلام نسقاً إذا عطفك بعضه على بعض .

(٣) وفَّرَ حَظَّهُ : تم وسَّعَ وكَمَّلَ .

(٤) من العلم في [ب] .

المقادير ، فرأى في كل شيء ربوبية العزيز القهار - فذلك تأليف عجَزَتْ عنه الملائكة والرُّسُلُ والثَّقَلَانِ^(١) وجميع الخلق ؛ لأنه وَضَعَ في كُلِّ حرفٍ لعباده شيئاً ؛ فهو أَعْلَمُ بما يحتاجُ إليه عِبَادُهُ من تلك الأشياءِ ، فألَفَ الحروفَ للأشياءِ الموضوعَةِ في الحروفِ ، يخاطبهم بها ، وهي لَطَائِفُ وَبُشْرَى ، وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ ، وَنَذَارَةٌ^(٢) وتَأْدِيبٌ ، وَتَحْضِيضٌ^(٣) وتَنْدِيبٌ^(٤) ، وأنباء ما مضى ، وأنباء ما هو كائن في الدَّارَيْنِ ؛ فذلك قوله تعالى^(٥) : ﴿ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(٦) ، فمن غَيَّبَ^(٧) فَهَمَّهُ عن هذا تحييراً فيه .

ولو قال قائل : كيف لا يَقْدِرُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ، وإنما هو لسانُ العرب ، فمن شاء ساق^(٨)] كلاماً بهذه اللغة ، فكيف لا يمازجُهُ ولا يُدَانِيهِ [.

وهذا هوس^(٩) وكلام المنهوكين^(١٠) الذين أَعْيَنُهُمْ في غطاءٍ عن

(١) الثقلان : الإنس والجن .

(٢) نذارة : إنذار .

(٣) تحضيض : حث على الأمر .

(٤) تَنْدِيبٌ : نَدْبٌ ودعوة إلى الأمر .

(٥) الإسراء (١٧ / ٨٨) .

(٦) الظهير : المعين والملاحق .

(٧) عيى [ج] وهو تحريف خطير .

(٨) من هنا إلى آخر ما بين المعقوفين ساقط من [ب] مثبت في [أ] ، ج .

(٩) هوس : طرف من جنون .

(١٠) المنهوكين : المعتلين المهزولين . وربما تكون المنهوكين بالتاء وهم المتحيرون ،

فلعل هذا يكون تصحيحاً .

ذِكْرِهِ . وإنما معرفتهم رَبِّهِمْ على السِتِّهِمْ .

وإنما عجزت الجن والإنس عن تأليف مثله ؛ لأنَّ جميع الكلام الذي أبرزه ربُّ العالمين للعباد إنما هو تسعٌ وعشرون حَرْفاً وَضَعَ في كل حرف أمراً من أموره ، وأعلم خَوَاصَّهُ بذلك من الأنبياء ، وخاصُّ الأولياء ؛ فَمَنْ دام على ذلك الأمرِ وخالصه وصفاه ، فاستوجب هذا النور الأعظم الذي إذا أشرق في صَدْرِهِ ، وطالع ما في حَشْوِ كُلِّ حَرْفٍ من هذه الحروف فعندها يَعْقِلُ تَأْلِيفَ رَبِّ العالمين .

قال له قائل : اشرح لنا شيئاً نفهم به بَعْضَ ما وَصَفْتَ .

قال : نُبَيِّنُ ذلك في قوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ : ففي الباءِ بَهَاوُهُ^(١) ، وفي السين سَنَاوُهُ^(٢) ، وفي الميم مَجْدُهُ ؛ فمن أُعْطِيَ في قلبه سِراجاً فَأَتَنَرَ ذلك السراجُ في صَدْرِهِ عَايَنَ فُؤَادَهُ ذلك البَهَاءَ والسناءَ والمَجْدَ ، وعَايَنَ ما أُجْرَى إليه ربُّ العالمين من بهائه وسنائه وَمَجْدِهِ ؛ فَأَوْصَلَ إليه في دينه ودُنياه ، فإذا عَايَنَ فُؤَادَهُ ذلك كان كمثلِ مَنْ وَضَعَ بين يديه حُقَّةً^(٣) وقد علم أنه فيها جوهر ثمين نفيس يَخْطَفُ الأبْصَارَ تَلالُاً فيضيءُ القلوبَ شغواً به ، فهو في ذلك حَيْرَانٌ لا يَلْتَذُّ ولا يُبْهَجُ^(٤) به ، لأنه سكران أو نائم ؛ فالسكرانُ والنائمُ لا حَظَّ لهما من اللذة والبهجة ؛ فإذا رَفَعَ عن الحُقَّةِ رأسها^(٥) ، وتلألاً ذلك الجوهرُ في

(١) بهاؤه : حسنه وجماله .

(٢) السناء : الرفعة .

(٣) الحقة : الرعاء من الخشب .

(٤) يُبْهَجُ : يبتهج ويغتنبط به .

(٥) رأس الحقة : غطاؤها .

وَجْهَهُ يَكَادُ يَخْطَفُ بَصَرَهُ ؛ وَسَبَى قَلْبَهُ ؛ فَإِذَا رَأَى اسْمَهُ مَنْقُوشاً عَلَى ذَلِكَ الْجَوْهَرِ كَادَ يَنْصَدِعُ^(١) قَلْبُهُ فَرَحاً وَسُروراً بِمَا أَطَّلَعَ مِنْ حَالِهِ عِنْدَ الْمَلِكِ .

قال له قائل : زِدْنَا فِي شَرْحِهِ .
قال : نَزَلَ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ كَلَامَهُ تَنْزِيلاً ؛ فَهُوَ كَلَامٌ مُؤَلَّفٌ مُحْشَوٌّ كُلَّ حَرْفٍ بِمَا فِيهِ حَشَاءٌ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ بِهِ ، ثُمَّ أَنْزَلَهُ ، فَلَوْ عَقَلْتَ هَذَا لَدَهَشْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْمُوَ إِلَى حَشْوِهِ .

مثل الناظر إلى حروف القرآن

مَثَلُ النَّازِرِ إِلَى حُرُوفِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَدَّ شَوْقُهُ إِلَى حَبِيبٍ غَائِبٍ ، فَوَجَدَ لَهُ كِتَاباً بِخَطِّهِ ؛ فَهَاجَ شَوْقُهُ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى آثَارِ أَصَابِعِهِ وَصُنْعِ يَدِهِ فَالتَذُّبُهَا ، فَسَكَنَ إِلَى وَجُودِ لَذَّتِهِ سَاعَةً ، وَتَقَطَّعَ أَيَّامُ شَوْقِهِ ، فَكَذَا الْمَشْتِاقُ إِلَى لِقَائِهِ إِذَا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى خَطِّ الْحُرُوفِ ، وَتَرَاءَى لَهُ بُدُوُّ هَذِهِ الْحُرُوفِ مِنْ عِنْدِ مَلِيكِهِ ، وَالْمُجْرَى مِنَ الْوَحْيِ إِلَى صَدْرِهِ وَمُسْتَوْدَعُهُ وَهُوَ الْحِفْظُ الَّذِي قَدْ قُرِنَ بِالْعَقْلِ ، وَأَوْثَمَنَ عَلَيْهِ ؛ وَالتَّذُّبُهَا^(٢) ، وَسَكَنَ غَلِيَانُ شَوْقٍ مَنْ لَا يَجِدُ إِلَى مَا وَجَدَ مِنْ آثَارِ كَلَامِهِ ، وَهُوَ تَأْلِيفُ تِلْكَ الْحُرُوفِ قَوْلاً ثُمَّ كَلَاماً ، فَإِنَّهُ قَالَ وَتَكَلَّمَ .

قال له قائل : ما هذا ؟

قال : القول وهو تَرْجِيعُ الصَّوْتِ ، فَذَلِكَ التَّرْجِيعُ هُوَ الْقَوْلُ مَاخُذٌ مِنَ الْإِقَالَةِ وَالْقِيلُولَةِ ؛ وَالْكَلَامُ هُوَ سُلْطَانُ تَكَلُّمِ الْقَلْبِ ؛ أَيْ يُؤَثَّرُ

(١) ينصدع قلبه : يتفطر وينشق .

(٢) التذُّبُهَا : تلذُّذ واستمتع بها .

عليه ، ولذلك سميت الجراحة كَلْماً ، لأنه لا بُدَّ مؤثر فيها^(١) .

مثل التالي كتاب الله من غير تفهم

ومثلُ التالي كتاب الله من غير تَفْهَم ولا تَدَبُّر كمثل رَجُل جمع الحلي من أناس عارِيَّة ، وفيها جواهر نَفِيسَة مُثْمَنَة^(٢) ، فجعلها في صُرَّة ثم عَلَّقَهَا في عُنُقِهِ كهَيْئَة جَرَسِ البعير ؛ فذلك الصوتُ من الجرس كائن ، والجرس مِثلُ عظيم الثمن بجَوْهره ، فماذا له من تلك الجواهر ؟ وماذا له مِنْ ذلك الضوئِ إلا الإخبار بأنِّي على الطريق .

مثل من يربي القرآن

ومثل مَنْ يُرَبِّي القرآن كمثل رجل آوَى يتيماً إلى منزله وكَفَّلَهُ وكساه وأطعمه وسَقَاه ، وَنَزَّهَهُ^(٣) ، وَنَقَّاه ، وَوَقَاه من الآفات والأدناس ، وجعل حِجْرَهُ له^(٤) حواءً فهو يَغْسِلُهُ بيده ، وَيَنْقِيهِ كما لولده ، ويرشفه ، ويقوم عليه في جميع أحواله ؛ فلا يزال دَابَهُ^(٥) معه ؛ يترَبَّى هذا اليتيمُ في حِجْرِهِ إلى أَنْ يُدْرِكَ ، فإذا أدرك فَعَرَفَ تَرْبِيَتَهُ فشكر له وقام له بالبنوة ؛ يَحْمِي عنه في كل مكان ، وَيُذَبُّ عنه ، ويدفع عنه ، ويربيه في وَقْتٍ ضَعْفِهِ وَكِبَرِ سِنِّهِ .

(١) لأنه يؤثر منها [ج] وهذا تحريف خطير .

(٢) مِثْمَنَة : مبيعة بـثمن معين ، وثمنت الشيء جعلت له ثمناً بالحدس والتخمين .

(٣) وترضه [ج] وهذا تحريف .

(٤) الحواء : جماعة البيوت المتقاربة .

(٥) دَابَهُ : شأنه وعادته .

وآخر رام تَرْبِيَةَ هذا اليتيم فأدخله بيته ساعةً من نهار ، فأعطاه كِسْرَةَ خُبْزٍ وشيئاً من عِنب ، ثم أَخَذَ بيده وأَقَامَهُ على قَارِعَةِ الطريق ؛ فإذا أدرك هذا اليتيم مَدَرَكَ الرجال قُلٌّ ما يلتفتُ إلى هذا ، وإنما يعرف له بَقْدَرٌ ما رأى من تلك الكسرات والعناقيد .

فكذا مَنْ قرأ كلامَ الله عز وجل في كل يوم ورِداً أو جُزْءاً ، ثم وضعه في ناحية من بيت ، ولم يَقم بين يديه ، فالقرآن في زماننا كاليتيم الذي ليس له مأوى مُلَقًى على قارعة الطريق ، لا يُؤَبِّه به ، ولا يتكفَّل أحدٌ بتربيته ؛ فالمُحْسِنُ من أهل هذا الزمان كمن أدخل اليتيم في بيته ساعةً ، فأطعمه شيئاً وسقاه ، ثم أعرض عنه وترك كفالته .

فالقرآن إنما يَلِجُ صدوراً طاهرة نَقِيَّةً ، فإذا لم يجد تلك الصدور فهو كاليتيم الذي لا يجدُ كَفِيلاً ولا مأوى . وقد قال جَلٌّ ذِكْرُهُ^(١) : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ . قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ .

قال : كتابٌ مُبِينٌ من الله الحروف المؤلفة التي تضمنت المعاني ، والنور كسوة تلك الحروف أهداها رَبُّ العزة إلى هذه الأمة ، قد تَضَمَّنَهَا الْوَحْيُ حتى أوصلها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وَتَلَقَّتْهَا الْأَذْهَانُ والعقول ، وأخذتها منه ؛ قال جَلٌّ ذِكْرُهُ^(٢) : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . فالتذكرة كدفتر حساب ؛ [يرجع إليه]^(٣) في كُلِّ يوم وساعة ، إذا أصبح ينظر فيه فيدبر أمره من التذكرة مما أحكمه ورده

(١) المائدة (١٥/٥) .

(٢) الحاقة (٤٨/٦٩) .

(٣) مكانها مطموس في [أ] وبياض في [ب] [ج] .

إلى الديوان الأكبر الذي فيه جملةُ حسابِ تجارته ، فالمتقي ينظر فيه كلَّ يوم يتبدر أمره فيه ومنه ، ويقابلُ أموره مما أمر الله فيه ، ويسويهِ ويتلافى ما ضاع منه وما قصّر فيه ؛ ثم يُؤدّيه إلى ديوانِ الله عز وجل ، وهو اللّوح المحفوظ .

ثم قال (١) : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .
 فإذا رأى الكافرُ ما يصنعُ القرآنُ بأهله من الثناء عليهم بين يدي الله عز وجل ، ونظر إلى كرامة الله على أهل القرآن صار ذلك كله حسرةً عليه ، وتقطع قلبه حسرات .

ثم قال (٢) : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ ؛ أي هذا القرآن من حق اليقين ؛ أي كما أعطيتكم من نور المعرفة ، فاستقرت قلوبكم ، وأيقنت برؤييتي وبوحدانيتي فاطمأنت نفوسكم بي ، وآمنت ، كان من حق ذلك اليقين علينا أن أنزل كلامي إليكم لتسكن به تلك الصدور التي استقرّ اليقين في تلك القلوب فيها ، ويُجاوره بأحسن المجاورة ، فهذا حقه ، ويساكنه في مُستقره ، فاليقين في القلب ، وكلامي في الصدور ، وهو ساحة اليقين ؛ فذلك حقّ اليقين .

مثل من يقرأ القرآن من غير تدبر

وَمَثَلُ مَنْ يَقْرَأُهُ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ كَجَرَسٍ عَلَى بَعِيرٍ ، فَالسَّائِقُ لِلْجِمَالِ تَسِيرُ مِنْ أَمَامِهِ (٣) بصوت ذلك الجرس لثقلتها ، ليس عندهم إلا ذلك الصوت في أسماعهم .

(٣) فالسابق .. من أمامها في [ب] .

(١) الحاقة (٥٠/٦٩) .

(٢) الحاقة (٥١/٦٩) .

مثل التالي لكتاب الله

ومثلُ التَّالِي لكتابِ اللَّهِ تعالى مثل رَجُلٍ طاهرٍ طَيِّبٍ ، له محبوب له حَينٌ إليه أَخَذَ حُبُّهُ قَلْبَهُ ، وَهُوَ بِهِ مشغوفٌ ، يَمْضُغُ شيئاً في فمه ، فإذا وجدَ ذلك الشيءَ في فمه كيف يلتذُّ به ؟ وكيف يَجِدُ حلاوته في حَلَقِهِ وَصَدْرِهِ ، فلا يَمَلُّ مِنْ مَضْغِهِ وَازْدِرَادِ^(١) رِيقِهِ بذلك الشيءِ ، فكذا التَّالِي لكتابِ اللَّهِ تعالى إذا فَكَّرَ أَنَّ هذا كلامَ تَكَلَّمَ به ربُّ العالمين ، وَأَنْزَلَهُ ، ومَكَّنَ له في صَدْرِي^(٢) حتى تَرَدَّدَ واستقرَّ ؛ وأَقْدَرَنِي على استخراجِهِ مِنْ صَدْرِي حتى اختلجَ به لِسَانِي ، مُسْتَعِيناً بِالْحَنَكِ وَالْأَسْنَانِ وَالشَّفَتَيْنِ ، فَتَرَدَّدُ كَلِمَةُ الْمَنْزُلِ الَّذِي تَكَلَّمَ به ، وَأَنْزَلَهُ فيما بين صَدْرِي وَشَفَتِي ، وَقَرَّتْ عَيْنُهُ بهذه الفكرة والتدبُّر ، وابتدأ بتردها في فمه وَلِسَانِهِ وَحَلَقِهِ وَشَفَتَيْهِ ، هذا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَشْتَغَلَ بِلطائفِهِ ومعانيهِ ، قال اللَّهُ عز وجل^(٣) : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ، وقال^(٤) : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ . وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾^(٥) وَمُهِيمٌ^(٦) ؛ فوصفَ كَلَامَهُ بِالكَرَمِ وَالْمَجْدِ وَالْعِزِّ وَالْهِيمَةِ .

فأما كَرَمُهُ فَمِنْ سَهولته الممزوجة بِاللُّطْفِ والتَّقَرُّبِ والتَّعْلِيلِ .

-
- (١) ازدراد لريقه : بلعه .
(٢) كذا ورد بالأصول .
(٣) الواقعة (٧٧/٥٦) قال ابن عباس : هو اللوح المحفوظ عن قوله تعالى : (في كتاب مكنون) وقال مجاهد : هو المصحف الذي بأيدينا .
راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٢٥/١٧) بتصرف .
(٤) البروج (٢١/٨٥) .
(٥) فصلت (٤١/٤١) راجع القرطبي (٣٦٧/١٥) ط . دار الكتب المصرية .
(٦) لقوله تعالى : - ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ المائدة (٤٨/٥) راجع تفسير الطبري (٣٨٤/١٠) .

وَأَمَّا مَجَادَّتُهُ فِيهِ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ . وَأَمَّا عِزُّهُ فِيهِ شَرَفُ الْأَلْفَاظِ . وَأَمَّا هَيْمَتُهُ فِيهِ نَفْيُ الْأَشْبَاهِ وَنَزَاهَةُ الْقُلُوبِ .

التمثيل والتشبيه

فَإِنْ نَفَرَ نَافِرٌ مِنْ هَذَا فَقَالَ : أَلَيْسَ هَذَا تَشْبِيهِ ؟ قِيلَ لَهُ : هَذَا تَمَثِيلٌ ، وَلَيْسَ بِتَشْبِيهِ . قَالَ : وَالتَّمَثِيلُ أَنْ تَصِفَ شَيْئًا غَابَ عَنْكَ فْتَمَثِّلْ لَهُ فِي الشَّاهِدِ لِيَقِفَ عَلَى مَا يُؤَدِّي مَعْنَى الْغَائِبِ .

قَالَ : مِثْلَ مَاذَا ؟ قَالَ : جَاءَنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : لَمَّا كَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الطُّورِ ، وَرَجَعَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ رَأَوْا عَلَى وَجْهِهِ مِنَ النُّورِ وَالْبَهَاءِ مَا لَمْ يَرَوْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ؛ فَقَامَ إِلَيْهِ اثْنَا عَشَرَ سَبْطًا^(١) ، فَقَالُوا : يَا مُوسَى ، إِنَّكَ سَمِعْتَ كَلَامَ رَبِّكَ فَصَفِّهِ لَنَا . فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! إِنَّهُ لَا يُوصَفُ - قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَاتٍ - قَالُوا : فَشَبِّهْهُ لَنَا . فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! إِنَّهُ لَا يُشَبَّهُ شَيْئًا - ثَلَاثَ مَرَاتٍ - قَالُوا : يَا مُوسَى ، فَبَيِّنْ لَنَا مِنْهُ شَيْئًا نَفْهَمَ . قَالَ : سَمِعْتُ كَلَامَ رَبِّي لَا رِيبَةَ فِيهِ^(٢) وَلَا شُبْهَةَ كَأَشَدِّ رَعْدٍ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي أَشَدِّ صَوَاعِقِ خَلْقِهَا اللَّهُ فِي أَحْلَى حَلَاوَةِ مَنْطِقٍ ، مَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ قَطُّ . فَقُلْتُ : يَا رَبِّ ، أَهَكَذَا كَلَامُكَ ؟ قَالَ : لَا ، يَا مُوسَى ، إِنَّمَا كَلَّمْتُكَ بِقُوَّةِ عَشْرَةِ آلَافِ لِسَانٍ ، وَلِي قُوَّةُ الْأَلْسُنِ^(٣) كُلِّهَا ، وَلَوْ كَلَّمْتُكَ بِكُنْهِ^(٤) كَلَامِي لَمْ تَكُ شَيْئًا .

(١) أسباط وسبط : وهم القبيلة من اليهود .

(٢) لا ريبة : لا ارتياب ولا شك .

(٣) الألسن : الألسنة ، راجع ابن كثير في تفسيره (١/٤٢٧) .

(٤) كنه الشيء : حقيقته .

رُوي عن الحُوَيْرِثُ أَنَّهُ قَالَ : كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَدْرِ مَا أَطَاقَ ، وَلَوْ كَلَّمَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ لَمْ يُطِيقْ ؛ فَلَيْسَ هَذَا بِتَشْبِيهِ ؛ فَقَدْ عَلِمَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَرَفُوا اللَّهَ صِدْقاً وَيَقِيناً أَنَّ كَلَامَهُ لَا يَشْبَهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ ، وَلَكِنْ حَلَاوَةُ الْكَلَامِ ، وَبَرَكَةُ (١) الْكَلَامِ ، وَذَوْقُ (٢) الْكَلَامِ ؛ وَاصِلٌ إِلَى قُلُوبِ الْمُوحِّدِينَ ، فَهَيَّجَ أَنْوَارَ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ مِنْ مَعْدِنِهَا (٣) ، ثُمَّ أَخْلَصَ إِلَيْهَا مِنَ الْحَلَاوَةِ وَالْبَرَكَاتِ وَالذَّوْقِ . وَلِكُلِّ هَيْجٍ مَعْمَلٍ ، وَلِكُلِّ مَعْمَلٍ ثَمَرَةٌ ، وَلِكُلِّ ثَمَرَةٍ طَعْمٌ وَلَذَّةٌ سِوَى الْمُنْفَعَةِ ؛ وَإِنَّمَا أَسْمَعَ اللَّهُ تَعَالَى كَلِمَهُ مُوسَى صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ لِاخْتِصَاصِهِ بِذَلِكَ ، فَلَوْلَمْ يَكُنْ لَهُ حَلَاوَةٌ وَلَذَاذَةٌ مَا نَفَعَتْهُ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةُ وَطَعْمُهُ وَلَذَّتُهُ .

وَرُوي فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ قَالَ : يَا مُوسَى ، إِنِّي مُتَوَفِّيكَ . قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ ، مَنْ يَغْسِلُنِي ؟ قَالَ : بِحَسْبِكَ (٤) طُهْرِي . قَالَ : يَا رَبِّ ، مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ ؟ قَالَ : الْجِنُّ وَالشَّجَرُ .

أَفَلَا تَرَى أَنَّ كَلَامَهُ قَدْ طَهَّرَهُ ، وَمِنْ دُونِ هَذَا (٥) نُودِيَ عَمَلًا .

المرأة التي في لسانها بذاء :

بلغنا أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي لِسَانِهَا بَذَاءً (٦) ، فَوَافَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى

(١) ورکه في [أ] و [ب] وهذا تحريف خطير .

(٢) وذرو الكلام [ج] يقال ذرا القوم ويذروهم أي خلقهم ويخلقهم .

(٣) معدن الشيء : أصله .

(٤) بحسبك : يكفيك .

(٥) كذا في [أ] ، [ب] وفي [ج] يؤذي .

(٦) بذاء : قبيح .

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَمْضُغُ اللَّحْمَ ، فَقَالَتْ : أَطْعِمْنِي مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَنَاولَهَا مِنَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَتْ : لَا ، إِلَّا الَّذِي فِي فَمِكَ ، فَأَخْرَجَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ فَمِهِ وَنَاولَهَا ، فَابْتَلَعَتْهُ الْمَرْأَةُ ، فَذَهَبَ عَنْهَا الْبَدَاءُ ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهَا غَضَاضَةٌ ^(١) وَعَقَافَةٌ وَحَيَاءٌ .

فَهَذَا مِنْ آدَمِيِّ أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَطَهَّرَهُ ، فَكَيْفَ بِكَلَامٍ تَكَلَّمَ بِهِ رَبُّ الْعِزَّةِ ؟ وَلِذَلِكَ قَالَ ^(٢) : ﴿ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ .

وَقَدْ قَالَ فِي شَأْنِ النَّحْلِ ^(٣) : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ .

فَالَّذِي يَلْعَقُ الْعَسَلَ يُصِيبُهُ الشُّفَاءُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ شَرَابٌ خَرَجَ مِنْ جَوْفٍ مَنْ تَذَلَّلَ لَوْحِيِ اللَّهِ ، وَسَلَكَ سُبُلَ رَبِّهِ الَّذِي سَبَّلَ لَهُ ، فَصَارَ بِذَلِكَ شِفَاءً لِلْبَدَنِ ، وَحَلَاوَةً فِي الْمَطْعَمِ ؛ فَمَا ظَنُّكَ بِكَلَامِ رَبِّ الْعِزَّةِ ؟

وَإِنَّمَا يَتَحَيَّرُ فِي هَذَا مَنْ كَانَ قَلْبُهُ سَكْرَانَ عَنِ اللَّهِ ، يُحِبُّ النَّفْسَ ، وَيُحِبُّ الشَّهَوَاتِ ؛ فَأَمَّا مَنْ أَفَاقَ مِنْ سُكْرِهِ ، وَحَيَّ قَلْبُهُ بِاللَّهِ فَانْتَبَهَ فَهُوَ وَاجِدٌ لِهَذَا .

وَكَمَا أَنَّ السَّكْرَانَ مِنَ الشَّرَابِ لَا يَجِدُ طَعْمَ الْعَسَلِ وَلَذَائِذَهُ إِذَا لَعَقَهُ . فَكَذَا السَّكْرَانَ مِنْ حُبِّ الشَّهَوَاتِ لَا يَجِدُ طَعْمَ كَلَامِ اللَّهِ وَلَا لَذَائِذَهُ ، وَلَا يَكُونُ لَهُ شِفَاءٌ لَا فِي الْفَمِ ، وَلَا فِي الْجَوْفِ ، وَلَا فِي

(١) الغضاضة : الخفض والذلة والضعفة .

(٢) يونس (٥٧/١٠) .

(٣) النحل (٦٩/١٦) .

القلب ؛ وهو عبدٌ^(١) أَبَقَ مُعَاقِبَ بِإِبَاقِهِ ؛ قال الله عزَّ وجلَّ^(٢) : ﴿ سَاصِرُفٌ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .

وكلُّ مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ أَهَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَذَلَّلَهُ وَرَمَى بِهِ فِي إِكْرَامِ نَفْسِهِ ، وَطَلَبَ عِزَّهَا وَرَفَعَتِهَا ؛ فَقَدْ عُوقِبَ بِأَنْ صَرَفَ قَلْبَهُ عَنْ آيَاتِهِ حَتَّى لَا يَفْهَمَهَا ، وَلَا يَجِدُ حِلَاوَتَهَا وَلَا لَذَائِذَهَا .

مثل التالي ولا يعلم التفسير

مَثَلُ التَّالِي كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَعْلَمُ تَفْسِيرَهُ كَمَثَلِ مَلِكٍ كَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ كِتَابًا فِيهِ أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ عَلَى تَضْيِيعِ أَمْرِهِ ؛ فَاسْتَظْهَرَهُ هَذَا الْعَامِلُ ، فَقَامَ بِبَعْضِهِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي أَوْعَدَ^(٣) عَلَيْهَا ، وَضَيَّعَ الْبَعْضَ الَّتِي وَعَدَ عَلَيْهَا ، فَأَخَذَ هَذَا الْعَامِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْرَأُ هَذَا الْكِتَابَ ، وَكَلَّمَا أَتَى عَلَى وَعِيدٍ^(٤) وَتَهَوَّلَ عَلَى النَّفْسِ طَرْبٌ^(٥) فِيهِ وَرَفَعَ صَوْتَهُ ، كَأَنَّهُ يَتَغَنَّى بِأَغَانِي السُّرُورِ ؛ وَكَلَّمَا أَتَى عَلَى طَمَعٍ وَنَوَالٍ ، وَبُشْرَى وَكِرَامَةٍ ، ذُبُلَ وَتَكَاسَلَ ؛ وَرَبَّمَا يَتَشَاءَبُ فِي قِرَاءَتِهِ ؛ فَقَرَأَهُ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ كَالْمَضْرُوعِ وَالْمَجْنُونِ ؛ فَإِنَّهُ^(٦) فِي الْقُرْآنِ أَمْرٌ وَنَهْيٌ ، وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ ، وَذِكْرُ أَنْبَاءِ الْقُرُونِ لِلطَّمَعِ وَالتَّخْوِيفِ ، وَضَرْبُ الْأَمْثَالِ ، وَذِكْرُ

(١) أَبَقَ : هَرَبَ وَيُقَالُ عَبْدٌ أَبَقَ إِذَا هَرَبَ مِنْ سَيِّدِهِ .

(٢) الْأَعْرَافُ (١٤٦/٧) .

(٣) أَوْعَدَ عَلَيْهَا : تَوَعَّدَ عَلَيْهَا وَلَا تَأْتِي أَوْعَدَ وَتَوَعَّدَ إِلَّا فِي الشَّرِّ أَمَّا الْوَعْدُ فَهُوَ فِي الْخَيْرِ .

(٤) تَهَوَّلَ : دَهْشَةُ مِنْ غَرَابَةِ مَا تَرَى مِنَ الشَّيْءِ بِمَا لَا تَتَوَقَّعُهُ .

(٥) طَرْبٌ تَطْرِبًا إِذَا تَغَنَّى ، وَقَدِيمًا قِيلَ (كُلُّ كَرِيمٍ طَرْوَبٌ) .

(٦) فَإِنْ [ج.] وَهَذَا تَحْرِيفٌ .

الآلاء^(١) ، وذكر المِنِّ واللُّطائف ؛ فإذا لم يَعْلَمْ هذا كُلُّهُ ، وَرَضِيَ من نفسه بالقراءة فقط ؛ فكأنَّه العاِمِلُ يقرأ كُلَّ يوم كتابَ الملك ، ويَتْرُكُ ما فيه من المَعاني بمنزلة رَجُلٍ يَسْلُكُ طريقاً قَفْراً يستقبله عِقَابٌ يَحْتَاجُ إلى قَطْعِهَا ، وهو أنقال الصدق في أَمْرِهِ ونَهْيِهِ ، ومَرَّةً يَسْتَقْبِلُهُ مَفَاوِزُ وهو وَعِيدُهُ ، ومَرَّةً يستقبله فَلَاةٌ مُعْطِشَةٌ وَمَجَاعَةٌ ، وهي منازلُ قَوْمٍ وَصَفَهَا في تنزيله ، ومَدَحَهُم بِهَا ، ومَرَّةً يستقبله فَضَاءٌ من الأرض فيها رِياضٌ من خُضَرٍ ، وهي ذكر النعم ، ومَرَّةً يستقبله في تلك الأرضِ بسَاتينِ ذاتُ وَرْدٍ وَبَانٍ^(٢) ويَاسَمينَ ، وهو ذِكْرُ المِنِّ ، ومَرَّةً يَهْجُمُ على أَغْرَاسٍ^(٣) في تلك البساتين ، وهي تلك الحظوظ التي هَيَأَ لَهُ من آلائِهِ ، وتلك اللطائف المذكورة ، ومرة تستقبله أَرْضٌ شَاكَةٌ مَسْبِعة^(٤) ، وهي ذِكْرُ النفوس ومكايِدِ الشيطان .

فهذا القرآنُ كائن فيه هذه الألوان ؛ فمن قرأ القرآنَ لظَهَرَهُ^(٥) مَرَّتٌ عليه هذه الأشياءُ ومَرَّ بها وهو عنها سَكْرَانٌ أو نائمٌ ، فيضطرب ويُظْهِرُ السُّرورَ في وَقْتِ الأَحْزَانِ والانكسارِ ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ في وقت الخَفْضِ والخُشُوعِ ، وَيَنْشِطُ في حال الانقباضِ ، ويتحازَنُ^(٦) في وقت السرورِ والبَهْجَةِ .

(١) الآلاء : النعم .

(٢) البان : شجر معروف .

(٣) أغراس : جمع مفردة غرس وهو المغروس .

(٤) أرض شاكة : كثيرة الشوك ، ومسبغة ، كثيرة السباع .

(٥) قرأ القرآن لظهره : غير متدبر له متأمل فيه .

(٦) يتحازن : يظهر حزناً .

مثل من يقرأ القرآن بألحان

فمثل ذلك مثل ملكٍ أمر المُنَادِي أَنْ ينادِي في الرعيّة بوعيد هائل يكادُ أَنْ تَشِيْبَ منه الرُّؤوس ، فنَادَى بنداؤ طَرْبٍ فيه وتغنّى ، وجاء بألحان السُرور ، أفليس يَمَقُّتُهُ الملكُ على ذلك وَيُغِيْظُهُ .

ولو أَنَّ رجلاً تلا هذه الآية^(١) : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ . أو تلا هذه الآية^(٢) : ﴿ فَوَرِّبْكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أو تلا^(٣) : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، ثم قال في آخر ذلك^(٤) : ﴿ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ . فهو يَرَى نَفْسَهُ في الفَرْح والمرح إلى قَرْنِهِ وَقَدَمِهِ ؛ فَرَجَعَ بقراءة هذه الآيات وطَرْبٍ ، وجاء بألحان السُرور .

ثم قرأ^(٥) : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ . ﴿ يَوْمَ^(٦) تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ؛ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ؛ فَأَخَذَ يَتَحَازَنُ ، وَيَخْفِضُ في صوته وَتَرْجِيْعِهِ ، وَيُثْنُ فِيهَا ، وَيُخْرِجُ صَوْتَهُ أَصْوَاتَ الثُّكَالِي ، وَإِذَا قرأ قوله تعالى^(٧) : ﴿ يَوْمَئِذٍ

(١) البقرة (٢/٢٨١) .

(٢) الحجر (١٥/٩٢) .

(٣) غافر (٤٠/٧١ ، ٧٢) ويسجرون : يحرقون .

(٤) غافر (٤٠/٧٥) راجع حاشية الصاوي على الجلالين (٤/١٤) بتصرف .

(٥) الأحزاب (٣٣/٤٧) .

(٦) الحديد (٥٧/١٢) .

(٧) الحاقة (٦٩/١٨) .

تُعَرِّضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١﴾ ، يُغْنِي فِي صَوْتِهِ وَلَحْنِهِ ، وَأَرْسَلَ كُلَّ
صَوْتٍ كَالْمُتَنَشِّطِ الْمَسْرُورِ .

وَإِذَا قَرَأَ صِفَةَ الْجُودِ^(١) : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾
تَمَثَّلَ فِي تِلَاوَتِهِ كَهَيْئَةِ أَهْلِ الْمَصَائِبِ ، وَذَبُلَ وَانْكَسَرَ .

فَلَوْ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِ أَهْلِ الدُّنْيَا بَشَّرَهُ مَوْلَاهُ^(٢) بِشَيْءٍ أَوْ أَمَلَهُ
نَوَالًا^(٣) ، أَوْ أَطْمَعَهُ فِي بُشْرَى انْقِبَاضِ وَعَبَسِ وَجْهِهِ ، أَوْ إِذَا أَوْعَدَهُ أَوْ
وَبَّخَهُ فِي شَيْءٍ انْبَسَطَ وَضَحِكَ فِي وَجْهِهِ - لَمَقَّتَهُ^(٤) ؛ وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا قَالَ
فِي مَوْلَاهُ سُوءًا فَلَفِظَ بِهِ الْعَبْدُ عَلَى الْجَهْرِ وَالتَّصْرِيحِ لَمَقَّتَهُ ؛ فَإِذَا تَلَا
التَّالِي تِلْكَ الْمَقَالَاتِ الَّتِي حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَعْدَائِهِ مِنَ الْفَرَاغَةِ جَهَرَ
بِهَا وَطَرَّبَ بِهَا خِيفَ عَلَيْهِ الْمَقْتُ .

قراءة السلف :

وَرُوي عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كَانَ إِذَا مَرَّ بِقَوْلِهِ^(٥) :
﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ، خَفَضَ صَوْتَهُ .

وَرُوي عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ أَنَّهُ قَرَأَ سُورَةَ الْفُرْقَانِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ،
فَكَانَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِذَا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ^(٦) : ﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ - سَقَطَ

(١) الرحمن (٦٠/٥٥) راجع تفسير أبي السعود (١٢٧/٥) .

(٢) المولى : السيد .

(٣) نوال : عطاء .

(٤) المقت : البغض والكراهية .

(٥) البقرة (١١٦/٢) راجع تفسير الإمام الطبري (٥٣٩/٢) .

(٦) الفرقان (٦٠/٢٥)

راجع حاشية الصاوي على الجلالين (١٦١/٣) وما بعدها .

مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ، فَتَعَاهَدُوا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً - كلما بلغ هذه الآية سَقَطَ ، ولم يقدر أن يجاوزها .

هكذا صفة الْمُتَّبِعِ لما يَتْلُو ؛ فمن اتبع لتلاوته وقراءته لِبَطْنِهِ ^(١) ؛ فإذا أَتَى على مثل هذه الآية انقطع صَوْتُهُ ، وتراجع في حَلْقِهِ ، وإذا أَتَى على الْعِقَابِ أَعْيَا ، وإذا قطع الْمَفَاوِزَ عطش وَنَصَبٌ ^(٢) ، وإذا قطع الْبَسَاتِينَ وَالرِّيَاضَ طَرِبَ ، وإذا طَعِمَ الْأَغْرَاسَ سَكَرَ ؛ لِأَنَّ الْأَشْرِبَةَ الصَّافِيَةَ الصَّرْفَةَ كائِنَتْ فِي الْأَغْرَاسِ ؛ فَذَلِكَ وَقْتُ الْوَلَةِ ^(٣) إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَهَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ ، وإذا أَتَى على أَرْضٍ شَاكَةً ^(٤) أَنَّ وَضَاقَ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ ، وإذا أَتَى على أَرْضٍ مَسْبُوعَةٍ ^(٥) أَرْعَدَ خَوْفًا ، وإذا أَتَى على بَلَاءِ الْعَدُوِّ تَحَيَّرَ وَاسْتَغَاثَ وَصَرَخَ إِلَى رَبِّهِ ؛ فَهَذِهِ أَحْوَالُ كَائِنَةٍ فِي قُلُوبِ الْمُتَّبِعِينَ الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ لِبَاطِنِهِ ، فَتَحَوَّلَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى تَحَوُّلِ مَعَانِي مَا يَتْلُونَ ؛ وَرَبَّمَا هَالَهُمْ فِي تِلْكَ الْفَلَاةِ لَا يَحْطُونَ فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ أَثْقَالَهُمْ ؛ فَإِذَا نَزَلُوا اسْتَرَاخُوا ؛ وَذَلِكَ لَطْفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَلْطَفُ بِهِ عَبْدُهُ لَمَّا يَرَى مِمَّا حَلَّ بِقَلْبِهِ مِنَ النَّصَبِ وَالتَّعَبِ فِي قَطْعِ هَذَا الطَّرِيقِ عَلَى مَا وَصَفْنَا ، فَفَتَحَ لَهُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْآيَاتِ ، وَيُشْرِقُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ نُورِهِ فَيَرَدُّ تِلْكَ الْآيَاتِ ، فَرَبَّمَا بَقِيَ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ سَاعَاتٍ لَمَّا يَتَرَاءَى ^(٦) لَهُ فِيهَا ؛ فَذَاكَ مُسْتَرَاخٌ ^(٧) قَلْبِهِ ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ يَحْطُ رَحْلُهُ ، وَيَحُلُّ بِفَنَائِهِ حَتَّى يَقْوَى .

(٢) النصب : التعب الشديد .

(٤) أرض شاكاة : كثيرة الشوك .

(١) كذا بالأصول .

(٣) الوله : الحب الشديد .

(٥) أرض مسبوعة : كثيرة السباع .

(٦) يتراءى : يظهر فيها .

(٧) مستراح قلبه : راحته .

في التوراة :

وروي عن مالك بن دينار رحمه الله ؛ قال : قرأت في التوراة : لا تعجزن أن تقوم في صلاتك بين يديّ باكياً ، فإنني أنا الله الذي اقتربت لقلبك ، وبالعُيب رأيت نوري ؛ فهذه خانات ومنازل أولئك القوم تُهيأ لهم نُزلاً من النور حتى تتراعى لهم معاني تلك الآيات وبواطنها ، فيتلذذون بها ، ويستريحون من التعب الذي لحقهم فيما تَلَوْا قَبْلَ ذلك ؛ وإنما^(١) مروا بتلك الآيات بعد ذلك مرةً أخرى فلم يُصِبهُم تعبٌ ولا نَصَبٌ كما كان قبل ذلك ، فطمعوا في حطّ الرّحال لما كانوا وجَدوه قَبْلَ ذلك ، فداروا عليها ، وردّوها يُريدون حطّ الرّحال من غير إعياء ، واستراحةً من غير نَصَبٍ ، يطمعون في إشراق ذلك النور تلذّذاً بِفناء الملك الكريم ، فيجدون تلك الخانات لم تُهيأ لهم نُزلاً ، إنما هي أَواري^(٢) خالية ، وبيوتٌ صُفّر^(٣) ، فيرتحلون ويمضون . وإذا هُمَّىء النُّزُلُ فقد وجَدُوا ما طلبوا ، فإذا ردّوها تراءى للقلب شعاع ذلك ، فالتهب النُّورُ ، وتُصوّرت تلك المعاني المُندرجة فيه على قلبه ، فصار طرباً في سمعه ، فأعلمه وأبكاه .

فإذا لم يعلم هذا كلّهُ ، ورَضِيَ من نفسه بالقراءة فقط فكان كعامل يقرأ كلّ يوم كتابَ الملك ويترك ما فيه من المعاني .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما أنزل الله

(١) لعله ربما [حاشية ب] .

(٢) الأواري : جمع آري وهو معلق الدابة أو محبسها .

(٣) صفر : خالية .

تعالى كتاباً إِلَّا أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ تفسيره ؛ فمن قرأ القرآن ولم يعلم تفسيره فهو أُمِّي .

وقال سَعِيد بن جُبَيْر رحمه الله : مَثَلُ مَنْ قرأ القرآن ولم يعلم تفسيره كمثل رجلٍ جاءه كتاب من أعز الناس إليه ، يفرح به ويطلب مَنْ يقرؤه عليه ، فلم يجد وهو أُمِّي ؛ ففرح بالكتاب ولا يَدْرِي ما فيه فهكذا مَثَلُ مَنْ يقرأ القرآن ولا يعلم تفسيره وما فيه .

مثل صاحب الأخلاق

ومثل صاحب الأخلاق مثل [٥٣] مَلِكٍ له خزانة وقُود ومَمْلَكة ، فإن كانت الخزانة قليلة كنوزها ، وكُورَتِه^(١) صغيرة ضاق به هؤلاء القُود ؛ وقال بعضهم لبعض : هذا ملك له اسمُ الخزانة والكنوز ، وليس لكنوزه مادةٌ يُجْرِي علينا ويُغْنِينا حتى نَتَّخِذَ عُدَّةً للعدو الذي هو بِمَرْصَدٍ مِنَّا وَمِنْ ملكنا هذا ، وليست له مَمْلَكة فسيحة نَتَشَرُّ فيها ، فَيَأْخُذُ كُلُّ قَائِدٍ مِنَّا نَاحِيَةً من المملَكة ، فيتملِّك على أهل ناحيته ؛ وَقُوَّةُ الملوك في الخزائن الجَمَّة^(٢) ، وبالكنوز والجوهر والقُود ، وحسن التدبير في هَذَيْنِ ، فيدبِّر أمره وأمورنا بِحُسْنٍ ما عنده من الكياسة^(٣) ، فيدبِّر علينا كنوزه وَقْتاً وَقْتاً ، وشَهْراً شَهْراً ، ويُعِدُّ جواهره للنوائب العِظَامَ ، فلا نرى ها هنا عُدَّةً ولا فُسْحَةً ؛ فتعالوا نَتَّقِلْ عن هذا إلى

(١) الكورة : الصقع أو المدينة .

(٢) الخزائن الجمة : الكثيرة .

(٣) الكياسة : الفطنة والمروءة .

مَلِكٍ لِمَمْلَكَتِهِ فُسْحَةٌ وَمُتَشَشِرٌ ، تَتَسَّعُ فِي نَوَاحِيهَا ، وَنَعْمَلُ لِلْقِيَادَةِ ؛
 فَيَعُودُ الْجَنْدُ إِلَى مَلِكٍ لَهُ كَنْوَزُ جَمَّةٍ ، وَلِكَنْوَزِهِ مَادَّةٌ مِنْ غَلَّاتِ
 الْمَمْلَكَةِ ، فَلَهُ كَنْوَزٌ وَأَمْصَارٌ^(١) وَقُرَى وَبَرٌّ وَبَحْرٌ ، كَمَلِكِ الْهِنْدِ وَالرُّومِ
 وَالْعَرَبِ ؛ مَا نَصْنَعُ بِهَذَا الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ ؟ يَطْلُبُونَ مَلِكاً بِتِلْكَ الصِّفَةِ ،
 وَلَا يَثْبُتُونَ مَعَ هَذَا ؛ فَالْمَلِكُ هُوَ الْقَلْبُ ، وَخَزَانَتُهُ فِي جَوْفِ الْقَلْبِ ،
 فِيهِ كَنْوَزُ الْمَعْرِفَةِ ، وَجَوَاهِرُ الْعِلْمِ بِاللَّهِ ، وَالْعَقْلُ وَزِيرُهُ ، وَالصَّدْرُ
 فَسَحْتُهُ ، وَسَاحَتُهُ وَمَمْلَكَتُهُ ؛ وَالْأَخْلَاقُ قُوَادُهُ ، وَالْأَرْكَانُ رَعِيَّتُهُ ؛ وَهِيَ
 الْجَوَاهِرُ السَّبْعُ ؛ فَهَؤُلَاءِ الْقَوَادُ قَدْ أَحْدَقُوا^(٢) بِالْقَلْبِ فِي هَذَا الصَّدْرِ ،
 وَأَطَافُوا بِبَابِ الْقَلْبِ بَيْنَ عَيْنِي الْقُوَادِ ؛ فَإِنَّ الْقُوَادَ هُوَ مَا ظَهَرَ مِنْ
 الْقَلْبِ ، وَالْقَلْبُ مَا بَطَّنَ ، وَالْقَلْبُ بَعْضُ فِي بَعْضٍ ، وَالْعَيْنُ عَلَى
 الْقُوَادِ ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى^(٣) : ﴿ مَا كَذَبَ الْقُوَادُ مَا رَأَى ﴾^(٤) . وَقَوْلُ
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ أَلَيْنُ قُلُوباً ، وَأَرْقُ
 أَفئِدَةً^(٥) . فَوَصَفَ الْقَلْبَ بِاللِّينِ ، وَالْقُوَادَ بِالرَّقَةِ .

فَالْأَخْلَاقُ فِي الصَّدْرِ قَوَادُ الْمَلِكِ ، قِيَامٌ بَيْنَ عَيْنِي الْقُوَادِ ، وَالْعَقْلُ
 شُعَاعُهُ ، يُشْرِقُ بَيْنَ عَيْنِي الْقُوَادِ ، وَيُدْبِرُ أَمْرَ الْقَلْبِ . وَالنَفْسُ فِي

(١) الأمصار : جمع مصر وهي البلد .

(٢) أحدقوا : أحاطوا به واحتشوه .

(٣) النجم (١١/٥٣) .

(٤) يقول الإمام القرطبي رحمه الله : - « أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه
 وسلم ليلة المعراج ، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه سبحانه
 وتعالى ، وجعل الله تلك رؤية » اهـ .

الجامع لأحكام القرآن (٩٢/١٧) .

(٥) الحديث يروى بزيادة (الفقه يمان والحكمة يمانية) وقد أخرجه الشيخان والترمذي
 عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٦/١) .

الجوف رَابِضَةٌ^(١) في مكان مَظَانِّهَا ، والهوى يَبَابِ النَّفْسِ يَتَلَهَّبُ
وَيَتَلَطَّى^(٢) بين يدي بَصِيرَةِ النفس ؛ فإذا خَطَرَتِ الْخَاطِرَةُ فِي الصَّدْرِ
بين عيني الْفَوَادِ نَظَرَ الْعَقْلُ ؛ فَإِنْ رَأَاهَا حَسَنَةً وَأَمْرًا رَشِيدًا قَدَّرَ وَدَبَّرَ مَاذَا
يُرَادُ ؟ وَكَمْ يُرَادُ ؟ وَمَتَى يُرَادُ ؟ وَإِلَى مَتَى يُرَادُ ؟ وَإِنْ رَأَاهَا سَيِّئَةً وَغَيًّا^(٣)
نَفَاها عَنِ الصَّدْرِ ؛ ففي هذا الوقت للنفس مُنَازَعَةً مع القلب وَلِلْهَوَى مع
الْعَقْلِ .

في هذه الْخَاطِرَةُ النفسُ تَشْتَهِي ، والهوى يُزْعِجُ^(٤) النَّفْسَ
وَيُشْجِعُهَا ، والعدوُّ يُزَيِّنُ بِمُنَى وَيُغْرِي ؛ فإذا جَاءَ مَدَدُ الْأَخْلَاقِ بَطَلَتْ
زِينَةُ الْعَدُوِّ وَأَمَانِيهِ ، وانكشف غُرُورُهُ ، وارتدَّ الْهَوَى قَهْقَرَى إِلَى مَعْدَنِ
مُهْتَبَةٍ ، وجاءَ مَدَدُ الْكُنُوزِ : كنوز المعرفة ، ومدد الملك يَدَهُ إِلَى جَوْهَرِ
الْخَزَانَةِ فَانْمَحَقَتْ^(٥) الْخَاطِرَةُ وَأَسْبَابُهَا ، وَمُعْتَمِلُهَا ، وَجُنُودُهَا .
وطليعةُ الْخَاطِرَةِ النفسُ الْعَدُوُّ إذا كانت خَاطِرَةُ غِيٍّ ، وَإِنْ كَانَ رَشْدًا
كانت طليعَتُهُ الْخَاطِرَةُ الْحَقُّ ؛ فعزُّ هذا الْمَلِكِ وَمَنْعَتُهُ وَقِيَامُ^(٦) مَمْلَكَتِهِ
بهذه الْكُنُوزِ وَالْقَوَادِ ، وكذلك عِزُّ الْقَلْبِ ، وَمَنْعَتُهُ بِكُنُوزِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ
تَعَالَى ، وَجَوَاهِرِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وبهذه الْأَخْلَاقِ الَّتِي أَحْدَقَتْ^(٧)
بِالْقَلْبِ بَيْنَ عَيْنِي الْفَوَادِ .

(١) رابضة : ساكنة .

(٢) يتلظى : يلتهب .

(٣) الغي : الضلال .

(٤) زعجه : وأزعجه ألقاه .

(٥) محقه : دحضه ومحاه .

(٦) قوام مملكته : عمادها وملاكها ونظامها .

(٧) أحدقت : أحاطت .

أصول الأخلاق :

فالأخلاق أصولها في الطبع ، وما أدتها من المعرفة والعلم بالله تعالى ، ومُعْتَمَلها في الصدر .

فالموَحِّدُونَ هذه صِفَتُهُمْ ، والكفَّار أخلاقُهُمْ أصولها في الطبع ، ومُعْتَمَلها في الصدر ، وما أدتها في الفَرَح بِمَدْحِ الناس ، وَطَلَبِ الْعُلُوِّ والشَّرَفِ والذِّكْرِ ؛ قال الله تعالى (١) : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

فالمؤمنون تَخَلَّقُوا بِخُلُقِ الله تعالى ، وتواضَعُوا به لله تعالى ، وأرادوا (٣) به وَجْهَ الله ، وَتَقَرَّبُوا به إلى الله تعالى ، وَتَحَبَّبُوا به إلى الله .

والكفَّارُ تَخَلَّقُوا بِذَلِكَ الخلق ؛ فتكَبَّرُوا على الله تعالى ، فجاوزُوا بها الحدودَ ، ولم يَضَعُوهَا مواضِعَهَا بحَقِّه ، وتَقَرَّبُوا إلى الخَلْقِ ، وَتَحَبَّبُوا به إلى أهل العلائق ، وَتَصَنَّعُوا (٤) به ، واتخذوا جاهاً .

والأخلاقُ لها سلطانٌ ؛ فإذا وَجَدَ الخَلْقُ تَفْسُحاً سَاحَ في فُسْحَتِهِ ، فجاوزَ الحدودَ في أُمُورِهِ ، فصار مُسْرِفاً مُضَيِّعاً للحَقِّ ، وقد استمرَّ به الهوى والنفس .

والمؤمنُ يَتَخَلَّقُ بِذَلِكَ الخلق ، فإذا تَفَسَّحَ الخَلْقُ عَقْلَهُ (٥) العَقْلُ

(١) القصص (٢٨/٨٣) .

(٢) الدار الآخرة : الجنة .

(٣) فأرادوا [ج] وهو تحريف .

(٤) كذا في [أ] و [ج] وتضيعوا في [ب] .

(٥) عقله : منعه .

عن المجاوزة ، ومنَعَه عن التعَدِّي ؛ ولهذا سُمِّي عَقْلاً ؛ لأنه عَقَلَه عن الجَهِل ، وردّه إلى العِلْم الذي عَلَّمَه اللَّهُ تَعَالَى ؛ وكان الله تَعَالَى أَعْلَمُ بِذلك الأمر ، كم يُرَاد ؟ وإلى متى يُرَاد ؟ وبأيِّ مَقْدَار ؟ وإلى متى ؟ فوَكَّلَ به العَقْل حتَّى يَهْدِيَه لذلك .

أَلَا تَرَى إِلَى قولِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، حَيْثُ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كم تُنْفِقُ مِنْ هَذَا المَالِ الَّذِي حَثَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى إِنْفَاقِهِ ، وَعَظَّمَ فِيهِ الثَّوَابَ ؟ فنزلت قولُ اللهِ تَعَالَى ^(١) : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ .

والعَفْوُ : هو الفَضْل ؛ أي ما فَضَلَ مِنْ نَفْسِكَ وَعِيَالِكَ الَّذِينَ تَعُولُهُمْ .

وقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم : اِبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ^(٢) ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى ^(٣) .

وقال رجل : يَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عِنْدِي دِينَارٌ ، مَا أَصْنَعُ بِهِ ؟ قَالَ : أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ . قَالَ : عِنْدِي آخَرُ . قَالَ : أَنْفِقْهُ عَلَى عِيَالِكَ وَوَالِدَتِكَ . قَالَ : عِنْدِي آخَرُ . قَالَ : أَنْفِقْهُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى ؛ وَذلك أَذْنَاهُنْ .

فَمَنْ تَخَلَّقَ بِالسَّخَاوَةِ ^(٤) ، فَاسْتَمَرَّ بِهِ طَبْعُهُ ، وَأَعْلَنَتْهُ ^(٥) نَفْسُهُ ،

(١) البقرة (٢/٢١٩) .

(٢) من تعول : من تلزمك نفقته من عيالك .

(٣) عن ظهر غنى : ما كان عفواً وزاد عن غنى .

(٤) السخاوة : الكرم والجود والسخاء .

(٥) وأعانتها في [ج] وهو تحريف خطير .

وَمَلَكَ بِهِ هَوَاهُ ، وَزَيَّنَ لَهُ عَدُوَّهُ ، وَذَهَبَ فَأَنْفَقَ عَلَى أَبَاعِيهِ ، وَتَرَكَ أَقَارِبَهُ ، وَعَالَ^(١) مَنْ لَمْ تَلْزِمَهُ عِيَالَتُهُ ، وَضَيَّعَ عِيَالَهُ ؛ فَهَذَا فِعْلٌ مَنْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْخَلْقَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ، وَتَصَنُّعًا عِنْدَ الْخَلْقِ .

فَالْعَقْلُ يَكْشِفُ عَنْ هَذَا الْغَيْبِ ، وَمَا هُوَ أَدَقُّ مِنْ هَذَا .

الأسخياء والأجواد :

رَوَى سُلَيْمَانُ بْنُ الْحَارِثِ الْبَصْرِيُّ ، عَنْ أَبِي هِلَالِ الرَّاسِبِيِّ ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ ، قَالَ : تَفَاخَرَ رَجُلَانِ^(٢) : رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ، فَقَالَ هَذَا : قَوْمِي أَسْخَى مِنْ قَوْمِكَ . وَقَالَ ذَاكَ : بَلْ قَوْمِي أَسْخَى مِنْ قَوْمِكَ . فَقَالَ : سَلْ فِي قَوْمِكَ ، وَأَسْأَلْ فِي قَوْمِي ؛ فَافْتَرَقَا عَلَى ذَلِكَ ؛ فَسَأَلَ الْأُمَوِيُّ عَشْرَةَ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَعْطَاهُ عَشْرَةَ آلَافٍ ، وَجَاءَ الْهَاشِمِيُّ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فَسَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ مِائَةَ أَلْفٍ ، ثُمَّ أَتَى الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : هَلْ أَتَيْتَ أَحَدًا قَبْلِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [٥٤] ، وَأَعْطَانِي مِائَةَ أَلْفٍ ، فَأَعْطَاهُ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِائَةَ أَلْفٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا ؛ ثُمَّ أَتَى الْحُسَيْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : هَلْ أَتَيْتَ أَحَدًا قَبْلِي ؟ قَالَ : أَخَاكَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَأَعْطَانِي مِائَةَ أَلْفٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا ، فَقَالَ : لَوْ أَتَيْتَنِي قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَهُ لَأَعْطَيْتُكَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَمْ أَكُنْ لِأَزِيدَ عَلَى سَيِّدِي ؛ فَأَعْطَاهُ مِائَةَ أَلْفٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا .

(١) عال : من يعول أي قام به وكفله ومنها العائل والعائلة .

(٢) تفاخر رجلان : فآخر كل منهما الآخر .

فهذه سَخَاوَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ فِي الطَّبْعِ وَالنَّفْسِ ، قَدْ مَنَعَهَا الْعَقْلُ ، فَزَيَّنَ
هَذَا الْعَقْلُ مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

فَالْكُفَّارُ كَانُوا يَتَفَاخَرُونَ ، وَيُبَاهِي أَحَدُهُمْ صَاحِبَهُ بِالْأَخْلَاقِ
وَأَفْعَالِهِ ، وَيُمَارِي^(١) حَتَّى يَتَعَادَوْا مِنْ أَجْلِهِ .

مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ :

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا أَتَانَا
سَبَايَا^(٢) طَيِّءٌ تَكَلَّمَتَ فِيهِ جَارِيَةٌ جَمِيلَةٌ نَسِيْتُ^(٣) جَمَالَهَا لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ
فَصَاحَتِهَا ، فَقَالَتْ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ رَأَيْتَ أَنْ تُخَلِّيَ عَنِّي وَلَا تُشِمِتَ بِي
أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ، فَإِنِّي ابْنَةُ سُرَّةٍ قَوْمِي ، كَانَ أَبِي يَفْكُ الْعَانِي^(٤) ،
وَيَحْمِي الذَّمَّارَ^(٥) ، وَيَقْرِي^(٦) الضَّيْفَ ، وَيُشَبِّعُ الْجَائِعَ ، وَيُفَرِّجُ عَنِ
الْمَكْرُوبِ^(٧) ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَيُقَشِّطِي السَّلَامَ ، وَلَمْ يَرَدْ طَالِبٌ حَاجَةً
قَطُّ ، وَأَنَا ابْنَةُ حَاتِمِ الطَّائِي .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا جَارِيَةُ ، هَذِهِ صِفَةُ
الْمُؤْمِنِ حَقًّا ، لَوْ كَانَ أَبُوكَ إِسْلَامِيًّا لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ ، خَلُّوا عَنْهَا ؛ فَإِنَّ
أَبَاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ .

(١) يُمَارِي : يَشْكُ وَيَجَادِلُ .

(٢) سَبَايَا : أَسَارَى .

(٣) نَسِيْتُ جَمَالَهَا [ب] .

(٤) الْعَانِي : الْأَسِيرُ .

(٥) الذَّمَّارُ : مَا يَلْزِمُ الْإِنْسَانَ الْمَحَافِظَةَ عَلَيْهِ وَحِمَايَتَهُ وَالذَّبَّ عَنْهُ .

(٦) يَقْرِي الضَّيْفَ : مِنَ الْقَرِيِّ وَهُوَ الْإِكْرَامُ ، بِأَنْ يَكْرُمَ نَزْلَهُ .

(٧) الْمَكْرُوبُ : الَّذِي نَزَلَتْ بِهِ بَاقِعَةٌ أَوْ كَرْبَةٌ .

فَقَامَ أَبُو بَرْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اللَّهُ يُحِبُّ
مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ؟ فَقَالَ : يَا أَبَا بَرْدَةَ ، لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ إِلَّا بِحُسْنِ
الْخُلُقِ .

حَدَّثَنَا الْجَارُودُ ، أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ ، عَنْ الْمَسْعُودِيِّ ، عَنْ
الْقَاسِمِ ، قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : تَجِدُ الرَّجُلَ فُظًّا ، فَإِذَا بَحَثْتَهُ وَجَدْتَ
سَرِيرَتَهُ الْإِيمَانَ ، وَتَجِدُهُ حُلُوَ الْخَلَائِقِ ، فَإِذَا بَحَثْتَهُ لَمْ تَجِدْ فِيهِ مِنْ
الْإِيمَانِ شَيْئًا ، وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ جَمَعَ لَهُ حِلَاوَةَ الدِّينِ وَحِلَاوَةَ الْخُلُقِ .

الفظاظة ضد الكرم :

وَالْفَظَاظَةُ^(١) : ضِدُّ الْكَرَمِ ، فَمَنْ كَانَتْ لَهُ فَظَاظَةٌ غُلِظَ قَلْبُهُ .
وَالْكَرْمُ لِيَنَّ الْقَلْبَ وَانْقِيَاضَهُ بِمَنْزِلَةِ شَجَرِ الْكَرْمِ أَيْنَمَا قُدَّتْهُ انْقَادَ ؛ وَلِذَلِكَ
سَمِيَ جَنَّةَ الْعِنَبِ كَرْمًا .

وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ قَالَ : لَا تَقُولُوا لِلْعِنَبِ كَرْمًا ، إِنَّمَا الْكَرْمُ
قَلْبُ الْمُؤْمِنِ^(٢) ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَانَ وَرَطَبَ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِ مِنَ اللَّهِ

(١) الفظاظة : هي سوء الخلق ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ فالفظاظة هي الجفاء .

(٢) رواه الإمام مسلم برواية (لا تقولوا الكرم ، ولكن قولوا العنب والحبلة) رواه مسلم عن
واثل بن حجر ، ورواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ الكرم (إنما
الكرم قلب المؤمن) وفي لفظ عند مسلم (لا تسموا العنب الكرم ، وإن الكرم
المسلم) اهـ .

راجع كشف الخفا للعلجلوني (٥٠٢ / ٢) بتصرف .
والحديث أورده الإمام السيوطي في الجامع الصغير وصححه (٢٠٢ / ٢) ط .
العلمية .

تعالى ، وانْقَادَ لعبوديته^(١) ؛ والكافِرُ كز^(٢) قاسي القلب ، يابس كالصَّخر ؛ لأنَّ رَحْمَةَ الله لم تَنَلْهُ فَيَسَّتْهُ حَرَارَةُ النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَقَوَّاهِ التَّجَبُّرُ وَالْكِبَرُ ، فَيَسُّ وَكَزٌّ ؛ فَإِنْ كَانَ فِيهِ بَعْضُ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ فَاسْتَعْمَلَهَا ، فَبجَوهريته استعمل ، لا بمعرفة الله تعالى ، فيجاوز الحدودَ حتَّى أَفْرَطَ وَضَيَّعَ ، وَشَانَ^(٣) مَا حَسُنَ مِنْهُ .

مثل من يسبح بتسبيح غيره

وَمَثَلُ مَنْ يُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِ غَيْرِهِ مَثَلُ رَجُلٍ عَجَزَ أَنْ يُهْدِيَ إِلَى الْمَلِكِ عَلَى قَدَرِ مُلْكِهِ وَغِنَاهُ ، فَأَهْدَى إِلَيْهِ مِنْ طَاقَتِهِ وَمَقْدِرَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَهْدَيْتُ هَذَا مِنْ ذَاتِ يَدَيَّ ، وَأَهْدَيْتُ إِلَيْكَ بِقَلْبِي هَدِيَّةً مِثْلَكَ ، فَعَلِمَ الْمَلِكُ أَنَّهُ صَادِقٌ فِي مَقَالَتِهِ ، فَاحْتَسَبَهَا مِنْهُ عَلَى قَدَرِهِ ، وَجَعَلَ ثَوَابَهُ عَلَى ذَلِكَ .

فكَذَلِكَ الْعَبْدُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ إِذَا أَثْنَى عَلَيْهِ فَإِنَّمَا يُثْنِي بِمَبْلَغِ عِلْمِهِ ، ثُمَّ عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ عَاجِزٌ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الثَّنَاءِ ؛ إِذْ هُوَ فَوْقَ مَا أَثْنَى ، فَيَقُولُ : لَكَ الْحَمْدُ كَمَا حَمَدْتَ نَفْسَكَ ، وَأَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ ، وَلَكَ التَّسْبِيحُ كَمَا سَبَّحْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، وَلَكَ الْحَمْدُ زِينَةُ عَرْشِكَ وَمِدَادُ كَلِمَاتِكَ ، وَرِضَا نَفْسِكَ ؛ فَهَذِهِ الْمَعْجَزَةُ^(٤) عَنْ بُلُوغِ هَذِهِ

(١) وردت بالأصول (لعبودته) ولعل هذا تحريف من الناسخ وكلاهما بمعنى .

(٢) كز : من الكزاة وهي الانقباض ، والوجه الكز هو القبيح ، ويقال : رجل كز اليدين إذا كان بخيلاً .

(٣) مثل (ب) .

(٤) المعجزة : العجز .

الأشياء ، فجعل مقالته بالقلب كتلك الأشياء التي ذُكرت ، ولا يقدر بلسانه أن يُعبّر إلا بمبلغ علمه ؛ فربما يقبل منه كهيئة ما أحال عليه من حمده وثنائه عليه ، وكما أحب ورَضِي لنفسه ؛ وإنما أمر العبد بالثناء لعظمته ، ثم يسأل الحاجة ؛ فإذا سأل^(١) الحاجة من قبل أن يُثني فكأنه لم يُعظم الرب ، ولم يؤدِّ حقَّ العظمة .

ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا رفع الحجاب فيما بينك وبينه ، وسهل ذلك السبيل إلى نفسه ، ورَفَعَت الحوائج إليه لكان قد عَظَّمَ رُتبتك ومَنزِلتك ؛ فكيف يربُّ العالمين تعالى ؟ أفليس يجبُ عليك من ذلك الشكر ، وأوّلُ الشكر أن تُعظّمه باللسان والقلب ، ثم من بعد ذلك رفع الحجاب .

مثل النفس مثل الكرش

مثل النفس مثل الكرش^(٢) الذي فيه مُسْتَنَقَعُ البُولِ في المَثانة ؛ إذا ذَلَكْتُهُ بالأرض حتى يرقّ ، ثم نَفَخْتَ فيه حتى يمتلئ من الرِّيح ، ثم أَلْقَيْتَ فيه الزُّبُقَ ، فإذا أَصَابَتْهُ حَرَارَةٌ طَارَ ذلك الزُّبُقُ على وَجْهِ الأرض دَبِيحاً ، فإذا أَلْقَيْتَ فيه مع الزُّبُقِ رصاصةً أَمْسَكَتْهُ ؛ فكذلك الشهوات في النفس كالزُّبُقِ في تلك الجِلْدَةِ الممتلئة رِيحاً هَفَافَةً ، فإذا ثَقَلَهَا الإِيْمَانُ على القلب سكنت النفسُ عن الطِّيَاشَةِ^(٣) ؛ لِأَنَّ الإِيْمَانَ بِالرَّحْمَةِ نَالَهُ الْعَبْدُ ، وَبَرَدَ الرَّحْمَةِ يُطْفِئُ نَارَ الشَّهْوَةِ ، وَإِثْقَالُ الْعَظْمَةِ

(١) سئل [ب] وهو تحريف خطير .

(٢) الكرش : المعدة .

(٣) الطياشة : الطين والتزق وذهاب العقل والتهور .

يَسْكُنُ طَيَّاشَةَ النَّفْسِ ، كَثَقَلَ الرِّصَاصَةَ سَكَنَ تِلْكَ الْجِلْدَةَ وَالزَّقَهَا
بِالْأَرْضِ .

مثل التسبيح والثناء والقرآن مع التقوى

مَثَلُ التَّسْبِيحِ وَالثَّنَاءِ وَالْقُرْآنِ مَعَ التَّقْوَى كَمَثَلِ عَرُوسِ زَيْنَتٍ
لِلْعَرُضِ عَلَى الزَّوْجِ عَلَى رُؤُوسِ الْجَمْعِ ؛ فَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُقَلَّمَ
أُظْفَارَهَا ، وَتُنَقَّى شَعْرُهَا وَصَدْرُهَا وَعُنُقُهَا وَيَدَيُّهَا وَقَدَمُهَا مِنَ الْأَوْسَاحِ
وَالْأَدْرَانِ^(١) ثُمَّ تَحْلَى بِالْحُلِيِّ ، وَتَلْبَسَ الْأَوَانَ الثِّيَابِ زِينَةً لَهَا ؛ فَإِنْ لَمْ
تَفْعَلْ ذَلِكَ ، وَتَرَكْتَ هَذِهِ الْأُظْفَارَ وَالذَّرْنَ وَالْأَوْسَاحَ عَلَى جَسَدِهَا ،
وَحُلَّيْتُ بِالْحُلِيِّ ، وَزُيِّنَتْ بِالثِّيَابِ ، كَانَ ذَلِكَ كَاللَّعِبِ ، وَيَنْسَبُ ذَلِكَ
إِلَى فِعْلِ الْجُنُونِ وَالْعَتَاهَةِ^(٢) . فَكَذَلِكَ الَّذِي يَتَدَنَسُ بِالْمَعَاصِي ،
وَيَتَوَسَّخُ بِالْبَطَالَاتِ ، وَيَتَزَيَّنُ لِرَبِّهِ بِالثَّنَاءِ وَالتَّسْبِيحِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٣) : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ ﴾ . فَالْصَادِقُ^(٤) وَالْحَازِقُ^(٥) فِي أَمْرِهِ بَدَأَ فَتَطَهَّرَ وَأَنْقَى الذَّرْنَ
وَأَوْسَاحَ الْمَعَاصِي وَالْفُضُولِ ، ثُمَّ تَحْلَى بِالْحُلِيِّ ، وَتَزَيَّنَ بِالْحُلَلِ^(٦) ؛

(١) الأدران : الأوساخ .

(٢) العتاهة : من العته وهو نقص العقل من غير جنون .

(٣) المائدة (٢٧/٥) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣٤/٦) وما بعدها وتفسير
البيضاوي ص ١٤٩ .

(٤) فالصادق [ب] وهو تحريف .

(٥) الحاذق : الماهر البصير بدقائق الأشياء .

(٦) الحلل : جمع مفردة حلة .

فذلك فعل لَبِقَ^(١) ، فهو حاذق في فعله ؛ وإنما وُكِّلَ الأدمي في أمر دينه بِرَمِيِ الْفُضُولِ ، فأمر بِنَفْيِ الشَّرِكِ بقوله : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . وأمرَ باجتناب المحارِمِ : الظلم ، والعدوان ، والسرقة ، والزنا ، والخمر ، والكذب ، والغيبة ، وسائر الآثام ؛ فهذا كُلُّ فَضُولٍ ، ثم أمر بالفرائض ثم السُّنَنَ لِيَتَحَلَّى بها ، ثم بالتطوُّع ليتزَيَّنَ به ، فإذا لم يَرْمِ بالفضول ، وقصد قَصْدَ الزَّيْنَةِ فهو مستهزئٌ بِرَبِّهِ يسخرُ بنفسه .

مثل قلب يتردد فيه الذكر

مَثَلُ قَلْبٍ يَتَرَدَّدُ فِيهِ الذَّكْرُ مَثَلٌ عَيْنٍ لَهَا نَبْعَانِ . وفيها سَمَكٌ صِغَارٌ ، فكلما تَوَحَّلَ كَثُرَ تَرَدُّدُ السَّمَكِ ؛ فكانت ينابيعُ [٥٥] ماءٍ تلك العين أنقى ، وماؤها أَسْلَسَ . وإذا قَلَّ السَّمَكُ انْسَدَّتْ الْمَنَابِعُ لما يَجْتَمِعُ هناك من الطَّيْنِ ؛ لأنَّ ماءَ العين وإنْ كان صافياً فلن يخلو عن غُبَارٍ عند هبوب الرياح ، ولن يخلو من مُمَارَجةٍ^(٢) الأرض ؛ فإذا انسدَّت تلك الْمَنَابِعُ لم ينزَّ^(٣) الماء ، ولم يَسِلْ ؛ فكذلك الْقَلْبُ تَنَسَّدُ مَنَابِعُ الْحِكْمَةِ منه لما يَجْتَمِعُ هناك مِنْ كُذُورَةِ النَّفْسِ ، وسلطان الْهَوَى وَغُبَارِهِ ؛ فإنه لكلِّ سُلْطَانٍ جَيْشٌ وَعَسْكَرٌ ؛ فإذا سار الْجَيْشُ هاجَ الْغُبَارُ^(٤) ، فالهواءُ إذا أَقْبَلَ قَبْلَ النَّفْسِ أثار الشهوات ، فوقع في النفس هبوبُ رِيَّاحِ الشَّهَوَاتِ ، فصار هناك غُبَارٌ وَدُخَانٌ وَغَيْمٌ على قَدَرِ كُلِّ

(١) اللبِق : الظريف .

(٢) مमारجة الأرض : مخالطة وممزوجة بها .

(٣) ينز الماء : يتحلب من الأرض .

(٤) ويسمى الدهج .

شَهْوَةٌ ، فُرْبٌ شَهْوَةٌ لَهَا غَيْمٌ ، وَرُبُّ شَهْوَةٍ لَهَا غُبَارٌ ، وَرُبُّ شَهْوَةٍ لَهَا دُخَانٌ ؛ فَإِذَا جَاءَتْ هَذِهِ الرِّيحُ بُغَارُهَا وَغُيُومُهَا وَدُخَانُهَا انْسَدَّتْ يَنَابِيعُ حِكْمَةِ الْقَلْبِ ؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ مَنَبُعُهَا مِنَ الصَّدَقِ الَّذِي هُوَ صِدْقُ الصَّدَقِ ؛ فَالَّذِي يَظْهَرُ مِنَ الْعِبَادِ مِنْ بَاطِنٍ إِلَى ظَاهِرٍ هُوَ الصَّدَقُ ، وَصِدْقُ الصَّدَقِ هُوَ مِنْ بَاطِنٍ إِلَى بَاطِنٍ ، إِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْ بَاطِنِ الْقَلْبِ إِلَى ظَاهِرِ الصَّدَرِ حَتَّى تُبْصِرَهُ بِصَائِرِ النَّفْسِ ؛ فَمِنْ ذَلِكَ الصَّدَقِ تَبْدُو الْحِكْمَةُ الْعُلْيَا .

الحكمة العليا :

قال له قائل : وما الحكمة العليا ؟ قال : تلك حكمة الحكمة ، ولكل علم حكمة ، فكما أَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ فَكَذَلِكَ الْحِكْمَةُ حَكْمَتَانِ ؛ فَإِنَّمَا صَارَ الْعِلْمُ عِلْمَيْنِ ؛ لِأَنَّ عِلْمَ الصِّفَاتِ غَيْرُ عِلْمِ التَّدْبِيرِ ، وَلِكُلِّ عِلْمٍ حِكْمَةٌ ، فَحِكْمَةُ عِلْمِ الصِّفَاتِ عِلْمُ الْقُدْرَةِ ، وَحِكْمَةُ عِلْمِ التَّدْبِيرِ عِلْمُ مَلِكِ الْمَلِكِ وَعِلْمُ الرُّبُوبِيَّةِ ، فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ خَزَانَةُ اللَّهِ فِيهَا كُنُوزٌ ، وَالكَثْرُ عَلَى خَطَرِ الْغَارَةِ .

قال له قائل : وما^(١) هذا ؟ وما الكنوز ؟

الكنوز :

قال : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَى الْمَوْحِدِينَ مَعْرِفَتَهُ حَتَّى وَجَدُوهُ وَعَرَفُوهُ ، فَالْمَعْرِفَةُ كَصُرَّةٍ فِيهَا أَلْوَانُ جَوَاهِرَ ثَمِينَةٍ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ ، كُلُّ جَوْهَرَةٍ ثَمَنُهَا مِلْءُ الدُّنْيَا ذَهَباً وَفِضَّةً ، فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا

(١) ما من غير واو في [ج] .

في صُرَّة ؛ فَمَنْ تَنَاوَلَهَا ، فَقِيلَ لَهُ : هَذِهِ لَكَ ، فَكَمْ تَرَى ثَمَنَهَا ؟ قَالَ : مِائَةُ دِرْهَمٍ ؛ فَإِذَا فَتَحَهَا فَأَبْصَرَهَا اِزْدَادَ بِهَا بَصَرًا ؛ وَذَلِكَ بَصَرُ الْعَيْنِ . قِيلَ لَهُ : كَمْ تَرَى ثَمَنَهَا ؟ قَالَ : أَلْفٌ . فَلَمَّا أَبْصَرَ بَصَرَ الْعِلْمِ بِجَوْهَرِ تِلْكَ الْجَوَاهِرِ عَجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِعِلْمِ ثَمَنِهَا ؛ وَقَالَ : كُلُّ وَاحِدٍ خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ الدُّنْيَا ذَهَبًا وَفُضَّةً ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَشْفَقَ عَلَى الصُّرَّةِ كُلِّ الْإِشْفَاقِ فِي إِحْرَازِهَا^(١) وَحِرَاسَتِهَا وَحِفْظِهَا ، وَإِقَامَةِ الْمُؤَكَّلِينَ بِحِفْظِهَا ؛ وَعِنْدَهَا ظَهَرَ غِنَاهُ بِقَلْبِهِ بِتِلْكَ الْأَشْيَاءِ ؛ وَمِنْهَا ظَهَرَ غِنَى جَسَدِهِ بِشَارَتِهِ^(٢) وَهَيْئَتِهِ ، وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ ، وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ .

فَالْمَعْرِفَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمُ صِفَاتِ الْقُدْرَةِ ، فَكُلُّ شُعْبَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْعِلْمِ تَمَلُّا مَا بَيْنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَى^(٣) ، وَيَزِيدُ وَيُفْضِلُ ؛ وَكُلُّ اسْمٍ لِلْعَبْدِ بِهِ مُتَعَلِّقٌ ، وَلَهُ إِلَيْهِ مُسْتَنَدٌ ، وَعَلَيْهِ مُعْتَمِدٌ وَوَسِيلَةٌ يَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَى رَبِّهِ ، وَكُلُّ اسْمٍ لَهُ شَفِيعٌ إِلَى رَبِّهِ ؛ فَهَذِهِ صُرَّةٌ مَكْنُونَةٌ تَمَلُّا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، وَتَمَلُّا الْمَلَكُوتَ فَوْقَ الْعَرْشِ ؛ نَالَ الْمُوَحِّدُونَ هَذَا مِنْ جُودِ اللَّهِ ، وَعَظِيمِ رَأْفَتِهِ ، وَوَاسِعِ رَحْمَتِهِ .

حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى :

وَرَأْسُ هَذَا الْجَوْهَرِ حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْفَرَحُ بِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُعْطِهِ ذَلِكَ حَتَّى أَحَبَّهُ وَفَرِحَ بِهِ ، فَابْتَدَأَ خَلْقَتَهُ مِنْ بَابِ الْفَرَحِ بِهِ ؛ فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ هَذِهِ الصُّرَّةَ ، وَلَمْ يَنْكَشِفْ لَهُ الْغِطَاءُ لِقِيهِ

(١) إحرار الشئ : صونه في مكان أمين .

(٢) الشارة : البهاء والرويق والحسن .

(٣) الثرى : التراب .

على غَفْلة عظيمة ، وكُفْرانِ نعمةٍ ، وضَيَاعِ شُكْرِ ، وتهافتٍ^(١) في الذنوب ؛ فعَظُمَ حَيَاؤُهُ ، واشتَدَّ خَوْفُهُ ، واستقبلته أهوالُ القيامة وعُسْرَةُ^(٢) الحساب .

وَمَنْ انفتحت صُرَّتُهُ ، وكُشِفَ له الغطاءُ لِقِيَّ اللَّهِ على بصيرةٍ ، شاكراً مؤمناً ، مُوقِناً ، باذلاً نَفْسَهُ ، قد وَفَى بالعهد ، وأتى بالإسلام وحقائقه ؛ فُقِرَّ وأُذِنِي وأُومِن .

فمع كُلِّ واحدٍ صُرَّةٌ توحيد ، قد عقد عليها حياة قلبه . فَإِنَّ أَصْلَ الحياةِ في القلب ، والذَّهْنُ مقرون بالحياة فقد عَقَدَ بحرارة حياته وحِدَّةِ ذِهْنِهِ على الصُّرة ، وهي المعرفة ، وَحُبُّ اللَّهِ تعالى فيها مكنون ، وكتابُ رَبِّ العالمين فيها مكتوب ، وذلك قوله تعالى^(٣) : ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ .

قال له قائلٌ : وما ذَلِكَ الْكِتَابُ ؟

قال : إِنَّهُ لما وقعت جبايته في البدويوم المقادير على تلك القلوب قَبَضَ عليها ، وقال : أَنْتُمْ لِي ، فصارت هذه المَقَالَةُ في القَبْضَةِ كتابَهُ ، فاطمأنوا إليه ، وآمَنُوا به ، وتعلَّقُوا به ؛ فذلك إيمانُهُم صار هناك مكتوباً يومئذ ؛ فلما أخرجهم من بطون الأمَّهات إلى الدنيا أشرقَ في القلوب منهم نورُ المعرفة ، من الحبِّ والرَّافَةِ والرحمةِ والحياةِ^(٤) ،

(١) التهافت : الوقوع والتساقط والأفول .

(٢) عسيرة [ب] وهذا تحريف من الناسخ .

(٣) المجادلة (٥٨/٢٢) والإيمان هنا هو التصديق . راجع القرطبي (٣٠٨/١٧) .

(٤) فالحياء [ب] .

وَعِلْمِ الصِّفَاتِ^(١) ، وَعِلْمِ الْأَسْمَاءِ ؛ فَهِيَ مَكْتُوبَةٌ لَا يَكَادُ صَاحِبُهَا يُمَيِّزُ ، وَلَا يُعَبِّرُ عَنْهَا ؛ فَإِذَا عَقَلَ وَاسْتَعْمَلَ عَقْلَهُ ، وَتَبَحَّرَ ، ظَهَرَتْ الْأَنْوَارُ فِي الصَّدْرِ ، وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ ، وَحَيِيَ الْقَلْبُ ، وَعَمِلَ بِذِكَاوَةِ الْحَيَاءِ فَجَدَّدَتْهُ^(٢) ، وَعَمِلَ بِحَلَاوَةِ الْحُبِّ ، فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ ، وَسَبَّتَهُ^(٣) حَتَّى صَارَ أَسِيرَ الْحُبِّ ، وَعَمِلَتْ أَثْقَالُ الرَّأْفَةِ فَضْغَطَتِ الْقَلْبَ وَعَصَرَتْهُ ، وَعَمِلَتْ أَمْطَارُ الرَّحْمَةِ فَلَيَّنَّتِ الْقَلْبَ ، وَسَكَّنَتْ شُعُوثَهُ^(٤) وَاغْتَرَارَهُ ، وَعَمِلَتْ أَنْفَةُ الْحَيَاءِ فَقَبَضَتْهُ وَقَتَّرَتْهُ^(٥) ؛ وَعَمِلَ الْجُودُ فِيهِ فَوَسَّعَهُ وَأَعْتَقَهُ مِنْ رِقِّ النَّفْسِ .

فهذه معرفة قد انكشفت الصُّرَّةُ عَمَّا فِيهَا مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي وَصَفْتُهَا ، فَاسْتَقَامَ الْقَلْبُ بِمَا أَبْصَرَ فُؤَادُهُ فِي هَذَا الصَّدْرِ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ ، فَاسْتَعْمَلَ بِالْمَعْرُوفِ الْمَوْصُوفِ ، فَلَهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ ، فَأَحْبَبَهُ صِدْقًا ، وَخَافَهُ صِدْقًا ، وَرَجَاهُ صِدْقًا ، وَاسْتَحْيَا مِنْهُ صِدْقًا ، وَرَعَى حَقْوَقَهُ مِنْ تِلْكَ الرَّأْفَةِ صِدْقًا ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ ؟ مَاذَا يَظْهَرُ عَلَى جَوَارِحِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ؟

تَغْطِيَةُ الشَّهَوَاتِ :

وَأَخْرَ وَضِعَتْ فِيهِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ ، فَجَاءَتْ الشَّهَوَاتُ فَغَطَّتْهَا ، وَلَمْ يَسْتَعْمَلَ صَاحِبُهَا الْعَقْلَ ، وَلَمْ يَتَبَحَّرْ فِي ذَلِكَ ؛ فَاسْتَعْمَلَ الشَّهَوَاتِ ،

(١) وَعِلْمِ الصِّفَاءِ [ج] .

(٢) فَجَدَّدَتْهُ [ب] وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

(٣) سَبَّتَهُ : أَسْرَتْهُ .

(٤) شُعُوثُهُ : تَلْبِدُ شَعْرِهِ .

(٥) قَتَّرَتْهُ : أَسَكَّنَتْهُ بَعْدَ ثَوْرَةٍ وَاحِدَةٍ .

فترأى على صدره غيومتها وغبارها ودخانها ؛ فكل شهوة استعملها من حلها - وللنفس نصيب الإكباب^(١) - صارت غيوماً ، وكل شهوة استعملها من حلها - وللنفس فيها نصيب الغفلة فاستعمل القلب ذلك في غفلة عن الله - صار غباراً في الصدر ؛ وكل شهوة استعملها بحرص وهلع^(٢) وتخليط صار دُخاناً ؛ وكل شهوة استعملها من غير حلها صارت ظلمة كالليل ، فبقيت هذه المعرفة في القلب والصدر متراكمة هذه الأشياء فيه ، ولم تجد المعرفة مساعاً إلى أن تُشرق بما فيها من باب القلب إلى الصدر حتى تبصر عين الفؤاد ذلك فتقوى ، وتستقيم وتستمر في العبودية^(٣) ؛ فصار القلب بكنوزه كالمسجون الدليل ، وصاحبه [٥٦] فقير محزون ؛ لأن غناه بحطام الدنيا ، وحزنه بما يفوت من الدنيا فلا يناله ، ويحرص ويكد ويتعب فلا يدرك منه ؛ والعدو منه بمرصد^(٤) ينتظر متى يجد فرصة الإغارة على هذا الكثر .

أصحاب هذه الصفة صنفان :

فأصحاب هذه الصفة صاروا صنفين : فمنهم من أحاط بقلبه عسكر أعمال البر ؛ فهو يعمل دائماً أعمال البر ، وهو في خلال ذلك يراي بعمله ، ويتصنع بشمائله ، ويستلذ بخلائقه ، ويباهي في أمور الله ؛ يزل^(٥) مرة ، ويثبت أخرى ؛ تراه مرة مستقيماً ، ومرة متردياً^(٦)

(١) أكب على الشيء : إذا لازمه ولاحقه .

(٢) هلع : جزع وفزع وارتاع .

(٣) العبودية بالأصول وهي تحريف ولها نفس المعنى .

(٤) العدو منه بمرصد : يترقبه ويتوقع هجومه عليه .

(٥) يزل : يتنحى ، والزلة في القول : الخطأ والخطأ .

(٦) متردياً : ساقطاً .

في آبارِ المعاصي ، واسْمُهُ في المستورين القَرَّائين المُعَدَّلين (١) عند الخَلْقِ في الظاهر ؛ فهذا العسكرُ المُحيطُ بقلبه له عند الله قَدْرٌ يَسْتَجْلِبُ منه الرحمةَ لصاحبه حتى لا ينقطع حَبْلُهُ ؛ فعاملُ عسكره التَّعَبُّد ، وعاملُ عسكره التَّزَهُد ، وعاملُ عسكره التَّوَرُّع ؛ فقد صاروا أَصْنَافاً مِنْ هذا الصَّنْفِ الواحد ، وكلُّهم يرجعون إلى تَحَرِّي (٢) الصدق ، وهم في غِطَاءٍ وَغَفْلَةٍ عَظِيمَةٍ عن الله تعالى ؛ فقد حُرِّمُوا حِلَاوَةَ التَّوْحِيد ، ولذاذة المعرفة ، ونزاهةَ عِلْمِ المعرفة ؛ إِنَّمَا يَذُوقُونَ حِلَاوَةَ أَعْمَالِهِمْ مِنَ التَّعَبُّدِ وَالتَّزَهُدِ وَالتَّوَرُّعِ ؛ فَإِذَا وَجَدُوا تِلْكَ الحِلَاوَةَ حَسِبُوا أَنَّ هَذِهِ الحِلَاوَةَ والعبادةَ والزهدَ والورعَ إِنَّمَا هي حِلَاوَةُ أَعْمَالِهِمْ ؛ تَلْتَذُّ نَفُوسُهُمْ بِهَا ، وَتَبْطُرُ وَتَأْشُرُ (٣) وَتَفْرَحُ بِهَا ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، وَتَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَذَارِكْهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ ، وَيَحْفَظَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، ضَرَبَهُمُ الْعُجْبُ ، وَكَبُرَ النَّفْسُ بِالْغَطْسَةِ (٤) فَضَرَبَتْ رُؤُوسَهُمْ رَضًّا ، وَصَارُوا كَمَنْ يَضْرِبُ اللَّبْنَ فِي الْمَاءِ إِذَا نُصِبُوا لِلسُّؤَالِ يَوْمَ الْمَوْقِفِ ، وَقَبُولِ صَدَقَتِهِمْ بِشُكْرِهِمْ .

وَمَنْ تَرَاخَتْ بِهِ نَفْسُهُ عَنِ الصَّدَقِ ، وَخَدَعَتْهُ (٥) نَفْسُهُ بِأَمَانِيهَا ، فَنَالَتْ بِهِ التَّوَدُّعَ (٦) إِلَى رَاحَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا وَنُزْهَتِهَا ، فَاسْتَعْمَلَتْ الشَّهَوَاتِ ، وَتَوَسَّعَتْ فِيهَا ، أَبْصَرَ الْعَدُوَّ مِنْ مَرَصَدِهِ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَعَظُمَ

(١) المعدَّلين : المعروفين بالعدل .

(٢) تحرى الصدق : قصده .

(٣) تأشر : تبطر .

(٤) الغطسة : الحتف والموت .

(٥) جرعتة [ج] .

(٦) التودع : الاستسلام والخنوع .

طَمَعُهُ فِيهِ ، وَاسْتَعَدَّ لَهُ بِأَسْلِحَتِهِ ، فَهَيَّجَ مِنْهُ الْكِبَرُ وَالْكِبَرِيَاءُ ، وَأَثَارَ
الشَّهَوَاتِ مِنْهُ ، حَتَّى اشْتَعَلَ حَرِيقُهَا وَحَرُّهَا ، وَأَشْخَصَ آمَالَهُ ، وَاسْتَعَدَّ
لِلْحِيلَةِ عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ ؛ فَإِذَا وَجَدَ صَدْرَهُ مَشْحُوناً بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ
أَسْلِحَتُهُ ، وَتِلْكَ جُنُودُ الْهَوَى حَمَلَ حَمْلَةً وَاحِدَةً ؛ فَلَمَّا رَأَتْ الْجُنُودُ
الَّتِي فِي صَدْرِهِ أَنَّ سَيِّدَهُمْ قَدْ أَقْبَلَ ثَارُوا مِنْ مَعَادِنِهِمْ^(١) ، وَاصْطَفُوا بَيْنَ
يَدَيْهِ فِي صَدْرِ الْعَبِيدِ ، وَتَدَاعَتْ^(٢) مَنَازِلُ الشَّهَوَاتِ بَعْضُهَا بَعْضاً ، فَإِذَا
رَأَى الْقَلْبُ حَمْلَةَ الْعَدُوِّ وَسُلْطَانَ تِلْكَ الْجُنُودِ ، وَعَلَى مَقْدَمَتِهِ جَيْشُ
الْهَوَى انْهَزَمَ وَتَخَلَّى عَنِ الْبَابِ ؛ فَوَقَعَتِ الْغَارَةُ فِي الْكُنُوزِ : كُنُوزِ
الْمَعْرِفَةِ ، حَتَّى تَرَكَتِ الْقَلْبَ خَالِياً مِنَ الْكُنُوزِ ، وَبَقِيَتِ الْمَعْرِفَةُ خَالِيَةً
كُمُעَلَّقَةٍ بِأَدَقِّ مِنَ الشُّعْرَةِ ، فَبَقِيَ^(٣) الْقَلْبُ مَتَحِيراً يَتَذَبَذَبُ ، وَقَدْ افْتَقَدَ
الْعِلْمَ وَالْحَيَاءَ ، وَالْخَشْيَةَ وَالْخَوْفَ ، وَالْحُبَّ ، وَجَاءَ الْهَوَى وَشَهَوَاتُ
النَّفْسِ فَسَكَنُوا الْقَلْبَ ، وَأَحَاطُوا بِالْمَعْرِفَةِ ، فَدَقَّتْ قُوَّةُ الْمَعْرِفَةِ حَتَّى
تُورِدَهُ النَّارَ مَعَهُ ، فَذَهَبَتْ قُوَّةُ الْمَعْرِفَةِ ، وَصَارَتْ كَالْمُعَلَّقَةِ بِشُعْرَةٍ ، وَصَارَ
الصَّدْرُ مَمْلُوكَةً الْهَوَى ، وَرَجَعَ الْعَدُوُّ ، فَظَهَرَ عَلَى الْجَوَارِحِ مِنَ الْجِرْصِ
جَمْعُ الدُّنْيَا ، وَمِنَ الْكِبَرِ إِبْطَالُ الْحَقُوقِ وَظُلْمُ الْعِبَادِ ، وَمِنَ الشَّهَوَاتِ
رَفْضُ الْعُبُودِيَّةِ^(٤) ، وَنَبْذُ الْعَهْدِ ، وَنَقْضُ الْمِيثَاقِ ؛ وَجَاءَتْ أَعْمَالُ
الْفُسْقِ وَالْفُجُورِ ، وَخُبْتُ السَّرِيرَةِ ، وَحَسَنُ الْعُلَانِيَةِ ، وَالنِّفَاقِ ، وَسُكْرُ
الْعَقْلِ ، وَوَلَايَةُ الْهَوَى وَإِمْرَتُهُ ، وَانْكَمَنَ^(٥) الْعَقْلُ ، وَانْسَدَّ الْفَهْمُ ،

(١) مغازتهم [ج].

(٢) تداعت : تصدعت وتساقت .

(٣) بغى [ب] وهو تصحيف .

(٤) العبودية بالأصل ولهما نفس المعنى .

(٥) انكمن : بمعنى كمن أي اختفى وتوارى .

وَحَمَقَ الذُّهْنَ ، وانطبق الحِفْظُ ، واندفن العلمُ ، وذابت المعرفةُ ،
 وفاضَ جَهْلًا ، وامتلاً كَذِبًا وَخِيَانَةً ، وذهب الوَفَاءُ ، وطارَت الأمانَةُ ،
 وظَهَرَ الاستبدادُ ، وعلاه الكِبَرُ ، وأحاط به التجبُّرُ ، وامتَلأت الأرضُ
 والسماءُ فضائحَ وَقَبَائِحَ ، وهو في حِلْمِ اللَّهِ ؛ والعدوُّ بِمَرَصِدٍ ينتظرُ حتى
 يحلُّ به سُخْطُ (١) اللَّهِ تعالى ، فيحمل حملة (٢) بكفر ، فيُورده حتى
 يَمْتد (٣) ويضبط ، فإذا حلَّ به السخْطُ رُفِعَت المعرفةُ ، وانقطع الحَبْلُ ،
 وسَبَّاه (٤) العدوُّ ، وصيِّرَ إلهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَى
 سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ؛ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ (٥) ؟ .

مثل المعرفة مثل قطب الرِّحَا

مَثَلُ المعرفةِ مَثَلُ قُطْبِ الرِّحَا ؛ فالرِّحَا تَدُورُ بالماءِ وبالقُطْبِ على
 حَسَبِ قُوَّةِ الماءِ وكَثَرَتِهِ وانْحِدَارِهِ مِنْ مَصْبِيهِ ، يَدُورُ القُطْبُ بالرِّحَا ، وقُوَّةُ
 القُطْبِ في عَمُودٍ مِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ ، وقُوَّةُ العمودِ في أَجْنَحَةٍ ؛ فإذا
 انْحَدَرَ الماءُ دَفَعَ الأَجْنَحَةَ فَأَدَارَهَا ، فدارَ القُطْبُ فَأَدَارَ الرِّحَا ؛ فكذلك
 القلبُ ، فالقَلْبُ رِحَا ، وَقُطْبُهُ الْعِلْمُ ، والمعرفةُ هُوَ الماءُ الْمُنْصَبُّ في
 حُدُورِهِ (٦) ؛ فإذا لم يكن للمعرفةِ أَجْنَحَةٌ لم يَنْفَعِ الماءُ ، ولا القُطْبُ ؛

(١) سخط الله تعالى : غضبه .

(٢) كذا في [أ] وحملة تكفر [ب وج] .

(٣) كذا في [أ] ويسدد [ب] .

(٤) سباه : مثل استباه أي أسره .

(٥) الجاثية (٢٣/٤٥) .

(٦) حدوره : انحداره ، والمنحدر مكان مسيل الماء .

فالعلمُ هو حَمْلُهُ ، والمعرفةُ ذواتُ شُعَبٍ ؛ فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ فلمعرفته شُعَبٌ ؛ فعِلامَةُ الشُّعْبِ أَنْ يقومَ بتلك الشُّعْبِ ، فهذا قُطْبُهُ قد استقامت شُعْبُهُ ، فاستدار ؛ وإذا كان القُطْبُ قد انتشرت أجنحته جَرَى الماءُ على عُمُودٍ ، فلم يُغْنِ شيئاً ، ولم يَذِرِ القُطْبُ ولا الرِّحَا ؛ فذهبت منفَعَتُهُ ، فعلى قَدَرِ ما تنأثر من أجنحةِ القُطْبِ ذهبت قوةُ الرِّحَا ، فما أَغْنَتْ عنه كثرةُ الماءِ .

كذلك العلمُ هو على القلبِ حَمْلُهُ ، والمعرفةُ ذاتُ شُعَبٍ ؛ فتلك الشُّعْبُ تهيجُ الشعبةَ استعمالها حتى يَقْوَى القلبُ ، ويدورُ بَرَحَاهُ حتى يخرجَ منه الأعمالُ الطَّاهرةُ النَّقيةُ فيرمي بها إلى الجوارح ؛ فذلك الدقيق .

قال له قائل : وما تلك الشعب ؟

قال : الخوف ، والخشية ، والحب ، والحياء ، والفرح ، والهيبة ، والأنس ، والوداد ، والرغبة والرغبة والتقوى ، فهذه كلها شعب المعرفة كأجنحة القطب للرحا ؛ فإذا حَيِيَ القلبُ بِاللَّهِ صار عالِماً بِاللَّهِ ، فإذا رَأَتْ تلك الحياة شُعْبَ المعرفة ، وأهاجت منك الخَوْفَ والخَشْيَةَ ، والحُبَّ والحياءَ ، والفرحَ والودادَ ، والهيبةَ والأنسَ ، والرَّغْبَةَ ، والرَّهْبَةَ ، والتَّقْوَى ، ويظهر في الجوارح صِدْقُ ما هاجَ منك في الباطن ، من أذَاءِ الفرائض ، واجتناب المحارِمِ ، والقيام بحقوقِ اللَّهِ تعالى دَقَّ أو جَلَّ (١) ، والصِّفَاءِ في الصِّدْقِ ، والإخلاص في هذه الأمور التي ظهرت على الجوارح ، فَبَقَدَرِ ما افْتَقَدَتْ (٢) من هذه

(١) دَقَّ أو جَلَّ : صغر أو عظم .

(٢) افتقدت : طلبت الشيء عند غيبته .

الشُّعْبُ تَفْتَقِدُ الْقُوَّةَ مِنْ نَفْسِكَ فِي هَيَجَانِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي بَاطْنِكَ ،
ويظهر النُّقْصُ فِي ظَاهِرِ أَعْمَالِكَ مِنَ الْقِيَامِ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ ، وَاجْتِنَابِ
الْمَحَارِمِ ، وَإِقَامَةِ الْحَقُوقِ ، وَالصَّفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ وَالصَّدَقِ فِي الْأُمُورِ ،
كَمَا كَانَ ؛ فَكَلِمَا تَنَاطَرَ مِنْ أَجْنَحَةِ الْقُطْبِ لَمْ تُغْنِ لَهُ كَثْرَةُ الْمَاءِ وَقُوَّةُ
انْحِدَارِهِ فِي مَصْبِهِ شَيْئًا .

فصاحبُ الرِّحَا قائمٌ عَلَى الرِّحَا ، يَحْفَظُ أَجْنَحَةَ الْقُطْبِ ، هَلْ
تَنَاطَرَ مِنْهَا شَيْءٌ ؟ وَكَلِمَا تَنَاطَرَ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَبَطَلَتْ زِيَادَةُ الْمَاءِ ، ذَهَبَ
قُوَّةُ هَيَجَانِ الْأَجْنَحَةِ .

مثل من استعمل عقله وذهنه في أمور الدنيا

وَمَثَلٌ مَنْ اسْتَعْمَلَ عَقْلَهُ وَعِلْمَهُ وَذَهْنَهُ وَكِيَاسَتَهُ^(١) وَرُوحَهُ فِي أُمُورِ
الدُّنْيَا لَغَيْرِ اللَّهِ كَمَثَلِ حِمَارٍ تَنْقُلُ عَلَيْهِ سِرْقِينَا^(٢) مِنَ الْمَزَابِلِ ، فَمَا زِلْتَ
تَكُدُّهُ^(٣) فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّهَارِ حَوَّلَتْ عَلَيْهِ
سَرْجًا ، وَابْتَغَيْتَ^(٤) مِنْهُ هَمْلَجَةً^(٥) وَسَيْرًا ، فَكَيْفَ تَجِدُهَا مِنْهُ ؟ وَقَدْ
ذَهَبَ الْكَدُودُ وَالْعَمَلُ بِكَثَافَةِ قُوَّتِهِ ، وَحِدَّةِ مَقَاصِدِهِ ؛ وَنَالَ الْفُتُورُ^(٦) مِنْهُ
كُلَّ شَيْءٍ .

(١) الكيس : من الكياسة وهو الظريف الفطن العاقل .

(٢) السرقين : هو السرجين أو الزبل .

(٣) تكده : تتعبه من العمل والتعب في طلب الرزق .

(٤) ابتغيت : طلبت .

(٥) الهملجة : سير الدابة في إيجاف حسن .

(٦) نال الفتور منه كل شيء : بلغ درجة الملل والسآمة فانكسرت حدته فلان .

فكذلك هذا العلم والعقل والذهن والكياسة والفهم والفطنة والروح ، لكلُّ حدٍّ وسلطان وقُوَّة تعمل في هذا الجسد ، فإذا استعملهم في أمور الدنيا التي لا تَصْعَدُ إلى الله تعالى من باب السماء انفتَرَ منه كلُّ شيء على حَدِّثِهِ ، وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ ، وظهر العَجْزُ .

مثل الذي يختلف إلى مجالس العلم

مَثَلُ الذي يختلف إلى مَجَالِسِ أَهْلِ العلم كمَثَلِ رَجُلٍ دخل السُّوقَ ولا يَدْرِي مَا يَشْتَرِي ، فما استقبله مِنْ شَيْءٍ رجا فيه الرُّبْحَ اشْتَرَى ، فكم من شيء اشتراه فخر عليه ، ولم يَنْلُ أَمَلَهُ .

وآخر دَخَلَ السُّوقَ يَشْتَرِي منافعَه ؛ ففيل له : ما تُريد ؟ قال : مَتَاعاً . ففيل له : أَيُّ متاع تُريد ؟ فَإِنَّهَا هُنَا أَلْوَانُ^(١) الأمتعة من القُطُنِ والكَتَّانِ والإِبْرَيْسِمِ^(٢) ، وَهَذَا هُنَا أَمْتَعَةُ الذَّهَبِ والفضة ، وَالصُّفْرِ^(٣) وَالنَّحَاسِ والحديد ، فلم يَدْرِ مَا يَشْتَرِي ، فدخل من أعلاها وَخَرَجَ من أَسْفَلِهَا صِفْراً^(٤) الْيَدَيْنِ .

وآخر دخل السوق لحوائجه قد رأى^(٥) ما يشتري ؛ فَقَصَّدَ الحوائجَ ، فاشترى في الصيف ما يحتاجُ إليه في الشَّتَاءِ ، وترك ما

(١) ألوان الأمتعة : أشكال مختلفة منها وصور متعددة .

(٢) الإبريسم : الحرير .

(٣) الصفر : الذهب ، وهو من النحاس أيضاً .

(٤) صفر اليدين : خاليهما .

(٥) رأى ما يشتري : علم .

يحتاج إليه في يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ ، فرجع إلى المنزل معه حوائج الشتاء ، فبات جائعاً بائساً .

ودخل آخرُ السوقِ قد لَزَّتْ به^(١) الحاجةُ وأَلَحَّتْ ، يعملونَ الطاعاتِ على طريقِ الثوابِ والعقابِ .

ومثلُّهم في ذلك كالذي يَخُوضُ النَّهْرَ ، فما جَرَى بِهِ الماءُ فوجده على ظَهْرِ الماءِ أَخَذَهُ مِثْلَ الْبَرْدِيِّ^(٢) وَالْحَطَبِ وَأَصُولِ الْأَشْيَاءِ^(٣) وَالْقِثَاءِ ، وليسَ لَهُمْ غَوْصٌ ؛ وَأَهْلُ الْإِنْتِبَاهِ يَعْمَلُونَ الطَّاعَاتِ عَلَى طَرِيقِ الْعِبُودِيَّةِ^(٤) عَارِفِينَ مُوقِنِينَ .

مثل الذي يغوص في البحر والأنهار

ومثلهم في ذلك كالذي يَغُوصُ فِي الْبَحْرِ وَالْأَنْهَارِ ، فيضرب بيده ضربةً يَقَعُ فِيهَا عَلَى جَوْهَرَةٍ لَا يُحَاطُ بِثَمَنِهَا ، فَأُولَئِكَ الْأَوَّلُونَ يَجْمَعُونَ حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ بِتِلْكَ الطَّاعَةِ ، فَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا عَمَلُهُمُ الظَّاهِرُ ، وَعَلَيْهِ يُثَابُونَ الْجَنَّةَ . وَهَؤُلَاءِ الْمُتَسَبِّهُونَ يَدْخُلُونَ فِي الطَّاعَةِ بِحَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ وَفِي قُلُوبِهِمْ عَجَائِبٌ ، تَعْجَبُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ إِذَا رُفِعَتْ تِلْكَ الطَّاعَاتُ وَفِي حَشَوِهَا تِلْكَ الْأَنْوَارُ ؛ فَأَهْلُ الْغَفْلَةِ حَشَوُ طَاعَاتِهِمُ التَّوْحِيدُ وَنُورُ الصَّدَقِ ، وَهَؤُلَاءِ الْآخَرُونَ حَشَوُ طَاعَاتِهِمْ نُورُ

(١) لَزَّتْ بِهِ: وَلَزِيتْ بِهِ الْحَاجَةُ إِذَا اشْتَدَّتْ ، وَيُقَالُ لَزَبَهُ الشَّيْءُ وَذَلِكَ إِذَا التَّصَقَّ بِهِ ، وَالطِّينُ اللَّازِبُ هُوَ الْمُلْتَصِقُ .

(٢) الْبَرْدِيُّ : نَبَاتٌ .

(٣) الْأَشْيَاءُ : صَفَارِ النَّخْلِ .

(٤) فِي الْأَصُولِ وَرَدَتْ (الْعِبُودَةُ) .

الحُبَّ والحَيَاءِ ، والشوق والحنين ، والتضرُّع والمَلَقُ^(١) ، والحُزْنَ
والسُّرُورَ ، والبَهْجَةَ والشُّكْرَ ، والدُّكْرُ الصَّافِي ، والإقبال والإنبابة ،
والخُضُوعَ والخُشُوعَ ، والتَّسْلِيمَ والتَّبَرِّيَ من الحَوْلِ والقُوَّةِ ؛ فهؤلاءِ
غَوَاصُّونَ يَغُوصُونَ فِي كُلِّ طَاعَةٍ فِي بَحُورِ المَعْرِفَةِ^(٢) ، فِي صُدُورِهِمْ
فِي الطَّاعَاتِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا الدَّرَرَ وَالْجَوَاهِرَ ؛ لِأَنَّ
الْقُلُوبَ خَزَائِنُ اللَّهِ فِيهَا كُنُوزُهُ ، فَإِذَا طَهَّرَ الْعَبْدُ سَاحَةَ الْخِزَانَةِ ، وَهُوَ
الصَّدْرُ ، ظَهَرَتْ فِي تِلْكَ السَّاحَةِ مِنْ بَابِ الْخَزَائِنِ فِي وَقْتِ كُلِّ طَاعَةٍ
يَدْخُلُ فِيهَا ، عَجَائِبُ لَا تَوْصَفُ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالْدَّرَرِ .

وَالطَّاعَاتُ ذَوَاتُ صُورَ ، وَكُلُّ طَاعَةٍ لَهَا صُورَةٌ ، وَفِي كُلِّ صُورَةٍ
يَرَانِي نَعْمَهَا ، فَيَرَانِي بِهَا رَبِّي ، وَيَتَزَيَّنُ عِنْدَهُ بِتِلْكَ الصُّورَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ
الْجَوَاهِرِ الَّتِي ذَكَرْنَا .

مثل المتعرف إليك باختلافه^(٣) إليك

مَثَلُ مَضْرُوبٍ : رَجُلٌ تَعَرَّفَ إِلَيْكَ بِاخْتِلَافِهِ إِلَيْكَ ، وَذَهَابُهُ وَجَيْتُهُ
وَعَوْدُهُ عَلَى بَدْئِهِ عَرَفَكَ ، فَحَلَّ فِي قَلْبِكَ مَحَلُّ الْمَعْرُوفِينَ بِالْوَجْهِ ، ثُمَّ
مَعَ هَذَا الْاِخْتِلَافِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَعَرَّفَ إِلَيْكَ بِالسَّلَامِ عَلَيْكَ ، وَالسُّؤَالِ
عَنْ أَحْوَالِكَ وَمُهْمَّاتِكَ صِدْقًا ؛ فَتَعَرَّفَ^(٤) إِلَيْكَ بِالْإِهْتِمَامِ ؛ فَحَلَّ مِنْ

(١) الملق : بالتحريك الود والتلطف .

(٢) وهذا التعبير نعت صوفي .

(٣) يقال فلان يختلف إلى فلان : أي يذهب إليه ويتردد عليه .

(٤) فيعرف في [ج] ولعله تصحيف .

قلبك محلّ المُهتَمِّين لك ، المبالين بك وبأمورك ، ثم أبدى^(١) صدق ذلك السؤالِ فعلاً حتى شاركك في محبوبك ومكرُوهك ، ففرح بمفروحك ، وسُرَّ بمسرورك ، وحزن لمصائبك ، وتوجَّع بفجائعك ، فتعرَّف^(٢) إليك بالإخلاص حتى حلَّ من قلبك محلّ المخلصين ، ثم تخطى من هذه الدرجة إلى أن فداكَ بنفسه وماله ؛ فبدلَ عند الشدائد نفسه ، وفي^(٣) ذلك لا يُيالي ما ناله في نفسه وماله من النقصان والمكروه في جنبك ، فأعطاك كلَّه ؛ فحلَّ من قلبك محلاً أحبَّته كلَّ الحب ، وصارَ واحدك من بين الناسِ ، وصرتَ له واحداً ، فأفشيت أسراركَ بين يديه ، وأطلَّقت يدهُ في مملكتك ، وأنفذت^(٣) أمانيه وحكمه في أمورك ، فعاملَ الله بما يعاملُك عبْدٌ من عبيده بهذه الصفة .

مثل الحب بين الأشياء

مثلُ الحبِّ من بين الأشياءِ كمثُل شجرةٍ لها قلبٌ وأغصان ؛ فالقلبُ من الساق ، والأغصانُ : فروعُ الشجرةِ مِنْهَا الثمرةُ . ولكن أصلُ الثمرةِ من القلبِ ؛ فالمعرفةُ هي الشجرةُ ، والحبُّ هو قلبُ المعرفة ، والخوف والرجاء والحياء والخشية والرضا والقناعة ؛ وسائر الأشياءِ أغصانُها ؛ ومنها تتولَّد الثمرةُ ، وهي الطاعات ؛ وإنما جادَ عليك ربُّك بالمعرفة ، فمَنَّ بها عليك بعد أن قسم لك حظاً من معرفته

(١) أبدى : أظهر .

(٢) وفاء [ج] وهو تحريف من الناسخ .

(٣) أنفذت : نفذت .

محبتة ، وأُخْرِجَ إِلَيْكَ مُحَبَّتَهُ مِنْ بَابِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ، فَنِلْتَ حَظًّا مِنَ
 المحبة والرأفة والرحمة حتى ظَفِرْتَ بِالْمَعْرِفَةِ ، فَلَمَّا عَرَفْتَهُ خِفْتَهُ وَرَجَوْتَهُ
 وَخَشِيتَهُ وَرَهَبْتَهُ وَاطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ ، وَاعْتَقَدْتَ بِقَلْبِكَ عُبُودِيَّتَهُ (١) وَتَسْلِيمَكَ
 نَفْسِكَ إِلَيْهِ فِي أَمْرٍ وَنَهْيِهِ ؛ هَذَا كُلُّهُ فِي عُقْدَةِ الْمَعْرِفَةِ ؛ وَهِيَ كَالْأَغْصَانِ
 مِنَ الشَّجَرَةِ ، فَإِنَّمَا أُعْطِيَتِ الشَّجَرَةُ بِأَغْصَانِهَا ، وَالثَّمَرَةُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 كَسْبُكَ الطَّاعَةَ .

الحب سر الله في العباد :

فَالْحُبُّ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعِبَادِ ، يَفْتَحُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى
 أَقْدَارِهِمْ بِمَشِيئَتِهِ بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَقْدَارِ مِنْهُ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى (٢) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ .
 لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٣) ؛
 مُبْعَدُونَ ، أَيُّ عَنِ النَّارِ ؛ ثُمَّ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ، كَأَنَّهُ أَجَارَهُمْ
 الصُّرَاطُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا .

فَالْحُبُّ سِرٌّ فِي الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ بَارِزٌ ظَاهِرٌ ، وَهُوَ قَوْلُهُ
 تَعَالَى (٤) : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ
 لَعَنِتُمْ ﴾ (٥) وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ
 الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ .

(١) عبوديته في الأصل .

(٢) الأنبياء (٢١/١٠١ ، ١٠٢) .

(٣) الحسنى : الجنة .

(٤) الحجرات (٧/٤٩) .

(٥) لعنتم : من العنت وهو الفساد والتعب .

فَاللَّهُ تَعَالَى عَرَّفَ نَفْسَهُ أَهْلَ مِثَّتِهِ بِالْمِنَّةِ^(١) ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ عَظَمَتِهِ ، وَرَجَاهُمْ مِنْ كَرَمِهِ ، وَأَخْشَاهُمْ مِنْ رُبُوبِيَّتِهِ ؛ فَتَالُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِنْ الْمَعْرِفَةِ الْمَشْحُونَةِ بِهِذِهِ الْأَشْيَاءِ .

وَأَمَّا الْحُبُّ فَإِنَّهُمْ نَالُوا حُبَّهُمْ لَهُ مِنْ حُبِّهِ لَهُمْ .

الفرح بتوبة العبد :

كَانَ بَدْءُ أَمْرِهِمْ مِنْ حُبِّهِ لَهُمْ وَالْفَرَحُ بِهِمْ ؛ أَلَّا تَرَى إِلَى قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢) : لَلَّهْ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ فَرَحِ رَجُلٍ أَضَلَّ رَا حِلَّتَهُ فِي مَفَازَةٍ^(٣) مُهْلِكَةٍ عَلَيْهَا زَادُهُ وَحُمُولَتُهُ^(٤) ؛ فَهُوَ يَضْرِبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فِي طَلَبِهَا حَتَّى أَيْسَ^(٥) مِنْهَا وَأَشْرَفَ عَلَى الْهَلَكَةِ ؛ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : أَرْجِعْ إِلَى حَيْثُ افْتَقَدْتَهُ^(٦) فَأَمُوتَ هُنَاكَ ، فَرَجَعَ فَوَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَيْهِ زَادُهُ وَحُمُولَتُهُ ، فَجَعَلَ يَهْلِكُ مِنَ الْفَرَحِ ، فَيَقُولُ لِلَّهِ تَعَالَى : أَنْتَ رَبِّي ، وَأَنَا عَبْدُكَ - ثَلَاثًا - . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ^(٧) بِهَذَا فَرَحًا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ : لَلَّهْ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ هَذَا بَبْعِيرِهِ .

فَبَدْءُ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ فَرَحُ اللَّهِ بِهِ ، وَحُبُّهُ لَهُ ، مِنْ هَا هُنَا خَرَجَ وَظَهَرَ

(١) المنة : الإِنْعَامُ .

(٢) حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ (٢١٠٤) .

(٣) مَفَاةٌ [ج] وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

(٤) الْحُمُولَةُ : الْحَمْلُ وَالثَقْلُ .

(٥) أَيْسَ : يَثَسُ .

(٦) افْتَقَدْتَهُ : طَلَبْتَهُ فِي غَيْبَتِهِ .

(٧) هَلْ فَرَحًا : طَرَبٌ .

أَمْرُهُ فِي الْبَدءِ ؛ فَهَذَا سِرُّ اللَّهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِهِ ؛ وَضَعَهُ فِي بَاطِنِ مَعْرِفَتِهِ ؛ فَهُوَ يُحِبُّهُ وَيَخَافُهُ ، وَيَرْجُوهُ وَيَخْشَاهُ ؛ فَهَذَا كُلُّهُ نِظَامٌ وَاحِدٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ ، وَلَكِنْ خَاصَّةُ النَّاسِ لَمَّا اخْتَصَّصَهُم بِالرَّحْمَةِ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الْمُؤَخِّدِينَ حَتَّى نَالُوا تَوْحِيدَهُ ، ثُمَّ أَوْلَجَ^(١) الْخَاصَّةَ بِبَابِ الرَّحْمَةِ حَتَّى دَخَلُوهَا ، فَوَصَلُوا إِلَى الرَّحْمَةِ الْعُظْمَى الَّتِي خَرَجَتْ مِنْهَا هَذِهِ الْمَائَةُ الرَّحْمَةِ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ لِعِبَادِهِ ؛ وَفِي تِلْكَ الرَّحْمَةِ حُبُّهُ ، فَلَمَّا دَخَلُوهَا وَوَصَلُوا إِلَى تِلْكَ الرَّحْمَةِ الْعُظْمَى غَرَقُوا فِيهَا ، وَفِيهَا حُبُّهُ وَمَشِيتُهُ ؛ فَفَتَحَ لَهُمْ بَابَ الْمَشِيئَةِ ، وَأَنَالَهُمْ مِنْ حُبِّهِ ، فَلَمَّا فَتَحَ لَهُمْ بَابَ حُبِّهِ عَلَقَتْ^(٢) قُلُوبَهُمْ ، وَوَلِهَتْ^(٣) قُلُوبَهُمْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ ، وَتَشَبَّثَتْ^(٤) النَّفْسُ بِتِلْكَ الْحَلَاوَةِ الَّتِي نَالَتْ ؛ فَعِنْدَهَا انْقَطَعَتْ الْأَسْبَابُ وَالْعَلَاتِقُ ، وَتَطَهَّرُوا مِنْ أَذْنَانِهَا^(٥) بَوُصُولِهِمْ إِلَى مَقَامِهِمْ فِي الْقُرْبِ ، فَلَمَّا تَطَهَّرُوا تَقَدَّسُوا^(٦) بِقُدُسِ قُرْبَةِ الْقُدُّوسِ ، فَلَمَّا تَقَدَّسُوا خَلَصُوا إِلَى فِرْدَاوَيْسِهِ ، فَانْفَرَدُوا بِهِ ، فَعِنْدَهَا جَازَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : يَا وَاحِدِي ؛ فَلِذَا قَالَ صَدَقَ ، وَأَجِيبَ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْقَبْضَةِ .

المفردون :

أُولَئِكَ الَّذِينَ وَصَفَهُم رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

(١) أَوْلَجَ : دَخَلَ وَأَدْخَلَ ، يُقَالُ : « اللَّهُمَّ أَوْلَجْنَا إِلَى عَفْوِكَ » .

(٢) عَلَقَ بِهِ وَتَعَلَّقَ بِهِ عُلُوقًا وَتَعَلَّقًا أَيَّ أَحَبَّهُ .

(٣) وَلِهَتْ قُلُوبَهُمْ ذَهَبَتْ مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزَنِ .

(٤) التَّشَبَّثَتْ : الْكَفَلَ وَالتَّعَلَّقَ .

(٥) الْأَذْنَانِ : الْأَوْسَاحُ .

(٦) تَقَدَّسُوا : تَطَهَّرُوا .

قوله^(١) : سِيرُوا ، سَبَقَ الْمُفَرَّدُونَ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ مَا الْمَفَرَّدُونَ ؟ قَالَ : الَّذِينَ أَهْتَرُوا^(٢) فِي ذِكْرِ اللَّهِ ، يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ ، فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِفَافًا .

فَالْخَوْفُ أَنْ تَخَافَهُ مِنْ عَظَمَتِهِ ، وَالرَّجَاءُ أَنْ تَرْجُوهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَالْخَشْيَةُ أَنْ تَخْشَاهُ مِنْ مَهَابَتِهِ ، وَالْحُبُّ هُوَ أَحَبُّكَ فَأَعْطَاكَ مِنْ حُبِّهِ لَكَ حَتَّى أَحَبَبْتَهُ ؛ فَهَذَا مُبَايِنٌ^(٣) لِلْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْخَشْيَةِ فِي الْأَصْلِ ، فَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَالْخَشْيَةُ هَاجَ مِنْ نَفْسِكَ لِعَظَمَتِهِ ، وَالْحُبُّ مِنْهُ بَدَأَ^(٤) فَوَضَعَ فِيكَ حَتَّى هَاجَ لَهُ حُبُّ الرِّجَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْوَضْعِ فِيكَ ، وَالَّذِي وَضَعَ فِيكَ مِنَ الْحَبِّ سِرٌّ مَنْظُومٌ فِي نُورِ الْمَعْرِفَةِ ، وَنُورِ التَّوْحِيدِ ، وَنُورِ التَّوْحِيدِ كَشِيءٍ فِي شَيْءٍ ؛ فَالْمَعْرِفَةُ ظَاهِرَةٌ ، وَالْحُبُّ فِيهَا بَاطِنٌ كَلْبٌ^(٥) الشَّيْءِ ؛ وَلِذَلِكَ قُلْنَا : إِنَّهُ مِنَ الشَّجَرَةِ بِمَنْزِلَةِ قَلْبِ الشَّجَرَةِ^(٦) ، فَعِظْمُ قُوَّةِ الشَّجَرَةِ مِنْ قَلْبِ الشَّجَرَةِ ، فَمِنْ اخْتَصَصَ مِنَ الْعِبَادِ فَتَحَ عَلَيْهِ بَابَ حُبِّهِ حَتَّى هَاجَ مَا فِي قَلْبِهِ يَسْمُو^(٧) إِلَى الَّذِي عِنْدَ رَبِّهِ ، فَلَا يَزَالُ قَلْبُهُ فِي السَّيْرِ ، وَحُبُّ اللَّهِ فِي مَزِيدٍ ، وَهَيْجُ^(٨) الْعَبْدِ فِي مَزِيدٍ ، حَتَّى يَصِيرَ الْعَبْدُ هَائِمًا بِهِ ؛ فَكَمَا كَانَ هَذَا فِي الْأَصْلِ يُسَرَّ^(٩) فَحَقِيقٌ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ

(١) راجع صحيح الإمام مسلم (٢٠٦٢) .

(٢) أهتروا : استهتروا .

(٣) مباین : مغاير ومخالف .

(٤) بدا : ظهر وانجلي .

(٥) اللب واللباب : صريح كل شيء وخالصه ومحضه .

(٦) لب الشجرة : قلبها .

(٧) يسمو : يرتقي ويرتفع .

(٨) هيج العبد : ثورته وهذا من المصطلحات الصوفية أيضاً فتأمل .

(٩) سُرَّ في [ب] .

يُسِرُّ ذَلِكَ فيما بينه وبين رَبِّهِ ، ولا يُبْدِيهِ ^(١) حتى يكون ذلك مَصُوناً فيما بينه وبينه ، ويجتهدُ ألاَّ يشتهرَ فيُنْسَبَ إلى ذلك فيَقْتَضَى غداً صدق ذلك وحقايقه ووفارته ^(٢) ؛ فَيَسْتَحِي من ذلك .

أَلَا تَرَى إلى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذَكَرُوا مِثَّةً ^(٣) اللَّهُ عَلَيْهِم بالإسلام طابت نفوسُهُمْ ، فقالوا : إِنَّا لَنَحِبُّ رَبَّنَا ، فلو علمنا ماذا يُحِبُّ لَأَتَيْنَا مَحْبُوبَهُ ، فَأَبْتَلُوا بهذه الكلمة ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ^(٤) : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٥) .

وامتحن دعوتَهُم لمحبَّتِهِمْ إِيَّاهُ بقوله ^(٦) : ﴿ إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ .

فاقتضاهم قتالاً بهذه الصفة من الثبات ، لِيُثَبِّرَ حَقَائِقَ حُبِّهِمْ ، فلما خَرَجُوا إلى القتال فمنهم مَنْ وَفَى بذلك ، ومنهم مَنْ لَمْ يَفْ بذلك ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ تَعَالَى ^(٧) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

(١) لا يبديه : لا يظهره .

(٢) وفارته : كماله وتمامه .

(٣) مئة : نعمة .

(٤) آل عمران (٣١/٣) .

(٥) محبة العبد لله ورسوله : طاعته لهما والتزامه أمرهما ، ومحبة الله لعباده هي إنعامه عليهم بالقبول والمغفرة .

(٦) الصف (٤/٦١) راجع الفخر الرازي (١٤٤/٨) والقرطبي (٨١/١٨) والبحر المحيط (٢٦٠/٨) وجامع البيان للطبري (٥٦/٢٨) .

(٧) الصف (٣/٦١) .

وَرُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا قَالَ الْعَبْدُ اغْفِرْ لِي ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، ضَحَكَ الرَّبُّ مِنْ قَوْلِ الْعَبْدِ .

مثل رجل له عبد رباه بين يديه

فَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ عَبْدٌ تَلِيدٌ^(١) رَبَّاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَهُ عَلَيْهِ رَافَةُ الْأُمُومَةِ وَعَظْفُ الْأَبْوَةِ ؛ فَهُوَ يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ لَا يَتَّيَّرُ حَتَّى يَكُونَ فِي رِعَايَتِهِ وَكَلَاءَتِهِ^(٢) ؛ وَهَذَا الْعَبْدُ يَجُولُ وَيَتَرَدَّدُ ، فَإِذَا خَرَجَ مِنَ الْمَأْمَنِ نَالَتهُ نَكْبَةً مِنْ عَثْرَةٍ إِذَا اشْتَدَّ فِي سَعْيِهِ فَرَدَّه ، وَرَبَّمَا شَاكَّتْهُ شَوْكَةٌ ، وَرَبَّمَا خَدَشَتْهُ السَّبَاعُ بِالْبَرَاثِنِ^(٣) وَالْأَنْيَابِ ، وَالسَّيْدُ قَدْ حَذَّرَهُ ذَلِكَ ، فَإِذَا لَمْ يَأْخُذْ حِذْرَهُ نَالَتهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ ، فَفَزِعَ إِلَى الْأَدْوِيَةِ وَالْمَرَاهِمِ يُدَاوِي نَكْبَاتِهِ ، وَفَزِعَ إِلَى مِيقَاسِ يَنْزَعِ شَوْكَتَهُ ، فَهُوَ يَتَرَدَّدُ فِي طَلَبِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لِلتَّدَاوِي بِهَا ؛ وَهَذَا كُلُّهُ مَوْجُودٌ عِنْدَ سَيِّدِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِدَائِهِ ، وَأَرْفَقُ بِمُدَاوَاتِهِ وَالْطَّفُ ، فَيَتْرَكُهُ السَّيْدُ فِي التَّرَدُّدِ حَتَّى يَغِيَا وَيَعْجِزُ وَيَأْيِسُ^(٤) ، فَإِذَا أَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَزِعَ إِلَى سَيِّدِهِ طَالِباً مِنْ عِنْدِهِ دَوَاءً وَعِلَاجَهُ ، فَإِذَا صَارَ إِلَى سَيِّدِهِ بِتِلْكَ الْحَالِ ضَحِكَ مِنْهُ كَأَنَّهُ يَقُولُ : جِئْتَنِي بَعْدَمَا اقْتَدَرْتُ وَتَرَدَّدْتُ فِي الْاِقْتِدَارِ كَالْمُسْتَغْنِي بِمَا

(١) التليد : ما اشتريته صغيراً فكبر ونما عندك ، وهو الذي ولد ببلاد العجم ثم حمل صغيراً إلى بلاد العرب .

(٢) كلاءه : حرسه ورعاه وتولاه وتعهده بعنايته .

(٣) البراثن : جمع برثن وهو مخلب الأسد والكف مع الأصابع وهو لل سبع مثل الاصبع للإنسان .

(٤) يائس : يئس .

عندك ، فلما عجزت وأيست جِئْتِي شِئْتُ أَوْ أُبَيْتَ ؛ وَسَيِّدُهُ جَوَادُ
 كريم ، حسن الخُلُق ، واسع الصدر ، وليس^(١) بَكَزٍّ ولا لئيم ،
 فيضحك إلى عَبْدِهِ بِجَهْلِهِ وَقَلَّتْهُ وَضَعْفُهُ ، وَعَجَزَهُ وَقَفَرَهُ .

فكذلك العَبْدُ أَمْرُهُ رَبُّهُ أَنْ يَكُونَ واقفاً بين يديه مُرَاقِباً لمشيئاته
 فيه ، ساعياً في أمره ، يَسْعَى العَبْدُ خَائِفاً لِمَسَاحِطِهِ^(٢) ، معظماً
 لأُمُورِهِ ، شاكراً لِأَنْعُمِهِ ، عارفاً لِمِئْتِهِ ، عالماً بِإِحْسَانِهِ ، لاحظاً إلى
 فَضْلِهِ ، واثقاً بما تَكْفَّلَ له من رزقه ؛ فذهب العَبْدُ فبرح من المقام ،
 وأعرض عن المراقبة ، وأقبل على نَهَمَاتِ^(٣) نَفْسِهِ ، حتى ضَيَّعَ أَمْرَهُ ،
 وذهب في مَسَاحِطِهِ ، كالدَّابَّةِ الْحَرُونَ^(٤) الْجُمُوحِ^(٥) ؛ حَرَنَ على رَبِّهِ
 في جميع أمره وَنَهْيِهِ ، فاستخفَّ بِحَقِّهِ ، واستهانَ بِأَمْرِهِ ، وعظمَ نَفْسَهُ ،
 وتكبرَ بِأَحْوَالِهِ ، وكفرَ بِنِعَمِهِ ، وأنكرَ مِئْتَهُ ، وَجَهَلَ إِحْسَانَهُ ، وَعَمِيَ عن
 فَضْلِهِ ، وَتَذَبَذَبَ عَقْلُهُ في شَأْنٍ مَا تَكْفَّلَ له به ، ثم ذهب [٥٩] يترددُ
 في الصلاة والصُّوم ، والصَّدَقَةِ والحج والجهاد ، وأنواعِ أَعْمَالِ البر ،
 يُرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ من رَبِّهِ ، وَيَنْجِيَهَا من عَذَابِهِ بهذه الأشياءِ ؛ فَأَيُّ
 خَائِبٍ أَخْيَبُ من هذا حيثَ يَعْمَلُ مِثْلَ هذه الأشياءِ ، فلا يكون مَفْزَعُهُ
 إلى رحمته ، وافتقاره إلى مغفرته . فهذا أحمقُ جاهلُ برَبِّهِ ، أَخَافُ أَنْ
 يَكْلَهُ اللَّهُ إلى عمله حتى يَفْضَحَهُ على رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ .

(١) الكز : البخل وهو اللئيم .

(٢) المساخت : مقعد القضب .

(٣) النهمات : جمع نهمة وهي الشهوة والنزوع إلى الشيء .

(٤) الحرون : الدابة التي تقف إذا هي تستحث .

(٥) جموح الفرس : ثورته وغلبه لفارسه .

وقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما رُوي عنه^(١) : أُنَّ
ليس أحدٌ منكم يُنْجِيهِ عَمَلُهُ . قالوا : ولا أنتَ يا رسولَ الله ؟ قال : ولا
أنا ، إلا أن يتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَتِهِ .

والعاقِلُ الْمُتَنَبِّهَ عَقَلَ هَذَا الْبَابِ ، فَعَمِلَ جَمِيعَ أَعْمَالِ الْبِرِّ ،
وَرَمَى بِهَا خَلْفَ ظَهْرِهِ وَلِسَانِهِ ، لَا يَفْتُرُ^(٢) عَنْ الدَّعَاءِ وَالنَّدَاءِ عِنْدَ
التَّضَرُّعِ ، وَعَيْنًا قَلْبِهِ شَاخِصَتَانِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، يَغْسِلُهُ بِمَاءِ الرَّحْمَةِ ،
فَيَصْلُحُ حِينَئِذٍ لِلْمَغْفَرَةِ ؛ فَعِنْدَهَا إِذَا قَالَ : اغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذَّنُوبَ
إِلَّا أَنْتَ ضَحَكَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : عَبْدِي كَانَ بَيْنَ
يَدَيَّ ، فَتَرَكَ الْمَقَامَ فَأَذْنَبَ ، ثُمَّ نَدِمَ فَجَالَ وَتَرَدَّدَ ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ
فَرَجًا ، فَأَيْسَ^(٣) مِنَ الْجَمِيعِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَيَّ ، عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُدَاوِيَهُ
مَنْ هَذَا إِلَّا أَنَا ، لِأَنِّي لَمْ أَجْعَلِ الْمَغْفِرَةَ بِيَدٍ غَيْرِي ، وَإِذَا ضَحَكَ إِلَى
عَبْدِهِ لَمْ يُحَاسِبْهُ .

وَرُويَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : أَفْضَلُ
الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِينَ يَلْقَوْنَ فِي الصَّفِّ فَلَا يَلْتَفِتُونَ بِوُجُوهِهِمْ
حَتَّى يُقْتَلُوا ، أَوْلَئِكَ يَتَلَبَّطُونَ^(٤) فِي الْغُرَفِ الْأَعْلَى^(٥) مِنَ الْجَنَّةِ ،

(١) وجاء الحديث بلفظ « قال صلى الله عليه وسلم : لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا :
ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل » راجع
صحيح الإمام مسلم (٢١٢٩) و (٢١٧٠) .
ويتغمده الله برحمته : يستره بها ويلبسه إياها .

(٢) يفتُر : من الفتور وهو الضعف .

(٣) أيس : سأم ومل وتقال أيضاً (يش) .

(٤) يتلبطون : يتمرغون ويمرحون في النعيم .

(٥) لعل الأصح (العلا) .

يضحك إليهم الرب ؛ إنَّ الربَّ إذا ضحك إلى قومٍ فلا حِسَابَ عليهم . والمغفرة حجابُ الرحمة ؛ فإذا ستر ذنبَ عَبْدٍ وتَخَطَّى بذلك السَّتر فقد نَجَا من العذاب ؛ لأنَّ الرَّأفة قد استكملت ، والعَرَض والحِسَاب باقٍ على العَبْد ؛ فإذا ضحك الله إليه نَجَا من العَرَض والحِسَاب ؛ لأنَّ الضحك من الجُود ؛ فإذا استَعَمَلَ على العبد جوده نَجَا وكأنه لم يُذنب .

مثل الهوى في الآدمي

وَمِثْلُ الْهَوَى فِي الْآدَمِيِّ كَالسَّحَابِ الْمُطْبَقِ^(١) عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا قَدْ أَحَاطَ بِالْأَفْقِ ، وَمِنْ وَرَاءِ السَّحَابِ شَمْسٌ ؛ فَإِذَا انْكَشَفَتِ الشَّمْسُ صَارَ النَّهَارُ كَاللَّيْلِ ، فَإِذَا انْجَلَتْ^(٢) عَنِ الْكُسُوفِ فِي سَحَابٍ فَذَاكَ نَهَارٌ مُقِيمٌ ذُو غُبَارٍ وَغَيْمٍ ، فَإِذَا انْقَشَعَ مِنْهَا مِثْلُ رَوْزَنَةٍ^(٣) حَتَّى بَدَأَ مِنْهَا بِمَقْدَارٍ ذَلِكَ ، فَأَشْرَقَ نَوْرُهَا فِي الْأَرْضِ أَضَاءَتْ الْأَرْضُ كُلُّهَا بِقَدَرٍ مَا أَشْرَقَ فِي تِلْكَ الرَّوْزَنَةِ ، فَلَا تَزَالُ تَنْقَشَعُ ، وَتَتَّسِعُ تِلْكَ الرَّوْزَنَةُ حَتَّى تَنْقَشَعَ كُلُّهَا ، وَتَفْضِي^(٤) فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَفْقِ ، فَتَصِيرُ السَّمَاءُ مُصْجِحَةً ، وَالشَّمْسُ بَارِزَةً مُشْرِقَةً بِكَمَالِهَا عَلَى جَمِيعِ الْأَرْضِ فِي التَّلِّ وَالْجَبَلِ ، فَالْأَوَادِيَّةُ^(٥) وَالْأَمْصَارُ ، وَالْقُرَى وَالْبَيُوتَاتُ وَالْكُؤَى^(٦) ، فَيَقْدَرُ مَا يَنْقَشَعُ

(١) المطبق على الأرض : الذي غشاها وغطاها .

(٢) انجلت : انكشفت وظهرت .

(٣) روزنة : الكوة .

(٤) وفضي [حاشية ب] .

(٥) الوادي : هو الطريق بين الجبال والأكام والتلال .

(٦) الكوى : جمع كوة .

السحابُ تُشْرِقُ الأرضُ بنورها ، ثم يَقْدِرُ ما يَبْقَى فَأِشْرَاقُهَا مُنْكَمِنْ (١) ، وهي محتجبةٌ بذلك الباقي من الغيم . فكذلك الهوى في الآدمي مُطْبِقٌ على الفؤاد في الصُّدْر ؛ والنور في القلب كالشمس المنكمنة في السحاب ، فلا ينتفع بِحَرِّها وإِشْرَاقِها . وإذا غَرَّ العَدُوُّ حتى أَشْرَكَ بالله فقد انكشفت شَمْسُهُ ، وصارت معرفتُهُ في كُفْرِهِ ؛ والكفْرُ الغِطاءُ ، فصار صَدْرُهُ كاللَّيْلِ المظلم ، وهو عالمٌ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ ورازِقُهُ ، وَمُؤِمَّتُهُ ومالِكُهُ ؛ والعِلْمُ المُنْكَمِنْ في تلك الظلمة لا مستنير لعيني فؤاده ، وهو يَقُولُ : رَبِّي اللَّهُ ثُمَّ لَا يَسْتَقِيمُ ؛ قال اللَّهُ تعالى (٢) : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وَمَنْ (٣) يُدَبِّرُ الْأُمُورَ ؟ وَمَنْ يَرْزُقُكَ ؟ وَمَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ؟ وَمَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ؟ فسيقولن الله ، ثم أشركوا به . قال الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قل ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٤) . فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ .

وإِنَّمَا حَمَلُهُمْ عَلَى الشَّرْكِ الْهَوَى ؛ لِأَنَّ الْهَوَى يَطْلُبُ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ ، والتَّجَا (٥) من أَجْلِ الْمَضَرَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ إِلَى الْأَوْثَانِ ؛ وذلك قوله

(١) منكمن : كامن .

(٢) الزخرف (٩/٤٣) قال الإمام القرطبي رحمه الله : « أقرأوا له سبحانه وتعالى بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم وسفهاً » اهـ .
الجامع لأحكام القرآن (٦٤/١٦) ط . دار الكتب .

(٣) قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يَدْبِرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يونس (٣١/١٠) .

(٤) يونس (٣١/١٠ ، ٣٢) .

(٥) ومن التجأ [ج] والوارد هنا من [أ ، ب] .

تعالى (١) : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (٢) .

وقال (٣) : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ ﴾ (٤) .

وقال (٥) : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ (٦) .

فإذا منَّ الله على عبدٍ فتح رَوْزَنَةً مِنْ [هذا (٧)] الهواءِ المُطْبَقِ بالنورِ الذي لاقى هذا الطَّبَقَ فخرَّقه ، وخلص إلى قلبه إشراقه ، فقد خرجت شمسُه من الكسوف ، وأشرق الصَّدْرُ بنورِ الله ، فاستقرَّ القلبُ وأمين .

فهَذَا عَبْدٌ مَمْنُونٌ عليه بالإيمان ، حَبَّبَ إليه الإيمانَ ورَزَّيْنَه في قلبه ؛ والذي لم يَمَنَّ عليه بذلك فَقَلْبُهُ في غِلَافٍ ؛ وذلك الغِلَافُ هو الهَوَى المُطْبَقِ ؛ وذلك قوله تعالى (٨) : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ ؛ أي على بَصَرِ فؤاده غِشَاوَةً ؛ وتلك الغِشَاوَةُ هو (٩) الهَوَى ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

(١) الزمر (٣/٣٩) راجع حاشية الصاوي على الجلالين (٣/٣٦٦) .

(٢) زلفى : قرية .

(٣) الزمر (٤٣/٣٩) .

(٤) الشفعاء : الأصنام .

(٥) مريم (٨١/١٩) .

(٦) واتخذوا : يقصد بهم مشركي قريش ، وعزاً : أعوانا وناصرين .

(٧) كذا في [ب] .

(٨) الجاثية (٢٣/٤٥) .

(٩) كذا ورد بالأصول .

وذلك قوله عز وجل^(١) : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ ؛ وهو الغطاء ، وذلك الهوى ؛ فإذا مَنَّ اللَّهُ عليه بهذا النور خرق ذلك الهوى ، فاستقرَّ إشراقُهُ في مكانِ الهوى ، وَرَحَلَ الهوى عن مَوْضِعِهِ ، فَوَلَجَ^(٢) ذلك الإِشراقُ في الصِّدر ، فَأَضَاءَ واستنار ، فزَكَا .

وقال الله تعالى^(٣) : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾^(٤) ، أَي دَسَّ تِلْكَ الرُّوزَنَةَ بِظُلْمَةِ الهوى وَظُلْمَةِ الشَّرِكِ ، فالخائبُ خَابَ عن الحِظِّ ؛ لأنه غابَ يَوْمَ القسمة عن المَقْسَمِ يومَ المقادير قَبْلَ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ والعَرْشِ والكرسي واللُّوحِ ، فلم يَحْتَضِ^(٥) من ذلك النور ؛ غاب وخاب ؛ وذلك قوله تعالى^(٦) : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

وقال لمن شهد المَقْسَمِ يومَ المقادير^(٧) : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ .

وقال^(٨) : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾^(٩) .

(١) الكهف (٥٧/١٨) .

(٢) أُولِجَ [ج] وولج : دخل .

(٣) الشمس (٩/٩١ ، ١٠) .

راجع القرطبي (٧٧/٢٠) والفخر الرازي (٤٣٩/٨) والطبري (١٣٥/٣٠) والبحر المحيط (٤٧٧/٨) .

(٤) قال ابن الأعرابي : « وقد خاب من دسأها ؛ أَي دس نفسه في جملة الصالحين ، وليس فيهم » اهـ .

(٥) فلم يحظ [ب] .

(٦) النور [٤٠/٢٤] .

(٧) الأنعام (١٢٢/٦) .

(٨) الزمر (٢٢/٣٩) .

(٩) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٤٧/١٥) .

فهذا عَبْدٌ قد مَنَّ اللَّهُ عليه حتى فتح من هذا الهوى الْمُطْبِقِ رَوَزَتَهُ ، حتى أشرق فيها نُورُ المعرفةِ في الصدر ، فوجدَ رَبَّهُ ، واستقامَ له ، وذلك قوله تعالى (١) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ .

الآخرون مثل العنكبوت

والآخرون قالوا : (رَبُّنَا اللَّهُ) لِمَا وضع فيهم من العلمِ بِهِ ، ثم رَاغُوا وقالوا بأفواههم ؛ طلباً للمنافع وَهَرَباً من المضار ، فلم يَسْتَقِيمُوا واتَّخَذُوا من دونه أولياءَ يحتلبونهم ويستدرونَ مَنَافِعَهُمْ منهم ، ويستظهرون (٢) بهم ، وَيَتَّخِذُونَهُمْ من دونِ اللَّهِ وَلِجَةً يَأْمُنُونَ في تلكِ الْوَلِجَةِ (٣) ؛ فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، لَا يَسْتُرُ وَلَا يَدْفَعُ حَرّاً وَلَا بَرْدًا وَلَا يَأْتِي بخير .

ما في خطبة له عليه السلام

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في خطبته :
 إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : جَعَلْتُ (٤) عِبَادِي كُلَّهُمْ حُنَفَاءَ (٥) ، فَأَمَرْتُهُمْ أَلَّا يَشْرِكُوا بِي شَيْئاً ، فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ ، فَأَحَالَتْهُمْ (٦) عَنْ دِينِهِمْ وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي .

(١) فصلت (٤١/٣٠) ، الأحقاف (٤٦/١٣) .

راجع تفسير القرطبي (١٥/٣٥٨) .

(٢) يستظهرون : يتقوون .

(٣) الوليجة : من يُعتمد عليه من غير الأهل ، وهو وليجتهم أي لصيق بهم .

(٤) خلقت [في صحيح الإمام مسلم] .

(٥) حنفاء : مسلمين على الحنيفية السمحة .

(٦) في رواية (فاجتالتهن) أي استخفتهن فذهبت بهم ، ولعل هذا تحريف من الناسخ .

وحولتهن : صرفت بهم عن الحق والصواب .

فهؤلاء صنف لم يَمُنَّ الله عليهم بنور الهداية ، وَمَنْ هَدَاهُ حَبَّبَ
إليه الإيمان بحبه ، وَزَيَّنَهُ في قلبه بالعقل الذي هَدَى إليه ؛ فثبت على
التوحيد ، وَوَفَّى بِإِلَهِهِ إِلَّا الله ، ثم اقتضاه الطاعة في الأمر والنهي .

فكلُّما وَفَّى العبد بهذه الطاعة في جميع متقلبه^(١) ، ووقع عليه
الجهد والتعب ، واجتهد واحتمل التعب كان إنما يعمل في اتساع هذه
الرَّوْزَةِ ، وانقشاع هذا الهوى ؛ فلا يزال يُوسَّعُها حتى تَغِيْبَ في نواحي
صَدْرِهِ إلى جَوْفِهِ ، فيبقى هناك مسجوناً ، فيموت في الغمِّ غَمِّ
الجوف ؛ لأنه لَمَّا جَاءَهُ النورُ الأول حتى خرق تلك الرَّوْزَةَ كان ذلك
من المِنَّةِ ، فَقَبِلَ أَمْرَ اللَّهِ في أَنْ يُطِيعَهُ في كلِّ أموره كهيئة العبيد ؛
فيعبده بالطاعة ؛ فابْتَلَاهُ بالأمر والنَّهي ، لينظر كيف وفَّاه بما أَمَرَ
وقَبِلَ ، فكلُّما أَطَاعَ في أمرٍ أَمَدَّ من ذلك النور ، فلا يزال في مزيد من
المَدَدِ ، فكلُّما صعد إلى اللَّهِ منه طاعةٌ أَمَدَّهُ اللَّهُ بِمَدَدٍ من ذلك النور ،
فإذا جاء النورُ الزائد وقع على الهوى ، فرحله عن مكانه ، واستقرَّ في
موضعه ؛ فلا يزال هذا دَابَّ^(٢) العَبْدِ في الطاعة وشأن الله تعالى في
المَزِيدِ حتى يطبق الصدر بالنور ، وَيَغِيْبُ الْهَوَى كُلَّهُ مِنْ نَوَاحِي الصَّدرِ
إلى الجَوْفِ ؛ لأنَّ الْهَوَى مُظْلَمٌ ؛ فإذا جاء مَدَدُ النور ومزيده أَشْرَقَ ذلك
المكان ، وغابت ظُلْمَةُ الْهَوَى حتى يَمْتَلِئَ الصَّدْرُ نوراً ، كما كان
مُتَمَلِّئاً من الْهَوَى ، وتُشْرِقُ الشَّمْسُ بكاملها من قلبه في صَدْرِهِ ، فإذا
لاحظ بِنُورِ تلك الشمس مَلِكَ الْعَظَمَةِ سَبَى^(٣) قَلْبَهُ حُبُّ اللَّهِ ، وإذا

(١) جميع متقلبه : مختلف أحواله ومتباين ظروفه .

(٢) دَابَّ العبد : شأنه .

(٣) سَبَى قلبه : أسره .

لاحظ ملك الجلال أحاطت به الخشية ، ولزِمَه الخوف ، ووقفه مكان الهية ؛ فعلى المحبة قرار القلب في الباطن ، والهيئة غشاء الحب حتى لا يضطرب القلب ، وتسكن هَاشِيشَةُ^(١) النفس في تلك الهيئة .
وتصديق ما قلنا في شأن المدد في قول الله تعالى^(٢) : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ، وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ .

فكلما عمِلَ العبد طاعةً فإنما يعملها من الاهتداء ، فيزيده الله هُدًى ؛ أي نوراً يُورثه التَّقْوَى ، ولا تكون التقوى إلا من الخوف والخشية .

السلام للأمة من إبراهيم :

وقول إبراهيم لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به ، فَلَقِيَهُ في السماء السابعة ، فقال له : أَقْرَىءُ^(٣) أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلامَ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِأَنَّ الْجَنَّةَ قِيَعَانُ^(٤) طيبة التربة ، عذبة الماء ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا^(٥) سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ .

مثل رجل غرس غرساً

فَمَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ غَرَسَ غَرَساً فِي بُسْتَانِهِ ، وَكَانَ بِذَرِهِ أَلْوَاناً :

(١) هش : ارتاح واطمأن .

(٢) محمد (١٧/٤٧) .

(٣) أقْرَىءُ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلامَ : أبلغهم إياه .

(٤) القاع : هو الأرض المظتمنة التي انفرجت عنها الآكام والجبال وجمع القاع قيعان ، وقِيعَة وقِيع ، وأقوع وأقواع راجع مختار الصحاح ص ٥٥٦ .

(٥) الغرس : المغروس من الزرع وجمعه أغراس وغراس . والغراس بالكسر فسيل النخل .

من الرياحين ألواناً ، ومن الثمار ألواناً ، فَنَبَتَ على هيئة ما بَذَرَ ؛
فكذلك بَذَرَ التسبيحَ غَيْرُ بَذَرِ الحمد ؛ ولكلِّ كلمةٍ بذرٍ سِوَى بَذَرِ
الأخرى ، فَمَنْبَتُهُ مِنْ بذره . وكل بَذَرٍ له جَوْهَرٌ وَطَعْمٌ وريحٌ وَثَمَرَةٌ ؛
فكذلك هذه الكلمات : لكلِّ كلمةٍ جَوْهَرٌ وَطَعْمٌ وَثَمَرَةٌ ؛ فجوهر
« سبحان الله » الطُّهْرُ والنَّزَاهَةُ ، وَطَعْمُهُ السَّعَةُ والغِنَى ، وريحُهُ
الرُّوحُ^(١) ، وَثَمَرَتُهُ التَّقْوَى .

وجَوْهَرُ الحَمْدِ الحب ، وَطَعْمُهُ الحنين والشوق والحلاوة ،
ورِيحُهُ الفَرَحُ ، وَثَمَرَتُهُ نَفَاذُ مشيئته في الحكم والقسم .

وجَوْهَرُ التهليل^(٢) الوَلَهُ^(٣) بالهيته ، وَطَعْمُهُ الامتلاء والغنى ،
ورِيحُهُ البَصَرُ ، وَثَمَرَتُهُ الحرية والخروج من الرقِّ والاعتزاز^(٤) بالله .

وجَوْهَرُ التكبير الكبير والاحتِشَاءُ^(٥) ، وَطَعْمُهُ السَّمَاخَةُ والنزاهة ،
وَثَمَرَتُهُ القوةُ في أَمْرِ الله تعالى ، فَإِذَا بَذَرَ نبت هناك على تُرابٍ وقد
خرج ذلك الترابُ من الرضوان ، فَأَرَضَهُ لِبَقَةٍ^(٦) ، والماءُ من الحياة
والرحمة ، والبذرُ من الصفات ؛ فما ظنُّكَ بنبات أصله من الرضوان
والحياة والصفات ؟ كيف تكونُ تلك الرياحين وتلك الثمار ؟ فكلُّ يكون
نَبْتُهُ وَثَمَرَتُهُ على قَدَرٍ ما خَرَجَتْ مِنْهُ الكلمةُ يقيناً وَمَعْرِفَةً وَعِلْماً ، وهو

(١) الروح : الرحمة .

(٢) التهليل : قول لا إله إلا الله .

(٣) الوله : الحنين والشوق .

(٤) الاعتزاز بالله : الاستنصار بجواره .

(٥) الاحتشاء : الامتلاء .

(٦) أرض لبقة : لائقة .

قوله تعالى^(١) : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾^(٢) .

فَحُسْنُ الْكَلِمَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُرُوجِ مِنْهُ ، وَحُسْنِ الْخُرُوجِ مِنْهُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَادِينِ بِحُسْنِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ وَالْيَقِينِ وَالْعَقْلِ ، فَعَلَى حَسَبِ ذَلِكَ يُزَادُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ حُسْنُ الْمَسَاكِينِ وَالْأَزْوَاجِ ، وَالْكَسْوَةِ وَالْثَّمَارِ وَالْبَسَاتِينِ ، وَالْأَفْرَاحِ وَالْوُجُوهِ وَالْأَجْسَادِ وَالْخُدَمِ ؛ فَقَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى حُسْنَ الْجَنَّةِ فِي الدَّرَجَاتِ عَلَى قَدْرِ حُسْنِ أَعْمَالِهِمْ وَعُبودِيَّتِهِمْ ؛ فَبِالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْعَقْلِ تَحْسُنُ الْأَشْيَاءُ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ ، وَبِالنَّفْسِ تَطْيَبُ وَتَثْبُتُ وَتَدُومُ .

مثل القلب والنفس

مَثَلُ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ مَثَلُ أَمِيرٍ وَلِيٍّ بَلَدَةٍ ، وَوَلِيٍّ بَنَدَرَتِهَا آخَرُ ، فَالْأَمِيرُ يَصْلِي بِالنَّاسِ ، وَتَتَحَوَّلُ النَّاسُ بِالْمَوَاعِظِ فِي الْخُطْبِ ، وَيُقِيمُ الْحُدُودَ ، وَيُؤَدِّبُ الرِّعِيَّةَ ، وَيُقِيمُ أَوْدَهُمْ^(٣) بِالْتَّعْلِيمِ مَرَّةً وَبِالْتَّعْزِيرِ^(٤) وَالْحَبْسِ مَرَّةً ، وَمَرَّةً بِالْجَوَائِزِ وَالْخَلْعِ^(٥) وَالْحُمْلَانِ^(٦) وَالطَّعَامِ عَلَى مَوَائِدِهِ ، وَالْبُنْدَارِ^(٧) يَجْمَعُ الْمَالَ وَالْخَرَاجَ وَالْعُشُورَ^(٨) وَالصَّدَقَاتِ ، وَهُوَ

(١) الشورى (٢٣/٤٢) راجع القرطبي (٢٠/١٦) .

(٢) يقترب : يكتسب .

(٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) التعزير : هو التأديب بالزجر والضرب وغيره دون الحد .

(٥) الخلع : ما يخلع على الإنسان .

(٦) الحملان : ما يحمل على متنه من الدواب والأنعام .

(٧) البندار : مشتق من البنادرة وهم التجار يلزمون المعادن ، وهم أيضاً الذين يخزنون

البضائع استثماراً لها وقت الغلاء .

(٨) عشرت المال : أخذت عشرة .

مُوكَلٌّ بِأَرْزَاقِ الْجُنْدِ ؛ فَالسلطانُ لِلأَمِيرِ ، وَبَيْتُ المَالِ لِلْبُنْدَارِ .

فَالقَلْبُ أَمِيرٌ ، وَلَهُ سُلْطَانُ المَعْرِفَةِ بِمِطَالَعَةِ المَلَكُوتِ ، وَمَقَامُهُ مِنَ الجَلَالِ والعِظَمَةِ وَمَلِكِ الهَيْبَةِ ؛ فَهُوَ الَّذِي يَقِفُ فِي مَقَامِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى فِي المَلَكُوتِ ؛ وَيُقِيمُ أَوْدَ^(١) الجَوَارِحِ وَيُؤَدِّبُهُمْ ، وَيَسِيرُ بِهِمْ بِسِيرَةِ الطَّاعَةِ ، وَالنَّفْسُ بُنْدَارُ يَجْمَعُ الْأَمْوَالَ كُلَّهَا بِبَابِ الشُّكْرِ وَبَابِ الصَّبْرِ ، وَتَقُومُ بِجَمِيعِ الفَرَايِضِ فَتُؤَدِّيهِهَا إِلَى الْحَقِّ ، وَتَمْنَعُ عَنْ أَذْنَانِ^(٢) الْإِثَامِ تَوَرُّعًا وَتَقْدُسًا^(٣) ، وَتَتَمَسَّكُنُ^(٤) وَتَتَخَشَّعُ^(٥) لِرَبِّهَا ؛ فَمَا دَامَ الْأَمِيرُ مُحَافِظًا عَلَى إِمْرَتِهِ ضَابِطًا لَهَا ، مُشْرِفًا عَلَى أَذَبِ الرِّعْيَةِ ، وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْأَجَلِّ فِي مَقَامِهِ ، يُرَاقِبُ أُمُورَهُ وَمَا يَخْرُجُ لَهُ مِنَ التَّوْقِيعِ لَهُ بِالْبَابِ ، وَصَائِنًا لِسُلْطَانِهِ ، وَفِي رَعِيَّتِهِ مَهِييًا^(٦) - فَأَمْرُهُ مُسْتَوٍ^(٧) ، وَوَلَايَتُهُ عَزِيزَةٌ ، وَمَا دَامَ الْبُنْدَارُ مُشْرِفًا عَلَى أُمُورِ دِيْوَانِهِ مُحَصِّنًا لِأَبْوَابِ الْأَمْوَالِ ، مُسْتَقْصِيًا^(٨) فِي جَمْعِهِ ، ضَابِطًا لَهُ - فَأَمْرُهُ قَوِيٌّ ، وَخَزَائِنُهُ مُحْشُوَّةٌ بِالْأَمْوَالِ ، فَتَمْتَنِي دَعَاهُمَا^(٩) الْمَلِكُ فَوْجُدهُمَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ أَكْرَمَهُمَا وَقَرَّبَهُمَا وَرَضِيَ عَنْهُمَا ، وَحَلًّا مُحَلًّا الْخَاصَةِ فِي جَوَازِ الْأَمْرِ وَنَفَازِ الْقَوْلِ .

(١) يَقِيمُ أَوْدَ الجَوَارِحِ : يَقُومُ اعْوِجَاجُهَا وَاعْتِلَالُهَا .

(٢) أَذْنَانِ : أَرْجَاسُ وَأُدْرَانُ وَأَوْسَاحُ .

(٣) تَقْدُسًا : تَطْهَرُ .

(٤) تَتَمَسَّكُنُ : تَظْهَرُ الْمَسْكَنَةُ .

(٥) تَتَخَشَّعُ : تَظْهَرُ الْخُشُوعُ .

(٦) مَهِييًا : مَوْقَرًا .

(٧) مُسْتَوٍ (بِالْأَصُولِ) وَهُوَ تَحْرِيفٌ وَالْمَعْنَى مُسْتَقِيمٌ .

(٨) مُسْتَقْصِيًا : مُتَحَرِّيًا .

(٩) يَقْصِدُ بِهِمَا الْأَمِيرُ وَالْبُنْدَارُ .

فَإِذَا ذَهَبَ الْبُنْدَارُ يَخْتَانُ^(١) وَيَحْجِزُ مِنَ الْأَمْوَالِ لِنَفْسِهِ الذُّخَايِرَ ،
وَأَشْغَلَ نَفْسَهُ بِالْمَلَاهِي وَمِلَادِ النِّعَمِ ، وَتَرَكَ الْإِشْرَافَ عَلَى أُمُورِهِ ،
وَالِاسْتِقْصَاءَ فِي اقْتِضَاءِ حَقِّ بَيْتِ الْمَالِ حَتَّى ضَاعَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَالِ ؛ وَمَا
صَارَ بِيَدِهِ مِنْ ذَلِكَ سَرَقَ بَعْضاً فَاحْتَجَنَهُ^(٢) لِنَفْسِهِ ؛ ثُمَّ لَمْ يُقْنِعْهُ هَذَا
الَّذِي فَعَلَ حَتَّى قَصَدَ لَخْذَعِ^(٣) الْأَمِيرِ [٦١] وَاسْتَمَالَتهُ إِلَى نَفْسِهِ ،
لِيُشَارِكَهُ فِي أُمُورِهِ ، وَلِيَأْمَنَ نَاجِيَتَهُ ، وَطَمَعَ أَنْ يَجْعَلَهُ عَوْنًا لِنَفْسِهِ وَتَحْتَ
يَدِهِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ سُلْطَانٌ وَلَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ إِلَّا لَهُ ،
فَصَيَّرَ الْأَمِيرَ تَابِعًا لَهُ فِي لَهْوِهِ وَلَعْبِهِ وَفَسَادِهِ ، كَبَعْضِ عَبِيدِهِ ، حَتَّى قَوِيَ
عَلَيْهِ قُوَّةٌ أَخَذَ مِنْهُ إِمْرَتَهُ وَوِلَايَتَهُ ، فَمَتَى مَا دَعَا بِهِمَا الْمَلِكُ وَجَدَهُمَا بِهِذِهِ
الْصِّفَةِ مَا يَقُولُ لِهَذَا الْأَمِيرِ ؟ كَيْفَ يُعَاقِبُهُ ؟ وَمَاذَا يَقُولُ لِلْبُنْدَارِ ؟ وَبِأَيَّةِ
عُقُوبَةٍ يُعَاقِبُهُ ؟ فَإِنَّ عُقُوبَةَ الْأَمِيرِ حَيْثُ انْخَدَعَ لِلْبُنْدَارِ أَعْظَمُ ؛ فَعُقُوبَةُ
الْأَمِيرِ أَنْ يَعْزِلَهُ ، ثُمَّ يَقْتَضِيهِ الْأَمْوَالُ ، وَيُخَافُ أَلَّا يُؤَلِّيهَ أَبَدًا ؛ وَعُقُوبَةُ
الْبُنْدَارِ أَنْ يَحْبِسَهُ ، ثُمَّ يَقْتَضِيهِ الْأَمْوَالُ ، وَرَفَعَ الْحِسَابَ مُحْكَمًا ؛
فَالْبُنْدَارُ مَسْجُونٌ بِالْأَمْوَالِ ، إِذَا جَاءَ بِهَا خَلَّى عَنْهُ . وَالْأَمِيرُ مَعْزُولٌ
مَطْرُودٌ مَهَانٌ^(٤) مَسْلُوبٌ ، مُشْرِفٌ عَلَى ضَرْبِ الْعُنُقِ^(٥) . فَكَذَلِكَ النَّفْسُ
ضَيَّعَتِ الْفَرَائِضَ ، وَتَوَثَّبَتْ^(٦) فِي الْمَحَارِمِ ، وَخَانَتِ الْأَمَانَةَ وَالْوَفَاءَ
بِالْعَهْدِ الَّذِي رُفِعَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْمِيثَاقِ ، فَضَيَّعَ الْبُنْدُوكِيَّةَ^(٧) ، وَحَلَّ وَثَاقَ^(٨)

(١) يَخْتَانُ : يَخُونُ . (٢) احْتَجَنَهُ : احْتَجَزَهُ .

(٣) خَدَعَهُ : خَتَلَهُ وَغَدَرَ بِهِ حَيْثُ أَخَذَهُ عَلَى غُرَةٍ .

(٤) مَهَانٌ : مَهِينٌ وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

(٥) ضَرْبُ الْعُنُقِ : كُنَايَةٌ عَنِ الْقَتْلِ .

(٦) تَوَثَّبَتْ فِي الْمَحَارِمِ : اسْتَدَامَتْ اجْتِرَاحَهَا وَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهَا .

(٧) الْبُنْدَاكُ : هُمُ الْمُقِيمُونَ بِالْبَلَدِ .

(٨) وَثَاقُ الْجَوَارِحِ : الْقَيْدُ يَقِيدُهَا وَيَكْبَحُ جَمَاحَهَا .

الجوارح الذي أوثق يوم الميثاق ، وأخلى بيت المال من الأموال ، وأجاع الجُندَ وأظمأهم وأعراهم ، وسلکهم في البَوادي (١) بلا ماءٍ حتى عطشوا . شغل جوارحه عن الطاعات في ارتكاب الحرامات ، وشغل سمعه عن المواعظ باللغو والأباطيل ، وبصره عن الاعتبار بالملاهي واللذات والزينة ، ونسي المقابر والبلى ، ولها عن ذكر المعاد ، وسها عن المبدل والمتنهي من أين ؟ وإلى أين ؟ ثم لم يقنعها ذلك ، حتى استمالت القلب ، فلم تزل تُخادعه ، حتى أسرته وصيرته تابعا لها ، وتحت يديها مقهوراً ذليلاً ، تقود بخطامه (٢) حيث شاءت ؛ وذهب سلطان المعرفة ، ووقعت الغارة في كنوز القلب ؛ فإذا قدما على الله طولبت النفس بالفرائض والغرامات والجنايات ، وما ضيعت من الأمانات ، واشتملت عليه من الظلم للعبيد ، وسجنت ؛ وطولب القلب بالعهد واللواء (٣) ؛ فإذا لم يوجد معه ضربت عنقه ، فصار مع الأعداء ، وخرج اسمه من الأولياء ، والعهد في باطن إيمانه ، واللواء على طرف لسانه ؛ وهي الكلمة العليا .

مثل من سار إلى الله حتى وصل إلى محل القربة

مَثَلُ مَنْ سَارَ بقلبه إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَحَلِّ الْقُرْبَةِ ، وَأَعْطِيَ سِرَاجاً يَمْشِي بِهِ فِي أُمُورِهِ ، لِيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ ، مَثَلُ رَجُلٍ سَارَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ فِي طَرِيقٍ ؛ فَهُوَ يَتَعَسَّفُ (٤) ، فوجد سِرَاجاً

(١) البوادي : جمع مفردة بادية وهي خلاف الحضر .

(٢) الخطام : الزمام ، وهو ما يوضع على أنف البعير لاقتياده .

(٣) اللواء : العلم .

(٤) يتعسف الطريق : يحيد عنه ويميل عن جادته .

يَسْتَضِيءُ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ مَا يُكِينُ^(١) سِرَاجَهُ مِنَ الرِّيحِ ، فَهَاجَتْ رِيحٌ لَمْ يَأْمَنْ مِنْ انْطِفَائِهِ ؛ فَلَيْسَ هَذَا بِأَمْرِ مُحْكَمٍ وَلَا وَثِيقٍ ؛ فَكَذَلِكَ مَنْ سَارَ إِلَى اللَّهِ فَوَصَلَ إِلَى مَحَلِّ الْقُرْبَةِ ، فَأُعْطِيَ سِرَاجاً يَمْشِي بِهِ فِي أُمُورِهِ لِيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ ، فَهُوَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ ، لِأَنَّهُ إِذَا وَجَدَ السِّرَاجَ وَنَفْسَهُ حَيَّةً بَعْدَ ، وَالْهَوَى مِنْهُ بِمَرَصَدٍ مَعَ الْعَدُوِّ ، فَطَالَ بِذَلِكَ السِّرَاجَ سَعَةً أُمُورِهِ ، وَعَرَفَهُ بِصِفَاتِهِ ، وَأَشْرَقَ فِي صَدْرِهِ نَوْرٌ ذَلِكَ الْجَمَالَ ، وَنَوْرُ الْبَهَاءِ ، وَنَوْرُ الْبَهْجَةِ ؛ فَامْتَلَأَ صَدْرُهُ فَرَجاً ، وَطَالَ كَرَمُهُ وَجُودُهُ وَمَجْدُهُ ، فَهَاجَتْ رِيَاحُ الشَّهَوَاتِ مِنْهُ لِعَوَارِضِ الدُّنْيَا الَّتِي يَلْوَحُ لَهَا [بِهَا] ^(٢) الْعَدُوُّ ، وَيَرْجُو بِذَلِكَ سَقَطَتُهُ ، فَتَحَيَّرَتْ نَفْسُهُ وَتَشَجَّعَتْ عَلَى الْأُمُورِ ، فَرَمَتْ بِهِ فِي أَوْدِيَةِ الْمَهَالِكِ ؛ فَإِذَا كَاسَ^(٣) الْعَبْدُ ، وَاسْتَعْمَلَ الْكِيَاَسَةَ تَجَنَّبَ أَسْبَابَ الْآفَاتِ ، وَأَبْقَى عَلَى عَطَايَاهُ الَّتِي أُعْطِيَ فِي مَحَلِّ الْقُرْبَةِ إِنْقَاءَ رَجُلٍ لِبَسَ ثَوْباً خَطِيراً^(٤) ذَا ثَمَنِ ، فَصَانَهُ أَنْ يَلْبَسَهُ فِي وَقْتِ هَيْجَانِ الرِّيحِ ، وَاغْتَرَارِ^(٥) الْهَوَاءِ اتِّقَاءً عَلَى ذَهَابِ طَرَاوَتِهِ ، وَحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى الدَّقِيقِ وَالْجَلِيلِ^(٦) ، وَكَبَّحَ بَلْجَامَ النَّفْسِ عَلَى التَّجَرِّيِّ وَالتَّجَشُّعِ ، وَلَزِمَ الدُّعَاءَ وَالتَّضَرُّعَ ، وَالْحَجَّ فِي طَلَبِ الثَّبَاتِ ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأَوْدَعَ اللَّهُ نَفْسَهُ وَدِينَهُ وَأَمَانَتَهُ ؛ فَإِذَا كَانَ هَكَذَا رُفِعَ مِنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ إِلَى الْقَبْضَةِ ، فَإِذَا وَقَعَ فِي الْقَبْضَةِ وَقَعَ فِي الثَّبَاتِ وَالْحِرْزِ ، وَالْحِفْظِ وَالْمَأْمَنِ ، وَصَارَ بِهِ يَسْمَعُ

(١) يَكُنْ سِرَاجُهُ : يَسْتَرُهُ . (٢) سَاقَطَةٌ مِنَ الْأَصُولِ [حَاشِيَةُ الْمَطْبُوعَةِ] .

(٣) كَاسَ الْعَبْدُ : صَارَ ذَا كِيَاَسَةٍ أَيْ فُتِنَ وَفُهِمَ وَظُرِفَ .

(٤) خَطِيراً : عَظِيمُ الْقَدْرِ وَالْقِيَمَةِ .

(٥) وَاغْتَرَارَ [ج] وَالْوَارِدُ فِي [ب وَج] .

(٦) الْجَلِيلُ : الْعَظِيمُ الْخَطَرِ .

وَيُبْصِرُ وَيَنْطِقُ ؛ وَبِهِ يَعْقِلُ وَيَبْطِشُ ، وَبِهِ يَمْشِي ، فَقَدْ وَقَعَ سِرَاجُهُ فِي الْكِئِ ، وَلَا تَقْدِرُ الرِّيحُ أَنْ تَطْفِئَهُ .

مثل الذي يترك مجاهدة النفس

وَمَثَلُ الَّذِي يَسْتَوِلِي عَلَيْهِ الْعَجْزُ حَتَّى يَتْرَكَ مُجَاهِدَةَ النَّفْسِ ، وَحَتَّى يَدْعَ^(١) الْإِخْلَاصَ فِي الْأُمُورِ وَطَلَبَ الصِّدْقَ حَتَّى يَصِيرَ مُتَّصِنًا مُرَائِيًا مُدَاهِنًا^(٢) مِخْلَطًا^(٣) ، يَخْضَعُ لِلْمُلُوكِ ، وَيَتَمَلَّقُ لِلْأَغْنِيَاءِ ، وَيَتَصَنَّعُ عِنْدَ الْعَامَةِ ، كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعْدُودِ اسْمِهِ فِي الرِّجَالِ ، فَلَمَّا عُرِّي وَجِدَ خُنْثَى ، فَاسْمُهُ اسْمُ الرِّجَالِ ، وَهَيْئَتُهُ هَيْئَةُ الرِّجَالِ ، وَفَعَلُهُ فِعْلُ الْإِنَاثِ ؛ فَإِذَا كَانَ هَذَا وَضِعًا مِنَ الْخَلْقِ ، ذَنْبًا خَطَرًا شَخْصُهُ ، فَكَيْفَ يَكُونُ غَدًا هَذَا الْمُتَصَنِّعُ الْمُرَائِي ، الْمَلِيقُ^(٤) لِلْأَغْنِيَاءِ ، الْمُتَبَصِّصُ^(٥) لِلْمُلُوكِ خَضُوعًا وَطَمَعًا .

مثل من ترك المجاهدة في وقت طاعة النفس

وَمَثَلُ مَنْ تَرَكَ الْمُجَاهِدَةَ فِي وَقْتِ طَاعَةِ النَّفْسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ مُحَارِبًا بِسِلَاحٍ تَامَ وَدَابَّةٍ فَارِهَةٍ^(٦) ، وَجَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ؛ فَلَمَّا صَارَ

(١) يدع : يترك .

(٢) المداهنة : النفاق .

(٣) المخلط : الممازج الذي يخلط في الأمور .

(٤) الملق : اللطف والمودة .

(٥) بصص ويصبص الكلب : إذا حرك ذنبه .

(٦) الفارهة : القوة الطويلة .

إِلَى مَصَافِّ الْعَدُوِّ، وَنَشِبَتِ الْحَرْبُ ذَهَبَ هَذَا فَدَفَنَ سِلَاحَهُ فِي التُّرَابِ،
 وَخَلَّى (١) دَابَّتَهُ كَيْ لَا يُقَالَ : تَقَدَّمَ إِلَى الْقِتَالِ ، فَخَابَ عَنِ الزَّحْمَةِ ؛ إِذْ
 تَشَبَّهَ بِالْمُجَاهِدِينَ وَلَيْسَ مِنْهُمْ ، كَمَا فَعَلَ جَدُّ (٢) بَن قَيْسِ السَّلَمِيِّ يَوْمَ
 بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 مُحْرِمٌ مَمْنُوعٌ عَنِ الْبَيْتِ وَالطَّوَافِ بِهِ ، وَالْهَدْيُ (٣) مَحْبُوسٌ عَنْ بُلُوغِ
 مَحَلِّهِ ؛ وَوُجَّهَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ،
 فَلَمَّا أَبْطَأَ وَقَعَ الْخَبَرُ فِي الْعَسْكَرِ أَنَّ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتِلَ ، فَارْتَجَّ
 الْعَسْكَرُ بِمَا هَاجَ ؛ وَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ
 الشَّجَرَةِ ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ عَلَى أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ وَيُحَارِبُوا ، فَبَايَعُوهُ عَلَى
 الْمَوْتِ - يَعْنِي أَنْ يَقَاتِلُوا وَلَا يَفِرُّوا حَتَّى يَمُوتُوا - وَكَانُوا أَلْفًا وَثَمَانِمِائَةً ،
 فَبَايَعُوهُ كُلَّهُمْ إِلَّا جَدُّ بَن قَيْسٍ ، فَإِنَّهُ أَقَامَ بَعِيرَهُ ، وَاخْتَبَأَ تَحْتَ إِبْطِ
 بَعِيرِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (٤) : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
 يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ .

وَالْخَائِبُ عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ فِي سَابِقِ الْعِلْمِ خَائِبٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ .

مثل من يقصر في الفرائض

مَثَلُ مَنْ يَقْصُرُ فِي الْفَرَائِضِ مَثَلُ عَبْدٍ يُؤَدِّي ضَرِيَّةَ مَوْلَاهُ شَهْرًا

(١) خَلَّى الدَابَّةَ : تَرَكَهَا .

(٢) رَاجَعَ تَرْجُمَةَ قَيْسِ السَّلَمِيِّ فِي الْكَامِلِ لِابْنِ الْأَثِيرِ (٤/٥٣ ، ٩٥ ، ١٠٤) ، وَمَرْجُوعُ
 الذَّهَبِ لِلْمَسْعُودِيِّ (٥/١٩٥) ط . بَارِيسُ وَجُمُهورية الْأَنْسَابِ (٢٥٠) .

(٣) الْهَدْيُ : مَا يَهْدَى إِلَى الْحَرَمِ مِنَ النِّعَمِ .

(٤) الْفَتْحُ (٤٨/١٨) رَاجَعَ الْجَامِعَ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِلْقُرْطُبِيِّ (١٦/٢٧٤) ﴿ وَمَا بَعْدَهَا .

شَهْرًا ، فَالْعَبْدُ الشُّؤْءُ يُؤَخَّرُ أَدَاءَهُ ، وَيُمَاطِلُ ^(١) مَوْلَاهُ حَتَّى يَطْعَنَ ^(٢) فِي الشَّهْرِ الثَّانِي فَيَتَوَسَّطُهُ ، فَإِذَا أَدَّاهَا خَلَطَ بِهَا زُيُوفًا ^(٣) وَبَهْرَجَةً ^(٤) ، فَهَذَا الْمَوْلَى فِي كَرَمِهِ وَسَهُولَةِ أَمْرِهِ وَمُعَامَلَتِهِ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْ عَبْدِهِ ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَهُ [٦٢] فِي الْمَنْزِلَةِ فِي أَذْنَى الْمَرَاتِبِ مُسْتَخِفًّا بِهِ وَبِأَحْوَالِهِ .

مثل من يضيع حقوق الله

وَمَثَلُ مَنْ يَضِيعُ حَقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى مِثْلَ عَبْدٍ وَكُلِّهِ مَوْلَاهُ بِأَمْوَالِهِ وَعَبِيدِهِ ، فَطَالَعَ عَمَلَهُ ، فَوَجَدَهُ إِنَّمَا هِمَّتُهُ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ ، فَإِذَا شَبِعَ وَقَضَى نَهْمَتَهُ ^(٥) مِنْ فَرْجِهِ وَاكْتَسَى ، رَفَعَ الْبَالَ عَنْ عَمَلِ مَوْلَاهُ وَعَبِيدِهِ ، فَهَذَا عَبْدٌ سَاقِطُ الْمَنْزِلَةِ .

مثل من قرأ القرآن بغير فهم

وَمَثَلُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ بَغَيْرِ فَهْمٍ مَثَلُ رَجُلٍ أُعْطِيَ جَوَاهِرَ الْعِرَاقِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَنْقُلْهَا إِلَى خِرَاسَانَ بِكَرَاءٍ ^(٦) مِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَعَامِلٌ بِهَا هُنَاكَ ؛ فَإِنْ عَامَلْتَ بِهَا هُنَاكَ فَلَكَ رِبْحُهَا ، وَرِبْحُهَا مِلْءُ الْبَيْوتَاتِ ذَهَبًا وَفِضَّةً .

(١) يماطل : يؤخر .

(٢) يطعن في الشهر : يدخل فيه .

(٣) خلط بها زيوفاً : رديئة .

(٤) بهرجة : باطل رديء وهذا في [ج] ووردت بتهرجة في [أ] وهذا تحريف خطير .

(٥) النهمة : الشهوة والحاجة والرغبة .

(٦) الكراء : الأجرة .

فلما وافى خراسان اجتزاً^(١) بالكِرَاءِ ، وترك المعاملة ، فأُعْطِيَ
الكِرَاءَ مائةَ درهمٍ على حَمْلِهِ ، وصُرِفَتْ^(٢) المعاملةُ إلى غيره .

فكَذَلِكَ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يُعَامِلِ اللَّهَ بِتِلْكَ الْجَوَاهِرِ الَّتِي تَعْطَى
فِيهِ ، لَهُ أَجْرُ تَعَبِهِ وَعَنَائِهِ فِي قِرَاءَتِهِ ، وَفَاتَتْهُ الْمُعَامَلَةُ وَأَرْبَاحُهَا .

مثل الواعظ الناصح

مَثَلُ الْوَاعِظِ النَّاصِحِ مَثَلُ عَبْدٍ لِلْمَلِكِ ، وَلِلْمَلِكِ عَيْدٌ آخَرُونَ سِوَاهُ
مِنْ بَيْنِ رَاعٍ وَحَرَاثٍ ، وَصَانِعٍ وَتَاجِرٍ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ وَكُلَ بِعَمَلٍ
مِنَ الْأَعْمَالِ ، يُطَالِبُونَ بِالْقِيَامِ بِذَلِكَ وَأَدَاءِ الْغَلَّةِ^(٣) ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
يَدَّعِي أَنَّهُ يَحِبُّ مَوْلَاهُ ، وَيَنْصَحُهُ وَيُطِيعُهُ فِي أَمْرِهِ ، مُقْبِلٌ عَلَى أَمْرِهِ
الَّذِي وَكُلَ بِهِ ، مُوفِياً لوظيفته التي وَظَّفَتْ^(٤) عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ ؛ وَكَانَ
هَذَا الْعَبْدُ الْوَاحِدُ مِنْ بَيْنِهِمْ يُوفِرُ عَلَى الْمَلِكِ وَظِيفَتَهُ مِنَ الْعَمَلِ ، وَمَعَ
ذَلِكَ يَطُوفُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْعَبِيدِ ، وَيُحُثُّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى الْقِيَامِ
بِعَمَلِ الْمَلِكِ وَبِتَوْفِيرِ مَا وَظَّفَ عَلَيْهِ ، وَالْإِشْفَاقِ عَلَى أَعْمَالِهِ ، وَيُجِلُّ
بِصُدُورِهِمْ أَعْمَالَهُ ، وَيَصِفُ لَهُمْ قَدْرَ الْمَلِكِ وَغِنَاهُ ، وَسَعَتَهُ وَقُوَّتَهُ ،
وَيُؤَمِّلُهُمْ كَرَمَهُ وَجُودَهُ ، وَحُسْنَ خَلْقِهِ ، وَجَمِيلَ مُعَامَلَتِهِ ، وَمَحَاسِنَ مَا
أَتَى إِلَيْهِمْ وَعَظَفَ عَلَيْهِمْ ، وَيُحَثُّهُمْ عَلَى النَّصِيحَةِ لِهَذَا فِي رَغْبَةٍ
أَغْنَاهُمْ ، وَلِهَذَا فِي صِنَاعَتِهِ ، وَلِهَذَا فِي تِجَارَتِهِ ، وَيُعِينُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ؛

(١) اجتزاً : اكتفى .

(٢) صرفت : حولت .

(٣) الغلة : هي ما يحصل ويغل من ريع الأرض أو أجرتها .

(٤) وظفت عليه : قدرت .

لَا يَحْمِلُهُ^(١) عَلَى ذَلِكَ إِلَّا حُبُّ الْمَلِكِ ، وَتَعْظِيمُ أَمْرِهِ ، وَتَوْقِيرُ شَأْنِهِ ،
وَأَنْ تَقَعَ الْأُمُورُ مِنْهُ مُسَارَةً ، وَالْمَلِكُ مُطَّلِعٌ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُ وَعَلَى
سَائِرِ^(٢) هَؤُلَاءِ الْعَبِيدِ ، كُلُّ وَاحِدٍ إِنَّمَا بَالُهُ . . .^(٣) وَيَبَالُ هَذَا الْوَاحِدُ
بِقُرْبِهِ ؛ وَمَوْلَاهُ قَدْ صَرَفَ هِمَّتَهُ أَجْمَعَ عَنْ نَفْسِهِ ، وَجَمَعَ هُمُومَهُ أَجْمَعَ ،
فَجَعَلَهَا هِمًّا وَاحِدًا لِرَبِّهِ .

فَهَذَا عَبْدٌ نَاصَحَ اللَّهَ فَنَصَحَهُ اللَّهُ ، وَأَحَبَّ اللَّهَ فَأَحَبَّهُ اللَّهُ ،
وَتَوَلَّى اللَّهَ فَتَوَلَّاهُ اللَّهُ ، فَهُوَ وَلِيُّ اللَّهِ ، وَاللَّهُ وَلِيُّهِ .

فَمَا ظَنُّكَ بِاللَّهِ يَوْمَ يَدْعُو هَؤُلَاءِ الْعَبِيدَ ، وَتَدْعُوهُ ، فَيَجْزِيهِمْ عَلَى
أَعْمَالِهِمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ ؟ مَاذَا يَكُونُ جَزَاءُ الْعَبْدِ النَّاصِحِ ؟ وَإِنَّمَا أَدْرِكُ
النَّصِيحَةَ بِفَضْلِ عَقْلِ فِيهِ ؛ عَقْلَ إِلَهَةٍ ، وَعَقْلَ عَنْهُ تَذْبِيرِهِ وَأُمُورِهِ ؛
وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَعْمَلُونَ وَيَعْلَمُونَ النَّاسَ
الْخَيْرَ ، وَيُعْطُونَ أَجُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ .

أَنْبَأَنَا صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بِإِسْنَادِهِ قَالَ : أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى
إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ يَا مُوسَى إِنَّمَا أُجْزِي النَّاسَ عَلَى قَدْرِ
عُقُولِهِمْ^(٤) .

وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : الْعَقْلُ ثَلَاثَةٌ

(١) يَحْمِلُهُ عَلَى الشَّيْءِ : يَكْرِهُهُ عَلَيْهِ ، وَيُدْفَعُهُ إِلَيْهِ .

(٢) سَائِرِ الْقَوْمِ : الْبَاقِي مِنْهُمْ .

(٣) فِي الْأَصْلِ كَلِمَةٌ غَيْرُ مَقْرُوءَةٍ .

(٤) وَعَلَى قَدْرِ الْعَقْلِ وَالْفَهْمِ يَكُونُ التَّدْبِيرُ فِي آلَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَآيَاتِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

أجزاء : حُسْنُ المعرفة لله ، وحُسْنُ الطاعة لله ، وحُسْنُ الصَّبْرِ لله^(١) .
وَرُوِيَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن
جبريل عليه السلام عن الله تعالى أنه قال : ما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ
أداءٍ فَرَأَيْتُني ، وإنه لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بعد ذلك بالنَّوافِلِ حتى أُحِبَّهُ ؛ وما
يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ عَبْدٌ بِمِثْلِ النَّصْحِ ؛ فإذا أُحِبَّته كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ ، وَيَدَهُ
وَرِجْلَهُ ، وَفُؤَادَهُ ، فَبِئْسَ سَمْعٌ ، وَبِئْسَ بَصَرٌ ، وَبِئْسَ يَدٌ ، وَبِئْسَ رِجْلٌ ، وَبِئْسَ فُؤَادٌ .

وكانت مشيئةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم تكفياً كما تكفى^(٢)
السفينة ؛ فإنما كان ذلك لامْتِلَآئِهِ من عَظَمَةِ الله تعالى ، وكان يَمِيلُ به
جلالُ الله هكذا وهكذا ؛ لأنَّ الجلالَ لا يسكن .

وَرُوِيَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى :
أَحَبُّ ما تَعَبَّدَ لي به عَبْدِي النَّصْحُ لي .

وَكَذَلِكَ ما رُوِيَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً مُوَكَّلِينَ بِأَرْزَاقِ بني آدم ، قال : أَيْما^(٣) عَبْدٌ وَجَدْتُمُوهُ
طَلَبَ ، فَإِنْ تَحَرَّى الْعَدْلَ فَطَيَّبُوا وَيَسِّرُوا ، وَإِنْ تَعَدَّى إِلَى غير ذلك
فَخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذلك ، ثم لا يَنالُ فَوْقَ الدَّرَجَةِ التي كَتَبْتُها له .

فقد ذكر في هذا الحديث أَنَّ مَنْ جَمَعَ هُمُومَهُ فجعلها هَمًّا واحداً
ضمن الخالق رِزْقَهُ وكفى .

(١) والعقل هو المنوط به المعرفة والطاعة والصبر لأنه المعول عليه في التفرقة بين البدائل
وهو الذي يقدر المعرفة ويعرف خطر الجهل ويعرف الطاعة وينتهي عن المعصية لأنه
يدرك خطورتها ويدرك الجزاء على الصبر .

(٢) تكفى تكفياً : تمايل إلى الأمام .

(٣) كذا ورد في جميع النسخ الخطية والمطبوعة .

مثل من أُعْطِيَ نور الهداية

مثل مَنْ أُعْطِيَ نور الهداية ، واستنار قلبه ، ثم أضاء صدره من نور القلب ، مثل رجل في بيتٍ مظلم لا يَهْتَدِي لما فيه ، وفي البيت جواهر وألوان من النعمة ناحية منه ، وفي الناحية الأخرى مَزْبَلَةٌ^(١) وَجَرَفٌ^(٢) يتردَّى^(٣) فيها ، وعقارب وشوك ؛ وهو في تلك الظلمة سَكْرَانٌ لا يُفِيق بجوهر ونعمة ، ولا لِقْدَارَ مَزْبَلَةٍ وَتَرَدَّى جَرَفٌ ، وَلَدَغَةٌ عقرب ، وَوَحْزَةٌ شوكة من سُكْرِهِ ، فَأُعْطِيَ سِرَاجاً فَأَفَاقَ من سُكْرِهِ ، فَأَضَاءَتْ له جُذُرَانِ البيت من ضَوْءِ ذلك السراج ، فمن قام خلفه فإنما يَعْلَمُ بحاله وهيئته وَنَعْتِهِ^(٤) مما يترأى^(٥) له من الظلِّ على ذلك الجدار المُضِيِّ الذي هو أمامه ، فإذا كان ذا جُثَّةٍ عَرَفَ ذلك بما وقع من الظل على ذلك الجدار ، وَعَرَفَ صورته بما وَقَعَ له النَّعْتُ بذلك الظلِّ على الجدار ، وإنَّ أَسَارَ بأصابعه مِنْ خَلْفِهِ^(٦) وَقَعَ ظِلُّ إشارته على الجدار ، فعلم عدد الأصابع وما يَنْقُصُ منها وما يَزِيدُ ، فصارت له رؤية ذلك الظلِّ ، كأنك التفت إليه فرأيتَه بعينك ، فإذا أَثَرَتْ في ذلك البيت من دُفَاقِ^(٧) التراب حتى يَثُورَ غُبَارُهُ فيمتلئ البيت ، أو أَحْرَقَتْ تَبْنًا حتى ارتفع وهاج دُخَانُهُ ، فامتلاً البيت ، حجب ذلك الغبار والدخان عَيْنِيكَ

(١) المزبلة : بفتح الباء وضمها ، وهي موضع الزبل وهو السرجين .

(٢) الجرف : ما تجرفه السيول ونحته من الأرض .

(٣) يتردى : يسقط من أعلى .

(٤) نعته : صفته .

(٥) يترأى له : يبدو ويظهر له .

(٦) هذه الإشارات تكثر في نعوت الباطنية والصوفية فتأمل .

(٧) الدفاق : الفتات الدقيق من كل شيء .

عن رُؤْيَةٍ مَا كُنْتُ تَرَاهُ عَلَى الْجِدَارِ أَمَامَكَ ، وَغَابَ ذَلِكَ الظِّلُّ الَّذِي كُنْتُ تَرَاهُ فِي ذَلِكَ الْغُبَارِ والدُّخَانِ بَغْلِبَتْهُمَا عَلَيْهِ .

فَكَذَا الَّذِي أَضَاءَ صَدْرُهُ مِنْ نُورِ قَلْبِهِ ، كَلِمَا ذَكَرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ وَشَأْنِ الْقِيَامَةِ وَالِدَارَيْنِ تَصَوَّرْتُ صُورَةً تِلْكَ الْأَشْيَاءِ لِعَيْنِي فُوَادِهِ ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ إِذَا تَصَوَّرْتُ صَارَتْ الصُّورُ ظِلًّا فِي الصَّدْرِ قُبَالَةَ^(١) عَيْنِي الْفُوَادِ ؛ لِأَنَّ الضُّوءَ مِنْ نُورِ اللَّهِ فِي صَدْرِهِ ؛ فَإِذَا جَاءَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ وَقَعَ لِلصُّورِ ظِلٌّ فِي ذَلِكَ الطُّورِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ النُّورُ ، وَلَكِنْ حَجَبَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ عَيْنِي الْفُوَادِ عَنْ رُؤْيَةِ النُّورِ بِمَقْدَارِ مَا تَصَوَّرَ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا انْتَقَلَ مِنْ فِكْرِ الْمَخْلُوقِينَ إِلَى فِكْرَةِ جَلَالِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ اِزْدَادَ الضُّوءُ ، وَلَمْ تَقَعْ لَتِلْكَ الْفِكْرَةِ صُورَةٌ ؛ لِأَنَّ ضَوْءَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ زِيَادَةٌ فِي ذَلِكَ الضُّوءِ ، لِأَنَّهُ مِنْهُ فِكْرٌ ، وَمِنْهُ [٦٣] حَدَثَ الضُّوءُ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَا حَدَثَ مِنْهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ظِلٌّ .

وَإِذَا فَكَّرَ فِي أَمْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْقِيَامَةِ وَكُلِّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ صَارَتْ تِلْكَ الصُّورُ الَّتِي تَصَوَّرْتُ بِالْفِكْرِ حَجَبًا لِعَيْنِي الْفُوَادِ عَنْ ذَلِكَ النُّورِ بِمَقْدَارِ الصُّورِ ؛ فَلِذَلِكَ سَمَّيْنَاهُ ظِلًّا ؛ فَإِذَا عَايَنَ ذَلِكَ الظِّلُّ عَلَى تِلْكَ الصُّورِ صَارَ كَأَنَّهُ يَشَاهِدُ بَعِينِي فُوَادِهِ مَا يُعَايِنُ غَدًا بَعِينِي رَأْسِهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِذَا لَحِظَ إِلَى عَظَمَةِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ أَشْرَقَ الصَّدْرُ ، وَصَارَ ذَا شُعَاعٍ كُلِّهِ ؛ فَهُوَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَأَنَّهُ يَشَاهِدُ بَعِينِي فُوَادِهِ مَا يَشَاهِدُ مِنَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالنَّظَرِ إِلَى جَلَالِهِ ، وَإِذَا خَلَا مِنَ النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا ثَارَ^(٢) دُخَانُهَا إِلَى الصَّدْرِ ؛ فَامْتَلَأَ هَذَا الصَّدْرُ دُخَانًا وَغِبَارًا ؛ الدُّخَانُ

(١) قِبَالَةَ الْعَيْنِ : حَذَوَهَا وَتَجَاهَهَا .

(٢) فَارَ [أ] وَالْوَارِدُ هُنَا مِنْ [ب] .

لحريق الشهوات ، والغُبارُ للتجبرُّ الذي في النفس من الكِبَر ، فغاب ذلك الظلُّ بتلك الصور التي صوّرت له أمور الآخرة ؛ لأنّه اختلط الضوء بالغُبار والدخان ، وافتقدت^(١) عينا الفؤاد تلك الصُّور .

فإذا ذهب يتفكّر لم يَقْدِرْ أَنْ يفكر ؛ لأنَّ بَصَرَه لا ينفذُ في ذلك الغُبارِ والدخانِ إلى صُورِ تلك الأشياءِ ؛ وقد ذهبت الصُّورُ ؛ وتصير تلك الفكر الآن حَوْلَهَا ؛ فهو يحدثُ نَفْسَه ، ويحسب أنه فكرة ، وإنما الفكرةُ توهُمُ ، والتوهُمُ في الشيء المُضَيِّء لُصُورِ الأشياءِ لك ، وإذا دام ذلك فهو فكره ، ويقال للتوهم بالأعجمية « انديشة » وللفكرة « اسكالسن » ، فالتوهُمُ أَضَلُّ ، والفكرة فَرْعٌ ممدود ؛ فبالتوهُم يتصوّر ، ويتفرع ما تصور ويمتدُّ باستقبال القلبِ ذلك ، حتى يمتدَّ ويشمر ؛ فتلك فكرة ، وإنما صارت عامّةُ أعمالِ العامة فاسدةً لهذا الذي وَصَفْنَا ، لأنَّ الأعمالَ تَصُدُّرُ عن عَيْنِي الفؤاد ، وأنَّ تدبير القلب مع العقل هناك يَتَرَاى عَيْنِي الفؤاد صور الأمور ، وَيُزَيِّنُ العقلُ فيها ما حَسَنَ لعيني الفؤاد حتى يُدَبِّرَ الفؤاد ويُمضيه .

تسمية القلب قلباً :

والقلبُ والفؤادُ هو بَضْعَةٌ^(٢) في بَضْعَةٍ ، فما بَطَنَ فالنُّورُ فيه فهو القلبُ ، سُمِّيَ قلباً لأنه بين إصبعين من أصابع الرَّحْمَنِ الخالق ، وإذا أراد الله أَنْ يَهْدِيَه بسطه فاستقام ، وإذا أراد أَنْ يُضِلَّهُ نَكَسَه^(٣) ؛ فنورُ

(١) افتقدت الشيء : طلبته في غيبته فلم تجده .

(٢) البضعة : بتسكين الضاد ، القطعة من اللحم .

(٣) نكسه : قلبه .

القلب يتأدى^(١) إلى بَصَرِ الْفؤَادِ ، فيستنير ويضيء منه الصُّدْرُ ؛ فَإِنْ شَاءَ الرَّحْمَنُ قَلْبَهُ كَيْفَ شَاءَ عَلَى مَا مَضَى مِنَ الصُّدْرِ ؛ فَالْفؤَادُ هِيَ الْبُضْعَةُ الظَّاهِرَةُ الَّتِي فِي جَوْفِهَا هَذِهِ ، وَعَلَى الْفؤَادِ عَيْنَانِ ، فَسُمِّيَ كُلُّ قَلْبًا لِاتِّصَالِهِمَا ، وَلَأنَّ أَحَدَهُمَا فِي جَوْفِ الْآخَرِ ، كَاللُّلُؤَةِ فِي الرَّجَاجَةِ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى^(٢) : ﴿ مَا كَذَبَ الْفؤَادُ مَا رَأَى ﴾ .

وقال الله تعالى في التَّغْلِيْبِ^(٣) : ﴿ وَنَقَلْبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

فَقَلْبُ الْكَافِرِ مَنْكُوسٌ ، وَبَصَرُ فؤَادِهِ مِنْ أَسْفَلِ . وَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ مَبْسُوطٌ مُتَّصِبٌ ، وَوَجْهُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى^(٤) : ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

ولما رُوي عن عَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ بَسَطَهُ فَاسْتَقَامَ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُضِلَّهُ نَكَسَهُ^(٥) .

فَنُورُ الْقَلْبِ يُتَأَدَّى^(٦) إِلَى بَصَرِ الْفؤَادِ ، فيستنير ويضيء منه

(١) يتأدى : ينتهي إليه ويصل إلى مراده منه .

(٢) النجم (١١/٥٣) .

(٣) الأنعام (١١٠/٦) راجع القرطبي (٦٥/٧) ط . دار الكتب المصرية .

(٤) لقمان (٢٢/٣١) يقول القرطبي رحمه الله : « لَأَن الْعِبَادَةَ مِنْ غَيْرِ إِحْسَانٍ ، وَلَا

معرفة القلب لا تنفع » اهـ . الجامع لأحكام القرآن (٧٤/١٤) .

(٥) نكسه : قلبه .

(٦) يتأدى إلى الشيء : يصل إليه .

الصُّدْر ، وإذا غَشَى الصُّدْرَ والفؤَادَ دُخَانُ الشهواتِ صار كبيت فيه سِرَاجٌ قد غاب ضَوْؤُهُ في ذلك الدُّخَانِ ، وأيضاً صار دُخَاناً ؛ لأنَّ الشهواتِ لها حَرِيقُ جاء من الشهواتِ المحفوفةِ ببابِ النارِ ؛ وإنما خُلِقَتْ من النارِ ، وبيابِ النارِ وُضِعَتْ ، وفي جَوْفِ كُلِّ آدَمِيٍّ منها رِيحُ تلك النارِ ، ولها اهتدت في العُروقِ إذا هاجَتْ حتى تَأْخُذَ جميعَ الجوارِحِ (١) ؛ لأنَّ العروقَ قد التَفَّتْ على الجَسَدِ كُلِّهِ ؛ فلذلك إذا هاجت شهوةٌ شيءٍ منك أَخَذَتْ في تلك السرعةِ من القَرْنِ (٢) إلى القَدَمِ ؛ لأنها هاجَتْ في العروقِ في سرعةٍ تلك الريحِ الجامحةِ (٣) ، فاشتملت على الجسدِ كُلِّهِ .

وقول النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤) : أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ أَلَيْنَ قُلُوباً وَأَرَقَ أَفْئِدَةً ؛ فإنما وَصَفَ الْقَلْبَ باللينِ ؛ لأنَّ الْقَلْبَ إنما يَلِينُ بالرحمةِ ؛ لأنه بالرحمةِ تَرْتَبُّ الأشياءُ ، فكلُّما كان الْقَلْبُ أَوْفَرَ حَظّاً من الرحمةِ كان أَلَيْنَ ، ثم يُخَافُ عليه - من اللِّينِ - العجزُ عن أمرِ الله ؛ لأنَّ اللِّينَ يُؤَدِّي إلى كَسَلِ النَّفْسِ ، فإذا وفر الله تعالى عليه الرَّحْمَةَ فَلَيِّنَهُ ، ثم فَتَحَ عليه من نُورِ العظمةِ انْكَشَفَ ذلك النُّورُ من رُطُوبَةِ الرَّحْمَةِ ، فاستدَّرَ الرَّحْمَةَ ، وعلاه نُورُ الجلالِ والهِيبَةِ ، فَصَلَبَ الْقَلْبُ ؛

(١) الجوارح : جمع جارحة وهي العضو من أعضاء الإنسان ، وهي الشلو أيضاً والجمع أشلاء .

(٢) القرن : يقصد بها الرأس .

(٣) جمع الفرس : غلب فارسه ، ويقال جمع جموحاً فهو جامع ، وجموح للمبالغة في الفعل .

(٤) الحديث رواه الشيخان ، والترمذي عن أبي هريرة ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٦/١) .

فَذَآكَ مَحْبُوبُ اللَّهِ تَعَالَى فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ أَنَّ يَكُونَ رَحِيمًا صُلْبًا ؛ فِي وَقْتِ يَسْتَعْمَلُ الرَّحْمَةَ ، وَفِي وَقْتِ يَسْتَعْمَلُ الصَّلَابَةَ .

وَلِذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : مَا رُزِقَ عَبْدٌ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنْ إِيْمَانٍ صُلْبٍ . رَوَاهُ أَبِي عَنْ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْ النَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ ، عَنْ عَوْفٍ عَنْ أَبِي السَّلِيلِ (١) .

أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْمًا رَقَّتْ قُلُوبُهُمْ عِنْدَ إِقَامَةِ الْحُدُودِ ، فَنَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى (٢) : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

صَلَابَةُ الْإِيْمَانِ :

فَحَقِيقَةُ الْإِيْمَانِ الْبَالِغِ أَنَّ يَعْمَلَ نُورَ الْعِظْمَةِ فِي قَلْبِكَ حَتَّى يَصْلُبَ الْقَلْبُ ؛ لِأَنَّ هَذَا الْاسْمَ اسْمَ الْعِظْمَةِ الْعَظْمَى ، فَتَوَلَّى الْقَلْبُ إِلَيْهِ بَعْلَمَكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ إِيْمَانَكَ بِاللَّهِ يَصْلُبُ (٣) قَلْبَكَ فِي ذَاتِهِ حَتَّى تَغِيْبَ الرَّأْفَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي تِلْكَ الصَّلَابَةِ مِنْ قَلْبِكَ .

وَذَلِكَ مِثْلُ مَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ كُتِّمَ فِي تِلْكَ الْمَخْزُومَةِ الْقُرْشِيَّةِ حَيْثُ سَرَقَتْ ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَطَعْتُهَا ، ثُمَّ نَزَلَ فَقَطَعَهَا - .

(١) هُوَ ضَرِيبُ بْنُ نَقِيرٍ ، قَالَ عَنْهُ ابْنُ سَعْدٍ « كَانَ ثِقَةً » اهـ .

رَاجِعْ تَهْذِيبَ التَّهْذِيبِ (٤٥٨/٤) وَحَاشِيَةَ الْمَطْبُوعَةِ ص ١٤٠ .

(٢) النُّورُ (٢/٢٤) .

(٣) يَصْلُبُ قَلْبَكَ : يَقْوِيهِ وَيَجْعَلُهُ ذَا صَلَابَةٍ .

رقة الفؤاد :

وَأَمَّا رَقَّةُ الْفُؤَادِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ الْيَمَنِ فَإِنَّ هَذِهِ الْبَضْعَةَ^(١) الظاهرة هي وعاء لتلك الْبَضْعَةِ الْبَاطِنَةِ ؛ فَإِذَا كَانَتْ رَقِيقَةً تَأْدَى ذَلِكَ النُّورُ الَّذِي فِي الْقَلْبِ إِلَى الصَّدْرِ ، فَنَفَّذَ الْبَضْعَةَ الظاهرة ؛ وَالْقَلْبُ بِمَنْزِلَةِ الْمَشْكَاةِ^(٢) الَّتِي فِي جَوْفِ الْقَنْدِيلِ ، وَالنُّورُ فِي الْمَشْكَاةِ ، وَالْفُؤَادُ هِيَ الزَّجَاجَةُ الَّتِي فِيهَا الْمَشْكَاةُ ، وَالْمَشْكَاةُ وَسْطَ الزَّجَاجَةِ ؛ فَكَلِمَا كَانَتْ الزَّجَاجَةُ أَرْقَ وَأَصْفَى كَانَ ضَوْءُ السَّرَاجِ أَنْفَذَ إِلَى الصَّدْرِ ، وَكَلِمَا كَانَتْ أَكْثَفَ وَأَقْلَ صَفَاءً كَانَ ضَوْءُهُ أَقْلَ [٦٤] ؛ فَإِنَّمَا مَدَحَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَيْنِ الْقَلْبِ لَوْفَارَةٍ^(٣) حَظَّهُمْ مِنَ الرَّحْمَةِ ؛ وَبِرَقَّةِ الْفُؤَادِ لِإِضَاءَةِ الصَّدْرِ مِنْهُمْ مِنْ أَجْلِ الرِّقَةِ .

فَأَمَّا الَّذِي وَصَفْنَا بِالصَّلَابَةِ فَهُوَ الْكَامِلُ ؛ لَمَّا رُويَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى أَوَانِي^(٤) فِي الْأَرْضِ إِلَّا وَهِيَ الْقُلُوبُ ، وَأَحْبُّهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَرْقُهَا وَأَصْفَاها وَأَصْلَبُهَا ؛ أَرْقُهَا لِلْإِخْوَانِ ، وَأَصْفَاها مِنَ الذُّنُوبِ ، وَأَصْلَبُهَا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى .

مثل انقياد النفس

مَثَلُ انْقِيَادِ النَّفْسِ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ مَثَلُ رَجُلٍ قِيلَ لَهُ فِي لَيْلَةٍ

(١) البضعة : القطعة من اللحم .

(٢) المشكاة : كل كوة غير نافذة .

(٣) وفارة حظهم : كثرته ، ويقال وفرة حظهم أيضاً بنفس المعنى .

(٤) أواني : جمع آنية .

شَاتِيَّة^(١) مُظْلَمَةٌ : اِحْمَلْ هَذِهِ الْحَمُولَةَ إِلَى مَوْضِع كَذَا ، فَهَالَهُ^(٢) ذَلِكَ جَدًّا ، وَثَقُلَ عَلَيْهِ ، وَهَالَهُ شَائِنُهَا ، وَأَظْهَرَ الْعَجْزَ وَالضَّعْفَ وَالْوَهْنَ^(٣) مِنْ نَفْسِهِ .

فَإِنْ قِيلَ لَهُ : اِحْمَلْهَا وَلَكَ أَلْفُ دِرْهَمٍ أَوْ دَنَانِيرٍ ، فَنَارَ فِيهِ فَرَحٌ تِلْكَ الدَّنَانِيرِ حَتَّى أَخَذَ مِنْ قَرْنِهِ^(٤) إِلَى قَدَمِهِ بِمَا رَجَا نَوَالَهُ ، فَوَجَدَ مِنَ الْقُوَّةِ مِنْ قَلْبِهِ ، فَاحْتَمَلَهَا مُسْرِعًا فِي السَّيْرِ ، وَأَظْهَرَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً ، فَإِنَّمَا قَوَّاهُ عَلَى ذَلِكَ فَرَحُ الدَّنَانِيرِ ؛ فَهَذَا مَثَلُ عَبْدٍ حَمَلَ رَجَاءَ الثَّوَابِ وَالنَّوَالِ .

وَلَوْ لَمْ يَقُلْ لَهُ : لَكَ دَنَانِيرٌ تَرْجُو نَوَالَهَا ، وَلَكِنْ قَالَ لَهُ : اِحْمَلْهَا وَإِلَّا ضَرَبْتُكَ بِالسَّيْفِ ، فَوَجَدَ مِنَ الْقُوَّةِ مَا احْتَمَلَهَا وَاسْتَخَفَّ بِهَا مِنْ خَوْفِ السَّيْفِ ؛ فَهَذَا عَبْدٌ عَمِلَ عَلَى خَوْفِ الْوَعِيدِ وَالْعِقَابِ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ طَمَعٌ وَلَا خَوْفٌ ، وَلَكِنْ قِيلَ لَهُ اِحْمَلْهَا ، فَتَلَكَّأَ وَحَرَنَ^(٥) ، وَأَظْهَرَ الْعَجْزَ عَنْهَا ، فَقِيلَ لَهُ : أَتَدْرِي أَنَّ هَذِهِ الْحَمُولَةَ لِمَنْ ؟ قَالَ : لَا . فَقِيلَ : هِيَ لِفُلَانٍ . فَذَكَرَ رَجُلٌ أَعَزَّ الْخَلْقِ عَلَيْهِ ، وَأَحْبَبَهُمْ إِلَيْهِ ، فَهَاجَ مِنْ حُبِّهِ فِي قَلْبِهِ مَا نَسَى الدَّنَانِيرَ وَالسَّيْفَ ، وَأَخَذَتْهُ مِنَ الْحُرْمَةِ^(٦) لِذَلِكَ الرَّجُلِ وَالْحَيَاءِ مَا لَا يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ تَرْكَ حَمُولَتِهِ

(١) لَيْلَةُ شَاتِيَّةٍ : ذَاتُ شَتَاءٍ وَقَرِيبُ دَرْدَنٍ .

(٢) هَالَهُ : أَفْزَعَهُ وَرَوَّعَهُ .

(٣) الْوَهْنُ : الْخَوَرُ وَالضَّعْفُ .

(٤) الْقَرْنُ : الرَّأْسُ .

(٥) الدَّابَّةُ الْحَرُونَ : إِذَا كَثُرَ أَنْ حَرَنْتُ أَيَّ اسْتَدْرَجَ بِهَا فَامْتَنَعَتْ .

(٦) الْحُرْمَةُ : الْمَهَابَةُ .

على قارعة الطريق حتى تَضِيعَ ؛ فاحتملها بقوة أشد من الأولين ، ونشاط وسرور ما لم يَعْلَمْ أَنَّهُ عليه شيء من الحمولة ؛ فهذا عَبْدٌ عَمَلٌ على حُبِّ اللَّهِ تعالى (١) ، فَحَبَّهَ اللَّهُ أَحَبَّ صاحب الحمولة ، فلا يترك نُصْحاً في ذلك العمل إلا بَذْلَهُ ، وَأَشْفَقَ إِشْفَاقاً يَصُونُهُ عن الإنكسار وعن صدوم (٢) الآفة ، لِحُبِّ صاحبها .

فالأوّل يحملها طمعا لتلك الدنانير ، فلا يكون له شفقة على تلك الحمولة أن يبلغ بها الموضع الذي أُشِيرَ له إليه ؛ وكذا الذي خُوفَ بالسيف إنما باله أن يبلغ بالحمولة المكان الذي أُمر ، ثم إن أصابها في الطريق عَثَاثٌ من صَدْمَةٍ أو تَغْيُرَ حال لا يُيَالِي ، إنما بَالَى بِحَمْلِهَا مخافة من السيف .

فالأوّل إنما باله الوصول إلى ما طمع فيه من النّوال (٣) ، وهذا الذي عَرَفَ لَمَنْ هذه الحمولة أخذته الشفقة على تلك الحمولة . فالأخير حملها محبة لصاحبها حتى احتملها إلى أن يتوقأها (٤) من الآفات ، وإبلاغها إلى الأصل .

والثاني إنما باله إبلاغها إلى الأصل للثواب والنّجاة . وكذا عُمَالُ اللَّهِ تعالى : منهم من يَعْمَلُ على الكَسَلِ والعَجْزِ على

(١) عمل على حب الله تعالى : أطاعه فيما أمر به وانتهى عما نهى عنه . قال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي : « وما تقرب إلي عبدي بأحب مما افترضته عليه .. » قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله .. ﴾ الآية

(٢) صدوم الآفة : الإصابة بها .

(٣) النوال : العطية .

(٤) يتوقأها : يصونها ويحفظها .

التجوز و « الشايدبوز »^(١) ، فإذا انتبه للوعد والنوال جد واجتهد ؛ فعند الإنتباه إنما باله الوصول إلى ما أطمع ، وليس له شفقة على المحمل^(٢) .

والثالث عمل على الحرمة والشفقة على حقوقه ؛ فوقاه العثار^(٣) ، وصدّمت النفس ، وعمله على الهشاشة^(٤) والسماحة والانطلاق .

حال المشفق :

قال له قائل : صف لنا حال المُشفق في أموره ؛ قد عرفنا الصنفين ؛ فمن هذا الثالث ؟ قال : هذا عَبْدٌ مَحِبٌّ لِرَبِّهِ ، فهو يتحرى^(٥) مَسْرَاتِهِ في الأمر ، كما روي عن الله تعالى أنه قال : يا عيسى ، أنزلني مِنْ نَفْسِكَ كَهَمَّكَ ، وتحرّ مَسْرَتِي في الأمور .

فالمحبُّ لِرَبِّهِ إنما باله من الأمور طلبُ مَسْرَاتِهِ ؛ ماذا يحبُّ رَبِّي من هذا الأمر ؟ وماذا يسره ؟

فرح الله بتوبة العبد :

أَلَا تَرَى إِلَى مَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ^(٦) : لِلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ أَحَدِكُمْ ضَلَّتْ رَاغِلُهُ عَلَيْهَا زَادَهُ

(١) كذا ورد بالأصول والمطبوعة .

(٢) المحمل : الحمل .

(٣) العثار : التعثر .

(٤) الهشاشة : الارتياح .

(٥) يتحرى : يقصد .

(٦) لأن رحمته سبحانه وتعالى سبقت غضبه .

وطعائمه وشرابه في فَلَاةٍ (١) من الأرض ، فَضْرَبَ (٢) يَمِيناً وشمالاً في طلبها فلم يجدها ، فوطَّن (٣) نفسه على الموت ، وقال : أَذْهَبُ إِلَى ذلك المكان الذي ضلت فيه راحلتي ، فرجع إليها فوجدها قائمةً هناك .

ومن السرور بعبادته يُبَاهِي (٤) بِعَمَلِ الْآدَمِيِّ لِلْمَلَائِكَةِ ، وَيَفْتَخِرُ بِهِ فِيهِمْ ؛ فيقول : يا ملائكتي ، انظروا إلى عَبْدِي ؛ فهو لَفَرَحِهِ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ وبأعماله يُبَاهِي بِهِ الْمَلَائِكَةُ .

وما جاء أَنَّهُ يُبَاهِي بِأَهْلِ عَرَفَات ، ويقول : عَبْدِي جَاؤُونِي شُعْثاً (٥) غُبْرًا (٦) مِنْ كُلِّ فِجٍّ (٧) عَمِيق .

فحقَّ عَلَى مَنْ عَقَلَ هذا أَن يَطْلُبَ فِي الْأُمُورِ بِجَهْدِهِ مَسْرَاتِهِ ، فيطلب زينة الأمور ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ زِينَةً وَكُسُوةً . وقد يرى الْأَشْيَاءَ الْعَارِفُ كَيْفَ يَتَضَاعَفُ حُسْنُهَا إِذَا كُسِيتَ وَزُيِّنَتْ وَطُيِّبَتْ . وَالْمُحِبُّ لِرَبِّهِ لَا يَرْضَى أَن يَعْمَلَ لَهُ عَلَى خُبْتِ النَّفْسِ (٨) وَالْكَرَاهَةِ وَالْعُسْرِ وَالتَّشَاقُلِ وَالتَّنْكَرِ (٩) وَالْعُبُوسِ ؛ بَلْ يَتَوَخَّى (١٠) فِي كُلِّ أَمْرٍ التَّسَارُعَ وَالْخِيفَةَ وَالسَّبْقَ ، وَالْهَشَاشَةَ (١١) وَالسَّمَاخَةَ ، وَالانْطِلَاقَ وَالْيُسْرَ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ هذا فِي وَقْتٍ عَظُمَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَعَدَّهُ نَقْصاً عَظِيماً

(١) الفلاة : المفازة لا ماء فيها .

(٢) ضرب : سار .

(٣) وطَّن نفسه على الموت : مهدداً إليه .

(٤) يباهي : يفاخر .

(٥) شعْثاً : غبر الرأس .

(٦) الغبر : من الغبار .

(٩) التنكر : المنكر .

(١٠) يتوخى : يقصد .

(٧) الفج : الطريق المهيح الواسع .

(١١) الهشاشة : الارتياح والاعتباط .

(٨) خبت النفس : لؤم وسوء الطوية .

دخل عليه ، فينظر مِنْ أين جاء هذا ، فيحتال أَنْ يُنَحِّيَهُ (١) وَيُنْفِيَهُ .

أَلَا تَرَى إِلَى قول ابن عباس رضي الله عنهما حيث جاء المؤذن ، فقال : الصلاة ! فقال ابن عباس رضي الله عنهما : إِنَّ لَنَا شِوَاءً (٢) فِي التَّنُورِ (٣) ، فَإِنْ تَنْتَظِرْ لَنَا وَإِلَّا فَادْهَبْ فَصَلِّ .

فهذا عَيْنُ مَا قُلْنَا ؛ كره ابن عباس رضي الله عنهما ، وَعَظُمَ عليه أَنْ يُجِيبَ المؤذِّنَ إِلَى الصلاة ومعه شَهْوَةُ الشَّوَاءِ ، فيدخل في الصلاة ومعه شَهْوَةُ الشَّوَاءِ ، فَتُخْبِثُ عليه نَفْسُهُ فِي حالِ القيام بين يدي الله تعالى ، وَمُنَاجَاتِهِ ، وَالْعَرَضُ عليه ، وتسليم النفس إليه ، والاعتذار إليه من التَّقْصِيرِ وَالْهَفْوَاتِ ؛ فَعَظُمَ عنده أَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ فِي ذلك الوقت تُزَاجِمُهُ فِي شَهَوَاتِهَا التي قد أَحَسَّتْ بَنَوَالِهَا ، وَأَشْرَفَتْ عَلَيْهَا ؛ فكان الأمرُ عنده أَنْ يَسْكُنَهَا بما اسْتَشْرَفَتْ (٤) له من الْأَكْلِ حتى يقوم بين يدي الله تعالى ، وليس هناك مُنَازَعٌ وَلَا مُدَّعَى شَغْلُهُ عن أمره ؛ فهذه صَدْمَةُ النفس .

وكذلك رُوي لَنَا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَتَعَشَّى فِي رَبَضٍ (٥) قَبْلَ الْمَغْرِبِ . فَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذلك فيما نَرَى مَا وَصَفْنَا لَنَا يَدْخُلُ الصلاة وَنَفْسُهُ تُنَازِعُهُ إِلَى الْعِشَاءِ .

وكذلك الذي فَعَلَ ابنُ عباس رضي الله عنهما حيث اشترى رِذَاءً

(١) ينحيه : يبعده .

(٢) شواء : هو اللحم المشوي .

(٣) التنور : هو الكانون يخبز فيه .

(٤) استشرفت : أنافت وتطلعت .

(٥) الربض : مأوى الغنم ووردت رمضان في [ب] وهو تحريف خطير .

بِأَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ تَوَخُّيًّا^(١) بِذَلِكَ [٦٥] أَنْ يَخْفَ عَلَيْهِ
الْوَلَاءُ كَيْ لَا تَعْجَزَ النَّفْسُ عَنِ الْحَمْلِ الثَّقِيلِ عَلَى النَّفْسِ .

وكذلك قيل للزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا بِأَلَيْكُمْ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَفَّ النَّاسِ صَلَاةً ؟ قَالَ : إِنَّا نُبَادِرُ
الْوَسْوَاسَ^(٢) ؛ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَوْجَزِ النَّاسِ
صَلَاةً فِي تَمَامٍ . حَدَّثَنَا بِذَلِكَ صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ ، عَنْ
قَتَادَةَ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فهَذَا شَأْنُ أَعْمَالِ الْمُحِبِّينَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ أَمْرٍ مَعَ الزِينَةِ وَالْبَهَاءِ^(٣)
يَطْلُبُ فِيهِ مُحَابَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ ؛ لِأَنَّهُ^(٤) فِي
كُلِّ أَمْرٍ لَهُ حَقُوقٌ كَثِيرَةٌ ، فَهُوَ إِنَّمَا يُشْفِقُ عَلَى تِلْكَ الْحَقُوقِ لئَلَّا يَسْتَخَفَّ
بِهَا ، فَيَعْمَلَهُ عَلَى التَّعْظِيمِ لَهُ ، وَعَلَى السَّمَاحَةِ بِنَفْسِهِ ، وَعَلَى السَّعَةِ ،
وَعَلَى تَوْفِي دُخُولِ الْخَلَلِ ، وَعَلَى الْوَفَارَةِ^(٥) ، وَتِلْكَ الْإِتِمَامِ ، وَمَعَ
هَذَا كُلِّ قَلْبُهُ إِلَى مُوَافَقَتِهِ هَلْ وَافَقَ مَسْرَّتَهُ ؟ وَهَلْ رَضِيَ بِذَلِكَ ؟ وَمَعَ
ذَلِكَ يَعْلَمُ إِنْ وَافَقَ وَرَضِيَ بِهِ أَنَّهُ مَعَ التَّقْصِيرِ جَدًّا يَسْتَحِجُّ مِنْهُ جَدًّا ،
وَأَنَّهُ عَاجِزٌ أَنْ يَبْلُغَ مَدَى مَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى ثَوَابٍ فِي
ذَلِكَ أَبَدًا ، وَرَبَّمَا فَتَحَ عَلَيْهِ بَابَ مَحَبَّتِهِ ، لَا أُعْنِي مَحَبَّةَ الْعَبْدِ ، وَلَكِنْ

(١) تَوَخُّيًّا : قَاصِدًا .

(٢) الْوَسْوَاسُ : الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ .

(٣) الْبَهَاءُ : الْحُسْنُ وَالرُّونُقُ .

(٤) لِأَنَّهُ فِي [ب وَج] .

(٥) الْوَفَارَةُ : التَّمَامُ ، وَالْوَفَرَةُ .

مَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَإِذَا فَتَحَ لَكَ ذَلِكَ الْبَابَ كَانَ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ
كَالسَّابِحِ فِي الْبَحْرِ الَّذِي قَدْ تَرَأَى لَهُ ^(١) السَّاحِلُ ، وَقَرَّتْ عَيْنُهُ ؛ فَهُوَ
يَسْبَحُ فِي نَشَاطٍ وَسُرُورٍ بِالسَّاحِلِ ، وَهُوَ يَضْطَرِبُ فِي ذَلِكَ الْمَاءِ
الصَّافِي .

فَهَذَا الْعَبْدُ إِذَا هَاجَتْ مِنْهُ تِلْكَ الْمَحَبَّةُ الَّتِي فُتِحَ لَهُ بِأُهَا صَارَ يَتَّقِدُ
كَالنَّارِ جَوْفُهُ ، فَصَبَّ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ صَبًّا ، فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي بَرْدِ الرَّحْمَةِ ،
قَدْ أَصَابَهُ رُوحُهَا وَرَطُوبَتُهَا وَلَيْنُهَا ، وَهُوَ يَسْبَحُ فِيهَا وَقَدْ شَمَّ رِيَّاحِينَ
الْيَاسْمِينَ وَالْبَسَاتِينَ الَّتِي عَلَى السَّاحِلِ ؛ لِأَنَّهُ يَسْبَحُ إِلَيْهَا فَيَتَلَقَّاهَا
فِي شِمُّهَا .

مَثَلُ عَمَالِ اللَّهِ

مَثَلُ عَمَالِ اللَّهِ تَعَالَى مَثَلُ مَلِكٍ قَطَعَ قَطِيعَةً مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَمَرَ
الْفَعْلَةَ أَنْ يَبْنُوا لَهُ قَصْرًا ذَا بِيُوتَاتٍ ^(٢) وَمَسَاكِنَ ، وَمَجَالِسَ وَبَسَاتِينَ
وَمُتَنَزَّهَاتٍ وَجَدَاوِلَ ^(٣) ، يَطْرُدُ فِيهَا الْمَاءَ فِي تِلْكَ الْمَجَالِسِ
وَالْمُتَنَزَّهَاتِ ، فَمِنْ شَأْنِ هَؤُلَاءِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِيهَا بَيْنَهُمْ مُدَبِّرٌ لِأَمْرِ هَذَا
الْقَصْرِ ، وَمُقَدَّرٌ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ ، فَيَرْفَعُ فِيهَا بِيُوتَاتٍ لِلصَّيْفِ ، وَمَسَاكِنَ
لِلشِّتَاءِ ، وَمَجَالِسَ لِلرَّيِّعِ ، وَبَسَاتِينَ لِلنُّزْهَةِ ، وَالْجَدَاوِلَ الْمَطْرُودَةَ فِي
خِلَالِ هَذِهِ الْمَجَالِسِ وَالنُّزْهَةِ . وَهَذَا أَسْتَازَهُمْ وَمِنْ بَعْدِهِ مَنْ يَهْتَدِي لِلْبِنَاءِ

(١) تَرَأَى لَهُ السَّاحِلُ : ظَهَرَ لَهُ .

(٢) بِيُوتَاتٍ : جَمْعُ بِيُوتٍ فَهُوَ جَمْعُ الْجَمْعِ .

(٣) جَدَاوِلَ : جَمْعُ جَدُولٍ وَهُوَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ .

فَيَبْنِي . وَمِنْ بَعْدِهِ تِلَامِذَةُ يَقْتَفُونَ^(١) أَثَرَهُ ، وَيَعْمَلُونَ عَلَى إِشَارَاتِهِ . وَمِنْ بَعْدِهِ النَّقْلَةُ إِلَيْهِ مِنَ الطِّينِ وَاللِّينِ ، وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ .

فَإِذَا اسْتَوَى خَرَجَ إِلَى الْمَدَبَرِ آخِرَ يَوْمِهِ عَشْرُونَ دِرْهَمًا ، وَإِلَى الثَّانِي الْأَسْتَاذَ عَشْرَةً ، وَإِلَى التِّلَامِذَةِ خَمْسَةَ خَمْسَةٍ ، وَإِلَى مَنْ يَنْقُلُ الطِّينَ عَلَى عَاتِقِهِ دِرْهَمَانِ ، وَإِلَى الْآخَرِينَ دِرْهَمًا دِرْهَمًا .

فَأَهْلُ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ^(٢) وَشِدَّةِ الْأَعْمَالِ أَجْرُهُمْ دِرْهَمَانِ وَنَحْوِهِ ، وَالْمُشِيرُ بِرَأْسِهِ وَيَدُهُ أَجْرُهُ عَشْرَةُ دِرَاهِمٍ ، وَالْمُقَدِّرُ الْمَدَبَرِ أَجْرُهُ عَشْرُونَ دِرْهَمًا ، وَلَوْلَا الْمَدَبَرُ لَبْطَلَ الْعَمَلُ كُلُّهُ ، وَلَوْلَا الثَّانِي الْأُسْتَاذُ لَنَقَصَ أَمْرُ الْمَدَبَرِ ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْآخَرِينَ لَا يَتَوَجَّهُونَ لِلْبِنَاءِ وَإِنْ دُبِّرَ لَهُمْ^(٣) ، وَقُدِّرَ لَهُمْ ؛ فَهَؤُلَاءِ أَجُورُهُمْ أَكْثَرُ وَأَوْفَرُ^(٤) ، وَتَعَبُهُمْ أَقْلُ .

بَسَاطَةُ الرِّبَوِيَّةِ وَبَسَاطَةُ الْعِبَادَةِ :

وكَذَلِكَ عُمَالُ اللَّهِ ، بَسَطَ لَهُمْ مِنْ بَابِ الْقُدْرَةِ بَسَاطَةَ الرِّبَوِيَّةِ وَبَسَاطَةَ الْعِبَادَةِ^(٥) ؛ فَأَعْلَمَهُمْ بِشَأْنِ هَذَيْنِ الْبَسَاطَتَيْنِ ، فَأَكْثَرَهُمْ مَطَالَعَةً وَمُلاحَظَةً أَعْظَمَهُمْ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَقْرَبَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَسِيلَةً ، وَأَعْظَمَهُمْ أَجْرًا .

الْأَنْبِيَاءُ أَعْظَمُ أَجْرًا :

وَلِذَلِكَ صَارَتِ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْظَمَ قَدْرًا ، وَأَوْفَرَ

(١) يَقْتَفُونَ أَثَرَهُ : يَتَّبِعُونَ سَبِيلَهُ وَمَنْهَاجَهُ .

(٢) النَّصَبُ : التَّعَبُ .

(٣) دَبَّرَ لَهُمْ : تَهَيَّأَ لَهُمْ .

(٤) أَوْفَرَ : أَكْثَرَ .

(٥) الْعِبَادَةُ بِالْأَصْلِ وَهِيَ بِنَفْسِ الْمَعْنَى .

حُظًّا وَأَجْرًا ، ثُمَّ الْأَوْلِيَاءُ مِنْ بَعْدِهِمْ^(١) ، وَكُلُّ نَبِيٍّ أَعْلَمُ بِمَا ذَكَرْنَا ؛ فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَأَكْرَمُ عَلَيْهِ ، وَأَحَبُّ إِلَيْهِ ، وَأَعْظَمُ أَجْرًا . وَكَذَلِكَ كُلُّ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ، لِأَنَّهُ بِالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ يَعْظُمُ أَمْرُهُ ، وَيَعْرِفُ أَقْدَارَ الْأُمُورِ ، وَيَعْرِفُ الْأَوْقَاتَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ هَذَا الْآدَمِيَّ ، فَأَحْيَاهُ بِالرُّوحِ ، وَفَضَّلَهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُسَخَّرِينَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْبَهَائِمِ وَالطَّيُورِ وَالْوُحُوشِ بِهَذَا الرُّوحِ .

تفضيل الموحدين :

ثُمَّ فَضَّلَ الْمَوْحِدِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ بِمَنْهِ الْعَظِيمِ بِنُورِ التَّوْحِيدِ ، فَأَحْيَا قُلُوبَهُمْ بِالْحَيَاةِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَوَجَدُوهُ ، فَأَوْفَرَهُمْ حُظًّا مِنَ الْحَيَاةِ ، وَمِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ أَعْلَمَهُمْ^(٢) بِالْعِبُودِيَّةِ ، وَأَكْيَسَهُمْ^(٣) فِيهَا ، وَأَشَدَّهُمْ قِيَامًا عَلَى السَّاقِ ، وَأَصْغَاهُمْ أَدْنَى إِلَى أَمْرِهِ ، وَأَكْثَرَهُمْ مِلَاحَظَةً إِلَى تَقْدِيرِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَأَجْهَلَهُمْ بِهِ أَعْجَزَهُمْ عَنْ ذَلِكَ .

القلب يدعو إلى الله والنفس تدعو إلى الشهوات :

فَالْقَلْبُ بِمَا فِيهِ مِنْ كُنُوزِ الْمَعْرِفَةِ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَطَلِبِ رِضْوَانِهِ ؛

(١) وهنا يقول الحكيم الترمذي : «ثم الأولياء من بعدهم» فهو لا يعطي الأولياء رتبة فوق الأنبياء كما قال أعداؤه وطاقوه بهذا المنكر وقذعوه بالكباثر ، إنما يعترف هنا بصريح النص بأن للأنبياء رتبة فوق رتبة الأولياء . رحمه الله وأكرم مثواه .

(٢) لأن الحظ الأوفر والنصيب الأكبر لمن عبد عن علم ، فلا كرامة للعابد الجاهل لأن خطره أكثر وشره مستطير ، إذ أن الشيطان كثيراً ما يتلاعب بهواجسه ويصول ويجول في عقائده وهذا أخطر ما في القضية وفضل العالم وكرامته أعظم وأجل من العابد الجاهل وهذا مما لا يخفى على ذي فهم وحكمة .

(٣) أكيسهم : من الكياسة وهي الفطنة والذكاء .

والنفس بما فيها من الهوى تدعو إلى الشهوات ولذات الدنيا ، وهي الفانية ، التي تُوجب عليك غداً الحسابَ الثقيل ، والحبسَ الطويل ، والسؤالَ المهيل^(١) ، فمن قَلَّتْ كنوزُه استولت النفسُ على قلبه ، وهُنت^(٢) إمرته ، وأخذت بعنانه فسبته^(٣) ، فبينما هو أمير إذ هو أسير في يدي الخارجي ؛ فعندها يعطلُ التدبير ، وخربت الكورة^(٤) ، وضاعت الرعية ، فبانَ العلم .

وإن النفس محتاجة إذ كانت بهذه الحال ، والقلب قليل الكنوز ؛ وإذا قَلَّتْ الكنوزُ قَلَّتْ الجنود ، وتفرَّق الحُرَّاس ، وضاعت السياسة ؛ فالنفس محتاجة إلى أن تشتغل بالأعمال المُتعبة الشاغلة لها حتى لا تصل إلى الفساد .

فلو أنَّ هذا الأميرَ عرف أنَّ هذا الخارجي ممن لا يؤمنُ خروجه عليه وهو في جواره وبلدته ، فأخذ الأمرَ بالحزم ، فعمد إلى كلِّ مَنْ يجالسه ويثق^(٥) به ، ويستظهر^(٦) به ، فحال بينه وبينه ، وعمد^(٧) إلى أسلحته فأخذها منه ، وقلده أموراً اتعبه فيها ، وشغله عن الفكر في ذلك الأمر الذي يتخوف منه ، فكذلك عامل الله إذا لم يفتح له الباب فيطالع ، فيكثر كنوزه ، وينجم^(٨) علمه بالله ، وخاف نفسه أن تخرج

(١) المهيل : من هال الشيء أي صبه .

(٢) وهنت إمرته : أضعفت شأنه .

(٣) سبته : أسرته .

(٤) الكورة : الصقع أو المدينة .

(٥) ويثقوا [ب وج] .

(٦) يستظهر به : يقوى به .

(٧) عمِد إلى الشيء : قصد إليه .

(٨) يجم : يكثر .

عليه . كما وصفنا من أمر الخارجي الذي يَشْتَهِي الإمرة .

فمن الحَزْم أَنْ يَقْطَعَ عنه الشهوات ، وَأَنْ يَنْظُرَ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الآخِرَةِ يَحْمِلُ عَنْهُ^(١) الهوى أَنْ يَنْتَقِلَ عَنْهُ إِلَى ضِدِّهِ مِمَّا لَيْسَ لَهُ فِيهِ هَوًى ؛ لِأَنَّ الطَّاعَاتِ كَثِيرَةً ؛ فَرُبَّ طَاعَةٍ تَمْلِكُهُ حَلَاوَتُهَا ، فَتَصِيرُ هَوًى ، فَيَنْتَقِلُ إِلَى مَا يَتَعَبُّ فِيهِ ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ هَوًى ؛ وَأَنْ يَتَعَبِيَ بِالْغُمُومِ وَالْهَمُومِ حَتَّى يُنْغَصَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ الَّذِي اسْتَطَابَتْهُ نَفْسُهُ بَلْهَوِهَا وَلَعِبِهَا وَبِطَالَتِهَا ، فَإِنْ فَتَحَ لَهُ صَارَ مَلِكاً مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ بِالْكَنُوزِ وَالْهِدَايَا وَالْفَوَائِدِ الَّتِي تَأْتِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَإِنْ لَمْ يَفْتَحْ لَهُ فَأَجْرُ تَعْبِهِ عِنْدَ الْمَلِكِ^(٢) الْوَفَى الْوَاحِدِ ؛ الْوَاحِدُ بَعَشْرَةٌ ، وَالوَاحِدُ بِسَبْعِمِائَةٍ ، وَالوَاحِدُ بِالْأَضْعَافِ الْكَثِيرَةِ ، وَنَفْسُهُ ذَلِيلَةٌ مَقْهُورَةٌ فِي ذَلِكَ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ . [٦٦]

فَبَنُوا إِسْرَائِيلَ حُظُوظَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرَةً ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَوْفَرُ حِظّاً ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى^(٣) : ﴿ قُلْ إِنْ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : مَا أُعْطِيَتْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ مِنَ الْيَقِينِ مَا أُعْطِيَتْ أُمَّتِي^(٤) .

وَكَذَلِكَ عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ فَلِذَلِكَ

(١) يَحْمِلُ عَلَيْهِ الْهَوَى فِي [أ] .

(٢) الْمَلِكِ : الْغَنِيِّ الْمَقْتَدِرِ .

(٣) آلِ عِمْرَانَ (٧٤/٣) .

(٤) الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْحَكِيمُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَسْعُودٍ الْكَنْدِيِّ ، وَضَعَفَهُ السِّيُوطِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (١٤٣/٢) ط . الْعِلْمِيَّةُ .

صارت بنو إسرائيل في شدة من الأعمال ، وتعب من الأذكار ؛ فكانوا يلبسون المُسَوَّحَ^(١) ويُجِيعُونَ البُطُونَ ، ويلزق أحدهم الترقوة فيشدّها بسلسلة إلى سارية^(٢) يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ ، وإذا أذنب أحدهم أصبح مكتوباً على بابه : عقوبة خطيئتك أَنْ تَقَطَّعَ أُذُنُكَ^(٣) ، أو عُضْوٌ من أعضائك ، وإذا أصاب أحدهم بَوْلٌ أو نَجَاسَةٌ لم يَطْهَرُ حتى يَقْرِضَهُ بالمِقْرَاضِ^(٤) ؛ وصدقْتُهُمْ تُقْبَلُ بنار القُرْبَانِ ، وعليهم من الأصار^(٥) والأغلال والتحرير ما تَقْشَعِرُ منه الذُّوَابُ والشُّعُورُ ، وقَتَلَ النفوس عند عبادة العِجَلِ .

وهذه الأُمَّة توفرت كُنُوزُها ، وَجَمَّتْ^(٦) علومُها بالله تعالى بفضله يَقِينُها ؛ فَخُفِّفَ عنهم الأصار ، وَأُطْلِقُوا من أغلال كثيرة ؛ اكْتَفَى من العامة بالاستغفار ، وستر عليها الذُّنُوبَ ، وَجُعِلَتِ التَّوْبَةُ منهم إلى الله لَا إلى عقوبة الأجساد ، فقال لأُولَئِكَ^(٧) : تَوَيْتُكُمْ إلى بَارِئِكُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجَلِ أَنْ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ؛ وقال لهذه الأُمَّة^(٨) : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ . وقال للنصارى ، وهم من أولئك الصنف حين قالوا : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَالثَّالِثُ^(٩) ثَلَاثَةٌ^(١٠) : ﴿ أَفَلَا

(١) المسوح : بكسر الميم جمع مسح وهي ثوب من الشعر الغليظ .

مختار الصحاح ص ٦٢٤ وتاج العروس .

(٢) السارية : الاسطوانة .

(٣) وهذه من الأمور البدعية التي تحدث عنها الحكيم الترمذي (رحمه الله) في مقام التنديد .

(٤) المقرض : القاطع الذي يقطع به .

(٥) الأصار : جمع إصر وهو الذنب .

(٦) جمت : بتشديد الميم كثرت ، قال تعالى : ﴿ وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمٍّ ﴾ أي كثيراً .

(٧) سورة البقرة (٢/٥٤) راجعها . (٩) كذا وردت في [ب] و[ج] .

(٨) الأنفال (٨/٣٨) . (١٠) سورة المائدة (٥/٧٤) .

يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فجعل تَوْبَتَهُم بآفرائهم عليه الاستغفار ؛ لأنه في وَقْتِ نَبِيِّ اللَّهِ محمد صَلَّى الله عليه وسلَّم وفي زَمَانِهِ ، فلم يَقْبَلْ ذلك منهم في ذلك الوقت عندما عَبَدُوا الْعِجْلَ إِلَّا قَتَلَ النفس ، وَقَبِلَ في هذا الزَّمَانِ الاستغفار منهم مِنْ عبادتهم عُزِيراً وعبادة النصارى المسيح ، لِأَنَّ هذا وَقْتُ إِقبالِ اللَّهِ على هذه الْأُمَّة وتفضيلهم باليقين والعلم بالله .

وقال رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم لِمُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عنه :
أَخْلَصَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ .

فإنَّما دَعَاهُ إِلَى الإخلاصِ لِلَّهِ قَلْباً وَقَوْلًا وَفِعْلاً ؛ فقليلُ العملِ مِنْ مثلِ هذا يَأْتِي على جميعِ الْعَمَالِ^(١) مِنْ سِوَاهُ ؛ ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم : يَا حَبَّذَا يَوْمِ الْأَكْيَاسِ وَفِطْرِهِمْ ، كَيْفَ يَغْبُنُونَ^(٢) سَهْرَ الْحَمَقَى وَصِيَامِهِمْ ، وَلَيْمَثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ صَاحِبِ تَقْوَى وَيَقِينٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَمْثَالِ الْجِبَالِ عِبَادَةً مِنَ الْآخَرِينَ^(٣) .

عمل هذه الأمة :

فهذه الْأُمَّةُ بِالْقُلُوبِ تَعْبُدُ رَبَّهَا^(٤) ، وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا .

عن سفيان ، عن وَكِيعٍ ؛ قال : أَخْبَرَنَا عبد الوهاب ، أَخْبَرَنَا جُنَادَةُ عن رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ، قال : مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ

(١) كذا بالأصل ولعلها الأعمال .

(٢) يعيبون [ج] وهو تحريف من الناسخ .

(٣) الْآخَرِينَ يقصد بهم من ليس عندهم تقوى ولا يقين .

(٤) لِأَنَّ الْقُلُوبَ هي مستقر النيات ، ولا ثواب إِلَّا بالنية .

والنصارى كمثّل رجل استعمل عُمَلاً ، فقال : مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَى نَصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيْرَاطٍ قِيْرَاطٍ ؟ أَلَا فَعَمَلَتِ الْيَهُودُ .

ثم قال : مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيْرَاطٍ قِيْرَاطٍ ؟ أَلَا فَعَمَلَتِ النَّصَارَى .

ثم قال : مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الْعِصْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ عَلَى قِيْرَاطَيْنِ ؟ أَلَا فَأَنْتُمْ ! أَلَا فَأَنْتُمْ !

فغضبت اليهود والنصارى ؛ فقالت : نحن أَكْثَرُ عَمَلاً وَأَقْلُ عَطَاءً .

فقال : ظَلَمْتُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئاً ؟ فقالوا : لا . قال : إِنَّمَا هُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مِنْ أَشَاءَ .

ورُوي عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : وَفَيْتُمْ^(١) سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى .

وروى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ، وَهُوَ مُسْنِدٌ ظَهَرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ : فَأَمْتِي تُوفِّي سَبْعِينَ فِي أَجْرِهَا وَخَيْرُهَا .

مثّل الحمد للموحّدين

مَثَّلَ الْحَمْدُ لِلْمُوحِّدِينَ مَثْلُ رَجُلٍ يَأْخُذُ مِنْ حَرِيْفِهِ^(٢) مِنْ حَانُوتِهِ

(١) راجع سنن ابن ماجه (١٤٣٣) .

(٢) الحريف : المعامل ، جمعه حرفاء .

الشيء بعد الشيء ؛ فإذا اجتمع شيء أدى وأخذ بعد ذلك حتى تخف عنه أثقال الدين ، فإذا لم يؤد ، واجتمع المأخوذ ، وتراكم عليه الدين واقتضي فلم يوجد يوشك أن يقطع عنه ما كان يعطى ، ويقول صاحب الحانوت : أد ما اجتمع وأخذ ما بقي ، فبرده خائباً ، ويقطع عنه .

فأسبغ الله تعالى النعم ؛ فلو ذهبنا نعد نعمة لم نحصىها ؛ ولذلك قال الله تعالى^(١) : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ . ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فأهل رحمته هم الذين عصمهم الله من الاختلاف ، وقصدوا بقلوبهم عبادة خالقهم وربهم ، ولم يلتفتوا إلى معبود غيره ، قال الله تعالى^(٢) : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾^(٣) .

قوله : خلقهم ؛ أي خلقهم للرحمة .

(١) النحل (١٦/١٨) .

(٢) هود (١١٨/١١ ، ١١٩) قال الطبري : « وأولى القول بالصواب قول من قال : وللإختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم ، لأن الله ذكر صنفين من خلقه : أحدهما أهل إختلاف وباطل . والآخر أهل حق ، ثم عقب على ذلك بقوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ فعم بقوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ صفة الصنفين ، فأخبر عن كل فريق منهما أنه ميسر لما خلق له . فمعنى اللام في قوله : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ بمعنى « على » كقولك للرجل : أكرمتك على برك بي ، وأكرمتك لبرك بي » .

تفسير الطبري (١٢/٨٤) بتصرف وزيادة .

(٣) ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ أي على أديان مختلفة شتى ، إلا من أدركته رحمة الله سبحانه وتعالى بالهدى والإيمان والاستقامة ، وقيل مختلفين في الرزق بين الفقر والغنى ، وبين الشره والقناعة ، فكم من غني يشعر النقص والاستزادة ، وكم فقير عزيز النفس يشعر بالعزة ، وهذا كله من قدر الله سبحانه وتعالى ومحال أن يفلت إنسان أو مخلوق من قدر الله سبحانه وتعالى .

فلما خلقهم للرحمة أعطاهم ثَمَنَ النعمة ، وهو الاعتراف بأنَّ النِّعمَ كُلُّها من الله تعالى ؛ وذلك كلمةُ الحمد ؛ فصيرَّ توحيدَه في كلمة (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) ، وتنزيهه في : (سبحان الله) ، وتعظيمه في : (الله أكبر) ، وشكر نِعَمه في (الحمد لله) .

حدَّثنا سُليمان بن العباس الهاشمي ، أخبرنا عبد الرزاق ، عن مَعمر ، عن قَتادة ، عن عَبْدِ اللهِ بن عَمرو ، قال : قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم : رَأْسُ الشُّكْرِ الحَمْدُ لِلَّهِ ، وما شَكَرَ اللهُ عَبْدَه إِلَّا بِحَمْدِهِ ؛ فالشُّكْرُ أَصْلُهُ في القَلْبِ ومعرفةُ العَبْدِ بربه أَنَّهُ لا شريكَ له ، وفَرَعُه على اللِّسَانِ ، وهو كلمةُ : لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وتحقيقُه في الطاعات ؛ فمن أَكثَرَ قَوْلَ (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فَإِنَّه يحطُّ خَطَاياه ، وَمَنْ أَكثَرَ من قول : (الحمد لله) ، فَإِنَّه يحطُّ عن نَفْسِه أَنْقَالَ الشُّكْرِ ؛ فعَلَّمنا ربُّنا هذه الكلمة ، فَرَدَّدُها على الأَلْسِنَةِ حتَّى نكوْنَ في مِثَالِ ما مرُّبنا من المُثُل ، فنكون بمنزلة مَنْ يأخُذُ من حَرِيفِهِ الشَّيْءَ بعد الشَّيْءِ ، فَإِذَا اجتمع أَدَّى قَلِيلاً قَلِيلاً ، ثم يترك الأَدَاءَ بِغَفْلَةٍ حتَّى يَرَكِبَه الدِّينُ ، وَيَثْقُلَ عليه ؛ فَيَعْجَزَ عن الأَدَاءِ ، كما كان هاهنا إِذَا اجتمع عليه الحِسَابُ ، وَتَرَكَمَ ، فلم يَقْضِ انْقِطَع ولم يُعْطِ النِّعمَ ، فَإِذَا تراكمت ولم يُواتر^(١) العَبْدُ بكلمة الحَمْدِ لم يَأْمَنَ انْقِطَاعُ النِّعمِ ؛ فَرَجِمَ

(١) يواتر : يتابع ويولي ويقابل .

وقد قال تعالى عز من قائل : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ إبراهيم (٧/١٤) .

راجع تفسير الإمام الطبري (٧٠/٩) .

ولو تأملنا الآية الشريفة لوجدناه سبحانه وتعالى جعل الكفر مقابلاً لكنود النعمة وغمط فضل الخالق على مخلوقه ، لأن الاعتراف بالمنعم ويفضله في إسداء النعم =

اللَّهُ العبادَ ، فأعطاهم هذه الكلمة ليخففوا عن أنفسهم أُنْقَالَ النِّعَم ؛ ثم وُضِعَتْ لهم هذه الكلمة في صَلَاتِهِمْ عند رَفْعِ الرَّؤُوسِ مِنَ الرُّكُوعِ ، فيقول : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ ؛ فَصَارَ هَذَا دُعَاءً مِنْ قَائِلِ هَذَا الْقَوْلِ لِنَفْسِهِ وَلِجَمِيعِ الْمُوَحِّدِينَ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مُصَلٍّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَقُولُ هَذَا فِي صَلَاتِهِ مِنَ الْمَفْرُوضِ وَغَيْرِ الْمَفْرُوضِ ؛ فَلَيْسَتْ هَذِهِ كَلِمَةً يُخَصُّ بِهَا نَفْسَهُ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ [٦٧] لِكُلِّ مَنْ حَمَدَهُ .

فَأَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِهَذَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَعْلِيمِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِيَّاهُ .

وَرَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ إِذَا قَالَ الْإِمَامُ : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ ، فَقُولُوا : اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَالَ : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ قَالَ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ . كَيْ لَا يُخْلِيَ نَفْسَهُ مِنْ مَقَالَةِ الْحَمْدِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي ذَلِكَ الدُّعَاءِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَمَا ظَنُّ مَنْ عَقَلَ هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ يَدْعُو لِعَبْدِهِ ؟ أَيْنَ مَحَلُّ هَذَا الدُّعَاءِ ؟ وَمَاذَا يَخْرُجُ لِلْعَبْدِ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ ؛ وَدُعَاءُ الرَّبِّ أَنْ يَسْأَلَ بِنَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ لِلْعَبْدِ ؛ وَهُوَ كَقَوْلِهِ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُصَلِّي عَلَى الْعِبَادِ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي

= يجب ان يشغل خاطر وقلب المتنعم ، فإذا ما كندها وكفر بها فإن كفاءه وجزاءه العذاب الشديد .

تنزيله^(١) : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ ﴾ ؛ فإذا قال : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، ثم حَمَدَهُ الْعَبْدُ فقد سبقت دَعْوَتُهُ للعبد ، وسمع ذلك له ، فقد أوجب^(٢) للعبد .

فهذه كلمة دقيقة خَرَجَتْ من الله تعالى للعباد ، ثم خرجت من الرسول صلى الله عليه وسلم مقالته للعباد ، ثم خرجت من الجميع بَعْضُ لِبَعْضٍ ، فإذا قال العبد الواحد : الحمد لله ، ثم ذَكَرَ في هذا وَجَدَ اللَّهُ قد قال له : سَمِعَ اللَّهُ لَهُ ، وَوَجَدَ الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال : سَمِعَ الله ، وَوَجَدَ جَمِيعُ الموحِّدين قد قالوا ، فَعَظُمَ شأنُ هذه الكلمة .

مثل عبد دعاه مولاه فوكله بعمل له

مَثَلُ عَبْدٍ دَعَاهُ مَوْلَاهُ فَوَكَلَهُ بِكَرْمٍ لَهُ أَنْ يَحْفَظَهُ عَلَيْهِ ، وَيَغْرِسَهُ وَيُسْرِقَنَهُ^(٣) ، وَيَقْضِبَ^(٤) قُضْبَانَهُ ، وفي وَقْتِ الثَّمَرِ يُورِقُهُ وَيَدْعِمُهُ^(٥) ،

(١) الأحزاب (٤٣/٣٣) ويصلي عليكم بمعنى يبارك عليكم ويقال : يغفر لكم ، وملائكته أي تستغفر لكم .

راجع تأويل المشكل ص ٣٥٥ ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٥٠ بتحقيق السيد أحمد صقر ط . العلمية ، وتفسير القرطبي (١٤/١٩٨) . ويقول القرطبي رضي الله عنه : « الصلاة من الله على العبد هي رحمته له وبركته لديه ، وصلاة الملائكة دعائهم للمؤمنين ، واستغفارهم لهم » ا هـ .

(٢) أوجب : أي عمل عملاً يوجب له الجنة أو أوجب له الجنة .

(٣) السرقين : الزبل .

(٤) قضبه : مثل قضبه أي قطعه وصرمه .

(٥) دعمه : مال فأقامه ، والدعامة هي ذلك الخشب الذي يعرش به .

وَأَعْطَاهُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوَائِمِ وَالْدَّعَائِمِ وَالْهَرَائِ (١) مِنَ الْبَرْدِيِّ
وَالْأَبَاءِ (٢) وَالْقَصَبِ وَالْكَعْبِ (٣) ، وَأَدَاةَ الْعَمَلِ ، وَأَمْهَلُهُ فِي ذَلِكَ مَا
يُمْهَلُ فِي مِثْلِهِ ؛ ثُمَّ طَالَعَ أَمْرَهُ عِنْدَ انْقِضَاءِ الْمُهْلَةِ ، فَوَجَدَ الْقُضْبَانَ
سَاقِطَةً بِالْأَرْضِ ، وَالْدَّعَائِمَ مَسْرُوقَةً ، وَالْقَوَائِمَ مُنْجَدِلَةً (٤) ، وَالثَّمَارَ
بَعْضُهَا مُحْتَرَقَةٌ (٥) مِنْ كَثْرَةِ الْوَرَقِ ، وَبَعْضُهَا عَفِنَةٌ مِنْ سَقُوطِهَا
بِالْأَرْضِ ، وَقَدْ تَرَكَ الْآلَةَ وَالْأَدَاةَ ، وَأَمْهَلَ نَوْبَتَهَا (٦) فِي السَّقْيِ حَتَّى
عَطِشَتْ ، وَتَرَكَ تَقْضِيئَهَا حَتَّى ذَهَبَتْ قُوَّتُهَا ، فَمَوْلَاهُ إِذَا رَأَى الْكَرَّمَ هَكَذَا
فَمَاذَا يَلْقَاهُ مِنَ الْجَنَایَةِ ؟ وَمَاذَا يَتَوَقَّعُ مِنَ الْعَقُوبَةِ الَّتِي أَوْجِبَ عَلَى
نَفْسِهِ .

فَالْتَعَرِيشُ الْقِيَامُ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَالْحِفْظِ عَلَيْهَا ؛ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ
بَوْضُوءً سَابِغٌ (٧) وَحِفْظُ الْحُدُودِ وَالْأَوْقَاتِ ، وَكَذَلِكَ فِي الصُّومِ فِي كَفِّ
السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْجَوَارِحِ (٨) السَّبْعِ .

وَالسَّرْقَنَةُ : سُنَنُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَثَرِ الْفَرَائِضِ تَقْوِيَةٌ
لَهَا . وَالسَّعْيُ الْعِلْمُ الَّذِي يَهْدِيهِ الْأَشْيَاءُ . وَتَقْضِيئُهُ رَمْيُ الْفُضُولِ مِنَ
الْكَلَامِ وَالطَّعَامِ وَالْحُطَامِ . وَتَوْرِيْقُهُ تَرْكُ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الْأَعْمَالِ .
وَتَذْعِيمُهُ كَثْرَةُ الذِّكْرِ . وَقَوَائِمُهُ حَسَنُ النِّيَّةِ وَالصَّدْقُ فِي الْمَقَاصِدِ .

-
- (١) الهراوة : جمعها الهراوى وهي العصا .
(٢) الأباء : البردية ، أو هي من الحلفاء ، والقصب .
(٣) الكعب : ما بين أنبوتي القصب .
(٤) منجدلة : واقعة على الأرض .
(٥) كذا ورد بالأصول .
(٦) أمهل نوبتها : أخر دورها ، وأجل فرصتها .
(٧) سابغ : كامل تام مصتم .
(٨) الجوارح : جمع جارحة وهي العضو وجمعه أعضاء .

مثل قوي القلب في الأعمال والأقوال وملكها

وَمَثَلُ قَوِيِّ الْقَلْبِ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَمَلِكِهَا كَمَثَلِ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ ؛ فَمَلِكٌ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى قَرْيَةٍ ؛ وَعَلَى قَدْرِ ذَلِكَ كُنُوزُهُ ، وَجُنُودُهُ ، وَعُدَّتُهُ ، وَنَفَازُ أَمْرِهِ ، وَجَوَازُ قَوْلِهِ ، وَهَيْبَتُهُ .

وَمَلِكٌ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى خُرَاسَانَ أَجْمَعَ عَلَى قَدْرِ كُنُوزِهِ وَجُنُودِهِ ، وَهَيْبَتِهِ ، وَخَوْفِ شَاكِرِيَّتِهِ^(١) وَرَعِيَّتِهِ مِنْهُ .

وَمَلِكٌ مَلِكُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ؛ فَمَلُوكُ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ تَحْتَ يَدِهِ ، وَعَلَى قَدْرِ مَمْلَكَتِهِ سُلْطَانُهُ ، وَكُنُوزُهُ ، وَجُنُودُهُ ، وَهَيْبَتُهُ ، وَخَوْفُ شَاكِرِيَّتِهِ وَالنَّاسِ مِنْهُ ، فَلْنَحْظُهُ تُضْرَبُ بِأَمْرِهِ الْأَعْنَاقُ ، وَتُسْفَكَ دِمَاءٌ .

فَالْقَلْبُ مَلِكٌ عَلَى الْجَوَارِحِ لَهُ كُنُوزٌ ، وَجُنُودٌ ، وَسُلْطَانٌ ، وَمَهَابَةٌ وَنَفَازُ أَمْرِ ، فَأَعْظَمُهُمْ مَمْلَكَةً أَهْيَيْتُهُمْ ، وَأَحْزَرَهُمْ قَوْلًا وَنَفَازًا ، وَإِنَّمَا تَمْلِكُ الْقُلُوبُ نَفُوسَهَا وَهِيَ دُنْيَاهَا الْعَرِيضَةُ ، فَإِذَا مَلَكَ الْقَلْبُ بَعْضَ النَّفْسِ وَلَمْ يَمْلِكْهَا كُلَّهَا كَانَ صَاحِبُهَا مَعَ تَخْلِيْطٍ ؛ تَزُلُّ قَدَمٌ وَتَثْبُتُ أُخْرَى ، وَإِذَا مَلَكَهَا كُلَّهَا كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا شَرْقَهَا وَغَرْبَهَا ، وَخَضَعَتْ لَهُ الْمُلُوكُ ، وَصَارُوا مِنْ تَحْتِ يَدِهِ ؛ فَالْقَلْبُ إِذَا كَثُرَتْ كُنُوزُهُ كَثُرَتْ جُنُودُهُ ؛ فَكُنُوزُهُ الْعِلْمُ بِاللَّهِ ، وَالْمَعْرِفَةُ لِلَّهِ ؛ وَجُنُودُهُ الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ ، وَالْخَشْيَةُ لِلَّهِ ، وَالْحَيَاءُ مِنَ اللَّهِ ، وَالتَّعْظِيمُ لِلَّهِ ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَالْإِنْقِيَادُ لِحُكْمِ اللَّهِ ، وَالثِّقَةُ بِاللَّهِ ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ ، وَالطَّمَأْنِينَةُ إِلَى اللَّهِ ، وَحُبُّ اللَّهِ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى جَمِيعِ

(١) الشاكري : الأجير .

هذه الأشياء ؛ فهذه كلها جنود القلب اجتمعت على عسكره في صدره من العلم به ؛ فالمعرفة كنز القلب ، والنفس سفينة الكنز في بحر الله الأعظم ؛ فإذا أثنى العبد على ربه ، أو مدحه ، أو دعاه باسم من أسمائه ، فإنما يخرج كلمته من فيه على قدر سلطانه من القلب ومملكة القلب .

وكذلك أعمال أركانه فإنما يصعد ما يخرج منه إلى الله على قدر قوته في مملكته وسلطانه .

مثل الهوى اذا ما زج العقل في أمر واحد

مثل الهوى إذا ما زج العقل في أمر واحد كمثل ماء صاف كالطل^(١) في الصفاء ، مازجه^(٢) ماء من مياه الأنهار ؛ ففي ذلك الماء ترى الأشياء كلها كالمرآة إذا نظرت فيها ؛ وفي ماء الأنهار لا يرى إلا الخيال ؛ أمير بسط عدله في رعيته ، ودبر سلطانه ، فأعد سجناً وعقوبات لمن خلع يده عن الطاعة ، وفرق أعماله بين عماله ، وأعد حاجباً وخليفة ومترزقة ، وأظهر كنوزه وقوته ، وأمر ونهى ، وأعلم الرعية أن من ائتمر بأمره فهو الوجيه^(٣) عنده ، والخطير^(٤) لديه ، المثاب على ذلك ، المقضي عنده حوائجه ، المتخذ لنفسه عنده قدراً ، حتى تظهر عنده مرتبته . ومن لم ياتمر بأمره ، وركب هواه خلق وجهه^(٥) عنده ،

(١) الطل : الندى أو المطر الخفيف .

(٢) مازجه : خالطه .

(٣) وجيه : أي ذو حظ ووجاهة ورتبة .

(٤) الخطير : الذي له قدر وتكريم ومنزلة .

(٥) خلق وجهه وأخلق : بلي .

وبخس حظّه ، وحُرِّم ثوابه ، وحُطَّ قَدْرُه ، وبطلت رُتْبَتُه ؛ فظهر في رعيته إنجاز وَعْدِه ، ووصول وَعِيدِه إلى مَنْ استحقَّ ذلك ، وفي هذه الرعية طبقةٌ مُؤْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ ، زائدون على مَا وَظَّفَ (١) عليهم من أمره ، ناصحون له ، قد شُغِفُوا به حُبًّا ، وَأَعِينُهُمْ مَادَّةً إلى ما يأمر ، وإلى ما يَقْضِي ، وإلى ما يُدَبِّرُ لهم ، حتى يَتَلَقَّوا تدبيره بِالْهَشَاشَةِ (٢) ، وَوُجُوهٍ مُتَطَلِّقَةٍ (٣) ، وَأَفْعَالٍ سَمْحَةٍ ، وَيَتَلَقَّوا أمره بالتعظيم ، ومع ذلك ينصَحُونَه في رَعِيَّتِه ، فينشرون محاسنَه وَأَفْعَالَه وأَخْلَاقَه ، وَحُسْنَ معاملته بالرحمة ، وَيُخْبِرُونَ عن مُلْكِهِ وجنوده وَكُنُوزِهِ وَغِنَاهُ ، وَيَحْثُونَ الرعيَّةَ على طاعته ، والحمية له ، والجِدِّ في أموره ، والشفقة [٦٨] على أُوْدَانِه ؛ فهذه الطبقةُ أَوْجَهُهُمْ عند الأمير ، وَأَعْظَمُهُمْ قَدْرًا لما أَظهروا من النصيحة والحبِّ له .

شأن الأدميين مع الله :

فكذلك شأن الأدميين مع الله ؛ كان أَوْجَهُهُمْ عند الله تعالى أَشْكُرَهُمْ له ، وَأَكْثَرَهُمْ نَشْرًا لمحاسِنِ أفعاله وأَخْلَاقه ، وَأَعْلَمَهُمْ بصفاته ، وَأَغْزَرَهُمْ معرفةً به ، وَأَوْثَقَهُمْ به ، وَإِنَّ الله تعالى أَظْهَرَ مُلْكَه ، وخلق في مُلْكِهِ خَلْقَه ؛ ثم أتى كُلُّ ذِي رُوحٍ يتحرَّكُ في السموات ، وَيَدْبُ في الأرض ، على قَدْرِهِ مِنْ مُلْكِهِ بتلك الحياة التي جَعَلَ فِيهِ ؛ فَمَنْ سار فيما أُوتِيَ من الملك بسيرته التي مثل له فقد تَوَاضَعَ لِمُلْكِهِ ، وَوَضَعَ نَفْسَهُ لِمُلْكِهِ ، فَإِذَا دُعِيَ يَوْمَ الْمَقْدَمِ عليه قدم

(١) وظف عليهم من أمره : قدره تقديرًا .

(٢) الهشاشة : الغبطة والارتياح .

(٣) متطلقة : مبتهجة منسرحة .

عَلَى نُزُلٍ مُّهِيّاً^(١) ، وَمِهَادٍ كَرِيمٍ ، وَتَحِيَّةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ وَذَلِكَ قَوْلُ
اللَّهِ تَعَالَى^(٢) : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَأَعَدُّ لَهُمْ أَجْرًا
كَرِيمًا ﴾^(٣) .

من سار سيرة هواه :

وَمَنْ سَارَ فِيمَا أُوتِيَ مِنَ الْمُلْكِ بِسِيرَةِ هَوَاهِ الَّذِي يَهْوِي بِهِ فِي
الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقَدْ تَكَبَّرَ عَلَى مُلْكِهِ ؛ وَالتَّكَبُّرُ هُوَ
المُكَابَرَةُ ، فَمَا ظَنُّكَ بِعَبْدٍ مَخْلُوقٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْحَامِ بَيْنَ
اللَّحُومِ وَالذَّمَاءِ ، مَخْرَجِهِ مِنْهَا مِنْ طَرِيقِ الْأَحْدَاثِ وَالْمَبَالَاتِ ،
وَالْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ ، يَكَابِرُ رَبَّهُ فِي كِبَرِيَائِهِ ، وَيُعْظِمُ نَفْسَهُ ، وَيُهَيِّنُ
حَقَّهُ ، فَإِذَا دُعِيَ يَوْمَ الْمَقْدَمِ قَدِمَ عَلَى نُزُلٍ مُعَدٍّ قَدْ أَعَدَّهُ مَالِكٌ ، وَمِهَادُ
الْأَمْهَادِ فِيهِ ؛ وَمَقَّتَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

العاقل والأحمق :

فَالْعَاقِلُ الَّذِي أَحْيَا اللَّهُ قَلْبَهُ نَظَرَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْمُلْكِ عَلَى الَّذِي
وَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْجَوَارِحِ السَّبْعِ ، وَمِنْ دُنْيَاهِ الَّتِي مَلَكَ عَلَيْهَا ، وَمِنْ
الْأَحْوَالِ ، فَلَمْ يَسْتَعْمِلْهُ إِلَّا فِيمَا أَمَرَ .

والأحمق الذي قد أَمَاتَتْ زِينَةُ الشَّهَوَاتِ وَفَتَنَتْهُ قَلْبَهُ نَظَرَ إِلَى مَا

(١) النزول : ما هيء للضيف من منزل أو نزل .

(٢) الأحزاب (٤٤/٣٣) راجع تفسير الطبري (٣/٢٢) .

(٣) تحيتهم يوم القيامة سلامٌ أي سلامة لنا ولكم ، وتحيتهم يوم يلقونه أي يلقون ملك

الموت ، فلا يقبض ملك الموت روح المؤمن حتى يسلم عليه .

راجع الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٩٩) بتصرف وزيادة .

قد أُوتِيَ من الملك ، فاستعمله في نَهَمَاتِهِ^(١) فيما هَوَيْتَ نَفْسَهُ ، فخاب عن وَعْدِهِ ، وَخَسِرَ مُهْلَتَهُ وَعُمُرَهُ الَّذِي أُعْطِيَ .

فَالْكَيْسُ^(٢) مِنْ جُنْدِ الْأَمِيرِ يَقُولُ لِلْأَمِيرِ : أَنَا أَسْعَى خَلْفَكَ سَعْيَ الْعَبِيدِ ، فَإِنْ أَعْطَاهُ حَمُولَةً فَقَالَ : ارْكَبْ مَعِيَ هَابَ ذَلِكَ ، وَقَالَ : مَا لِي وَلِلرُّكُوبِ ! يَنْبَغِي أَنْ أَسْعَى خَلْفَهُ .

فَإِنْ قَالَ لَهُ : ارْكَبْ بِأَمْرِي ، وَاَنْظُرْ إِلَّا تَرَكَضَ رَكْبًا تَتَقَدَّمُنِي ، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَهَانَهُ الْمَلِكُ وَأَنْزَلَهُ وَرَدَّهُ إِلَى السَّعْيِ عَلَى قَدَمَيْهِ ، وَإِنْ حَفِظَ وَصِيَّتَهُ وَرَكِبَ وَكَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ فَلَمْ يَزَلْ يَتَخَطَّى الْمَرَاتِبَ بِأَدَبِهِ وَكِيَّاسَتِهِ وَظُرَافَتِهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قُرْبِ الْأَمِيرِ فِي الْمَرْكَبِ ، فَقَالَ لَهُ الْأَمِيرُ : الزَّمْ هَذَا الْمَكَانَ فِي الْمَرْكَبِ مِنِّي ، كُنْ عَلَى قَفَائِي عَلَى أَثَرِ مَرْكَبِي ، فَهَذَا رَجُلٌ وَجِيهٌ ذُو مَكَانَةٍ عِنْدَ الْأَمِيرِ حَتَّى إِذَا أُعْطِيَ الْمَكَانَ فِي الْمَرْكَبِ .

فَالْكَيْسُ مِنْ عُمَالِ اللَّهِ تَعَالَى مَنْ سَعَى فِي الطَّاعَاتِ سَعْيَ الْعَبِيدِ ، فَلَقِيَ تَعَبًا وَأَذًى كَثِيرًا ، وَمُقَاسَاةً فِي جَنْبِ الْمَوْلَى ، وَاسْتَقْلًا ذَلِكَ لَهُ ، فَأَعْطَاهُ نُورًا حَتَّى صَارَ قَلْبُهُ فَارِسًا مِنْ قُرْسَانِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَرْكَبَهُ ذَلِكَ النُّورُ الْعَطَائِي ، فَلَمْ يَزَلْ فِي مَزِيدٍ مِنْ رَبِّهِ نُورًا عَلَى نُورٍ حَتَّى لَحِقَ ؛ وَهُوَ وَصُولُ الْعَبْدِ إِلَى مَلِكِ الْمُلْكِ بَيْنَ يَدَيْهِ بَابِ الْقُدْرَةِ .

(١) النَهْمَةُ : الشَّهْوَةُ وَالْحَاجَةُ ، وَجَمْعُهَا نَهَمَاتٌ .

(٢) الْكَيْسُ : الْفُطْنُ الْعَاقِلُ الْظَرِيفُ .

مثل إثبات الرزق في اللوح

مَثَلُ إِثْبَاتِ الرِّزْقِ فِي اللُّوْحِ مِثْلُ أَمِيرٍ أَعْطَاكَ خَطَّةً بِصَكِّ^(١) صَكَّهُ
عَلَى نَفْسِهِ فِي شَأْنِ أَرْزَاقِكَ ، فَرَكَنْتَ^(٢) إِلَى ذَلِكَ مِنْهُ ، فَإِنْ كَانَتْ أَقْلَامُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ جَرَتْ عَلَى قَضِيَّتِكَ فِي اللُّوْحِ بِالْكَائِنِ ، وَبِأَرْزَاقِكَ عَلَى
صِفَاتِهَا الَّتِي تَظْهَرُ لَكَ فِي دُنْيَاكَ ، أَلَا كَانَ الْأَحَقُّ وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ
رُكُوبُكَ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ أَقْلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ !

مثل الراغب في الدنيا

مَثَلُ الرَّاعِبِ فِي الدُّنْيَا ، الْمُتَكَمِّشُ فِيهَا ، الْمُتَنَاوِلُ مِنْ كُلِّ
تَخْلِيْطٍ وَغَتٍّ وَسَمِينٍ مِثْلُ الْبَقَرَةِ الْجَلَّالَةِ^(٣) تَرَكَتِ الْمَرَاعِي الطَّيِّبَةَ ،
وَأَقْبَلَتْ عَلَى الْجِلَّةِ^(٤) فِي الْمَزَابِلِ ، فَإِذَا كَانَ لَبَنُ تِلْكَ الْبَقَرَةِ مَكْرُوهاً
عَلَى أَلْسِنَةِ الْعُلَمَاءِ وَمَعَاوِي^(٥) عَلَى أَلْسِنِ الشَّارِبِينَ فَمَا ظَنُّكَ ؟

مثل القلب والنفس

مَثَلُ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ مِثْلُ ثَوْرَيْنِ فِي نِيرٍ^(٦) يَجْرُهُمَا إِلَيْكَ ،

(١) الصك : هو الكتاب المكتوب في المعاملات .

(٢) ركنت إلى ذلك : سكنت إليه .

(٣) الجلالة : هي البهيمة تأكل العذرة .

(٤) الجلة : البعرة .

(٥) معافي على ألسن الشاربين : عافته أو كرهته الألسن فلم تشربه .

(٦) النير : هو الخشبة المعترضة على عنق الثورين .

وأحدهما له سَمَاحَةٌ فِي التَّخْطِئِ وَنَزَعٌ^(١) فِي الْمَشْيِ ، يُعْطِي مِنْ نَفْسِهِ الْقُوَّةَ الْوَافِرَةَ . وَالْآخَرُ لَهُ بِلَادَةٌ فِي التَّخْطِئِ وَانْتِكَاصٌ^(٢) فِي الْمَشْيِ ، وَتَرَاوَجُ الْقَهْقَرَى ، لَا يُعْطِي مِنْ نَفْسِهِ الْقُوَّةَ الَّتِي فِيهِ ، فَصَاحِبُهُ مُبْتَلًى بِهِ ؛ إِذْ هُمَا شَرِيكَانِ فِي الْعَمَلِ ؛ فَإِنَّمَا تُقْلُ الْآخَرُ وَتَبْلُدُ أَنَّهُ مُجِيبٌ لِلرَّاحَةِ وَالتَّخْلِيَةِ فِي الْمَرْعَى ، فَيَثْقُلُ لِمَفَارِقَةِ الشَّهْوَةِ وَاللَّذَّةِ وَالْوُقُوعِ فِي التَّعَبِ وَالنَّصَبِ .

فَمَثَلُ هَذِهِ النَّفْسِ كَمَثَلِ هَذَا الثَّوْرِ الْبَلِيدِ الثَّقِيلِ ، وَالْقَلْبُ خَالٍ مِنَ الشَّهَوَاتِ ، وَالنَّفْسُ مَعْدِنٌ^(٣) الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ ، وَالْقَلْبُ يَطْلُبُ رَبَّهُ ، وَالنَّفْسُ تَطْلُبُ شَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا ؛ فَمَثَلُ النَّفْسِ كَسَفِينَةٍ مَشْحُونَةٍ فِي نَهْرٍ شَدِيدِ الْجَرِّيةِ^(٤) ، وَالسَفِينَةُ فِي صَعُودِ تَجَرُّ جَرًّا ، فَكَلِمَا أُوقِرَتْ^(٥) السَفِينَةُ كَانَ جَرُّهَا أَصْعَبُ وَأَثْقَلُ .

فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَخْفَ عَلَيْهِ جَرُّهَا فَلْيُخْلِ سَفِينَتَهُ مِنَ الْأَشْجَانِ^(٦) بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَتْرَكَهَا خَالِيَةً مِنَ الْأَشْجَانِ وَالْأَثْقَالِ ، فَعِنْدَهَا تَخِفُّ عَلَى مَنْ جَرُّهَا مُضْعِدَةً .

(١) . نَزَعٌ فِي الْمَشْيِ : اسْتَأْتَقَ إِلَيْهِ .

(٢) . انْتِكَاصٌ : مِنَ النُّكُوصِ وَهُوَ الْإِحْجَامُ عَنِ الشَّيْءِ .

(٣) . مَعْدِنُ الشَّهَوَاتِ : أَصْلُهَا .

(٤) . الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الْجَرِّيةِ : الْجَرِّي ، وَجَدُولُ شَدِيدِ الْجَرِّيةِ مُتَدَفِّقُ التَّيَّارِ مِنْ سُرْعَةِ وَقُوَّةِ جَرِّيَانِهِ .

(٥) . أُوقِرَتْ السَفِينَةُ : ثَقُلَ حَمْلُهَا ، وَيُقَالُ أُوقِرَ الرَّجُلُ بَعِيرَهُ أَيْ حَمَلَ عَلَيْهِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ الْوَقْرَ فِي حَمْلِ الْبِغْلِ وَالْحِمَارِ ، وَالْوَسْقُ فِي حَمْلِ الْبَعِيرِ ، وَيُقَالُ أُوقِرَتْ النَّخْلَةُ إِذَا كَثُرَ حَمْلُهَا ؛ فَيُقَالُ نَخْلَةٌ مَوْقِرَةٌ ، وَمَوْقِرٌ .

رَاجِعْ مَخْتَارَ الصَّحَاحِ ص ٧٣٢ بِتَصْرِفٍ .

(٦) . الْأَشْجَانُ جَمْعُ شَجْنٍ وَهُوَ الْحُزْنُ وَتَجْمَعُ أَيْضًا عَلَى شُجُونٍ .

فالنفس تجري في أمر الله مع القلب فيما تهوى^(١) النفس ،
وتشتهي وتلتذ ؛ فالسفينه المشحونه منحدره ، فإذا جاءها أمر لم تهو
ولم تشته^(٢) صارت كسفينة موقرة مشحونه مضعدة ، فهي تجر جرأ
بالرجال مع الأنين والأعناق والأيدي المكدودة^(٣) حتى تبلغ المصعد .

مثل الدنيا وانخداع الأحمق بها

مثل الدنيا وانخداع الأحمق بها كمثل الصبي في المهدي ؛ ترضعه
أمه ، وتسدل عليه^(٤) ذلك الغطاء ، وترججه^(٥) وتنغمه^(٦) بأنواع الكلام
حتى يذهب به النوم ، فكذلك الدنيا ترضعه حلاوتها ولذاتها ،
وتطبق^(٧) عليها الهوى ، وتتابع عليها الأماني ، وتطول له في الأمل
حتى ينأ عن الآخرة ، فكلما ازداد أمله طويلاً كان أثقل نوماً ، ثم سقته
شربة في نومه من ذلك السم الناقع^(٨) ؛ وهو حب الدنيا وشغوفه^(٩)
بها ، حتى يسكر من حلاوة ذلك الحب ، فعندها يغلي حرصه ، فهو
هالك دينه ؛ كما تسقي هذه المرضعة ولدها من هذا « الأفيون » حتى
يثقل نومه ، ويكون كالسكران ، فإذا لم تطبخه بالسمن ، وتمزجه بسائر

(١) تهوى النفس : تحب .

(٢) تشتهي [بالأصول] وهو تحريف .

(٣) المكدودة : المتعبة المنهكة .

(٤) تسدل سدولها : ترخي أستارها ، أو ثيابها .

(٥) ترجحه : من الترجيح وهو التذبذب ، وترجحت به الأرجوحة إذا مالت .

(٦) تنغمه بأنواع الكلام : تغني له .

(٧) تطبق عليها : تغطي عليها .

(٨) السم الناقع : البالغ السمية .

(٩) شغوفه بها : كلفه بها وتقادعه عليها .

الأدوية ، يَقْتُلُ الصبي .

ولذلك قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١) : حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْجِي وَيُصِمُّ .

فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ أَعَمَّاهُ حُبُّ الدُّنْيَا وَأَصَمَّهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَنْ مَوَاعِظِهِ ؟

وَرَوَى عَنْ رَسُولِ [٦٩] اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : مَا ذُتِّبَانِ جَائِعَانِ أَرْسِلَا فِي زُرِّيَّةٍ غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ فِي الْمَالِ وَالشَّرَفِ لَدِينِهِ .

مثل من يخلط أعمال السوء بأعمال البر

مَثَلُ مَنْ يَخْلُطُ أَعْمَالَ السُّوءِ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ مَثَلُ مَنْ أَهْدَى إِلَى الْمَلِكِ مَائِدَةً عَلَيْهَا أَلْوَانٌ مِنَ الْأَطْعِمَةِ مِنَ الْطَّرَفِ^(٢) مِنَ الْمَأْكُولِ

(١) الحديث : قال في المقاصد : رواه أبو داود والعسكري عن أبي الدرداء مرفوعاً وموقوفاً ، والوقف أشبه ، وفي سننه ابن أبي مريم ضعيف ، ورواه أحمد عن ابن أبي مريم فوقفه ، والرفع أكثر ، ولم يصب الصنعاني حيث حكم عليه بالوضع .
وقال العراقي : « إن ابن أبي مريم لم يتهمه أحدٌ بالوضع أو بالكذب ، إنما سرق له حلي فأنكر عقله ، وقال الحافظ ابن حجر تبعاً للعراقي : ويكفيها سكوت أبي داود عليه ، فليس بموضوع ولا شديد الضعف ، فهو حسن » اهـ . والحديث رواه أبو الدرداء الخرائطي في اعتلال القلوب عن أبي برزة ابن عساكر عن عبد الله بن أنيس ، وقد ذكره بلفظه وتخريجه الإمام السيوطي في الجامع الصغير وحسنه (١ / ١٤٦) .

(٢) الطرف جمع مفردة طرفة ، وإذا أطرفت فلاناً إذا اختصصته بعباءة .

والملبوس ، وفي خِلَالِ ذلك عَظُمَ المِيتَةُ ، وَخِرَقَ المَزَابِلُ^(١) ،
وَرَجِيعُ^(٢) الدَوَابِّ ونحوها ؛ فلما وصل إلى الملك رَفَعَ الحاجِبُ
المِنْدِيلَ ، فرآها بهذه الصِّفَةِ ، فَحَجَبَهُ عن الملك ، ووضعها في الخزانة
حتى يَأْتِيَ الوقتُ الذي يَدْعُو بها الملكُ لِيُخْزِنَهَا ، فَإِذَا الحاجِبُ أخرج
وَتَوَضَّعُ بين يَدَيِ الملكِ ؛ فكم مِنْ حياءٍ يَسْتَحِي ؟ وكم من خَوْفٍ
يَخَافُ ؟

وَمَثَلُهُ أَيضاً مَنْ يُهْدِي للملك قِلَادَةً^(٣) فيها يَوَاقِيت وجواهرُ ،
وَذَهَبٌ وَلآلِيَةٌ وَزَبَرْجَدٌ ، وفي خِلَالِهَا بَلُورَةٌ ، وَعِظَامُ المِيتَةِ ،
والزَّجَاجُ ؛ أليس أنه قد أَذْهَبَ بَهَاءً^(٤) جَوَاهِرِهِ وَلآلِيَتِهِ ؛ كذلك هذا .

مثل من يقوم بأمر الله مخلصاً ، أو غير مخلص

وَمَثَلُ مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِ اللَّهِ وَحَقُوقِهِ فِي الظَّاهِرِ عَلَى هَوَاهُ ، وَبَاطِنِهِ
مُنْعَزِلٌ ، وَمَنْ يَقُومُ بِأَمْرِ اللَّهِ لِأَمْرِ اللَّهِ ، كَمَثَلِ عَبْدَيْنِ دَعَاهُمَا المَوْلَى ،
فَوَجَّهَهُمَا إِلَى كَرَمٍ لَهُ لَيْسَ قِيَّاهُ وَيُصْلِحَاهُ وَيَقُومَا بِمَصْلَحَةِ هَذَا الكَرَمِ ،
فَذَهَبَا لِذَلِكَ الأَمْرِ مُسْرِعَيْنِ^(٥) كَالسَّهْمِ ، وَفَعَلَا ذَلِكَ ، فَمَنْ رَأَاهُمَا نَظَرَ
إِلَيْهِمَا بَعَيْنِ الطَّاعَةِ وَصَحَّةِ العُبُودَةِ^(٦) ، فَأَرَادَ المَوْلَى امْتِحَانَهُمَا لِيَبْلُوَ^(٧)

(١) المزابل : جمع مزبلة .

(٢) رجيع الدواب : روثها .

(٣) القلادة : هي التي في العنق .

(٤) البهاء : الحسن والجمال .

(٥) وردت (مسرعاً) بالأصول والأصح ما أوردناه .

(٦) العبودية والعبودية بمعنى الطاعة والتسليم والإخبات .

(٧) ليبلو باطنهما : ليختبر مدى حسن طويتهما .

باطنهما ، فحضر الكرم فوجدهما في ظلال بين الثمار والأغاب ،
والوقت وقت الظهيرة ، فبعثهما إلى الحصاد والدياس^(١) ، فمرَّ أحدهما
من ساعته مُسرِعاً مُمْتَلِئاً أمره . والآخر أخذ في التلکؤ والتغافل ، فعلم
من رأيهما بعد الامتحان أن ذلك الأول ممن أطاع مولاه على الصفاء
والإخلاص ، والآخر على هوى نفسه ؛ فلما استقبله خلاف هواه ترك
طاعته ، وتأنى بالكسل والتشاغل ؛ فهذا تابع هواه .

فكذلك العبيد عند الله تعالى : من عبد الله تعالى للهوى
والنفس فيه نصيب يمر فيه ، وإذا أتاه أمرٌ يُثقل عليه هرب منه ، وضع
الحق ؛ فإذا أتاه محبوب سارع إليه ؛ فلا يكون هذا من المحققين أبداً .

مثل موسرين ينفق أحدهما فيما يهوى وينفق الآخر في وجوه الخير

مثل الموسرين^(٢) أحدهما يُنفق ماله في هوى نفسه ، والآخر
يُنفق ماله في وجوه الخير ، من إطعام الطعام ، وصلة الأرحام ،
ومصارف الحق ، وأشباه ذلك ، مثل رجلين دعاهما الملك ، فأودع كل
واحد منهما خزانه ، فقال : أمسكوا وحفظا ، فمن جاءكما برقعتي^(٣)
فأعطياه ما في الرقعة مقدارها ؛ وها هنا عسكران : عسكري ، وعسكر
العدو ، فإياكما أن تصرفا شيئا من هذا المال إلى عسكر العدو .

(١) الدياس : الدراس .

(٢) الموسرون : جمع موسر وهو الغني .

(٣) الرقعة : هي تلك التي يكتب فيها .

فذهب أحدهما واستَعَفَاهُ^(١) من قَبُولِهِ ، فلم يُعْفِهِ مِنْهُ ، فَقَبِلَهُ عَلَى ضرورة ، وهو ثَقِيلٌ عَلَيْهِ ؛ فَكُلُّ مَنْ أَتَاهُ بِرُقْعَتِهِ أَدْرَأَ عَلَيْهِ مَا تَضَمَّنَتْهُ الرُّقْعَةُ مُغْتَنِمًا لِحَقِّهِ حَتَّى صَدَرُوا إِلَى^(٢) الْمَلِكِ حَامِدِينَ لَهُ ، شَاكِرِينَ بِيَابِ الْمَلِكِ ، مُثْنِينَ عَلَيْهِ ، نَاشِرِينَ عَنْهُ جَمِيلًا ، ثُمَّ عَمِدَ إِلَى صُرَّتِهِ فَأَنْفَقَ عَلَى مَا فِيهِ قُوَّةُ عَسْكَرِ الْمَلِكِ ، فَإِذَا قَدِمَ لِلْحِسَابِ قَرَّتْ^(٣) عَيْنُهُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَالْإِمْتِثَالِ لِأَمْرِهِ^(٤) .

وَأَمَّا الْآخَرُ فَإِنَّهُ لَمَّا قَبِلَ الْوَدِيعَةَ ، ذَهَبَ يَفْتَحِرُ بِهَا ، وَيَتَطَاوَلُ عَلَى نَظَرَاتِهِ^(٥) ، وَيُبَاهِي^(٦) بِهَا أَشْكَالَهُ^(٧) ؛ ثُمَّ أَخَذَ يَصْرِفُهَا إِلَى مَلَاحِيهِ وَهَوَاهِ وَقَبِيحِ عَمَلِهِ ، وَأَنْفَذَهَا إِلَى عَسْكَرِ الْعَدُوِّ ؛ فَكُلُّ مَنْ عَقَلَ أَمْرَهُ تَعَجَّبَ مِنْهُ ، وَبُهِتَ^(٨) فِي أَمْرِهِ بِغَفْلَتِهِ وَبِلَاهِتِهِ وَقُبْحِ عَمَلِهِ ، فَإِذَا جَاءَتْهُ رُقْعَةُ الْمَلِكِ دَافِعَ وَسَوْفَ^(٩) حَتَّى رَجَعَ أَصْحَابُ الرُّقَاعِ^(١٠) إِلَى الْمَلِكِ بِهَا ذَامِّينَ لَهُ مُتَذَمِّرِينَ لِفِعْلِهِ ؛ ثُمَّ لَمَّا صَرَفَهَا فِي الْوَجْهِ عَمِدَ^(١١) إِلَى أَسْلِحَةٍ وَدَوَابٍّ ، فَأَنْفَذَهَا إِلَى عَسْكَرِ الْعَدُوِّ ؛ فَإِذَا قَدِمَ إِلَى الْحِسَابِ سَأَلَهُ : مَا صَنَعْتَ فِي وَدِيعَتِنَا وَأَمْوَالِنَا وَمَوَاتِينِنَا ؟ لَمْ يَكُنْ لَهُ جَوَابٌ إِلَّا

(١) استعفاه : طلب إعفاهه .

(٢) يقال صدروا إلى فلان : إذا رجعوا إليه .

(٣) قرَّت عينه : اطمأن خاطره وسكن بلباله .

(٤) الامتثال : الاذعان والتسليم والاستكانة .

(٥) نظراء : أتراب وأمثال .

(٦) يباهي : يفاخر .

(٧) أشكاله : نظراؤه وأمثاله .

(٨) بهت : يقال فلان مبهور أي مدهوش متحير ، مكسور في ذرعه .

(٩) سوف : آخر وأجل .

(١٠) الرقاع : هي تلك التي يكتب فيها جمع رقعة .

(١١) عمد إلى كذا : بكسر الميم أي قصد إلى الشيء ، وتقرأ أيضاً بفتح الميم .

أَنْ يَقُولَ : صرَفْتُ أَصْحَابَ الرِّقَاعِ بِحَرَمَانٍ تَسْوِيفاً وَمُدَافَعَةً ؛ وَصَرَفْتُ
الْمَالَ فِي الْأَسْلِحَةِ وَالِدَوَابِّ لِعَسْكَرِ عَدُوِّكَ ، فَمَا لَهُ مِنَ الْحِسَابِ !

مثل من يعظ القلوب الخربة

مَثَلُ مَنْ يَعِظُ الْقُلُوبَ الْخَرِبَةَ^(١) مَثَلُ رَجُلٍ عَمِدَ إِلَى خَرَابٍ قَدْ
تَلَزَّقَ عَلَيْهِ الدُّخَانُ وَالْغُبَارُ ، وَاسْوَدَّ مِنْ كَثْرَةِ ذَلِكَ ، فَكَلِمَا طَيَّنَهُ^(٢) لَمْ
يَلْزُقْ بِهِ الطَّيْنَ ، وَتَسَاقَطَ ؛ فَهُوَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَحْكُهُ أَوْ يَغْسِلَهُ
حَتَّى زَالَ عَنْهُ ذَلِكَ الْغُبَارُ وَالِدُّخَانُ حَتَّى يَلْزُقَ بِهِ الطَّيْنَ ، فَإِنْ عَجَزَ عَنْ
ذَلِكَ وَإِلَّا تَابَعَ الطَّيْنَ عَلَيْهِ ، فَكَلِمَا تَسَاقَطَ ضَرْبُهُ بآخر مرةً بَعْدَ أُخْرَى ،
إِلَى أَنْ يَلْزُقَ ؛ فَلَا يَزَالُ يَرُدُّدُ عَلَيْهِ ذَلِكَ حَتَّى يَزِيلَ جَمِيعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ
مِنَ الدُّخَانِ بَتَّابَعِ الطَّيْنِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .

فكَذَلِكَ الْقُلُوبُ الَّتِي قَدْ رَأَتْ^(٣) مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ ، إِذَا لَاقَتْ
الْمَوْعِظَةَ تَهَاوَتْ^(٤) عَنْهَا بِمَنْزِلَةِ الْجِدَارِ الَّذِي مَثَّلْنَاهُ ؛ فَإِذَا تَابَ الْعَبْدُ ،
وَفَرَّغَ مِنَ الْمَعَاصِي ، وَاسْتَغْفَرَ فَلَاقَتْهُ الْمَوْعِظَةُ قَبْلَ الْقَلْبِ ذَلِكَ ، وَأَقْبَلَ
عَلَى الطَّاعَةِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى حُسْنِ الطَّاعَةِ ، فَعَبَدَ اللَّهَ كَأَنَّهُ
يَرَاهُ ، فَذَلِكَ مِنْهُ الْإِحْسَانُ الَّذِي وَصَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِجَبْرِيلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَيْثُ سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ ،

(١) القلوب الخربة : الفارغة ، وهي التي خوت وخلت من ذكر الله لغلبة الغفلة عليها ،
وطحن شهوات الدنيا لها .

(٢) طيَّنه : لطحه بالطين .

(٣) رانت : خيم عليها الرين وهو الطبع والدنس ، يقال : ران ذنبه على قلبه من باب
باع ، وريونا أيضاً أي غلب .

(٤) التهاوت والتقادع بمعنى أي تطايرت وابتعدت .

فقال : الإحسان أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ .

فهذا القلبُ كجِدَارٍ غُسلَ وطُيِّنَ ثم جُصِّصَ^(١) ، فصار أبيض ،
ثم يُنْقَشُ ويُطَيَّبُ ، فصار مُطَيَّباً منقوشاً .

فالقلبُ التَزَوَّقُ عليه دُخَانُ الذنوبِ وغبارها ؛ لقوله سبحانه
وتعالى^(٢) : ﴿ كَلَّا ، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم^(٣) : إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْباً نُكِبَتْ
فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ ، فَإِذَا عَادَ نُكِبَتْ أُخْرَى ؛ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى
يَسْوَدَّ الْقَلْبُ ؛ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى^(٤) : ﴿ كَلَّا ، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . فَإِذَا تَابَ صُقِلَ الْقَلْبُ وَأَضَاءَ ، فَإِذَا لَاقَتْهُ الْمَوْعِظَةُ
لَاقَتْ قَلْباً مَصْقُولاً ، فَصَارَتِ الْمَوْاعِظُ لَهُ عَيَاناً كَأَنَّهُ يَشَاهِدُهَا بِعَيْنِي
الْفُؤَادِ ؛ مَا يُوصَفُ لَهُ ، فَصَارَ كَالْمِرْآةِ إِذَا رِيَتْ^(٥) ؛ فَمَا رَأَاهُ فِيهَا أَبْصَرَهُ
كَالْخِيَالِ ، فَإِذَا صُقِلَتْ أَبْصَرَ فِيهَا كُلَّ مَا قَابَلَهَا مِنْ شَيْءٍ خَلْفَ ظَهْرِهِ
وَبَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَبْصَرَ مِثَالَ وَجْهِهِ فِيهَا ؛ فَإِذَا قَابَلَهَا بِعَيْنِ الشَّمْسِ وَقَعَ
ضَوْءُ الشَّمْسِ فِي الْبَيْتِ الَّذِي لَيْسَ لِلشَّمْسِ فِيهِ مَوْضِعٌ إِشْرَاقٍ ؛ وَذَلِكَ
لَأَنَّ النُّورَيْنِ إِذَا اجْتَمَعَا وَالتَّقَيَّا : نَوْرُ الشَّمْسِ ، وَنَوْرُ الْمِرْآةِ ، تَوَلَّدَ مِنْ
[٧٠] بَيْنَهُمَا نُورٌ ، فَوَقَعَ فِي الْبَيْتِ الْمُظْلَمِ ، فَأَضَاءَ .

(١) الجص : هو الذي يطلى به ، ومجصص أي مطلي به .

(٢) المطففين (١٤/٨٣) قال القراء : « كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بهم
وحاصرت قلوبهم ، فذلك الرين عليها ، ويقال ران على قلبه ذنبه ، أي غلب » .

راجع أيضاً مختصر ابن كثير (٦١٤/٣) .

(٣) راجع الجامع لأحكام القرآن (٢٥٩/١٩) .

(٤) رينت : غشيها الرين ، وران عليها .

فكَذَلِكَ الْقَلْبُ الَّذِي عَلَيْهِ رَيْنُ الذُّنُوبِ بِمَنْزِلَةِ الْمِرْآةِ الَّتِي قَدْ صَدِثَتْ ، فَإِذَا فَكَّرْتَ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ لَمْ يَتَرَأَّ (١) لَكَ ؛ فَإِذَا صُقِلَ قَلْبُكَ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ صَارَ كَالْمِرْآةِ الْمُجَلَّاةِ (٢) ؛ فَإِذَا فَكَّرْتَ فِي سَالِفِ الذُّنُوبِ ، وَتَرَأَى لَكَ قُبْحَهَا ، فَاشْتَدَّ عَلَيْكَ ، وَإِذَا فَكَّرْتَ فِيمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِأَهْلِ الْمَعَاصِي ذَكَّرْتَكَ ، وَأَرَعَبْتَ (٣) قَلْبَكَ بِتَعْظِيمِ مَا تَمَثَّلَ لَكَ مِنْ عِقَابِهِ .

وَإِذَا فَكَّرْتَ فِي دَارِ الْمُطِيعِينَ بَرِمْتَ (٤) بِالْحَيَاةِ شَوْقاً إِلَى تَعْظِيمِ مَا تَمَثَّلَ لَكَ مِنْ كَرَامَاتِهِ لِعَبْدِهِ .

وَإِذَا فَكَّرْتَ فِي الْعَرَضِ الْأَكْبَرِ هَالِكٌ (٥) شَأْنُهُ ، وَأَخَذَكَ الْقَلْقُ ، وَعَمَلَ فِيكَ الْحَيَاءُ مِنْ رَبِّكَ .

وَإِذَا فَكَّرْتَ فِي أَمْرِ الْمَلَائِكَةِ عَظُمَ شَأْنُ الْعِبَادَةِ (٦) عِنْدَكَ ، فَإِذَا لَاحَظْتَ جَلَالَهُ وَعَظَمَتَهُ صَارَ صَدْرُكَ بِمَنْزِلَةِ الْبَيْتِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ نُورُ الشَّمْسِ حَيْثُ قَابَلَتْهَا بِتِلْكَ الْمِرْآةِ ؛ فَصَارَ الصَّدْرُ مِنْكَ مَمْتَلئاً نُوراً ، قَدْ غَابَ عَنْكَ فِي ذَلِكَ النُّورِ جَمِيعُ مَا تَرَأَى لَكَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ فَكْرَتِكَ فِي أَمْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَأَمْرِ الذُّنُوبِ ، وَكُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ ، وَلَهَا (٧) قَلْبُكَ

(١) لَمْ يَتَرَأَّ لَكَ : لَمْ يَتَّصِدْ لِنَظَرِكَ لِتَرَاهُ .

(٢) الْمُتَجَلَّاةُ [أ] .

(٣) أَرَعَبَ : خَوَّفَ .

(٤) بَرِمْتَ بِالْحَيَاةِ : ضَجَرْتَ مِنْهَا وَاغْتَمْتَ بِهَا .

(٥) مَا يَهُولُكَ شَأْنُهُ : مَا يَفْزَعُكَ .

(٦) الْعِبَادَةُ وَالْعِبُودِيَّةُ بِمَعْنَى الطَّاعَةِ .

(٧) لَهَا : مِنَ اللَّهِ أَيْ سَهَا .

عن ذلك كله ، ووقع قَلْبُكَ في بِحَارِ العظمة ، فتقع في الوَلَه إلى الله ، فإذا صار هذا القلب كجِدَارٍ غُسِلَ وَطُنَّ ثم جُصِّصَ ، فصار أبيض ؛ ثم نُقِشَ وَطِيبَ فصار مطيِّباً منقوشاً ، فحينئذ أُقْبِلَ إلى الإحسان وعلى حُسْنِ الطاعة بَأَن يَعْبُدَ الله كأنه يَرَاه ؛ فذاك منه الإحسان الذي وصفه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريلُ عليه السلام .

مثل الدنيا مثل بحر عميق

مثل الدنيا مثل بحرٍ عميق كلُّ مَنْ دخله غَرِقَ فيه ، لأنه لَا يَرَى ساحِلَه ، فإلى كم يَسِج ؟ فهو في السباحة حتى يَغِيَا^(١) ، فيُلْقِي نفسه في التَّهْلِكَة^(٢) ؛ وَرُبَّمَا هاج المَوْجُ فيغرق في تلك الأمواج .

فالكَيْسُ^(٣) مَنْ يُجَانِبُ البحر فهو في سلامة ومَأْمَن من الآفات إذا لزم السواحلَ والفُرْضَة^(٤) . وَمَنْ لَهُ حُمُقٌ دخلها من قَلَّةِ المُبَالاة ، وترك السواحل ؛ فإذا هو هالك .

ومن كان قَوِيًّا في ذاتِ يَدِه ، هنيئاً مريئاً بآلَاتِه وأدواتِه ورجاله وشرُّعه^(٥) وذَيْدَبَانِه^(٦) ، وهياً السفينة^(٧) فركب البحرَ في مركب لم

(١) يعيا : يعجز .

(٢) التهلكة : الهلاك والحتف .

(٣) الكيس : الفطن العاقل الظريف .

(٤) الفرضة : هي ثلثة في النهر يستقى منها ، وتقال لمحط السفن التي ترسو فيه .

(٥) الشرع : بالضم جمع شرع .

(٦) الديدبان : الحارس والرقيب .

(٧) هياً السفينة : أعضاها وجهازها .

يَضُرُّهُ ؛ لِأَنَّ سَفِينَتَهُ بَعْرَضَ الْبَحْرِ وَطُولَهُ قَدْ طَبَّقَتْ الْبَحْرَ ، فَإِنْ سَكَنْتَ
الرِّيحُ أَرْسَاها ، وَإِنْ هَاجَتْ أَجْرَاها ؛ فَالْأَدَمِيُّ بَحْرُهُ حِرْصُهُ الَّذِي فِي
جَوْفِهِ ، فَلَيْسَ لِحِرْصِهِ نَهَايَةٌ ؛ كَالْبَحْرِ الَّذِي لَا يُرَى أَطْرَافُهُ ، وَهُوَ
قَوْلُ^(١) رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَإِدْيَانٍ مِنْ
ذَهَبٍ لَا يَبْتَغَى^(٢) إِلَيْهِ ثَالِثًا ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ .

أَخْبَرَ أَنَّ صَاحِبَ هَذَا كَلِمًا أَزْدَادَ تَنَاوَلُوا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَدْعُهُ^(٣) مَا فِي
جَوْفِهِ حَتَّى يَطْلُبَ مَزِيدًا ، وَذَلِكَ حِرْصُهُ الَّذِي غَرِقَ فِيهِ قَلْبُهُ ، فَأَهْلَكَهُ .

ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِ^(٤) : وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ . فَالْتُّوبَةُ مِنَ
الْعَبْدِ إِقْبَالُهُ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبِهِ ، وَالتُّوبَةُ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ إِقْبَالُهُ عَلَى الْعَبْدِ
بَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ ؛ فَتِلْكَ سَفِينَتُهُ ؛ وَكَمَا أَنَّ السَّفِينَةَ بِلَا أَدَاةٍ وَآلَةٍ وَرِجَالٍ لَا
تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا فَكَذَا التُّوبَةُ لَهَا شُعْبُ^(٥) حَتَّى تَأْتِيَ بِالشُّعْبِ كُلِّهَا ؛ وَهُوَ
أَنْ يُعْرِضَ بِقَلْبِهِ عَنْ جَمِيعِ الشَّهَوَاتِ وَالْهَوَى ، فَذَاكَ الْإِقْبَالُ كُلُّ

(١) الْحَدِيثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِلَفْظِ (مِنْ مَالٍ) وَرَوَى أَيْضًا (لَا تَبْغِي إِلَيْهِ) رَوَاهُ الشَّيْخَانُ
وَالْتِّرَمِذِيُّ وَأَبُو عَوَانَةَ وَغَيْرُهُمْ بِالْفَاظِ مُتَقَارِبَةٍ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا ، وَاتَّفَقَا عَلَيْهِ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ ، وَذَكَرَهُ الْعَجْلُونِيُّ فِي كَشْفِ الْخَفَا (٢٢٨ / ٢) كَذَلِكَ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ
عَنْ أَنَسٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَصَحَّحَهُ السَّيُوطِيُّ (١٣١ / ٢) ط . دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ .

(٢) ابْتَغَى : طَلَبَ .

(٣) لَمْ يَدْعُهُ : لَمْ يَتْرَكْهُ .

(٤) يَقْصِدُ آخِرَ الْحَدِيثِ السَّابِقِ .

(٥) يَقْصِدُ أَنَّ التُّوبَةَ النَّصُوحُ تَقْتَضِي أَنْ يَقْبَلَ الْعَبْدُ عَلَى رَبِّهِ تَائِبًا نَائِبًا قَدْ تَجَرَّدَ مِنَ
الْمَعَاصِي وَآلَى عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَقْرِبَهَا ، وَأَنْ يَطِيعَ اللَّهَ رَبَّهُ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ ، وَأَنْ
يَعْمَرَ قَلْبَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَدَاءِ مَا افْتَرَضَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْإِنْتِهَاءِ عَمَّا نَهَى عَنْهُ مِنَ
الْمَحْرَمَاتِ وَالْمَحْظُورَاتِ ، وَلَا تَنْفَعُ التُّوبَةُ مِنْ غَيْرِ خُشُوعٍ وَإِخْبَاتٍ وَبِقِيْنِ بِاللَّهِ ،
كَذَلِكَ لَا جَدْوَى مِنْ تَوْبَةٍ لَا تَرُدُّعٍ عَنِ الْمَحْرَمَاتِ وَلَا تَكْفٍ عَنِ الشَّهَوَاتِ الْمَحْرَمَةِ .

الإقبال . فقد أَمِنَ الغرق ؛ لأنه قد وَقَعَ قَلْبُهُ فِي بَحَارِ الْعَظْمَةِ ، فامتلأ قَلْبُهُ وَصَدْرُهُ حَتَّى شَبِعَ وَرَوِيَ ، وَغَابَ الْجِرْصُ عَنْ صَدْرِهِ ، وَدَانَتْ^(١) نَفْسُهُ ، فَصَارَتْ كَسَفِينَةٍ قَدْ طَبَقَتْ عُرْضُ الْبَحْرِ ؛ فَإِذَا هَاجَ الْبَحْرُ فَإِنَّهُمَا هُوَ بَحْرُ الْعَظْمَةِ جَرَتْ سَفِينَتُهُ بِرِيحِ طَيِّبٍ ، وَشِرَاعُهَا حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرُهُ ، وَرِيحُهَا شَوْقُ الْعَبْدِ ؛ فَلَوْ أَخَذَ الدُّنْيَا كُلَّهَا بِكَفِّهِ لَقَوِيَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَضُرَّهُ ؛ لِأَنَّ الْجِرْصَ مَفْقُودٌ ؛ وَإِنَّمَا أَخَذَهَا اللَّهُ ، ثُمَّ رَدَّهَا إِلَى اللَّهِ ؛ فَهُوَ كَالْخَازِنِ يَأْخُذُهَا بِحَقِّ ، وَيُمْسِكُهَا بِحَقِّ ، وَيَصْرِفُهَا فِي حَقِّ ، لَيْسَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ شَهْوَةٌ وَلَا نَهْمَةٌ^(٢) .

مثل الشهوات وترددها في الصدور

مَثَلُ الشَّهَوَاتِ وَتَرَدُّدِهَا فِي الصَّدْرِ بَيْنَ عَيْنِي الْفَوَادِ مَثَلُ ذِبَّانٍ^(٣) تَطِيرُ بَيْنَ عَيْنِي الرَّأْسِ ؛ وَإِنَّمَا يَجْتَمِعُ الذَّبَّانُ حَيْثُ يَكُونُ الشَّيْءُ الْحُلُوءُ مِنَ الْأَشْرِبَةِ وَالْأَطْعَمَةِ ، وَكَذَا إِذَا اجْتَمَعَتِ الشَّهَوَاتُ فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ وَحِلَاوَةِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا ، فَلَقِيَّتُهُ مُسْتَقَرًّا^(٤) لَهَا بِتَرَدُّدِهَا ، فَمَا دَامَ الْحَرُّ كَانَتْ^(٥) فَذَلِكَ شَأْنُهُنَّ ، فَإِذَا جَاءَ الْبَرْدُ لَمْ يَكُنْ لَهَا بَقَاءٌ .
فَكَذَا صَاحِبُ الشَّهَوَاتِ إِذَا جَاءَتْهُ مِنَ اللَّهِ رَحْمَةٌ بَرَدَ قَلْبُهُ عَنْ الشَّهَوَاتِ ؛ فَإِنَّ نُورَ الرَّحْمَةِ يُبَرِّدُ الْأَشْيَاءَ وَيُخَمِّدُهَا ؛ فَإِنَّ بَرْدَ الرَّحْمَةِ

(١) دانت نفسه : أطاعت .

(٢) النهمه : الحاجة والشهوة .

(٣) الذبان : جمع (الذباب) .

(٤) في [أ] مستقرًّا لها ، وفي هامشه أمامها مستقبله .

ووردت مستقبله ، وفي هامشه أمامها مستقرًّا لها في [ب] .

(٥) كائن في [أ ، ب] وهو تحريف خطير لأنها منصوبة - كما ورد - حيث أنها خبر ما دام .

يُطْفِئُهُ حَرَّ النَّارِ عَنِ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ الْجَوَازِ عَلَى الصَّرَاطِ .

وكذا ها هنا مَنْ نَالَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بَرَدَ قَلْبُهُ عَنْ جَمِيعِ الشَّهَوَاتِ ؛ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ جَاءَتْ أَنْوَارٌ عَلَى الْقَلْبِ ، وَاشْتَعَلَتْ نِيرَانُهَا فِي الْقَلْبِ ، حَتَّى صَارَ سَعْيُهُ كُلُّهُ لَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ حَرَارَةُ الشَّهَوَاتِ مُوجُودَةً فِي صَدْرِهِ ، وَكَانَ سَعْيُهُ لَهَا .

وقد قال الله تعالى فِي وَصْفِ الشَّهَوَاتِ وَشَأْنِهَا^(١) : ﴿ زِينِ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ^(٢) وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ ﴾ .

فقد اجتمع في الآدَمِيِّ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ : زِينة ، وَحِب ، وَشَهْوَة ،
لهذه الأشياء التي عَدَّ في هذه الآية .

(١) آل عمران (١٤/٣) راجع الدر المنثور (١٠/٢ ، ١١) وجامع البيان للطبري (٢٤٤/٦ - ٢٤٩) .

يقول القرطبي رحمه الله : « قال العلماء : ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال ، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس ، أما الذهب والفضة فيتمول بها التجار ، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك ، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي ، وأما الحرث فيتمول به أهل القرى والسواد . فأما النساء والبنون ففتنة للجميع ، قال : ومعنى الآية تقليل شأن الدنيا وتحقيرها ، والترغيب في حسن المرجع إلى الله تعالى في الآخرة » .
راجع (٣٦/٤) ط . دار الكتب .

ويقول القرطبي أيضاً (٣١/٤) : « وقال أبو حمزة الثمالي : القنطار بإفريقيا والأندلس : ثمانية آلاف مثقال من ذهب أو فضة » اهـ .

وأرجو أيضاً مراجعة تفسير الطبري (٢٥٢/٦) .

(٢) الخيل المسومة : الراعية في المروج .

والشهوة خُلِقَتْ من النار ، وهي محفوفةٌ بها ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم^(١) : حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ . فتلك زينةٌ ونعيمٌ وأفراحٌ خُلِقَتْ من النار ، والنارُ خُلِقَتْ لها ؛ ففي جَوْفِ كُلِّ نَفْسٍ مَوْضِعٌ فيها بقدره ، وحريقها مَوْجُودٌ عند هَيْجَانِهِ .

وللحُبِّ حَرَارَةٌ ، وللزينة فَرَحٌ ، وللفرح حَرَارَةٌ ؛ فكلُّما ازداد العَبْدُ من هذا الفرح تباعدتْ عنه الرحمةُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ^(٢) .

فإذا توقَّى عن هذه الأفراح فمثله كمثل رجلٍ دَخَلَ بيتاً فيه ذَبَّان^(٣) كثيرة فسدَّ الكُوَّةَ^(٤) ، وذَبَّ^(٥) الذَّبَّانِ إِلَى الباب ليخرج^(٦) ، فسدَّ الباب حتى أَظْلَمَ البيتُ ، فذهبتْ قُوَّةُ طَيْرَانِ ما بقي في البيت ، فَبَقِيَ^(٧) في ناحية من البيت ، وراح^(٨) مَنْ فِي الْبَيْتِ .

(١) ومعنى هذا أن أحداً لن ينجو من النار إلا ذوي النفوس المفقومة عن الشهوات المحرمة ، والذوات التي تبرأ من اجتراح السيئات .
راجع القرطبي بتصرف (٢٨/٤) .

(٢) القصص (٧٦/٢٨) .
راجع تفسير الطبري (٢٠/٢٦٩ ، ٢٧٠) والبحر المحيط (١٣٢/٧) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١٢/١٣) .

(٣) الذبان : الذباب .

(٤) الكوة : كل فتحة في الحائط غير نافذة فهي كوة .

(٥) ذَبَّ الذَّبَّانِ : دفعه .

(٦) ليخرجوا [في الأصول] وهو تحريف .

(٧) فبقوا [في الأصول] .

(٨) راح للأمر : فرح وأشرف له .

فَمَنْ لَمْ يَنْلُ تِلْكَ الرَّحْمَةَ الَّتِي تُبَرِّدُ قَلْبَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَتُخَمِّدُ
نَفْسَهُ فِيهَا فَالْحِيلَةُ فِيهِ أَنْ يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ الْعُزْلَةَ وَيَسُدَّ أَبْوَابَ الشَّهَوَاتِ عَلَى
نَفْسِهِ .

قال قائل : مثلُ ماذا ؟

قال : مثل رجل أراد أن يسدَّ بابَ فُضُولِ الكلامِ حتى تنقطعَ عنه
شهوةُ فُضُولِ الكلامِ ويردَ على [٧١] قلبه ذلك .

١ - اجتناب أبواب الكلام :

فعليه أَنْ يَجْتَنِبَ أَبْوَابَ الكلامِ على كائونه^(١) مع عِيَالِهِ ، وعلى
بابِهِ عِنْدَ مَجْمَعِ الْجِيرَانِ فِي الْحَارَةِ ، وَعِنْدَ مَجَامِعِ الطُّرُقِ وَالْأَسْوَاقِ ؛
فَهَذِهِ كُلُّهَا أَبْوَابُ الكلامِ ؛ فَإِذَا عَرَفَهَا تَجَنَّبَهَا ، فَإِذَا هُوَ قَدْ سَدَّ عَلَى
نَفْسِهِ وَحَسَمَ^(٢) الْبَابَ ؛ فَإِذَا تَعَشَّى قَامَ إِلَى مُصَلَّاهُ ، وَإِذَا رَأَى مَجْمَعَ
الْجِيرَانِ سَلَّمَ وَمَرَّ ؛ فَكُلُّ مَجَامِعٍ فِيهَا فُضُولٌ^(٣) مِنَ الْكَلَامِ جَانِبٌ عَنْهَا ،
كَمَا فَعَلَ أَبُو مُسْلِمٍ^(٤) الْخَوْلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ رَأَى جَمَاعَةً فِي
الْمَسْجِدِ ، فَمَالَ إِلَيْهِمْ لِيَجْلِسَ مَعَهُمْ ، وَظَنَّ أَنَّهُمْ فِي ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ،
فَوَجَدَهُمْ فِي ذِكْرِ الدُّنْيَا ، فَقَالَ : أَنْتُمْ فِي سُوقِ الدُّنْيَا ، وَحَسِبْتُ أَنْكُمْ
فِي سُوقِ الْآخِرَةِ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ^(٥) .

(١) الكانون : الموقد بالحطب .

(٢) حسم الشيء : صرمه وقطعه .

(٣) فضول الكلام : الزيادة فيه .

(٤) أبو مسلم الخولاني ، تابعي من عباد الشام ، وقد روى عن الصحابة وتوفي في زمن
معاوية بن أبي سفيان .

(٥) أعرض عنهم : نبا عنهم وانصرف عنهم .

فَمَنْ كَانَ لِسَانُهُ مِنْهُ عَلَى بَالٍ ، وَرَدَّ شَهْوَةَ الْكَلَامِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَقَدْ
نَجَا مِنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ .

وكذا في سائر الجوارح ^(١) يَسُدُّ عَلَى كُلِّ جَارِحَةٍ أَبْوَابَ فُضُولِهَا ،
حَتَّى تَهْدَأَ جَوَارِحُهَا ، فَصَارَ كَمَنْ سَدَّ الْكُوَّةَ ، وَرَدَّ الْبَابَ ، فَسَكَتَ
الذَّبَابُ ^(٢) ، عَنْهُ ، فَكَلِمَا فَتَحَ الْكُوَّةَ وَالْبَابَ عُذِّنَ إِلَى الطَّيْرَانِ ؛ فَهَذَا
دَابُّهُ ^(٣) إِلَى يَوْمِ الْمَوْتِ .

فهذا شَأْنُ أَهْلِ الْعُزْلَةِ حَسَمُوا ^(٤) أَبْوَابَ الشَّهَوَاتِ بِالْعُزْلَةِ عَنْ
الْخَلْقِ ، حَتَّى هَدَأَتِ الْجَوَارِحُ ، وَبَقُوا فِي الزَّوَايَا ، فَمَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ
بِالنِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَبِالْحَرَمَةِ الَّتِي إِذَا وَرَدَ عَلَى الْقَلْبِ نُورُهَا خَمَدَتْ
جَمِيعُ حَرَارَةِ الشَّهَوَاتِ ، وَذُبُلَتْ وَتَهَافَّتَتْ ^(٥) بِمَنْزِلَةِ الْبَرْدِ الَّذِي هَجَمَ
عَلَى مَكَانِ الذَّبَابِ فَتَهَافَّتَتْ ، فَإِذَا بَرَدَ الْقَلْبُ بِخُمُودِ النَّفْسِ ، وَخَلَا
الصَّدْرُ مِنْ حَرَارَةِ الشَّهَوَاتِ ، وَصَوَّرَهُنَّ ^(٦) عَلَى عَيْنِي الْفَوَادِ فِي صَدْرِهِ ،
صَارَ الصَّدْرُ كَمَفَازَةٍ ^(٧) جَرْدَاءَ ، وَطَهَّرَ مِنْ أَدْنَسِ الشَّهَوَاتِ ، فَعِنْدَهَا
جَلَبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ تِلْكَ الْأَنْوَارُ الْمَلَكُوتِيَّةَ ، فَاشْتَغَلَ فِي قَلْبِهِ حَرِيقُهَا ،
فَاسْتَنَارَ الصَّدْرُ بِهَا حَتَّى حَمِيَ الصَّدْرُ ، وَصَارَ بِمَنْزِلَةِ التَّنُّورِ الْخَالِي مِنْ

(١) الجوارح : الأعضاء ، جمع جارحة .

(٢) جمع الذباب .

(٣) دأبه : شأنه وعادته .

(٤) حسموا : قطعوا .

(٥) تهافتت : تساقطت .

(٦) صورتها [ب] ولعله تصحيف .

(٧) المفازة : الصحراء التي لا ماء فيها ولا حياة عليها .

النار ، بارد^(١) ، فكلما أُلْزِقَ به رَغِيفاً تَهَافَّتَ ، ولم يلزق ، فإذا سُجِرَ^(٢) التَّرَقَّ الخُبْزُ به .

فكذا القَلْبُ إذا حَمِيَ بتلك الأنوار ، فكلما لاقته موعظةُ التزق الوَعْظُ به ، وَنَجَعَ^(٣) فيه ، وَاتَّعَظَ به ، وَإِلَّا تَهَافَّتَ كَالخُبْزِ مِنَ التَّنُورِ^(٤) البارد .

مثل رياضة النفس

مثل رياضة النفسِ مثل دَابَّةٍ سالمة لم تُرَبِّطْ إِلَى آرِيٍّ^(٥) ، فكانت تَرْتَعُ^(٦) في البراري^(٧) ، تَذْهَبُ حيث شاءت إِلَى نَهْمَاتِهَا^(٨) ، لا تعرفُ مالِكُهَا ، ولا تَعْلَمُ سَيْرَهَا ؛ فإذا أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهَا مَرْكَباً أَخَذَهَا الرابِضُ بالوَهْقِ^(٩) والحَبْلِ ، ثم قَبِذَهَا حتى أَمَكَّتَتْهُ مِنَ اللَّجَامِ والسَّرَجِ ، ثم ركبها فاضطرَبَتْ بنفسها إِلَى الأَرْضِ ، فلا تزال هكذا حتى انقادت

(١) الأصح أن يقول (بارداً) فلعله تحريف من الناسخ .

(٢) سجر : أوقد .

(٣) نجع فيه : ظهر أثره عليه .

(٤) التنور : هو الكانون يخبز فيه .

(٥) الآري : الأخية وهي عود في الحائط أو جبل يدفن طرفاه في الأرض ويبرز طرفه مثل الحلقة تشد فيها الدابة .

(٦) ترتع : ترعى كيف تشاء .

(٧) البراري : جمع برية ، وهي الصحراء .

(٨) نهوماتها : شهواتها ، جمع نهمة .

(٩) الوهق : جبل يلقي في عنق الشخص يؤخذ به ويوثق ، لكنه عادة ما يستعمل للدواب .

للركوب عليها ، واعتادت اللجاء والسرج ، فاستغنى عن القيْد ، ثم كانت تسير ولا تعلم السير ، فلم تزل تُؤدّب لتعلم السير ، وتترك مُرادها ؛ فردّها من مُرادها ومن نَهْمَتِها وسيرها إلى مُراد نفسه ؛ ثم لما صارت إلى الأنهار والحفائر وثبّ بها لتعتاد العبور عليها ، ولم يُجرها على القنطرة فتعتاد الجري على القنطرة ، فليس على كل نهر تُوجد قنطرة ؛ ثم سار بها في جلب^(١) الأسواق في النجارين والحدادين ونحوهما ، ليعودها الجلبة كي لا تنفر ولا تترك سيرها عند كل جلبة تستقبلها ، فلا يزال يردُّ بها هكذا حتى يأخذ بمجامع قلبها ، وتترك أذنيها مُضغية إلى هذه الرياضة ، فهي تسير بهذا اللجام ؛ فإن مُدَّ عِنائها^(٢) بإصبع وقفت ، وإن عُطفت^(٣) بإصبع انعطفت ، وإن تحامل بركايتها^(٤) ، وأرخى عِنائها طارت ، وإن كبّح لجامها في ذلك الطيران بإصبع هدأت وسكنت وإن نزل عنها ووقفها امتنعت من أن تروث^(٥) وتبول حتى تصير إلى موضعها ، وإن استقبلتها جلبة لم تلتفت إلى ذلك ، ودأبت^(٦) في سيرها ، وإن استقبلها نهر لم تلتفت إلى قنطرة ، ووثبت وثبة من رفع البال عن نفسها .

فهذه دابة قد صلحت للملك ، فعرضت عليه ، فاستحلاها ، واتخذها لنفسه مركباً ، فربطت إلى آريّة ، وأغلقت من أطايب

(١) جلب الأسواق : صوتها وصخبها .

(٢) العنان : هو سير اللجام حيث تمسك به الدابة .

(٣) عطفت : ثنيت .

(٤) الركاب : ما يضع الراكب رجله فيه من السرج ، وهو مصنوع من الجلد .

(٥) تروث : تخرج روثها .

(٦) دأبت : جدت وتعبت .

الأعلاف وِعَلًا في ثمنها ، وجُللت^(١) وبرِّقَعَتْ^(٢) وأُريحت ؛ فمن بين الأيام يَنْشِطُ الملكُ مرةً للركوب عليها .

فكذا النَّفْسُ أَوَّلًا تُرَاضُ بحفَظِ الحدود ؛ فهذا سَرَجُها ولِجَامُها ، والركوب هو الفَرَاثُصُ ، وَلِجَامُها الحدودُ التي حَرَّمَ الله تعالى ؛ ثم تُرَاضُ^(٣) فتُؤَخَذُ بالصَّدَقِ والإِخلاصِ في الأعمال ، وحُسْنِ الأخلاق ، كما أَمِرت الدابةُ بحُسْنِ السير ، وبالعُطْفِ في المعاطف ، والطيْران عند التَّحَامُلِ عليها ؛ وذلك السبق بالأعمال من العَبْد ، والمَسَارعةُ في الخيرات ؛ ثم يُؤَخَذُ عليه بِقَوْلِ الحَقِّ وألَّا يخاف في اللَّهِ لَوْمَةً لائم ؛ ذلك فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ من يَشَاءُ .

والأَمْرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المنكر ، كما أُخِذَت الدابةُ بالوُثْبِ حيث لا قَنْطَرَةَ ولا مَجَازَ للماءِ ، ثم يُؤَخَذُ عليه بالمعاداة لأهل المُنْكَرِ والمَعَاصِي ، والْحُبُّ لِلَّهِ ، والبُغْضُ في الله ، كما أُخِذَ على الدابة تَقْلِبُها في العبور والأسواق .

فهذا بَدَلُ النَّفْسِ لِلَّهِ ؛ فإذا قد استكمل الأَدَبُ ، وأَخَذَ اللَّهُ بِقَلْبِهِ ، فصار صَغُوًّا^(٤) أَذْنِي فَوَادِهِ إِلَى اللَّهِ تعالى ، وشخصت عَيْنًا فَوَادِهِ تَنْظُرَانِ إِلَى اللَّهِ تعالى ، وَإِلَى تَدْبِيرِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا في خَلْقِهِ ؛ فهذا وَلِيُّ اللَّهِ قد أَدَبَهُ واصْطَفَاهُ^(٥) لنفسه ، واتَّخَذَهُ حَبِيبًا .

(١) جللت : ما يوضع على الدابة ليقبها البرد مثل الثوب للإنسان . وتجمع على جلال وأجلال .

(٢) البرقع : تجمع على براقع وهو ما تستر به النساء وجهها .

(٣) تراض : تسير وتذلل .

(٤) صَغُوًّا أَذْنِي : ميلها واستماعها .

(٥) اصطفاه لنفسه : اختاره .

مثل الإيمان والأعمال الصالحة

مثلُ الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ مثلُ بَيْتٍ وُضِعَ فِيهِ غُصْنٌ مِنَ
الْوَرْدِ وَالْيَاسْمِينِ وَالسَّوسَنِ مِمَّا يَفُوحُ رِيحُهُ ، فَيَطِيبُ الْبَيْتَ مَا دَامَ الْبَيْتُ
مَرْشُوشاً ذَا رُوحٍ ، وَالْغُصْنُ طَرِيٌّ بِمَائِهِ ، فَرِيحُهُ فَائِحٌ ؛ فَإِذَا هَبَّ الرُّوحُ
مِنَ الْبَيْتِ ، وَتَمَكَّنَ فِيهِ الْحَرُّ ذُبُلَ الْغُصْنِ ، وَذَهَبَتْ طَرَاوُتُهُ ، وَافْتَقَدَ
طَبِيئُهُ .

فكذا الإيمان في قلبه طريٌّ نَزْهٌ^(١) بنزاهة القلب ، فإذا نالته حرارةُ
شَهَوَاتِ النَّفْسِ ، وَفُورَانِ الْهَوَى ، وَجِدَّةُ حَرَارَةِ الْحِرْصِ ، وَطَلَبُ
الْعُلُوِّ ، وَحُبُّ الْعِزِّ وَالرِّيَاسَةِ ، فَأَحَاطَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ بِالْقَلْبِ ذَبَلَتْ شَجَرَةُ
الإيمان ، وَذَهَبَتْ طَرَاوُتُهَا وَنَزَاهَتُهَا .

مثل طيب الإيمان على القلب

مثلُ طيبِ الإيمانِ على القلبِ مثلُ عُودٍ أَلْقَيْتَهُ عَلَى جَمْرَةٍ لِيَتَوَقَّدَ
وَيَتَبَخَّرَ بِهِ الْمَسْجِدُ ، فَإِذَا كَانَتِ الْجَمْرَةُ ذَاتَ تَوَقُّدٍ فَاحٍ^(٢) رِيحُ الْبُخُورِ ،
وَانْتَفَعَ الْقَوْمُ بِهِ ، وَإِذَا كَانَتِ الْجَمْرَةُ مُنْطَفِئَةً قَدْ عَلَاهَا الرَّمَادُ بَقِيَ الْعُودُ
مَكَانَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَخُورٌ .

(١) نزه ومنتزه : بعيد عن المكروه ، والرجل النزيه النفس هو العفوف .

(٢) فاح : تضرع وانتشر .

مثل الإيمان في القلب

مثلُ الإيمانِ في القلبِ مثلُ غراسَةٍ غرسَها في الأرضِ عوداً كالسَّوَاكِ ، فالتَّفَّتْ عليها الأرضُ ، فَإِنْ أَنْتَ سَقَيْتَها وَأَمَدَدْتَهَا بالترابِ ، وأَضَحَيْتَها^(١) للشمسِ ، فعَنْ قَرِيبٍ تصيرُ شجرةً باسقةً^(٢) في السماءِ ؛ غلظَ ساقها ، وكَثُرَ فروعها ، وتمكَّنت^(٣) من الأرضِ [٧٢] عُروَقُها ، وزَكَتْ^(٤) ثمرُها .

فإِنْ قَصَّرْتَ في السَّقْيِ والترابِ ، وسَطَّحْتَ^(٥) فوقَها فلم تُدْرِكها الشمسُ تكونُ عُوَيْدَةً^(٦) كما غرسَها ، ثم عن قَرِيبٍ تَيْسٌ^(٧) وتُقْلَعُ ويُرمَى بها في النارِ .

فكذا نُورُ الإيمانِ إِذَا دخلَ القَلْبَ فسَقَّيْهُ العلمُ باللهِ ، فكلما ازدَدَّتْ باللهِ عِلْماً ازدادَ القَلْبُ باللهِ حياةً ، وازدادَ كَشْفاً^(٨) ووضوحاً برُبوبِيتهِ .

ومَدَدُهُ أَعْمَالُ البِرِّ ؛ وهي أداءُ الفرائضِ واجتنابُ المحارمِ ؛ فكلما عَمِلْتَ بَرّاً كان نُورُ ذَلِكَ العَمَلِ راجعاً إلى نُورِ المعرفةِ ، فيزدادُ

(١) أضحيتهَا للشمسِ : أظهرتها لها .

(٢) باسقة : عالية مرتفعة طويلة .

(٣) تمكَّنت من الأرضِ : رسخت فيها وثبتت عليها .

(٤) زكت الثمرة : زادت ونمت .

(٥) سطَّحت فوقها : بسطت .

(٦) عويده : تصغير (عود) .

(٧) تيس : تجف وتصلب .

(٨) ربما يقصد به (الكشف الصوفي) أو المكاشفة وهذا أغلب ظني .

قوة بُنُورِ المعرفة ؛ لأنه إِذَا رُفِعَ عَمَلُهُ إِلَى الله تعالى نظر الله إليه ، فاشتغل بذلك ؛ فذلك العملُ النور ، وأصلُهُ في القلب ، وَفَرَعُهُ عند الله تعالى ؛ فَإِذَا اشْتَغَلَ الْفَرْعُ نُوراً بِنَظَرِ اللهِ تعالى إِلَيْهِ تَأْدَى^(١) ذلك النورُ إلى الأصل ، فاختلط بُنُورِ المعرفة فَتَزَكَّى^(٢) ، وإِضْحَاؤُهَا للشمس رَفَعَ العلائق ؛ وهو ركوبُ الهوى في الشهوات ، فَإِذَا زَالَ الْهَوَى عَنْ القلب كان بمنزلة بَيْتٍ رُفِعَ سَقْفُهُ حَتَّى خَلَصَ إِلَى الشَّجَرِ حَرُّ الشَّمْسِ ، فعندها يَغْلُظُ ساقه ، وتكثر فروعُه ، وتَزَكُّو^(٣) ثمرته ؛ كَعُودِ غَرْشَتِهِ فِي وَعَاءٍ مِثْلِ الْحُبِّ وَفِي أَصْلِ الْحُبِّ تَرَابٌ ، فلم يزل هذا العودُ يَنْمُو بِسَقْيِ الْمَاءِ وَإِشْرَاقِ الشَّمْسِ ، حَتَّى صَارَ ذَا سَاقٍ^(٤) غَلِيظٍ ، امْتَلَأَ مِنْ غَلْظِهِ هَذَا الْحُبُّ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَوْضِعٌ ظَفَرٌ ؛ فَإِذَا امْتَلَأَ لَمْ يَكُنْ لشيءٍ غَيْرِهِ مَسَاحٌ فِيهِ أَنْ يَدْخُلَهُ .

فكَذَلِكَ الْمَعْرِفَةُ إِذَا تَمَكَّنَتْ فِي الْقَلْبِ عُرُوقُهَا لَا يَزَالُ يَرْبُو^(٥) عَلَى ازْدِيَادِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَبِرُبُوبِيَّتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَعَلَى أَعْمَالِ الْبِرِّ ، وَقَطَعَ الْعَلَائِقَ ، حَتَّى يَمْتَلِئَ الْقَلْبُ مِنْهُ ، فَكَانَ بَدْوُهُ نُورَ الْمَعْرِفَةِ ، فَلَحَقَتْ بِهِ هَذِهِ الْأَنْوَارُ : نور المعرفة ، وأنوار العمل ، فامتلأ القلبُ نُوراً حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعُ رَأْسِ إِبْرَةٍ خَالِياً عَنِ النُّورِ ، فَكَيْفَ تَدْخُلُهُ ظِلْمَةُ الْهَوَى وَالنَّفْسِ ، فَإِذَا لَمْ^(٦) يُرَبَّهُ بِهَذِهِ الْأَنْوَارِ بَقِيَ الْقَلْبُ

(١) تَأْدَى : وصل .

(٢) تَزَكَّى : تطهر .

(٣) تَزَكُّو ثمرته : تنمو وتكثر .

(٤) سَاقِ الشَّجَرَةِ : جذعها .

(٥) يَرْبُو : يزيد .

(٦) يَرْبِيهِ [فِي الْأَصُولِ] وَرَبَّمَا تَكُونُ يَرْبِيهِ .

خالياً إلا بمقدار ذلك النور الذي حلَّ به من نُورِ المعرفة وما حَوَّلَهُ من القلب خال ، فتدخل عليه ظلماتُ الهَوَى ، فتختلط به^(١) ، وَيَجَاوِرُهُ بجوارِ السوءِ حتى يذوبَ ذلك النورُ ، وَيَنْتَقِصَ ؛ فَيُوشِكُ صاحب هذا أَنْ يُسَلَبَ حتى لا يبقى معه شيء . نعوذُ بالله من تلك الحال .

وحُكي أَنَّ إبراهيم بن جُنَيْدٍ رَجِمَهُمَا اللهُ قال : كان يُقال : هِمَّةُ الزُّهَّادِ والعُبَّادِ مخالفةُ الأهواءِ عن الشهوات ، وَهِمَّةُ العقلاءِ والأولياءِ تَرْكُ الذنوبِ وإصلاحُ القلوب .

مثل الإيمان

مثلُ الإيمانِ مثلُ الضيفِ الكريمِ بَعَثَهُ^(٢) الملكُ إِلَيْكَ ضيفاً ، وَأَمَرَكَ بِالإحسانِ إِلَيْهِ ؛ فَإِنْ تَرَكَكَ على ذلك وقعت في الجَهْدَ^(٣) والمعالجة والاستدانة والْحَوْرَ^(٤) ؛ تُنْفِقُ عليه وتُحْسِنُ^(٥) ؛ فَإِنْ أَعْطَاكَ الملكُ بَذْرَةً^(٦) من الدنانير وقال : أَنْفِقْ على هذا الضيف ، ولا تُقْتَرْ^(٧) ، وَأَحْسِنْ إِلَيْهِ ، ولا تُقْصِرْ ، فقد استرَحْتَ . فَإِنْ كُنْتَ تَرَكَتِ الضَّيْفَ ضائعاً ، وتنفق الدنانيرَ على أهلك ولَدَكَ فقد خُنْتَ وخَسِرْتَ .

(١) تختلط به : تمتزج به .

(٢) بعث [أ] وهو تحريف من الناسخ .

(٣) الجهد : التعب والمشقة .

(٤) الجور [ب] وهو تصحيف ، والحرور : هو النقصان .

(٥) وتحسبه [ب] .

(٦) البذرة : هي كيس فيه ألف ، أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف درهم .

(٧) التقتير : التضييق ، يقال قتر على عياله ، إذا ضيق عليهم في النفقة . وبابه ضرب ودخل (راجع مختار الصحاح) .

فالمؤمنُ أُعْطِيَ المعرفةَ وقيلَ له : تَبَحَّرْ في علمِ هذه المعرفة ،
وانظر إلى ما ظَهَرَ لَكَ من عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَجَلَالِهِ وَمُلْكِهِ ؛ وانظُرْ إلى
تدبيره وَحِكْمَتِهِ وَصَنَائِعِهِ^(١) ، وانظر إلى مَجْدِهِ وإِحْسَانِهِ ، فذهبَ بهذا
النَّظَرُ ، بما أُعْطِيَ من النور ، إلى أَشْغَالِ النَّفْسِ وَأُمُورِ الدُّنْيَا ، فخاب
وَحَسِرَ .

وإنْ ذهبَ بهذا النَّظَرُ إلى ما ذَكَرْنَا بما أَظْهَرَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ
أُمُورِهِ أَزْدَادَ يَقِينًا وَخَشِيئَةً وَخَوْفًا وَحَيَاءً ، وَازْدَادَ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى ،
وَاسْتَغْنَى بِهِ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : إِنَّ يَوْمًا لَا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْمًا بِقُرْبِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُورِكَ لِي فِي
طُلُوعِ شَمْسٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ .

وَرُويَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَلَّمَنِي غَرَائِبَ الْعِلْمِ . قَالَ : مَا صَنَعْتَ فِي
رَأْسِ الْعِلْمِ ؟ فَقَالَ^(٢) : لَهُ : هَلْ عَرَفْتَ رَبَّكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ؟ فَقَالَ : مَا
صَنَعْتَ فِي حَقِّهِ ؟ قَالَ : مَا شَاءَ اللَّهُ . قَالَ : هَلْ عَرَفْتَ الْمَوْتَ ؟
قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَمَا أَعَدَدْتَ لَهُ ؟ قَالَ : مَا شَاءَ اللَّهُ . قَالَ : فَازْهَبْ
فَتَعَلَّمْ رَأْسَ الْعِلْمِ . ثُمَّ تَعَالَى حَتَّى أُعَلِّمَكَ غَرَائِبَ الْعِلْمِ .

فَإِنَّمَا ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْعِلْمِ بِاللَّهِ ،
لِيَقُومَ بِحَقِّهِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ حَقِّهِ ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ مَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُ ، وَجْهَلِ

(١) الصَّنَائِعُ : جَمْعُ صَنِيعَةٍ وَهِيَ الْإِحْسَانُ ، وَكُلُّ مَا اصْطَنَعْتَهُ مِنْ خَيْرٍ .

(٢) كَذَا فِي [أ ، ب] .

حقّه ، ثم ادّعى علماً به فهو كاذبٌ في مَقَالَتِهِ ؛ فإنّما ذاك عِلْمٌ سَمِعَهُ
بأُذُنِهِ ؛ وَأَوْدَعَهُ حِفْظُهُ ، وليس في قَلْبِهِ منه إلّا الإيمان به .

فهذه البَذْرَةُ التي أعطاك الملكُ لتُنْفِقَ منها ، وأعطاك ربُّك جلَّ
جلالُه هذا الذَّهَنَ والعَقْلَ ؛ فمن استعمل عَقْلَهُ في التَّفَكُّرِ في أَمْرِ اللَّهِ
فقد وضع النِّفْقَةَ موضِعَها ، وقد أنفق على الضيف ؛ لأن المعرفة
موضِعُها القلبُ ، وَحَوَّلَهَا بحورُ العلم بالله ؛ فذلك كلُّه ثباتُ المعرفة
واستقامتُها ، لئلا تُصِيرَ المعرفةُ نكرةً بينما أنك تعرفُ ربَّك بالجوِدِ
والكرمِ والوفاءِ ، ثم تصير معرفتُك نكرةً فتتملّقُ^(١) إلى عبيده^(٢) في
النَّوَابِثِ^(٣) ، وتتعلّقُ بهم ، وتتخذهم من دُونِهِ وَكِيلاً وَوَلِيّاً ؛ فتعرف
ربَّك بالكِفَايَةِ ، وتستظهر^(٤) بمن دُونِهِ ، حتى تقعَ في آبارِ المهالكِ ،
وتصير مَذَاهِناً^(٥) وَمُتَصَنِّعاً^(٦) ومُرَائِيّاً ، تتزيّنُ لخلْقِهِ ، وتترضّاهم^(٧)
بالقَبَائِحِ وَالْمَشَايِنِ^(٨) فيما بينك وبين ربِّك . ونعوذُ باللهِ مِنْ ذلك .

مثل الإيمان وصحته وسقمه

مثلُ الإيمانِ وصحَّتِهِ وسَقَمُهُ مثلُ رَجُلٍ يريدُ أَنْ يَشْتَرِيَ عَبْدًا ،

(١) التملّق : الملاطفة والتودّد .

(٢) عبيده وعباده بمعنى .

(٣) النواثب : النوازل جمع نائبة .

(٤) تستظهر : تستعين وتستنصر .

(٥) المداهن : المنافق ، وإظهار خلاف المضمهر .

(٦) المتصنّع : المبدي غير ما يستكنُّ في طويته .

(٧) تترضاهم : تتطلب رضاهم .

(٨) المشايين : المقايح والمثالب والمعاير .

فيتخيرُ مِنْ بين العبيد مَنْ له زيادةُ بَسْطَةٍ^(١) في الجسم ، غليظ الرقبة ، يقدَّرُ بالأحمال الثقيلة على رَقَبته ، وسبق على العبيد بالشَّخصِ والبَطْشِ ، فاشترأه بالثَّمَنِ الغالي ، وأقامه بالخدمة بين يديه ، وصَيَّرَ^(٢) له مقاماً معلوماً ، فإذا يكون قد سَقِمَ^(٣) فما زال السَّقَمُ حتى أثَّرَ في بَدَنِهِ ؛ فزال عنه قُوَّةُ البَطْشِ والحَمْلِ ، وِرَقَّ عَظْمُهُ ، وصارت قَدَمَاهُ مِنَ الرَّعْشَةِ والرَّجْفَةِ^(٤) حتى عجز عن القيام بين يدي سيِّده ، وعجز عن الخدمة ؛ فتراجعت قيمته ، وصار أمرُهُ على خَطَرِ الموت .

فالمؤمنُ لَمَّا جاءه نور الهداية استقام^(٥) قَلْبُهُ لِلَّهِ عُبُودَةً ، مُؤْمِناً بَقَلْبِهِ ، مُسْلِماً بأركانِهِ ، فقد استقرَّتْ قَدَمَاهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى للخدمة ، فإذا جَاءَتْهُ الشهواتُ مع هبوب رِيحِهَا ، فرجفت بقلبه ، ومازجت حلاوة الشهواتِ ولذاتُ الهوى حلاوة الحبِّ الذي في إيمانه ، وضَعُفَ قَلْبُهُ ، وصارت تلك الحلاوة واللذة التي جاءت من قِبَلِ الشهوة مَرَضاً للقلب ؛ فضَعُفَ القلبُ ؛ لِأَنَّ قُوَّتَهُ كانت مِنْ حرارة ذلك الحبِّ وحلاوته ، وقوة [٧٣] الفَرَحِ الذي في ذلك الحبِّ ، فرجفت^(٦) قَدَمَاهُ وارتعشت ، فإذا جَاءَتْهُ المكروهاتُ ضَعُفَ قَدَمُهُ عن احتمالها ، وَدَقَّتْ رَقَبَتُهُ ، وذهبت قُوَّةُ بَطْشِهِ بقلبه ، وَعَجَزَ عن القيام بين يدي اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّ هَوَاهُ وشهواتِهِ تَرُدُّانِهِ إِلَى الْمُنَى .

(١) البسطة : الطول والقوة والكمال .

(٢) صَيَّرَ له مقاماً : جعل له مقاماً لم يكن من قبل .

(٣) سَقِمَ : مرض ، وطال مرضه .

(٤) رجفة القدمين : من الكبير أو المرض .

(٥) استقام قلبه على العبود : ثبت على الطاعة .

(٦) فرجت [ب] ورجفت : ارتعشت واضطربت .

فالإيمانُ هو استِقْرَارُ الْقَلْبِ بين يَدَيِّ الله تعالى ، وَطَمَأنِينَةُ النفسِ بين يَدَيِّ الله تعالى بِالْعُبُودَةِ ؛ فَإِنَّمَا دخل عليه السَّقَمُ من مُخَالَطَةِ حلاوة الشهوات وَلَذَّةِ الهوى ، فذهبت قُوَّتُهُ ، فلذلك قال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم : الإيمانُ حُلُوٌّ نَزَه^(١) . فنزَّهوه .

فحلاوَتُهُ من الحُبِّ الذي تَضَمَّنَهُ ، ونَزَاهَتُهُ من نُورِ التوحيد . فإذا مازجته^(٢) حلاوة الشهواتِ مَرَّرْتَهُ^(٣) ، وإذا خالطته أسبابُ الهوى ذهبت نَزَاهَتُهُ ؛ فتكَدَّرَ الإيمانُ وتدنَّسَ^(٤) ، ومن كُدُّورته^(٥) ودَنَسَه سَقَمُ الْقَلْبِ .

قال له قائل : وكيف يتدنَّسُ الإيمانُ ويتكَدَّرُ ؟

قال : إِنَّ الإيمانَ عَطَاءُ اللهِ تعالى ، وهو استقْرَارُ قَلْبِ الْعَبْدِ به ؛ فإذا استقرَّ قَلْبُهُ بربِّهِ صَارَ عَارِفًا له مطمئنًا إليه ؛ فذاك منه إيمانٌ بالله تعالى ، وهو عطاؤُهُ للعبْدِ ، يقال : آمَنَ يُؤْمِنُ إيمَانًا .

وأما النورُ الذي منه استقْرَارُ القلبِ فهو نُورُ الإيمانِ ، فيجوزُ أَنْ يُسَمَّى إيمانًا في اللغة ، كما نَسَبَتَ الْبَيْتَ إِلَى الدَّارِ ، والدَّارَ إِلَى الْبَيْتِ ، فَالدَّارُ تُسَمَّى دَارًا لِتَدْوِيرِ الْخِطَّةِ^(٦) ، وَالْبَيْتُ يُسَمَّى بَيْتًا لِأَنَّهُ نَبِيتٌ فِيهِ .

(١) نزَه : طاهر طيب بعيد عن الرجس والقبح .

(٢) مازجته : ماذقته وخالطته .

(٣) مرَّرتَه : جعلته مرأً .

(٤) تدنَّس : توسَّخ .

(٥) كدُّورته : كدره .

(٦) الخطة : الأرض التي تنزل بها ما سبق إليها أحد قبلك .

مثل الإيمان

مثلُ الإيمانِ مثلُ الضَّيفِ : بعث الملكُ إليك ضيفاً ، وقال : أحسِّنْ إليه ، فإنه ضَيْفٌ كريم ، وهو من خاصَّتي ، وصُنَّه صِيَانَةٌ مثله ؛ فلو تركك على ذلك وقَعْتَ في جَهْدٍ^(١) عظيم واستدانة ومؤونة^(٢) عظيمة ؛ لتُنْفِقَ عليه ، وتُحَسِّنَ إليه في العاقبة ، ومع ذلك تعجز عن الصَّيَانَةِ والإحسانِ إليه لِفَقْرِكَ وخِفَّةِ ذاتِ يَدِكَ^(٣) ؛ فَإِنْ أَعْطَاكَ بَدْرَةً^(٤) من الدراهم لتُنْفِقَ عليه فقد أَقْدَرَك على الإحسانِ إليه ، وكُنْتَ واصلًا إلى إحسانه على السَّعَةِ والبَسْطَةِ ؛ لسعةِ المال الذي نِلْتَهُ .

والأوَّلُ نَالُهُ التَّعَبُ لضيقِ النَّفَقَةِ ، وَلَكِنْ أَنْتَ بَعْدُ فِي تَعَبٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّكَ تَحْتَاجُ إِلَى التَّقْدِيرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَالتَّقْدِيرُ تَعَبٌ ؛ لِأَنَّكَ تَحْتَاجُ إِلَى مَحَافَظَةِ الْمَقَادِيرِ ، فَإِذَا جَاءَتِ الْمَحَافَظَةُ عَلَى التَّقْدِيرِ ضَاعَ بَعْضُ الْإِحْسَانِ لِقَلَّةِ الْعُدَّةِ ، فَإِذَا بَعَثَ إِلَيْكَ بَدْرَةً أُخْرَى مَكَانَ الدَّرَاهِمِ مِنَ الدَّنَانِيرِ ، وَقَالَ : أَنْفِقْ عَلَيْهِ ، اتَّسَعَ^(٥) فِي النِّفَقَةِ ، وَخَرَجَ عَنْ تَعَبِ التَّقْدِيرِ وَمَحَافَظَتِهِ ، فَوَصَلَ إِلَى الْإِحْسَانِ كُلِّهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ بَقِيَ شَيْءٌ مِنَ الْإِحْسَانِ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ .

قال له قائل : وما تلك البَقِيَّةُ ؟

(١) الجهد العظيم : البلاء الشديد .

(٢) المؤونة : الثقل .

(٣) خفة ذات اليد : كناية عن الفاقة .

(٤) البدرة : كيس يحتوي على سبعة آلاف دينار ، أو ألف أو عشرة آلاف درهم .

(٥) واتسع [ب] .

قال : بهاء^(١) الإحسان وزينته .

قال : وبماذا يصلُّ إلى ذلك ؟

قال : بأن بعث إليه بذرةً أخرى مكان الدنانير من الجواهر ، قيمة كلِّ جوهر منها بيوت^(٢) من الدنانير ؛ قد اتسع الآن في النفقة اتساعاً ، فحينئذ يصلُّ إلى بهاء الإحسان وزينته .

قال له قائل : ضربت المثل ، فقابل الشيء بالشيء حتى نفهمه .

قال : نعم ، الملك ربُّك الأعلى ، والضيف الكريم وخاصته المعرفة ، الذي آمنت به ، فأوصاك بالإحسان إليه وصيانته بقوله تعالى^(٣) : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . وقال أيضاً جَلَّ ذِكْرُهُ^(٤) : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٥) .

قال له قائل : هذه الآية نزلت في الجهاد وفي النفقة فيه .
فقال : هذا الذي تحكيه تفسيرُ العجم من الكتبِ الموضوعة لهم على (الشايدبوز) ، أفترى ما أنزل الله في شأن قومٍ لم يعمَّ الخلق

(١) البهاء : الحسن والجمال والرونق .

(٢) بيوتاً في [أ ، ب] وهو تحريف .

(٣) البقرة (٢ / ١٩٤) راجع تفسير الإمام الطبري (٣ / ٥٧٦) وما بعدها .

(٤) البقرة (٢ / ١٩٥) .

(٥) ويقول القرطبي رحمه الله : « الإلقاء باليد إلى التهلكة هو بترك الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى ، والإقامة على الأحوال وإصلاحها وترك الغزو ، وقيل معناه : لا تمسكوا بأيديكم عن الصدقة فتهلكوا » . راجعه للتفصيل (٢ / ٣٦١) .

ذلك ؟ فقد نَزَلَتْ آيَةُ الْخَمْرِ^(١) وآيَةُ الرَّبَا^(٢) في شأن قوم فَعَمَّتِ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ ، ولم يَقُلْ أَحَدٌ من المؤمنين إنما نزلت هذه في شأن كذا وفي قوم كذا ، فهذا لهم دُوننا ؛ فإذا قال الله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فقد عَمَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ أَنْ يَتَّقُوهُ ، وَعَمَّ الْمَوَاضِعَ كُلَّهَا ، فإذا قال : ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فقد اقْتَضَاهُمْ كُلَّهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا ذَلِكَ .

وقوله : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ . . . ﴾ الآية . فَسَبِيلُ الْقُلُوبِ إِلَى الْعَرْشِ إِلَى مَظْهَرِهِ الَّذِي ظَهَرَ لِلْعِبَادِ ، وهناك سَبِيلُ الْأَرْكَانِ وَالْجَوَارِحِ إِلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، فالْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ الْقُلُوبِ مِنْ هَذِهِ الْبَدْرَةِ الَّتِي كَنْزُهَا فِي الصُّدُورِ ، وَالْإِنْفَاقُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَالْكَنْزُ فِي الْقَلْبِ ، وَمَوْضِعُ الْإِنْفَاقِ عَلَى الضَّيْفِ فِي الصُّدْرِ ، وَالْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ الْأَرْكَانِ وَالْجَوَارِحِ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الَّذِي رَسَمَهُ فِي التَّنْزِيلِ ، فَيَأْتِمُرُ بِأَمْرِهِ ، وَيَنْتَهِي عَنْ نَهْيِهِ ؛ فَكِلَاهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، إِلَّا أَنَّ أَحَدَ السَّبِيلَيْنِ^(٣) لِلْقَلْبِ إِلَى الْعَرْشِ ، وَسَبِيلَ آخَرَ لِلنَّفْسِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ إِلَى الْجَنَّةِ .

وإنما يستكمل في سَبِيلِ الطَّاعَةِ بِالسَّبِيلِ إِلَى الْعَرْشِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ؛ فَيَدْعُو مَجَاهِدَةَ النَّفْسِ ، وَرَدَّ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ جَاءَ وَبِمَا جَاءَ مِنْ بَابِ النَّارِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ؛ أَيُّ أَحْسِنُوا مَجَاوِرَةً مَعْرِفَتِي فِي قُلُوبِكُمْ ، فَإِنَّ

(١) وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ . . . الآية ٩٠ من المائدة .

(٢) وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ﴾ . . . الآية ١٣٠ من آل عمران .

(٣) السَّبِيلُ : الطَّرِيقُ .

معرفتي وعِلْمِي وَتَكَلُّمِي أَنُورُ لَا تَحْتَمِلُ الْأَدْنَسُ^(١) ، ومجاورة الأتّان والمزابل ؛ وقد عَلِمْتُمْ أَنَّ الْغِلَّ وَالْغِشَّ ، وَالْمَكْرَ وَالْحَسَدَ ، وَحُبَّ الدُّنْيَا ، وَاتِّبَاعَ الْهَوَى ، كُلُّهَا أَتَّانٌ وَمَزَابِلٌ ، وَظُلْمَةٌ وَأَدْنَسٌ ، وَأَنْجَاسٌ وَأَرْجَاسٌ ؟

فَإِذَا وَجَدْتُمْ فِي صُدُورِكُمْ سُلْطَانَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَامِلًا^(٢) فِيهَا فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ هَذَا الضَّيْفِ عِنْدَكُمْ ؟ وَأَيُّ إِكْرَامِكُمْ لِيَّاي ، وَوَصِيَّتِي لِيَاكُم بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ : فِيمَا رُويَ عَنْهُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ : إِنِّي أَكْرِمُ مَنْ أَكْرَمَنِي ، وَأُهِينُ مَنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرِي .

فَإِكْرَامُ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ تُكْرِمَ مَعْرِفَتَهُ الَّتِي وَضَعَهَا فِيكَ ، وَتَصُونَهَا مِنَ الْأَدْنَسِ وَالْأَتَّانِ وَالْمَزَابِلِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا .

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْإِيمَانُ حُلُوُّ نَزَةٍ فَتَزْهَوْهُ . فَحِلَاوَةُ الْإِيمَانِ الْحُبُّ الَّذِي وَضَعَ فِيهِ ، وَنَزَاهَتُهُ أَنَّ تُنَزَّهَ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ؛ أَيُّ أَحْسَنُوا إِلَى هَذَا الضَّيْفِ ، وَأَحْسَنُوا مُجَاوَرَتَهُ ؛ فَإِذَا قَالَ : أَحْسَنُوا ، فَإِنَّمَا يَقَعُ الْإِحْسَانُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣) : إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ^(٤) ، وَلْيُجِدْ^(٥)

(١) الأدناس : الأدران والأوساخ .

(٢) عامل [في الأصول] وهو تحريف .

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١٥٤٨) .

(٤) القتلة : هي الحالة والهيئة .

(٥) يُقال أحد السكين وحددها واستحدها : شحدها .

أَحَدُكُمْ شَفَرْتَهُ ، وَلَيُرح ذبيحته (١) .

وقال جلّ ذكره (٢) : ﴿ وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِحْسَانًا ﴾ . وقال جلّ ذكره (٣) : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ . وقال الله عزّ وجلّ (٤) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

فأحسن إلى من أحسن إليه ، وأعظم شأنه ، وأكرم مجاورته ، وطهر مكانه [٧٤] ، وهو نور الله تعالى في قلب المؤمن .

وجه تشبيه القلب بالكعبة :

وقد عَظَّمَ اللهُ تعالى شأنَ الكعبة وطهرها وسَمَّاهَا بَيْتَهُ ، ولم يملِكها أحداً من خلقه ، وجعل حولها حَرَمًا آمناً يلوذُ به (٥) الخائفون ويمتنعون به من الآفات ، ويتطهَّرون بالطَّواف بهذا البيت من أدناس (٦) الذنوب ، ويرجعون في وَقْتِ الصُّدُورِ (٧) عنه مغفورين ؛ فَنُورُ اللهِ أَعْظَمُ شَأْنًا وحرمةً من الكعبة .

وَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ خِزَانَةُ اللهِ تعالى ، فيه كنوز المعرفة ، وكنوز العلم بآلائه (٨) ، ولم يملِكْه أحداً ، ولم يُطْلَعْ عليه أحداً ، ولم يَكِلْهُ إلى

(١) وإحسان القتلة يكون بإراحة الذبيحة بإحداذ السكين وتعجيل إمرارها .

(٢) الإسراء (١٧ / ٢٣) .

(٣) القصص (٢٨ / ٧٧) .

(٤) النحل (١٦ / ١٢٨) .

(٥) يلوذ به الخائفون : يلجأون إليه ويحتمون به .

(٦) الأدناس : الأوساخ .

(٧) الصدور عنه : الرجوع عنه .

(٨) آلائه : نعمه .

أحد ؛ فهو في قبضته وبين إصبعين من أصابع الرحمن يُقَلَّبُهُ كيف يشاء .

كذا روي لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمي بهذا الاسم : يا مُقَلَّبَ القلوبِ والأبصار ؛ ثَبَّتْ قلبي على طاعتك (١) .

وكان هذا الاسم هِجِيرِي (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عَامَّةُ دعائه بهذا الاسم ، وعامة حاجته في الثبات ؛ قالت (٣) عائشة رَضِيََ اللهُ عنها : قلت : يا رسولَ اللهِ ، إنك لتُكثِرُ هذا الدُّعاء : يا مُقَلَّبَ القلوبِ والأبصارِ ، ثَبَّتْ قلبي على طاعتك (٤) . فقال لي : يا عائشة ، إِنَّ القلوبَ بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقَلَّبُها كيف يشاء . ثم قرأ قولَ اللهِ سبحانه (٥) : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٦) .

الروايات لهذا الحديث من غَيْرِ وَجْهِ واحد ولا اثنين ولا أربعة ولا

(١) والشاهد على ذلك أن الرجل يعمل الدهر الطويل عمل أهل الجنة لكنه لا يبقى بينه وبينها قدر ذراع فيعمل عمل أهل النار فيحق عليه القول فيصبح من الهالكين والعكس فقد يعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها قدر ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيحق عليه القول فيدخل الجنة وينجو وهذا من رحمته سبحانه وتعالى به ولطفه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إِذَا أَحَبَّ اللهُ امْرُؤًا اسْتَعْمَلَهُ ، قِيلَ وَكَيْفَ يَسْتَعْمَلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : يَهَيِّئُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ مَوْتِهِ . . . فتأمل . اللهم اجعل خواتيم أعمالنا للخير وفي طاعتك ، واجعل خير أعمالنا ما قارب آجالنا . . . آمين » .

(٢) هجيري رسول الله : شأنه ودأبه .

(٣) أرجو مراجعة الجامع لأحكام القرآن (٢٠ / ٤) .

(٤) على دينك [القرطبي] .

(٥) آل عمران (٨ / ٣) .

(٦) لا تزغ قلوبنا : لا تدعها تنصرف وتميل عن الدين .

خمسة ، كلُّهم يَرَوُونَ هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل الله قَلْبَ الْمُؤْمِنِ خزانته ، وفيها كنوزُهُ ، وهو مُمَسِّكُهُ ، وجعل صَدْرَهُ حَرَمًا .

فَإِذَا كَانَ الْحَرَمُ لَهُ مِنَ الْحُرْمَةِ أَنَّهُ لَا يُصَاد صَيْدُهُ ، وَلَا يُقَطَّع شَجَرُهُ ، وَلَا تُلْتَقَط لُقَطَتُهُ ^(١) ، وَلَا يَخَافُ مَنْ دَخَلَهُ ، وَصَيْرَهُ ^(٢) مَأْمَنًا ، وَمَهَبَ رَحْمَتِهِ ^(٣) ، وَمَوْضِعَ نَظَرِهِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ شَأْنًا مِنَ الْحَرَمِ ، وَمَا فِيهِ أَعْظَمُ مِنَ الْكَعْبَةِ ؛ فَإِنْ كَانَتِ الْكَعْبَةُ بَيْتَهُ ؛ فَهَذَا نُورُهُ فِي خَزَانَتِهِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْكَعْبَةُ لَا يَمْلِكُهَا غَيْرُهُ ، فَهَذَا الْقَلْبُ أَيْضًا فِي قَبْضَتِهِ لَا يَمْلِكُهُ غَيْرُهُ ، وَإِنْ كَانَ مَا حَوْلَهُ حَرَمًا ؛ فَالْصَّدْرُ حَوْلَ الْقَلْبِ حَرَمٌ لِهَذِهِ الْخَزَانَةِ وَلِمَا فِيهَا ، فَكَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ أَحْدَثَ فِي الْحَرَمِ حَدَثًا أَوْ آوَى ^(٤) مُحْدِثًا ^(٥) فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ ^(٦) .

فهذا الْمُحْدِثُ هو خَارِجِيٌ يَخْرُجُ بِالْجَوْرِ وَالْبَاطِلِ عَلَى إِمَامٍ عَدْلٍ مُحِقٍّ ، فَهُوَ الْمُحْدِثُ وَمَنْ أَعَانَهُ أَوْ آوَاهُ فَقَدْ اسْتَوْجِبَ اللَّعْنَةَ . فَكَذَلِكَ مَنْ أَحْدَثَ فِي هَذَا الصَّدْرِ حَدَثًا مِنْ هَوًى أَوْ بِدْعَةٍ اسْتَوْجِبَ اللَّعْنَةَ وَلَمْ

(١) اللقطة : اسم الشيء الذي يوجد ملقياً .

(٢) صَيَّرَهُ مَأْمَنًا : أَحَالَهُ مَأْمَنًا .

(٣) مهبط رحمته : منزل رحمته .

(٤) آوَى : ضَمَّ إِلَيْهِ وَالْجَا .

(٥) المُحْدِثُ : الْجَانِي .

(٦) قيل الصرف : التوبة ، أما العدل : فهو الفريضة .

يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ وَلَا تَوْبَةٌ ؛ لِأَنَّهُ خَرَّبَ الدِّينَ ، وَرَامَ ^(١) أَنْ يَأْخُذَ
وَلَايَةَ الْقَلْبِ بِالتَّوْحِيدِ ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ أَمِيرٌ عَلَى النَّفْسِ ، وَالْإِمْرَةَ بِالْكُنُوزِ
وَالْجُنُودِ حَتَّى يَمْضِيَ سُلْطَانُهُ عَلَى الْجَوَارِحِ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَقُوَّةِ
كُنُوزِ الْمَعْرِفَةِ ، وَعِلْمِ التَّوْحِيدِ ؛ فَهَؤُلَاءِ الْجَبْرِيَّةُ ^(٢) وَالْقَدَرِيَّةُ ^(٣)
وَالْمُرْجِئَةُ ^(٤) وَالْمُجَسِّمَةُ وَالْمُعْطَلَّةُ عَلَيْهِمْ لِعَائِنُ ^(٥) اللَّهُ تَتَرَى ^(٦) قَدْ
أَحْدَثُوا فِي الْحَرَمِ عَلَى خِزَانَةِ اللَّهِ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِمَّنْ أَحْدَثَ فِي الْحَرَمِ
عَلَى بَيْتِ اللَّهِ .

وَكَمَا لَا يُصَادُ صَيْدُ الْحَرَمِ فَكَذَلِكَ مَا تَطَايَرُ فِي الصَّدْرِ مِنَ
الْخَوَاطِرِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَلَيْسَ تُصَادُ تِلْكَ الْخَوَاطِرُ ، فَيَدْخُلُ
قَلْبُهُ مَدَاخِلَ الْفِكْرِ لِكَيْفِيَّتِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَتِلْكَ الصِّفَاتِ كَيْفِيَّةٌ وَلَا مُنْتَهَى
وَلَا مُلَاحَظَةٌ ، فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ كَمَا تَكْفُرُ ^(٧) أَوَّلَ صَيْدٍ تَأْخُذُهُ .

(١) يروم : يطلب والمرام : المطلب .

(٢) الجبرية : هم قوم قالوا بالجبر أي أن الله سبحانه وتعالى أجبر العباد على المعاصي
وحملهم عليها ومعاذ الله أن يكون ذلك ، لأنه لا يعقل أن يحمل الحق سبحانه جل
شأنه عباده على معصية ، أو على أمر ثم يحاسبهم عليه ، تعالى عن ذلك علواً
كبيراً .

(٣) القدرية : هم مكذبون بما قدر الله من الأشياء فهم يجحدون القدر . راجع الفرق
بين الفرق للبغدادى ص ٢٠٥ .

(٤) المرجئة : وهم قوم مسلمون قدموا القول وأرجئوا العمل وأخروه ، ويقولون إن
الإيمان بغير عمل يكفي للنجاة من عذاب الله ، ويقولون (لا يضر مع الإيمان
معصية) راجع أصناف المرجئة في الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٥ بتحقيق
محمد محيي الدين عبد الحميد ط . دار المعرفة - بيروت .

(٥) لعائن : لعنات ، جمع لعنة .

(٦) تترى : تتابع وتتوالى .

(٧) تكفر : تستر .

ثم قال الله تعالى (١) : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ ؛ أي يعاقبه .

وحذرك الكُفْر ، فإنه ينتقم منك إذا اتبعت الخواطر ففكرت .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِهِ ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِيهِ .

وكما لَا تُقَطِّعُ أَشْجَارَ الْحَرَمِ فتذهب نُزْهَتُهُ وَخُضْرَتُهُ لَا تَسْقُطُ حَرَمُهُ أَشْجَارُهُ أَيْضاً لِأَنَّهَا فِي الْمَأْمَنِ .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : مَا صِيدَ مِنْ مَصِيدٍ ، وَلَا قُطِعَتْ شَجَرَةٌ إِلَّا لِغَفْلَةٍ عَنِ التَّسْبِيحِ .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى بَغْرَابَ (٢) وَافِرِ الْجَنَاحِينَ ، فَمَسَحَهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَا صِيدَ مِنْ مَصِيدٍ وَلَا قُطِعَتْ شَجَرَةٌ إِلَّا لِغَفْلَةٍ عَنِ الصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ .

فَإِذَا كَانَتِ الْأَشْجَارُ إِنَّمَا يُسَلِّطُ الْآدَمِيَّ عَلَيْهَا فِي وَقْتِ غَفْلَتِهَا (٣)

(١) المائدة (٣ / ٩٥) .

(٢) وافر الجناحين : طويل الجناحين .

(٣) والسهو والغفلة عن التسبيح من ظلم الذوات لنفسها وحيفها وهو أشد ألوان الظلم للنفس لأن فيه حرماناً من فيض الرحمات الإلهية ، قال تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ ، قال : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ، قال : كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ .
وقال صلى الله عليه وسلم : «اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» .

عن التسييح ؛ لِأَنَّهَا عَلَى قَطْعِهَا صَارَتْ مُعَاقَبَةً بِتَرْكِ التَّسْيِيحِ ، وَجُعِلَتْ شَجَرَةُ لِلْأَدَمِيِّينَ ، فَيَكُونُ تَسْيِيحُهَا مَكَانَ تَسْيِيحِ الْمُتَمَتِّعِينَ عَنِ التَّسْيِيحِ بِشُرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، لِتَتَمَاسَكَ الْأَرْضُ بِتَسْيِيحِ الْمَسْبُوحِينَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَمَنْ لِحَقِّ تَسْيِيحِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ ؛ فَإِنَّمَا يُسَلِّطُ عَلَى قَطْعِهَا بِتَرْكِهَا التَّسْيِيحَ وَغَفَلَتَهَا ، فَإِذَا كَانَتِ الشَّجَرَةُ فِي الْحَرَمِ فَهِيَ فِي الْمَأْمَنِ مَأْمِنَ بَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى .

وقال الله تعالى (١) : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ (٢) .

وَإِنْ غَفَلَتْ عَنِ التَّسْيِيحِ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهَا عَقُوبَةُ الْقَطْعِ ، فَمُنِعَ الْخَلْقُ عَنْ قَطْعِهَا ، فَإِنْ قَطَعَهَا قَاطِعٌ فَتِلْكَ جِنَايَةٌ . فَإِنْ غَرِمَ فِي الدُّنْيَا كَانَ قَدْ افْتَدَى نَفْسَهُ بِتِلْكَ الْغَرَامَةِ وَالصَّدَقَةِ عَلَى الْمَسَاكِينِ بِقِيَمَتِهَا ، وَأَدَّى إِلَى الْحَرَمِ حَقَّهُ ، وَخَرَجَ مِنْ جِنَايَتِهِ عَلَى شَجَرِ الْحَرَمِ ، وَإِنْ لَمْ يَغْرَمْ فِي الدُّنْيَا مُوَحِّدٌ كَانَ أَوْ مُشْرِكٌ فَلَا فَوْتَ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَخْذِ حَقِّهِ لِحَقِّهِ وَحَقُّ حَرَمِهِ ؛ فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُ أَشْجَارِ الْحَرَمِ فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ قَطَعَ أَشْجَارَ حَرَمِ الْقَلْبِ الَّتِي فِي الصُّدْرِ ؟

قال : تدبير الله تعالى في إبراز أسمائه ، وعلم أسمائه ، وما خرج من أسمائه إلى الخلق ؛ فخرج باسم العرش ، وباسم الكرسي ، وباسم الجنة ، وباسم النار ، وباسم الملائكة ، وباسم آدم

(١) البقرة (٢ / ١٢٥) راجع تفسير غريب القرآن لابن قتيبة بتحقيق السيد أحمد صقر ص ٦٣ ط . دار الكتب العلمية .

(٢) جعلنا : صيرنا ، والبيت هو الكعبة ، والمثاب : المرجع ، وقد يكون موضع الثواب .

عليه السلام والآدميين ، وباسم المسخرين^(١) ، وباسم الليل والنهار ، وباسم الذي ختم الأسماء محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهذه الأسماء كلها تدبيره . وهذا الخلق الذي منه خرج تدبيره ؛ فهذه أشجار ؛ فمن اعترض تدبيره ، فعارض اسماً باستخفاف^(٢) أو جهالة فقد قطع شجرة ، ومن اعترض تدبيره فعارض حقاً من حقوقه في خلقه فقد قطع أغصان الشجرة ، وأصل الشجرة باق ؛ فإن تاب وأرضى الخلق عادت الأغصان اليابسة رطبة .

فإذا كانت أشجار الحرم حرم الكعبة هذا محل صاحبها وهذا شأنها فكيف بأشجار حرم الصدر؟ ما ظنك بمن عارض تدبير الله تعالى ؟ أليس هو مُنَاصِبٌ^(٣) لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ اسْتِبْدَاداً وتورعاً^(٤) عن أشياء [٧٥] على المراءة^(٥) ، وتماوتاً^(٦) عند الخلق ، وتخشعاً بخشوع النفاق ، وجوفه ممتلىء من الحسد والحقد ، والرغبة والشح والبخل ، والأمل وسوء الظن ، والغل والغش والمكر ، وأنواع الخيانات ، والاستخفاف^(٧) بأهل ملته ، وقلة الرحمة والعطف ، وقطيعة الرجم ، والتعزُّز^(٨) والتكبر ، والتجبر^(٩) والمراءة والتنزير

(١) المسخرين : المستعملين مجاناً مذللين .

(٢) استخفاف : استهانة .

(٣) ناصب فلاناً العداء : كاشفه وظاهره وجاهره به .

(٤) الاستبداد بالأمر : الانفراد به ، والتورع : الكف .

(٥) المراءة : إظهار نقيض المطوى عليه .

(٦) التماوت : مראה الناسك .

(٧) الاستخفاف : الاستهانة وهي من جعل الشيء خفيفاً .

(٨) التعزز : الصيرورة إلى العزة .

(٩) التكبر والتجبر واحد .

والتصنع ، والمُدَاهَنَة^(١) وتعظيم الدنيا ، والعَوْنُ في غير ذاتِ اللَّهِ تعالى على الضرِّ والنَّفْعِ ، والبَطَرُ^(٢) بأنعمِ اللَّهِ تعالى ، والكبرياءِ على عِبَادِ اللَّهِ تعالى ، والفَخْرُ في عطيةِ اللَّهِ تعالى ، وَخَوْفِ الْفَقْرِ ، والفرحِ بالدنيا وبأحوال النفس ، والحُزْنُ على قُوَّتِهَا ، والتملُّكُ في أمرِ اللَّهِ ، والاقتدارِ والسُّخْطُ للمقدور ، وقلةِ الأَمْنِ للرزقِ ، والاستبدادِ في أمرِ اللَّهِ تعالى ، والتَّهَاؤُنُ بالمؤمن ، فقد حشا جَوْفَهُ وَزَوَايَا بَيْتِهِ من هذه الأشياءِ ، وَمَلَأَ صَدْرَهُ من دُخَانِهَا وَظَلَمَتِهَا وَأَتَانِهَا^(٣) وَأَدْنَسَهَا ؛ لِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ من أَغْصَانِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ ، والخروجِ على اللَّهِ ، والمُضَاهَاةِ^(٤) بطلبِ عِزِّهِ وَكِبَرِهِ في أرضِهِ بِدُنْيَا دُنْيَةٍ ، وَشَهْوَةِ رَدِيَةٍ ، وَيَتَجَبَّرُ في حقوقِهِ ، وَيَتَزَيَّنُ لِعَبِيدِهِ ، كَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَيُدَاهِنُ في أمرِهِ ، كَمَنْ لَا يَعْرِفُ رَبَّهُ ، وَيُعْظَمُ دُنْيَاهُ الَّتِي حَقَّرَهَا ، كَمَنْ يُنَاصِبُ رَبَّهُ ، وَيُعِينُ في غيرِ ذَاتِهِ ، كَمَنْ يُرِيدُ خَرَابَ مَا عَمَرَهُ اللَّهُ تعالى ، وَيَبْطِرُ بِأَنعَمِهِ ، كَمَنْ لَا يُبَالِي بِهَا ، وَلَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْمُنْعَمِ ، وَيَسْخَطُ في مقدوره ، وَيَتَجَبَّرُ في أموره ، كَأَنَّهُ هُوَ الْمُدَبِّرُ لِلْأُمُورِ ، فَأَيَّةُ حُرْمَةٍ بَقِيَتْ لِهَذَا الْحَرَمِ ؛ وَأَيَّةُ مَعْرِفَةٍ بَقِيَتْ لِمُصَاحِبِ هَذَا ، وَقَدْ أَغَارَ الْعَدُوُّ عَلَى كُنُوزِهِ ، فَبَدَّدَهَا^(٥) وَظَمَسَهَا^(٦) بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، وَهَزَمَ الْعَقْلَ حَتَّى انْكَمَنَ^(٧) فِي رَأْسِهِ وَحَتَّى ذَهَبَ عِلْمُهُ وَإِشْرَاقُهُ فِي الصَّدْرِ .

(١) المداهنة : المساهاة وإظهار ما هو خلاف الباطن .

(٢) البطر : كنود النعمة وعدم الشكر عليها .

(٣) الأتنان : الجيف والأوساخ .

(٤) المضاهاة : المعارضة والمشاكلة .

(٥) بددها : فرقها .

(٦) ظمس الشيء : محاه .

(٧) انكمن : توارى واختفى .

قال له قائل : قد ذكرت أنه لا تلتقط لُقَطَتُهُ فايش (١) لُقَطَتُهُ ؟

قال : سِرُّ الْقَدَرِ ، والعلوم التي حُجِبَ الْخَلْقُ عن إدراكها ، فذاك لُقَطَتُهُ ، لا يُعْرَفُ بَيْتُهَا ولا وَلِيُّهَا ، ولا يَمْلِكُهَا أَحَدٌ سِوَاهُ ؛ وهي موضوعة في طريق التوحيد ، وَمَذْرَجَةٌ (٢) العقول إلى التوحيد بِلُؤَى (٣) لِلْعِبَادِ ؛ فَأَهْلُ الزَّيْغِ (٤) طالبون لها ، وباحثون عنها ، ويفتشون لها ، ولن يَزِدَادُوا بذلك التفتيش إِلَّا غَمًّا وَحَيْرَةً ؛ لِأَنَّهُ عِلْمٌ لَا يُدْرَكُ مُتَنَاهَا ؛ بِمَنْزِلَةِ بَحْرِ عَمِيقٍ مُظْلِمٍ لَا يُدْرَكُ حَدُّهُ ولا نَهَايَتُهُ ؛ فَالَسَابِحُ فِيهِ كَمَنْ سَبَحَ فِي الْبَحْرِ ؛ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْغَرَقِ وَالْهَلَكِ .

فهذه اللَّقْطَةُ فِي الصَّدْرِ حَرَمُ الْقَلْبِ ، فَلَا تُلْتَقَطُ لِحُرْمَةِ التَّوْحِيدِ ؛ لِأَنَّ مِنْ شَرَطِ التَّوْحِيدِ أَلَّا تَطْمَعَ لِلْعِبَادِ (٥) فِيمَا تَوْحَّدَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَتَفَرَّدَ .

ويحقُّ على العاقل أَنْ يَعْقِلَ ، فيقول : إِذَا قُلْتَ : اللَّهُ وَاحِدٌ أَحَدٌ فَرَدٌ ، فَأَيُّ عِلْمٍ فِي الْأَحَدِيَّةِ وَالْفَرْدِيَّةِ ؟ إِنَّمَا الْعِلْمُ فِي الصِّفَاتِ صِفَاتِ الْقُدْرَةِ ، فَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى أَحَدِيَّتِهِ وَفَرْدِيَّتِهِ ، فَأَيُّ عِلْمٍ هُنَاكَ تَطْمَعُ فِي مَعْرِفَتِهِ ، وَقَدْ انْقَطَعَتِ الصِّفَاتُ ؟ وَكَيْفَ تَصِفُ عِلْمًا وَلَا صِفَةَ لَهُ ؟

وقوله : لَا يَخَافُ آمِنُهَا ، فَالْحَقُّ إِذَا وَجَدَ فِي الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ مَأْمَنًا فَقَدْ اعْتَزَلَ الْخِيَانَةَ ، وَظَهَرَ مَكَانَهُ الْأَمْنُ ؛ فَصَارَ صَاحِبُهُ مُحَقَّقًا ، فَعِنْدَهَا

(١) .أيش لقطته ؟ : ما تكون لقطته .

(٢) المدرجة : الطريق أو الطريق المنعطف .

(٣) بلوى وابتلاء بمعنى الاختبار .

(٤) الزيغ : الانحراف عن طريق الاستقامة .

(٥) ربما يقصد المؤلف بالذات الشرك الأصغر ، أو الخفي .

يَكُونُ الْحَقُّ مُسْتَعْمَلَةً^(١) . وَإِذَا لَمْ يَجِدْ فِي الصَّدْرِ مَأْمَنًا فَقَدْ نَفَرَ ؛ فَلَمْ يَأْمَنْ خِيَانَةَ النَّفْسِ ، وَمَيَّلَ الْقَلْبَ ؛ فَصَاحِبُهُ فِي طَلَبِهِ وَهُوَ مَاضٍ عَنْهُ .

وقولنا : مَهْبِطَ رَحْمَتِهِ وَمَوْضِعَ نَظَرِهِ فَهِيَ مَعْرُوفَةٌ ؛ فَإِذَا كَانَتِ الْكَعْبَةُ مَهْبِطَ الرَّحْمَةِ فَكَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ مَهْبِطُ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى وَرَأْفَتِهِ ، وَمَهْبِطُ جُودِهِ وَكَرَمِهِ ، وَعَيْنُ اللَّهِ تَرَعَاهُ ، وَمَوْضِعَ نَظَرِهِ أَيْضًا .

الخبر : إِنَّ^(٢) اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَعْمَالِكُمْ^(٣) وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ ، فَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ صَالِحٌ تَحَنَّنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، فَإِذَا تَحَنَّنَ^(٤) عَلَيْهِ رَعَاهُ وَصَيَّرَهُ فِي قَبْضَتِهِ .

الخبر الذي قال : كُنْتُ سَمِعُهُ . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٥) : أَلَا إِنَّ التَّقْوَى هَا هُنَا - ثَلَاثًا - وَأَشَارَ إِلَى الصَّدْرِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ .

وَأَعْظَمُ التَّقْوَى مَا اتَّقَى فِي الْحَرَمِ ، فَإِذَا اتَّقَى فَإِنَّمَا يَتَّقِي عَلَى الصَّيْدِ وَالشَّجَرِ وَاللَّقَطَةِ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَالتَّقْوَى الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهَا صَاحِبُ الشَّرْعِ ؛ فَهِيَ عَلَى كُنُوزِ الْمَعْرِفَةِ وَعَلَى أَشْجَارِهَا فِي الصَّدْرِ وَعَلَى لَقَطَتِهَا ، وَعَلَى مَنْ التَّجَأَ إِلَيْهِ مَأْمَنًا ؛ فَأَوْفَرَ النَّاسَ حِطًّا فِي الْكَعْبَةِ

(١) مستعمله : عمله .

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١٩٢٧) .

(٣) حاشية أ ، ب ورد فيها : - « لَا يَنْظُرُ إِلَى صُدُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ، كَذَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ . وَتَمَامُهُ فِيهِ : وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ - وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى صَدْرِهِ .

(٤) يتحنن عليه : يشفق عليه ويرأف به .

(٥) راجع صحيح مسلم (١٩٧٦) .

مَنْ عَظُمَ شَأْنُهَا ، وَاتَّقَى عَلَى حَرَمِهَا ، وَأَكْثَرَ الطَّوَّافَ بِهَا ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ شَمِّ رَائِحَةِ الْكَعْبَةِ ، وَنَظَرِ إِلَيْهَا بِعَيْنِ الصَّحَّةِ لَا بِعَيْنِ السَّقَمِ^(١) ؛ مِنْ قَلْبٍ لَا سَقَمَ فِيهِ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَإِرَادَاتِ الْهَوَى ؛ فَنَظَرَ بِعَيْنِ ذَلِكَ الْقَلْبِ إِلَى بَهَاءِ^(٢) الْكَعْبَةِ ، وَإِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي بِهِ صَارَتِ الْكَعْبَةُ كَعْبَةً ، لَا إِلَى تِلْكَ الْأَحْجَارِ ؛ لِأَنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَعْبَةً وَلَا أَحْجَارَ ؛ وَكَانَتْ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ تَحُجُّهَا فِيمَا بَيْنَ نُوحَ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَلَا أَحْجَارُ ثَمَّةَ^(٣) .

فَأَوْفَرُ النَّاسِ حَظًّا مِنْ خَزَانَةِ اللَّهِ الَّتِي فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ مَنْ عَظُمَ شَأْنُهَا ، وَاتَّقَى عَلَى صَدْرِهِ ، وَأَكْثَرَ الطَّوَّافَ حَوْلَ الْخَزَانَةِ ، حَتَّى يُدِرَّ عَلَيْهِ وَلِيُّ الْخَزَانَةِ مِنَ الْكُنُوزِ ، كَمَا يُدِرُّ الضَّرْعُ عَلَى حَالِبِهِ مِنَ اللَّبَنِ ؛ فَإِنَّ الْبَقْرَةَ وَالشَّاةَ تَدْرُ مِنْ ضَرْعِهَا عَلَى وَلَدِهَا لِتَرْضِعَهُمَا بِالرَّافَةِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي وَضِعَتْ فِيهَا ، وَلَوْلَا تِلْكَ الرَّحْمَةُ لَوَلَدَهَا مَا دَرَّ لَبَنُهَا .

أَلَا تَرَى أَنَّ الْحَالِبَ يُقَدِّمُ عِنْدَ الْحَلَبِ وَلَدَهَا إِلَيْهَا أَوَّلًا حَتَّى تُرْسِلَ اللَّبَنَ ، ثُمَّ يَقْطِعُ وَلَدَهَا عَنْهَا وَيَحْلِبُهَا ، وَلَوْ مَاتَ وَلَدُهَا مِثْلَ لَهَا مِثَالٍ وَلَدَهَا بَأَنْ يُحْشَى جِلْدُ وَلَدِهَا تَبْنًا ، وَيُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهَا لَتَنْخَدِعَ بِذَلِكَ ، فَتَدْرُ لَبَنُهَا .

فَأَرَاكَ هَذَا رَبُّ الْبَقْرَةِ مِنْ خَلْقِهِ ، وَعَرَفَكَ أَنَّ الَّذِي تُصِيبُ مِنْ عِنْدِي فَتَدْرُ عَلَيْكَ رَحْمَتِي .

(١) السقم : المرض .

(٢) البهاء : الحسن والرونق والجمال .

(٣) ثَمَّة : هناك .

قال له قائل : وما يُدرّ عليه من الخزانة من تلك الكنوز ؟
 قال : يدرُّ بالرحمة - كما وصفت من شأن الضرع والدر - من
 الكنوز وعلم المعرفة .

علم المعرفة :

قال له القائل : وما علمُ المعرفة ؟
 قال : عرفت الرب ؟ قال : نعم . قال : بأي شيء عرفتَه ؟
 فانقطع^(١) . قال : عرفني نفسه من الصفات . قال : فما احتظيت^(٢) من
 هذه الصفات ؟ قال : الإيمان به . فكان ذلك حظك منها ؟ أم علم
 مشرق مستنير ؟ أم مطالعة ببصائر الهدى ؛ فإن علم المعرفة للعامّة
 الإيمان به ، وهو الظالم لنفسه ، ما زال يظلم نفسه باتباع الهوى
 والشهوات ، حتى احتجبت المعرفة عنه ؛ فصاحبه عالم جاهل مؤمن
 به ، يعثر مرّة في طريقه ، ويقوم أخرى ، ويزل^(٣) مرّة ، وينعش^(٤)
 أخرى ؛ فهو بين طاعة ومعصية ، حتى يقدم على ربه بهذه الحالة .

وعلم المعرفة للصادقين مُشرق نير واضح ، وهو المقتصد^(٥) ؛
 يُشير إلى الله تعالى على مدرّجة^(٦) الصّدق في الفعل^(٧) جهداً وحذراً
 وحراسة [٧٦] ، باكياً على نفسه ، يقتضي منها الصّدق في الفعل^(٧)

(١) انقطع : سكت .

(٢) احتظيت : كان لك حظوة .

(٣) يزل : يكبو ويسقط .

(٤) ينعش : يرتفع ، ويقوم .

(٥) المقتصد : الذي يعطي كلاً من الدنيا والآخرة حقها .

(٦) المدرّجة : الطريق .

(٧) العقل [ب] وهو تحريف .

جهداً في كل حركة وفعل وقول .

وعلم المعرفة للصدّيقين مطالعة البراذين^(١) ، ومشاهدة المعادن ، وذلك باليقين ، وهو علم السابقين المُقَرَّبِينَ ، قال الله جلّ ذكره^(٢) : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ .

فيعلم اليقين ، وبقوة نُورِهِ ، يَرَى عَيْنَ الْيَقِينِ^(٣) بِالْبَرَاذِينِ^(١) وَالْمَعَادِنِ التي تَظْهَرُ منها الصفات ورُبُوبِيَةِ الرَّبِّ .

فذلك العلمُ النافذُ بِبَصَرِ قَلْبِهِ إلى نُورِ رُوحِهِ^(٤) ، المتوقّد في عَيْنِهِ الظاهرة التي في رَأْسِهِ ؛ فإذا نظر إلى الأشياء أَبْصَرَ آيَةَ الْقُدْرَةِ في الأشياءِ كُلِّهَا ، وآثارَ الرُّبُوبِيَةِ ، فلا تَقْدِرُ زِينَةُ الأشياءِ وَبَهْجَتُهَا وَحِلَاوَتُهَا أَنْ تَغُرَّهُ عن الله حتى يتعلّق قَلْبُهُ بشيءٍ دُونَ اللَّهِ تعالى ، فيحجبه عن الله تعالى ، فيصير فِتْنَةً عليه ، فيَعْمَى بِصَرِّ قَلْبِهِ ، وَيَبْقَى في ظِلْمَاتِ النفسِ ، وَحُبِّ الشهوات ؛ ويتكدّر رُوحُهُ ، وَيُسَلَبُ قَلْبُهُ الإِمْرَةَ ، وَيَغْلِبُ الخارجي .

فإذا لم يَكُنْ له هذا العلمُ في صَدْرِهِ على صفةِ السابق^(٥) المقرب ، وإنّما كان عِلْمُهُ على صفةِ الْمُقْتَصِدِ فهو مشغولٌ يَقِينُهُ بُوْهَجِ

(١) البراذين : الدواب ، جمع برذون .

(٢) التكاثر (١٠٢ / ٦،٥) قال صَلَّى الله عليه وسلّم : « لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً » . راجع القرطبي (١٧٢ / ٢٠) راجع أيضاً التسهيل لعلوم التنزيل (٢١٦ / ٤) .

(٣) عين اليقين : بالمشاهدة .

(٤) إن المتأمل في سياق الأسلوب يرى أن المؤلف رجل روحاني ، في أسلوبه واستعماله ألفاظ الصوفية التي كثيراً ما ترد على ألسنتهم .

(٥) السابق المقرب : من السلف الصالح .

الحروب ومحاربة الأبطال حيث التقيّا ؛ فَمَرَّةٌ منصور، ومرة مَخْذُول^(١) ؛ فمتى يقدر أن يلاحظ آثار القُدرة والرُّبوبيّة ، وليس لبصره نورٌ أن ينفذ إلى رؤية ذلك ، وهو بعيدٌ منه ؟

وَمَنْ كان عِلْمُهُ عِلْمَ الظّالِمِ لِنَفْسِهِ فذلك عِلْمُ اللّسان ، قد تلقّنه من أفواه الرجال سَمْعاً ، وَمِنْ الكُتُبِ نَظْراً ، فأودعه حفظه حتى يُبرِّره الحِفْظُ من صدره في وقت الحاجة ، وليس له قوةٌ ما يُجاهد به نفسه فيحاربها ويهزمها^(٢) .

وتلك حجةُ الله تعالى عليه ، يقول ويهدي الناس إليه ؛ فإذا صار إلى إقامته بنفسه صار أضلّ من الأنعام ؛ يَغْلِبُهُ الهَوَى في الشّهوات . قال الله جلّ ذكره^(٣) : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي في وقتِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم .

العلم علمان :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العِلْمُ علمان : عِلْمٌ في القلب ، فذاك العِلْمُ النافع ، وعِلْمٌ في اللسان ، فذاك حجةُ الله تعالى على ابنِ آدم .

(١) المخذول : المهزوم المتقاعس ، المدبر .

(٢) لأن النفس هي سبب الهلاك والضياع الذي يودي بالإنسان لأنها كلفة بالشهوات والمعاصي .

(٣) المائدة (٦٨/٥) راجع جامع البيان للطبري (٤٧٤/١٠) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٤٥/٦) .

فَالْعِلْمُ النّافِعُ هُوَ عِلْمُ السَّابِقِ وَعِلْمُ الْحُجَّةِ الَّذِي يَخْتَقُ صَاحِبَهُ فِي
الْبَرْزَخِ^(١) وَفِي الْمَحْشَرِ ، هُوَ عِلْمُ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ^(٢) ؛ أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ
بِرَحْمَتِهِ .

قَالَ لَهُ قَائِلٌ : فَهَذَا الْمَلِكُ الَّذِي بَعَثَ الضُّعْفَ وَمَعَهُ نَفَقَةٌ ، وَقَدْ
تَفَاوَتَتِ النُّفَقَاتُ^(٣) ؛ نَفَقَةٌ هِيَ دَرَاهِمٌ ، وَنَفَقَةٌ هِيَ دَنَانِيرٌ ، وَنَفَقَةٌ هِيَ
جَوَاهِرٌ ، مَا هَذَا ؟

قَالَ : فَالَّذِي ذَكَرْنَا مِنَ النُّفَقَاتِ الثَّلَاثُ مِنَ الْأَصْنَافِ هِيَ
الْعُلُومُ ، وَهُوَ عِلْمٌ وَاحِدٌ صَارَتْ عُلُومًا ، وَالْعِلْمُ لَا يُدْرِكُهُ الْقَلْبُ إِلَّا
بِالْحَيَاةِ ؛ لِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ عِلْمُ الْغَيْبِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ النَّفْسَ إِذَا نَامَتْ أَوْ
مَاتَتْ ذَهَبَتْ حَيَاتُهَا ، وَذَهَبَ عِلْمُ الْقَلْبِ ؛ فَهُوَ مَيِّتٌ لَا يَدْرِي ، وَحَيٌّ
نَائِمٌ لَا يَدْرِي شَيْئًا . .

فَقَدْ بَانَ لَكَ مِنْ أَنَّ عِلْمَ الظَّاهِرِ قَدْ غَابَ عَنْهُ بِالنَّوْمِ وَالْمَوْتِ
لِزَوَالِ الْحَيَاةِ فِيهِمَا ، فَكَذَا إِذَا ذَهَبَتْ حَيَاةُ الْقَلْبِ بِاللَّهِ فَقَدْ غَابَ عَنْهُ
عِلْمُ الْغُيُوبِ ؛ فَإِذَا أُعْطِيَ الْقَلْبُ حَيَاةَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ عَرَفَ رَبَّهُ وَعِلْمَهُ .

(١) البرزخ : هُوَ الْفَاصِلُ وَالْحَاجِزُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ ، وَهُوَ الْوَقْتُ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَحَتَّى الْبَعْثِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُسَمَّى الْبَرْزَخُ أَوْ الْحَيَاةُ الْبَرْزَخِيَّةُ .

(٢) الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ : هُوَ الْكَافِرُ وَالْمُشْرِكُ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾
لِقَمَان (١٣ / ٣١) .

يَقُولُ الشَّيْخُ الصَّابِقُونِي فِي صَفْوَةِ التَّفَاسِيرِ (٢١ / ١٠٨٧) : « أَيُّ أَنَّ الشِّرْكَ
لَقَبِيحٌ ، وَظَلَمٌ صَارِخٌ لِأَنَّهُ وَضَعَ لِلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ » ١ هـ . رَاجِعْ أَيْضًا الْقُرْطُبِي
(٥٩ / ١٤) .

(٣) تَفَاوَتَ النُّفَقَاتُ : اخْتَلَفَتْ .

وقد قال جل ذكره^(١) : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فهذا كان قلباً ميتاً عن الله تعالى أعطاه نورَ العقل والعلم ، فعرف ربّه ، وإنّما عقلُ العلم بنور الحياة ، فلما عرفه اطمأنّ إليه ، وأسلم نفسه إليه عبودية ، فلزمه الاسمان : مؤمن ، ومسلم ، الإيمان من جهة استقرار القلب^(٢) ، والإسلام من جهة تسليم النفس إليه عبودية بالأمر والنهي ؛ فهما في عقد واحد ؛ عرف ربّاً فاطمأنّ إليه ، وعرف نفسه عنده ، فسلم إليه نفسه ؛ فهذه معرفة واحدة ؛ إذا لحظ إلى ربّه عرفه ربّاً ، وإذا لحظ إلى نفسه عرفه عبداً ؛ وإنّما يُعرف هذا بحياة القلب ؛ أدرك بها هذه المعرفة ، ثم دعاه إلى العبادة الأمر والنهي ، فجاءته الشهوات الموضوعة في نفسه ، فثقلته وجمحت به في نهيه ؛ فإذا جاهد في ذات الله حق جهاده شكر الله له ذلك ، وزادته في الحياة ، ليخفف أوامره ، ويكبح بلجامه في وقت جموحه في المناهي ؛ وذلك قوله تعالى^(٣) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .

فأعلمه بعد حياة الإيمان أن يُحييه بالطاعات ؛ فإذا أطاع الله في

(١) الأنعام (٦ / ١٢٢) كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم . راجع حاشية المطبوعة (ص ٢١٨) أو كان كافراً فهديناه . تفسير غريب القرآن ص ١٥٩ .

(٢) يقصد به اليقين القلبي .

(٣) الأنفال (٨ / ٢٤) « قال قتادة : هو القرآن فيه الحياة ، والثقة ، والنجاة ، والعصمة في الدنيا والآخرة » هـ . راجع الطبري (١٣ / ٤٦٨) .

الأمر والنهي شَكَرَ لَهُ ذلك ؛ فزاده حياةً ، ليقطع قلبه عن العلائق وهَوَى النفس شُكْرًا له ؛ وهو قولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١) : ﴿ وَاللَّهُ شُكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وقد قال مالك (٢) بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ : وَجَدْتُ فِي بعض الكتب : إِنَّ سَرَكَ أَنْ تَحْيَا وَتَبْلُغَ اليقين فاحتلَّ في كل خير أَنْ تَغْلِبَ شهواتِ الدنيا ، فَإِنَّهُ من يَغْلِبُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا يَفْرُقُ (٣) الشيطانُ من ظِلِّهِ .

فإذا حَيَّى القَلْبُ حَيَاةً تَبْلُغُ عِلْمَ اليقين صار مِنَ السابقين المُقَرَّبِينَ ؛ فهناك يَحْيَا بِاللَّهِ ؛ فَعَايَنَ بِبَصَرِ قَلْبِهِ آثَارَ القُدْرَةِ ، وَآثَارَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وبهاء الدين ، وزينة العبودية ، وبَهْجَةِ المِنَّةِ (٤) ، وَتَرَبُّطَ بلحظه إِلَى مَجَالِسِ النُّجُوى وبهجة المَرْعِيِّ بين يَدَيْهِ ؛ فحياةُ الأَوَّلِ حياةُ الفضة ، وحياةُ الثاني حياةُ الذهب ، وحياةُ الثالث حياةُ الجواهر .

والفضةُ إِنَّمَا بَرِيقُهَا مِنْ حَيَاتِهَا ، وَبَرِيقُ الذهبِ مِنْ حَيَاتِهِ أَقْوَى مِنْ الفضة وَأَشَدُّ بَرِيقًا ؛ وَبَرِيقُ الجواهر مِنْ حَيَاتِهِ ، وَهِيَ أَقْوَى مِنَ الذهب ؛ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ قَدْ احْتَضَى (٥) مِنَ الْحَيَاةِ ؛ وَلَكِنْ كُلُّ وَاحِدٍ أَقْوَى مِنَ الْآخَرِ .

(١) التغابن (١٧ / ٦٤) .

(٢) هو مالك بن دينار البصري ، أبو يحيى ، من رواة الأحاديث ، كان تقياً ورعاً مشهوراً بالحلم ، يأكل من كسبه ، وكان يكتب المصاحف بالأجرة . وقد توفي بالبصرة سنة ١٣١ هـ . راجع وفيات الأعيان لابن خلكان (١ / ٤٤٠) وحلية الأولياء (٢ / ٣٥٧) وهناك خلاف في تاريخ وفاته حيث قيل إنه ربما يكون توفي سنة ١٢٧ هـ . راجع تهذيب التهذيب (١٥ ، ١٤ / ١٠) .

(٣) يفرق الشيطان : يخاف .

(٤) المِنَّةُ : العطاء والنعمة .

(٥) احتضى : ذو حظوة وهي بمعنى حظي .

فالجوهرُ يُضيءُ البيتَ من نوره ، والذهبُ والفضةُ ليس لهما ذلك ؛ فَمَنْ كانت نَفَقَتُهُ في ضيافة المعرفة من الدَّرَاهِمِ فصَيَانَتُهَا والإحسانُ إليها لَا تَخْلُو من الدَّنَسِ والأوساخِ والتَّضْيِيعِ والتَّفْرِيطِ .

وَمَنْ كانت نَفْسُهُ في ضيافة المعرفة من الدَّنَانِيرِ^(١) يسلمُ من الأوساخِ والأدناسِ ، ولكن لَا يَخْلُو من الغُبَارِ .

وَمَنْ كانت نَفَقَتُهُ في ضيافة المعرفة من الجَوْهَرِ سَلِمَ من الغُبَارِ وجميعِ ما يُتَقَى منه ويُصَانُ عنه ، ولم يزل طَرِيًّا نَقِيًّا ؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ حَيَّ بِاللَّهِ بحياةِ الجوهرِ ؛ فذلك قولُ رسولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم : الإِيمَانُ حُلُوٌّ نَزَهَ ، فَتَزَهُوهُ .

أَحَبُّ الْقُلُوبِ إِلَى اللَّهِ :

وعنه صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم : إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى أَوَانِي فِي الْأَرْضِ ، أَلَا وَهِيَ الْقُلُوبُ ، وَأَحَبُّ الْقُلُوبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَصْفَاهَا وَأَرْقَاهَا وَأَصْلَبُهَا .

فَأَصْفَاهَا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَأَصْلَبُهَا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى [٧٧] ، وَأَرْقَاهَا لِلْإِخْوَانِ .

وقال فيما يَحْكِي عن رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَلَسْتُ أَسْكُنُ الْبُيُوتَ ، وَأَيُّ بَيْتٍ يَسْعُنِي ، وَالسَّمَوَاتُ حَشْوُ كُرْسِيِّ ، وَإِنِّي فِي قَلْبِ الْوَادِعِ الضَّعِيفِ لَيْنُ الْقَلْبِ .

فحياةُ القلبِ مِنْ هذا الذي ذكره : إِنِّي فِي ذَلِكَ الْقَلْبِ .

(١) لأنه لَا يجتمع الإثنان في نفس واحدة .

مثل التقوى

مَثَلُ التَّقْوَى مَثَلُ رَجُلٍ أَصَابَ جَوْهَرَةً نَفِيسَةً قِيَمَتُهَا بَيُوتٌ مِنَ الدَّنَانِيرِ ؛ أَوْ ثَوْبًا قِيَمَتُهُ أَلْفُ دِينَارٍ ، أَوْ جَارِيَةً لَهَا ثَمَنٌ غَالٍ ، شَخَصَتْ إِلَيْهَا الْأَبْصَارُ مَنْظَرًا وَمَخْبَرًا ؛ أَوْ صُرَّةَ مِسْكَ ذَكِّيٍّ ^(١) الرِّيحِ ؛ أَوْ بَازِيٍّ ^(٢) طَيْرٍ أَيْضًا تَامَ الْجَنَّةُ مِقْدَارَ الدَّرْهِمِ التَّامِّ أَهْدَاهُ إِلَيْهِ مَلِكٌ عَالٍ .

فَأَنْتَ تُبْقِي عَلَى الْجَوْهَرَةِ مَخَافَةَ السَّرَاقِ ^(٣) ، وَلَا تَعْرِضُهَا إِلَّا عَلَى مَنْ عِنْدَهُ مِنْ فَنَوْنِ الْأَمْوَالِ ، مَخَافَةَ أَنْ يُدَلَّسَهَا ^(٤) فَيَقْبِضَ مِنْهُ الْجَوْهَرَةَ ، وَيُبَدِّلَهَا بِالزَّجَاجِ شَبْهَةً ؛ وَلَا يَعْرِفُ هُوَ الْجَوْهَرَ مِنَ الزَّجَاجِ ؛ فَهِيَ عِنْدَكَ مَكْنُونَةٌ فِي اللَّفَافِيفِ وَالْحَقَّةِ ^(٥) وَالذُّرْجِ ^(٦) ، وَتَقِيهَا مِنَ الْغُبَارِ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ وَنَحْوِهَا .

وَكَذَا تَتَّقِي عَلَى الثَّوبِ اتِّقَاءَ مِثْلِهِ مِنَ اللَّفِّ وَالطِّيِّ ، وَوَضْعِهِ فِي الصَّنَدُوقِ ، وَرَبْطِهِ فِيمَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ .

وَتَتَّقِي عَلَى صُرَّةِ الْمِسْكَ فَلَا تَفْتَحُهَا لِئَلَّا يَذْهَبَ رِيحُهَا ، وَلَا يَصِلَ إِلَيْهَا غَدَارٌ ^(٧) ، فَتُعَوِّضَ مِنْ كِبْدِ الضَّأْنِ وَغَيْرِهِ .

(١) المسك الذكي : الفواح الرائحة .

(٢) البازي : نوع من الصقور .

(٣) السراق : جمع مفردة سارق .

(٤) بدلاً منها كلمة غير واضحة في [ب] .

(٥) الحققة : هي وعاء من خشب .

(٦) الدُّرْج : ما يُحْفَظُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ .

(٧) غدار : خائن ، كثير الغدر .

وَتَتَّقِي عَلَى الْجَارِيَةِ ، فَتَحْبِسُهَا ، وَتَصُونُهَا ، وَتُلْبِسُهَا لِبَاسَ
مِثْلِهَا ، وَتُطْعِمُهَا طَعَامَ مِثْلِهَا ، وَتَمْنَعُهَا عَنِ الْخُرُوجِ وَالْبُرُوزِ^(١) لئلا يَطَّلَعَ
عَلَيْهَا أَحَدٌ ، أَوْ يَحِبَّهَا ظَالِمٌ ؛ فَيُخْرِجُهَا مِنْ يَدِكَ ، وَيَبْقَى قَلْبُكَ مُعَلَّقاً
بِهَا مَعَ الصُّرَاخِ وَالْعَوِيلِ .

وَتَتَّقِي عَلَى الْبَازِي^(٢) مِنْ كُلِّ آفَةٍ لئلا يَنْكَسِرَ جَنَاحُهُ ، فَيَعْجِزَ عَنِ
الطَّيْرَانِ ، وَإِنْ قَصُرَتْ فِي بَعْضِ تَرْبِيَّتِهِ وَمُدَارَاتِهِ لَا يَأْلَفُ ، وَتَرْكُ
الْإِلْفِ ، وَيَطِيرُ وَيَتْرُكُ خَالِياً ، فَلَا تَرَاهُ أَبَداً .

فَانْظُرْ كَيْفَ تَتَّقِي عَلَى الْأَشْيَاءِ ، وَكَيْفَ حَذَرُكَ وَجِرَاسَتِكَ لِهَذِهِ
الْأَشْيَاءِ ، وَتَلْطَفُكَ بِهَا ، وَصِيَانَتُكَ لَهَا تَخَوُّفَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآفَاتِ ،
وَضِيعَتَ حِرَاسَةِ أَعْظَمِ الْأَشْيَاءِ قَدْراً ، وَأَنْفُسَهَا خَطِراً^(٣) ، وَهُوَ مُخُ
التَّقْوَى^(٤) ، فَقَدْ عَظُمَتِ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقَلْبَ خِزَانَةُ اللَّهِ
تَعَالَى وَضَعَ فِيهَا جَوْهَراً نَفِيساً لَا يُحَاطُ بِمَبْلَغِ ثَمَنِهِ ، وَهِيَ الْمَعْرِفَةُ .

فَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى نَفَاسَتِهَا وَقَدَرِهَا لَمْ تَقْدِرْ أَنْ تُحِيطَ بِثَمَنِهَا عِلْماً ،
وَلَا اتَّيَمَّنْتَ عَلَيْهَا أَحَداً^(٥) .

وَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى بَهَائِهَا^(٦) وَنُورِهَا اتَّقَيْتَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ دُخَانٍ مِنَ
الشَّهَوَاتِ لئلا يَلِجَ^(٧) الْخِزَانَةَ فَيَدْنُسَهَا .

(١) البروز : الظهور .

(٢) البازي : نوع من الجوارح [الصقور] .

(٣) أنفسها خطراً ، أغلاها قدراً .

(٤) المخ : الصريح من كل شيء ، وخالصة .

(٥) اتئمنت عليها أحداً : جعلته أميناً عليها .

(٦) البهاء : الجمال .

(٧) الولج : الدخول .

وإن نظرت إلى رِقَّتِهَا اتَّقَيْتَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ صُدْمَةٍ مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ
أَنْ تَصْدِمَهَا .

وإن نظرتَ إلى طِيبِ رِيحِهَا اتَّقَيْتَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ
الْمَعَاصِي .

وإن نظرتَ إلى اصْطِبَارِهَا الطَّاعَاتِ فَتَشْتَى^(١) قُلُوبَهُمْ بِالْإِعْطَاءِ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى اتَّقَيْتَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ تَضْيِيعٍ ؛ تَرْبِيَهَا وَتَعَاهِدَهَا بِمَا يَتَعَاهَدُ
مِثْلُهَا تَرْبِيَةً مِثْلُهَا ، لِئَلَّا تَطِيرَ عَنْكَ ؛ فَلَا يَبْقَى مَعَكَ سِوَى مَعْرِفَةِ
الْفِطْرَةِ ، مَعْرِفَةِ الْكُفَّارِ .

فَمَنْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمَوْحِدِينَ بِمَنْةٍ^(٢) عَظِيمَةٍ أَنْ أَعْطَاهُمْ نُورَ
الْهُدَايَةِ حَتَّى وَجَدُوهُ ، وَنَطَقُوا بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ ، وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَتَّقُوهُ عَلَى مَا
أَعْطَاهُمْ ؛ وَهُوَ النُّورُ الَّذِي أَشْرَقَ فِي قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ إِلَى
صُدُورِهِمْ ، فَيَجْعَلُونَهُ فِي وَقَايَةِ الْحِرَاسَةِ ، لِئَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِ مَا لَيْسَ لَهُ
بِأَهْلٍ ؛ فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ قَدْ أُيِّدَتْ بِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ، وَالْفَهْمِ وَالْفِطْنَةِ ،
وَالْحِفْظِ وَالذِّكْرِ وَالذَّهْنِ . .

فهذه الأشياءُ حَوْلَهَا ، قَطَعَ اللَّهُ بِذَلِكَ أَلْسِنَةَ الْآدَمِيِّينَ عَنْ نَفْسِهِ ،
لِئَلَّا يَكُونَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ حِجَّةٌ لِإِتْيَانِ مَعَاصِيهِ أَوْ سُوءِ مَا يَأْتِيهِ ؛ فَبِقُوَّةِ هَذِهِ
الْأَشْيَاءِ يَحْرُسُ مَعْرِفَتَهُ ، وَيَذُبُّ^(٣) عَنْهَا مَكْرَ النَّفْسِ وَدَوَاهِيهَا ، وَكَيِّدَ
الْعَدُوِّ حَتَّى تَصِيرَ الْمَعْرِفَةُ فِي وَقَايَةِ مِنْهَا .

(١) اشتأى : سبق ، ويقال شاء أقرانهم إذا سبقهم .

(٢) المنّة : النعمة والعطاء .

(٣) يذب : يدفع .

وأمر بالتقوى لقوله سبحانه وتعالى (١) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

التقوى على سبع جوارح :

فَفَهِّمُوا بِهِذِهِ الْأَشْيَاءِ أَنَّ التَّقْوَى عَلَى سَبْعِ جَوَارِحَ : العَيْنَانِ ، والأُذُنَانِ ، واليَدُ ، واللسان ، والرَّجْلُ ، والبطن ، والفَرْجُ ؛ فلا يستعمل واحداً منهم (٢) إِلَّا بِمَا أُطْلِقَ لَهُ ، وَأُذِنَ لَهُ فِيهِ .

فَأَقْبِلُوا إِلَى حِفْظِهَا ، فوجدوا أَنْفُسَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : بَيْنَ أَمْرٍ هُوَ طَاعَةٌ ، وَبَيْنَ أَمْرٍ هُوَ مَعْصِيَةٌ ، وفيهِ عَيْبٌ ؛ لِأَنَّهُ عَمَلٌ عَلَى غَفْلَةٍ فِيمَا لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ فِيهِ ، فَلَهُ فِيهِ عُقُوبَةٌ . وَلَوْ أَتَى بِمَا أُذِنَ لَهُ وَلَكِنْ عَلَى غَفْلَةٍ بِلَا حِسْبَةٍ وَلَا نِيَّةٍ رُمِيَ بِهَا عَلَى وَجْهِهِ ، وَخَابَ عَنْ ثَوَابِهِ وَجَزَائِهِ .

وقد أَمَرَ بِأَنْ يُتَّقَى حَقُّ تُقَاتِهِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (٣) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ، فَفَهِّمَ الْعِبَادُ عَنْهُ أَنَّ حَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِي ، وَيَتَّقِيَ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَعَنْ كُلِّ عَمَلٍ عَلَى غَفْلَةٍ بِلَا حِسْبَةٍ وَلَا نِيَّةٍ ؛ فَصَارَ (٤) التَّقْوَى عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ مِنْهَا التَّقْوَى عَنِ الْمَعَاصِي ، وَضَرْبٌ مِنْهَا التَّقْوَى عَنْ عَمَلٍ عَلَى غَفْلَةٍ بِلَا حِسْبَةٍ وَلَا نِيَّةٍ ؛ فَذَا تَقْوَى الظَّاهِرِ ، وَذِي تَقْوَى الْبَاطِنِ ؛ فَالْعِبَادُ أَكْثَرُهُمْ أَقْبَلُوا عَلَى

(١) آل عمران (٣ / ١٠٢) ومعنى الآية : أَيِ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : « هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى ، وَأَنْ يَذْكَرَ فَلَا يُنْسَى ، وَأَنْ يَشْكُرَ فَلَا يَكْفُرَ » اهـ . راجع مختصر ابن كثير (١ / ٣٠٤) وحاشية المطبوعة ص ٢٢٤ .

(٢) كَذَا وَرَدَ بِالْأَصْلِ .

(٣) آل عمران (٣ / ١٠٢) .

(٤) لَعَلَّ الْأَنْسَبَ (فَصَارَتْ) وَلَعَلَّهُ تَحْرِيفٌ مِنَ النَّاسِخِ .

تَقْوَى الظَاهِرِ حَتَّى أَحْكُمُوهُ ، وَكَفُّوا جَوَارِحَهُمْ^(١) عَنِ الْمَنَاهِي ، فَلَمَّا صَارُوا إِلَى تَقْوَى الْبَاطِنِ - وَهُوَ أَلَّا يَعْمَلُوا شَيْئاً - مِمَّا أُذِنَ لَهُمْ فِيهِ عَلَى غَفْلَةٍ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ نِيَّةٌ وَحِسْبَةٌ اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَعَجَزُوا عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُمْ فِي غَطَاءٍ عَنْ ذَلِكَ .

وقد قال الله تعالى^(٢) : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ﴾ . أي في الفرائض ، فبقيت العامة على هذا التقوى الظاهر ؛ وهو حفظ الجوارح السبع ، وعمله الذي أُذِنَ له فيه في غفلة ؛ ففي كلِّ عملٍ عُيُوبٌ موجودة ، وزينة الأعمال

(١) الجوارح : جمع جارحة وهي العضو ، ولو تأملنا حديث المؤلف عن الظاهر والباطن نراه متأثر بمذهب الصوفية في تقسيمهم الأشياء جميعاً إلى ظاهرة وباطنة ، ولذلك فهم يجعلون للكلمة في القرآن معنيين الأول ظاهر يدل عليه صريح اللفظ المتبادر إلى الذهن ، والآخر باطن خفي لا يعرفه إلا أهل التصوف ، وأهل الكشف ، فهذا من خصوصياتهم وحدهم .

ومن جرّاء ذلك نشب صراع مرير عنيف بين الفقهاء وبين الصوفية وصل إلى حد أن رمى الفقهاء أقطاب الصوفية بالزندقة والمروق من الدين بتأويلاتهم وشطحاتهم ، كما رمى الصوفية الفقهاء بأنهم أرباب الظاهر وليسوا باليقين الإيمانى للصوفية ، وقد امتد هذا الصراع الرهيب منذ القديم إلى رقعة زمنية واسعة لا تزال حتى الآن ، فإذا ما أنكر سني سلفي ما يخوض فيه الصوفية وما يأتونه من المبتدعات ويلصقونه بكرامات الأولياء قالوا : إن الذي ينكر الكرامات إنما يقيد قدرة الله اللامحدودة ، ولكن الأصح هو تقييد هذه الكرامات وتخصيصها فليست على الإطلاق وإلا لكان كثيرٌ من لاعبي الأكرويات أولياء .

(٢) التغابن (٦٤ / ١٦) يقول السيوطي في أسباب النزول ص ٢٧٧ : « وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ اشْتَدَّ عَلَى الْقَوْمِ الْعَمَلُ ، فَقَامُوا حَتَّى وَرَمَتْ عَرَاقِيهِمْ ، وَتَقَرَّحَتْ جَبَاهُهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَخْفِيفاً عَلَى الْمُسْلِمِينَ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ الْآيَةُ » أ هـ .
راجع أيضاً القرطبي (١٨ / ١٤٥) والشوكاني (٥ / ١٩٦) والطبري (٢٨ / ٢٩) .

مفقودة ، ومع فَقْدِ الزَّيْنَةِ العيوبُ موجودة . ووجدت (١) طائفة من العامة وَجَدًا شَدِيدًا أَنْ رَأَوْا عَامَّةَ أَعْمَارِهِمْ مِنَ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَاللَّبْسِ ، والكلام ، والسكوت ، والمشي والذهاب ، والنظر والاستماع ، بلا نِيَّةٍ ولا حِسْبَةٍ ، فلا يجدون غَدًا في ميزان الحقِّ منه شيئاً فيثابون عليه ؛ ولذلك قال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم (٢) : الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ .

وقال أيضاً : لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ ، وَلَا أَجَرَ لِمَنْ لَا حِسْبَةَ لَهُ ؛ فحزن المؤمنون على تعطيل العُمْرِ على هذا الوجه ، فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَالَ جَلُّ ذِكْرِهِ (٣) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٤) وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ .

فقال أهلُ التفسير : أَي مَخْرَجًا ، ولكن هذه كلمةٌ مُبْهَمَةٌ ، ولم

(١) وجدت موجلة ووجدًا : حزنت حزناً شديداً .

(٢) الحديث : رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب ، وكذا رواه غيرهما من أصحاب الكتب المعتمدة ، حتى مالك لكن في غير الموطأ ، على العكس مما ذكر بعض الأئمة الحفاظ من أنه مروي في الموطأ .

وقد رواه البخاري في صحيحه عن عمر في سبعة مواضع بألفاظ مختلفة ، وهو مجمع على صحته ، وهو أحد الأحاديث الأربعة التي عليها مدار الدين ، وقد نظمها طاهر بن مفوز الأشبيلي ، وقيل بل الإمام الشافعي بقوله :

عمدة الدين عندنا كلمات أربع من كلام خير البرية
أتق الشبهات ، وازهد ، ودع ما ليس يعينك واعملن بنية
راجع كشف الخفا للعجلوني بتصرف (١١ ، ١٠ / ١) وقال فيه الشافعي وغيره
« إن هذا الحديث ثلث الإسلام » أهـ .

(٣) الأنفال (٢٩ / ٨) .

(٤) الفرقان : الفرق والفصل بين الحق والباطل .

يُفَسِّرُوا ما المَخْرَج ؟ مِنْ أَيْن ؟ وَإِلَى أَيْن ؟ وَإِنَّمَا المَخْرَج من ظُلْمَةٍ
وَدُخان الشهوات بالأنوار التي يُعْطَى .

وقال جَلَّ ذِكْرُهُ في مَوْضِعٍ آخِرٍ^(١) : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا
اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ
وَمَلَائِكَتُهُ [٧٨] لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَحِيمًا ﴾ .

وَلَمَّا أَقْبَلُوا عَلَى التَّقْوَى الظاهر ، وهو حِفْظُ الجوارح^(٢) عن
المَنَاهِي ، وَأَحْكَمُوا هذه التَّقْوَى ، ثم ذكروا ذِكْرًا كَثِيرًا عند كل نِعْمَةٍ
وَبُؤْس ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، لِيَعْمُرُوا ما خرب منهم ، وَلِيَتَذَكَّرُوا
بذلك التسبيح أَذْناسَ العيوبِ ، وَيَتَطَهَّرُوا ، وَصَلَّتْ عليهم الملائكة ؛
وصلاةُ الملائكة أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُم من العيوب ، وَصَلَّى عليهم الربُّ جَلَّ
وَعَلَا ، وَجَعَلَ لَهُم مَخْرَجًا .

فَأَمَّا صلاةُ الربِّ جَلَّ جلاله فَإِنْ يَسْأَلُ لَهُم بِنَفْسِهِ من نَفْسِهِ نُورَ
الْفُرْقَانِ حَتَّى أَوْجَبَ لَهُم ذلك ، وهو نُورُ الْفُرْقَانِ ؛ فعندها أَخْرَجَهُم من
ظُلُمَاتِ النَّفْسِ إِلَى نُورِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَإِنَّمَا سُمِّيَ نُورُ الْفُرْقَانِ بهذا ،
لأنَّهُ نُورٌ يَفْرِقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وقد ذهبتِ الْعَقْلَةُ^(٣) ، وَإِنَّمَا الْعَقْلَةُ
حِجَابٌ أَصْلُهُ من شهواتِ النفس ، وهي كالدُّخَانِ في الصَّدْرِ ؛ فهي
ظُلُمَاتٌ تَحْجُبُ عَيْنِي الْفُؤَادِ عَنْ مُعَايِنَةِ الْحَقِّ ، حَتَّى يَنْفِي الْبَاطِلَ الَّذِي

(١) الأحراب : (٣٣ / ٤١ - ٤٣) راجع تأويل مشكل القرآن ص ٣٥٥ وأرجو أيضاً
مراجعة تفسير القرطبي (١٤ / ١٩٨) ط . دار الكتب .

(٢) الجوارح : الأعضاء .

(٣) ذهبتِ الغفلة : انجلت غمرتها .

يَجِيءُ من النفس إلى الصدر ، فيترأى لعيني الفؤاد ، يُريد أن يُمدّه بذلك إلى نفسه ، فإذا هو باطل لا يُثاب عليه غداً ، فإذا أخرجهُ الله تعالى من هذه الظلمات بِصَلاته عليه وإيجابه له هذا النور ، واستغفرت له الملائكة لتلك العيوب ، حتى إذا وَلَجَ^(١) هذا النور ، فوجد مكاناً طاهراً مُقدَّساً ، فأشرق النور ، واستقرَّ في الصدر ، فعندها استوى له الأمران ، ونال كِلَا التَّقْوِيَيْنِ : الظاهر ، والباطن ؛ فلا يَعْمَلُ شيئاً إلاَّ على ذِكْرٍ وَثِيَّةٍ وَحِسْبَةٍ ، دَقَّ ذلك الشيء أو جَلَّ^(٢) ؛ فأدرك ذلك النور القلب من الصدر في أَسْرَعَ من اللحظة ، لِعَظَمِ ذلك النور ، حتى يَرْتَقِيَ من القلب إلى مَحَلِّهِ مِنَ الْعُلْيَاءِ ، حتى تصير الأشياء كلها له وبه ، وهم أصحاب القَبْضَةِ ، فبه يَنْطِقُ ، وبه يُبْصِرُ ، وبه يَسْمَعُ ، وبه يَبْطِشُ ، وبه يَغْقِلُ ، وهو قولُ الله جَلَّ ذِكْرُهُ^(٣) : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

ثم وصفهم مَنْ هم ، وما عَمَلُوا ؛ فقال^(٤) : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

فهؤلاء طَبَقَةٌ آمَنُوا به حقاً ، فاطمأنَّتْ قلوبُهُم بِأَحْكَامِهِ عَلَيْهِم من المحبوب والمكروه ؛ رَضُوا به ربّاً ، ورَضُوا بِأَحْكَامِهِ عَلَيْهِم حُكْماً ، وَذَلُّوا لِرُبُوبِيَّتِهِ خُشْعاً ، وآثَرُوهُ^(٥) على أنفسهم حَيَاءً ، وَبَذَلُوا لَهُ نَفْسَهُمْ

(١) وَلَجَ : دخل من الولوج وهو الدخول .

(٢) دَقَّ أو جَلَّ : قل أو كثر .

(٣) يونس (٦٢ / ١٠) .

راجع تفسير الطبري (١٣٢ / ١١) والشيخ الصابوني (٥٨٩ / ١١) .

(٤) يونس (٦٣ / ١٠) ومعنى يتقون أي يتقون الشرك والمعاصي .

(٥) آثَرُوهُ : فضلوهُ .

جوداً وَسَمَحاً^(١) ، وكان تَقَوَاهُمْ على المَشَاهِد كما ذَكَرَ في أوَّل الآية من قوله عَزَّ وَجَلَّ^(٢) : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً ۚ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ ﴾ ؛ فصارت شهادته عند كُلِّ عَمَلٍ يُفِيضُونَ فِيهِ مُعَايَنَةَ الْقَلْبِ ، فهابوا اللهَ هَيْبَةً مَاتَتْ لَهَا نفوسُهُم مَوْتاً ، وَأَحْبَبُوا اللهَ حُبّاً حَيَّتْ قلوبَهُم به حياةً وَعُبُودَةً في كُلِّ لحظة ؛ فصارت أَنفُسُهُم وَلِحْظَاتُهُم عِبَادَةً ، وكل حركة منهم طاعةً ، وَوَجَدُوهَا غِداً في ميزانِ الحَقِّ ، فهذا تَقَوَى الْبَاطِنِ تَقَوَى الْأَوْلِيَاءِ .

مثل عمال الله

مَثَلُ عُمَالِ اللهِ تَعَالَى مَثَلُ مَلِكٍ دَعَا خِيَّاطاً فَقَالَ لَهُ : اقْطَعْ هَذَا الثَّوبَ وَخِطَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ ، فَلَمْ يَأَلْ^(٣) هَذَا الْخِيَّاطُ جُهْداً فِي إِظْهَارِ حَذَقِهِ^(٤) وَخِفَّةِ يَدِهِ . فَلَمَّا غَابَ عَنْهُ تَرَكَ خِفَّةَ الْيَدِ ، وَحُسْنَ الْإِبْتِدَاءِ ، وَوَجَازَةً^(٥) الْفِعْلِ ؛ وَلَكِنْ أَحْكَمَ الْخِيَّاطَةَ وَأَتَقَنَهَا وَزَيَّنَّهَا ، لِأَنَّهُ ذَاكِرٌ لِلْعَرْضِ عَلَيْهِ .

وَالْآخَرُ رَجُلٌ دَعَاهُ الْمَلِكُ فَقَالَ : أَذْهَبَ بِهَذَا الثَّوبِ فَأَقْطَعُهُ وَخِطَّهُ ، وَأَنْفِذْهُ إِلَى فُلَانِ الرَّاعِي ؛ فَإِذَا غَابَ عَنْهُ رَفَعَ عَنْهُ بَالَهُ ، فَكَيْفَمَا قَطَعَهُ وَخَاطَهُ جَوَّزَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِرُؤْيَةِ الْمَلِكِ ، وَلَا ذَكَرَ الْعَرْضَ

(١) سَمَحاً : كَرَمًا وَجُودًا .

(٢) يونس (١٠ / ٦١) راجع أيضاً تفسير الطبري (٨ / ٣٦٦) ومجاز القرآن ص ١٢٧ .

(٣) لَمْ يَأَلْ : لَمْ يَقْصُرْ .

(٤) الْحَذَقُ : الْمَاهِرُ .

(٥) وَجَازَةُ الْفِعْلِ : سُرْعَتُهُ .

عليه ، وإنَّما به ارتفاعُ العمل ؛ فيقول : قد عملت . وآخذ الأجرة .
وإنَّما جرَّأه على ذلك غَفْلَتُهُ^(١) عن رُؤْيَةِ الملك وعن العَرَضِ
عليه .

فكذا عَمَلُ اللَّهِ تعالى على ثلاث طبقات : فعامل يَعْمَلُ لِلَّهِ كَأَنَّهُ
يَرَاهُ ، وعاملٌ كَأَنَّهُ يَرَاهُ اللَّهَ ، وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم حين سَأَلَهُ
جبريل عليه السلام عن الإحسان . فقال : الإحسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ
تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ .

فقال جبريل صلواتُ الله عليه : فإذا فعلتُ هذا فأنا مُحْسِنٌ ؟
قال : نعم . قال : صَدَقْتَ فهي دَرَجَةُ المحسنين .
فالأوَّلُ يَعْمَلُ لِلَّهِ كَأَنَّهُ يَرَى رَبَّهُ مشاهدةً ، والآخر يَعْمَلُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ
رَبَّهُ .

فالأوَّلُ قد أَخَذَتْهُ رُؤْيَتُهُ رَبَّهُ . والثاني قد أَخَذَتْهُ رُؤْيَةُ رَبِّهِ إِيَّاهُ .
فالأوَّلُ أَعْلَى مِنَ الثاني ، لِأَنَّهُ قد كُشِفَ لَهُ الْغِطَاءُ ، وَرُفِعَ
الْحِجَابُ فيما بينه وبين رَبِّهِ ؛ وهو قولُ ابنِ عمر رضيَ الله عنه حين
كَلَّمَهُ عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الطَّوَافِ فلم يُجِبْهُ إِلَّا أَنْ قال
ما قال . فلما خرج قال : إِنَّكَ قد كَلَّمْتَنِي وَإِنَّا كُنَّا نَتَخَايَلُ^(٢) اللَّهَ بَيْنَ
أَعْيُنِنَا .

وَرُوِيَ عن مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قال : مكتوب في

(١) غفلته عنه في رؤية الملك [ب] .

(٢) نتخايل : نتخيل .

التوراة : يا ابن آدم لا تعجزن أن تقوم بين يدي في صلاتك باكياً ،
فإنني أنا الله الذي اقتربت لقلبك ، وبالعُيب رأيت نوري .

فهذا لمن رفع له الحجاب حتى رأى نوره وهو أعلى .

والثاني رُفِعَ الحجابُ له بقدر ما رأى أنه ينظرُ إليه ويراه ولم
يَعُدْ .

وأما سِوَى الرؤية وهو قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فإن لم تَكُنْ
تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ؛ فهذا الثاني يَعْمَلُ وَقَلْبُهُ إِلَى الْعَرَضِ الْأَكْبَرِ ؛ وهو قوله
تعالى (١) : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ . فيجهد لهذه
وليس له زينة الْعَمَلِ ؛ وإنما له إحكامه ؛ فهذا صادق ، والأوّل
صديق ؛ هذا محجوب ، والأوّل من وراء الحجاب ، قد انكشف له
الغِطَاءُ فبه يعمل .

من يعمل على الغفلة :

وعامل ثالث يَعْمَلُ عَلَى الْغَفْلَةِ ، ليس على قلبه ذِكْرُ الْمَشَاهِدَةِ ،
ولا ذِكْرُ الْعَرَضِ ؛ إنما هي عادةُ النَّفْسِ تَعْمَلُ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ عَلَى الْعَادَةِ
وَالْجَزَافِ (٢) ، وعلى تَرَائِي الثَّوَابِ مِنْ غَيْرِ تَصْحِيحٍ وَلَا طَهَارَةِ الْقَلْبِ ،
وَلَا تَتَوَقَّى ؛ فَأَعْمَالُهُ تُوَضَّعُ فِي الْخَزَائِنِ لِيُحْصَلَ (٣) مَا فِي صَدْرِهِ يَوْمَ
الْعَرَضِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ شَاهِداً عَلَيْهِ فِي وَقْتِ عَمَلِهِ ، لَا يَخْفَى

(١) الحاقة (٦٩ / ١٨) راجع تفسير الطبري (٢٩ / ٣٨) .

(٢) الجزاف : بيع الشيء لا يعرف كيله ولا وزنه ، وهو الاندفاع في الكلام من غير
روية .

(٣) حصل ما في صدره : ميز ما فيها من خير وشر .

عليه شيء ؛ فقد قال الله جل ذكره^(١) : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورَ . وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

والصادق يُعَرِّضُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا وَقَعَتْ نَظَرُهُ إِلَيْهِ أَشْرَقَ لِنَظَرِهِ نُورُ الْعَمَلِ ، فَازْدَادَ نُورًا ، وَازْدَادَ قَلْبُ الْعَامِلِ فِي الْأَرْضِ نُورًا ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ تُرْفَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَالنِّيةُ فِيهِ بَاقِيَةٌ ، وَهِيَ أَصْلُ الْعَمَلِ الَّتِي مِنْهَا بَدَأَ الْعَمَلُ ؛ فَمَضَى الْعَمَلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وَأَصْلُ الْعَمَلِ بَاقٍ فِي الْقَلْبِ مُتَّصِلٌ بِالْعَمَلِ [٧٩] ، فَإِذَا وَقَعَتْ نَظَرُهُ إِلَى اللَّهِ عَلَى الْعَمَلِ فَأَشْرَقَ وَازْدَادَ نُورًا خَالِصًا ، وَتَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْأَصْلِ فَأَشْرَقَ الْقَلْبُ بِمَا تَأَدَّى مِنَ النُّورِ وَهِيَ النِّيةُ ، فَهَذَا شَأْنُ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقِينَ ، وَهَذَا تَفْسِيرُ الْقَبُولِ .

وَإِنَّمَا قِيلَ قَبُولٌ ؛ لِأَنَّهُ عُرِضَ عَلَى اللَّهِ فَيَكُونُ فِي قِبَالَةٍ^(٢) وَجْهَهُ الْكَرِيمُ حَيْثُ نَظَرَ إِلَيْهِ ، وَمَا لَمْ يُعَرِّضْ عَلَيْهِ وَوُضِعَ فِي الْخَزَائِنِ فَذَلِكَ لَتَخْلِيطٍ فِيهِ حَتَّى يُحْصَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ قَبُولُهُ وَرَدُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ وَهَذَا الَّذِي عُرِضَ قِبَالَةً وَجْهَهُ ظَهَرَ قَبُولُهُ فِي الْحَالِ .

(١) غافر (٤٠ / ١٩ ، ٢٠) .

راجع تفسير القرطبي (٣٠٣ / ١٥) والطبري (٣٦ / ٢٤) .

خائنة الأعين : الأعين الخائنة ، قال ابن عباس : « هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر » أهـ . راجع الصابوني (١٢٦٠ / ٢٤) وتفسير التسهيل لعلوم التنزيل (٤ / ٤) وما بعدها ومختصر ابن كثير (٢٣٩ / ٣) .

(٢) قبالة : تجاهه ، بضم القاف .

مثل الواعظ

مَثَلُ الْوَاعِظِ مِثْلُ رَجُلٍ يَنْفُخُ فِي كَبِيرٍ^(١) لَهُ ، فَعَلَى قَدْرِ قُوَّةِ الْمِنْفَخِ^(٢) وَقُوَّةِ الرِّيحِ الَّتِي فِيهِ تَصِلُ النَّفْخَةُ إِلَى تِلْكَ الْجَمَرَاتِ حَتَّى تَتَوَقَّدَ تِلْكَ النَّارُ ، وَتُحْمِي جُدْرَانَهُ مِنْ حَوْلِ تِلْكَ النَّارِ ، وَتَتَلَطَّى^(٣) وَيُضِيءُ ذَلِكَ الْبَيْتَ ، وَيَذُوبُ مَا فِي الْكُورِ ذَهَبًا كَانَ أَوْ فِضَّةً أَوْ نُحَاسًا أَوْ حَدِيدًا حَتَّى يَزُولَ عَنْهُ خَبَثُهُ^(٤) ، وَتَبْقَى صَفْوَتُهُ^(٥) ، فَإِنْ كَانَتِ الْمِنْفَخَةُ^(٦) صَغِيرَةً لَمْ يَكُنْ لِنَفْخِهِ قُوَّةٌ تَوْدِي إِلَى الْجَمْرَةِ ، فَالْجَمْرَةُ بِحَالِهَا مَعَ الرَّمَادِ وَالْخُمُودِ ؛ وَإِنْ كَانَتِ الْمِنْفَخَةُ كَبِيرَةً وَلَكِنْ فِيهَا خُرُوقٌ ، فَكَلِمَا مَدَّهَا حَتَّى تَمْتَلِئَ مِنَ الرِّيحِ ، فَإِذَا عَصَرَهَا خَرَجَتْ الرِّيحُ مِنْ تِلْكَ الْخُرُوقِ وَلَمْ يَتَأَدَّ إِلَى الْجَمْرَةِ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَهِيَ بِحَالِهَا جَامِدَةٌ ، ذَاتُ رَمَادٍ ، لَا تَتَلَطَّى^(٧) وَلَا تُضِيءُ الْبَيْتَ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِهَا خُرُوقٌ ، وَالْمِنْفَخَةُ كَبِيرَةً ، وَالنَّافِخُ ذَا قُوَّةٍ وَصَلَتْ النَّفْخَةُ إِلَى الْجَمْرَةِ فَتَوَقَّدَتْ وَأَضَاءَتِ الْبَيْتَ ، وَحَمَيْتِ الْجُدْرَانَ ، وَاسْتَحَرَّ^(٨) الْوُقُودَ ، وَاسْتَمَدَّ ، وَذَابَ مَا فِي الْكُورِ^(٩) ، وَرَمَى بِخَبَثِهِ ، وَصَفَّى الْبَاقِي ،

(١) الكبير : زق الحداد الذي ينفخ فيه ، وهو من جلد سميك .

(٢) المنفخ : المنفاخ أو آلة النفخ .

(٣) يتلظى : يتوقد ويلتهب .

(٤) خبث الحديد : ما نفاه الكبير إذا أذيب ، وهو ما لا خير فيه .

(٥) صفوته : خالصه .

(٦) المنفخة : آلة النفخ .

(٧) لا تتلظى : لا تتوهج ولا تتقد .

(٨) استحر : اشتد .

(٩) الكور : مجمرة الحداد .

الذهب والفضة ؛ فصارت نُقْرَةً صافية تصلحُ للدَّراهم والدُّنانير ؛ فإذا ضربت كلَّ شيءٍ يروُجُ في الأسواق .

فالواعظُ إذا وعظَ مِنْ قَلْبٍ عالمٍ لكن لم يَكُنْ لِعِلْمِهِ سلطانٌ لم يَصِلْ إلى القلوبِ نَفْخَتُهُ ، والإيمان في القلوبِ مثلُ الجَمْرَةِ ، والجَمْرَةُ إذا بَقِيَتْ في الشَّهَوَاتِ عَلاهَا غُبَارُ الشَّهَوَاتِ وَرَمَادُهَا ، فإذا لم يَصِلْ إلى القَلْبِ نَفْخَةُ سُلْطَانِ الوَعظِ ، مِثْلُ النَّفْخِ إذا لم يَصِلْ إلى الجَمْرَةِ بَقِيَتْ ، ذَاتَ رَمَادٍ ولم تتوقَّد ، وَإِنَّمَا يَسْتَمِعُ إلى ذلك أُذُنُ القَلْبِ ، وَاتَّعَظَ بِهِ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ، ثُمَّ يَذْرُسُ^(١) ذِكْرَهُ وَيُعْطَلُ ؛ لِأَنَّ القَلْبَ لم يَعْهِ ؛ لِأَنَّهُ لم يَكُنْ لَهُ سُلْطَانٌ ، فَتَنَفَّذَ الْأُذُنُ إلى باطنه ، فتمتزج بنور الإيمان ، فيشتمل عليه الإيمانُ ، فَذَاكَ وَعَاءُ القَلْبِ للموعظة .

فإذا كان لِعِلْمِهِ سُلْطَانٌ ولكن لم يكن لِقَلْبِهِ سلطانٌ فوعظَ به ، ونظر إلى نفسه في ذلك الوَعظِ ، فرأى نفسه فوعظها بمنزلةِ المِنْفَخِ الكبير الذي فيه خُروق ، فخرج الرِّيحُ من تلك الخُروق ، ولا يَصِلُ إلى الجَمْرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُ ، والغبارُ والرَّمَادُ باقٍ على الجَمْرَةِ والبيتُ مظلم ، ولا تَحْمِي الجُذْرَانِ ، ولا يَذُوبُ ما في الكُورِ ، فلا يُزَايِلُ^(٢) الحَبْثُ مِنْ ذَلِكَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .

فإذا كان عِلْمُ الواعظِ ذا سلطان وعن قَلْبٍ ذِي سلطان ، ناظراً بنور ذلك السلطان إلى جلالِ اللَّهِ الذي منه بَدَأُ^(٣) ذلك السلطان في قلبه طارت عَنْ عَيْنِي فَوَادِهِ رُؤْيَا نَفْسِهِ ، وقطعه شغله بجلالِ اللَّهِ عن

(١) يدرس : يزول وينمحي .

(٢) يزائل ما كان عليه : يفارقه .

(٣) بدا : ظهر .

الالتفاتِ إلى النَّفسِ ، وزينها في ذلك يقينها ، فأدَّتْ ذلك الوَعظُ مع
سُلْطَانِهِ إلى القُلُوبِ ، وَرَمَى كُلَّ غُبَارٍ وَرَمَادٍ عَلَى جَمْرَةِ الْإِيمَانِ ؛ لِأَنَّ
الشَّهَوَاتِ لَا بَقَاءَ لَهَا مع السُّلْطَانِ .

وَإِذَا أُوْرِدَ الْقَلْبُ سُلْطَانَهُ عَلَى الصَّدْرِ خَافَتِ النَّفْسُ فَسَكَنَتْ عَنْ
تَلْظِيهَا ؛ فَانْقَطَعَ دُخَانُهَا ، وَانْكَشَفَتِ الْجَمْرَةُ عَنْ غِطَائِهَا وَغُبَارِهَا ،
فَتَلَطَّطَتْ ، وَأَضَاءَ الصَّدْرُ ، وَاسْتَحَرَّ الْقَلْبُ^(١) ، فَأَبْصُرَتْ أَعْيُنُ فُؤَادِ
السَّامِعِينَ الَّذِينَ خَلَصَتْ إِلَى قُلُوبِهِمُ النَّفْخَةُ ، صُورَةُ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
وَصَفَّهَا الْوَاعِظُ ؛ فَصَارَتْ أُمُورُ الْآخِرَةِ مُعَايِنَةً^(٢) عَلَى تِلْكَ الْقُلُوبِ ،
فَأَجَابَتِ الْقُلُوبُ مِنْهُمْ وَالنَّفُوسُ إِلَى مَا دُعُوا إِلَيْهِ ، مِنَ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ لِلَّهِ
تَعَالَى ؛ فَمَا دَامَ الْوَاعِظُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَاجَابَةُ الْقُلُوبِ لَهُ خَوْفًا وَإِقْدَارًا
بِالْيَدَيْنِ سَلْمًا ؛ لِأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى قُلُوبِهِمْ خَوْفُ السُّلْطَانِ الَّذِي كَانَ فِي
قَلْبِ الْوَاعِظِ ، فَصَارَ كَالنَّفَاحِ بِالْكَبِيرِ بِالنِّفْخِ الْكَبِيرِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ
خُرُوقٌ ، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا لَا يُؤْمَنُ عَلَيْهِمُ الْإِرْتِدَادُ عَلَى الْعَقَبَيْنِ ، وَالرَّجُوعُ
عَنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ إِلَى إِجَابَةِ النَّفُوسِ ، إِذَا سَكَنَ عَنْهُمْ الْخَوْفُ دَعَتْهُمْ
إِلَى فِتْنَةٍ تَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ الشَّهَوَاتِ بِشْيءٍ .

فَإِذَا انْتَقَلَ الْوَاعِظُ عَنْ هَذِهِ الدَّرَجَةِ إِلَى دَرَجَةٍ أَعْلَى مِنْ هَذِهِ حَتَّى
وَلَجَ^(٣) مَنَازِلَ الْمُحِبِّينَ ، وَوَصَلَ إِلَى الْمَلِكِ ، وَاحْتَظَى^(٤) مِنْ مَجَالِسِ
مَلِكِ الْمَلِكِ ، وَشَرِبَ مِنَ الْكَأْسِ الْأَوْفَى^(٥) مِنْ شَرَابِ خَالِقِهِ ، وَهُوَ

(١) استحر القلب : أصبح حاراً .

(٢) معاينة : مشاهدة ، ويقصد معهوداً بها المعاينة .

(٣) ولج : دخل .

(٤) احتظى : حظى .

(٥) الكأس الأوفى : الكاملة التامة .

شَرَابُ الْمَحَبَّةِ ؛ وَهُوَ حُبُّ اللَّهِ لَهُ ، لَا حُبَّهُ لِلَّهِ ، صَارَ عِلْمُهُ ذَا
سُلْطَانٍ ؛ لِأَنَّهُ يُعَايِنُ بِفَوَاده عَمَّا يَنْطِقُ بِهِ ؛ فَتِلْكَ الْأَنْوَارُ سُلْطَانُ عَلَيْهَا ،
فَإِذَا وَعَظَ كَانَ وَعْظُهُ رِيَّاحَ مَنَافِيحِهِ^(١) مِنْ مَلِكِ الْأُلُوهَةِ ، وَمِنْ مَلِكِ
الْحُبِّ ، وَمِنْ مَلِكِ اللَّهِ .

وَإِذَا وَصَلَتْ إِلَى الْقُلُوبِ صَارَتْ مَوْعِظَتُهُ قَيْدًا لِلْقُلُوبِ ؛ وَلَيْسَ
لِهَذَا الْعَبْدِ التَّفَاتُ إِلَى النَّفْسِ ، وَلَا لِلنَّفْسِ مَهْرَبٌ أَيْضًا .

فَالْأَوَّلُ رِيَّاحَ مَنَافِيحِهِ^(١) مِنْ مَلِكِ الْجَلَالِ ؛ فَخَافَتْ الْقُلُوبُ
وَوَجِلَتْ^(٢) ، وَخَمَدَتْ شَهَوَاتُ النَّفْسِ مِنَ الْخَوْفِ .

فَإِذَا كَانَ حَدَثٌ أَوْ فِتْرَةٌ^(٣) دَرَسَ^(٤) هَوْلُ الْخَوْفِ ، فَأُطْلِعَتِ النَّفْسُ
رَأْسَهَا ؛ لِأَنَّ الْخَوْفَ يَسْكُنُ النَّفْسَ ، وَيُخَمِّدُ الشَّهَوَاتِ ، وَلَا يُقَيِّدُ .

وَالْحُبُّ يُقَيِّدُ الشَّهَوَاتِ عَنْ طِبَائِعِهَا ؛ فَتَضَاعَفُ كُلُّ شَهْوَةٍ مِنْ
اللَّذَّةِ أَضْعَافًا بِحَلَاوَةِ الْحُبِّ ، فَيَتَعَلَقُ الْقَلْبُ بِتِلْكَ الْحَلَاوَةِ ، وَيَشْتَمِلُ
عَلَيْهِ ، وَالتَّرَقَّتِ النَّفْسُ بِالْقَلْبِ لِمَا وَجَدَتْ مِنَ اللَّذَّةِ ، وَمَا يُحِيطُ بِهِ مِنْ
نُورِ الْعِظْمَةِ حَارِسًا لِلْحُبِّ ، حَتَّى لَا يَحْدُثَ مِنَ النَّفْسِ ، فَتَتْرَكَ
الْأَدَبَ ؛ وَصَارَ الْقَلْبُ مُقَيِّدًا بِحَلَاوَةِ الْمَحَبَّةِ .

(١) منافع : جمع منفعة وهي آلة النفخ .

(٢) وجلت : من الوجل وهو الخوف .

(٣) فترة : ضعف ولين وانقطاع .

(٤) درس : امحى .

مثل المدعو إلى دار السلام

مَثَلُ^(١) الْمَدْعُوِّ إِلَى دَارِ السَّلَامِ فَأَجَابَ مَثَلُ رَجُلٍ دُعِيَ إِلَى عُرْسٍ فَأَجَابَ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ رَأَى فِي نَفْسِهِ هَيْئَةً ؛ فَعَلِمَ أَنَّ لَيْسَ لَهُ مَعَ هَذِهِ الْهَيْئَةِ مَكَانٌ فِي ذَلِكَ الْعُرْسِ ، وَلَا يُتْرَكُ لِلدَّخُولِ ثَمَّةً^(٢) ؛ لِأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى شَعْرٍ وَسَخٍ مُلْتَفٍّ بِرَأْسِهِ ، وَلَحِيَّتِهِ غَيْرِهَا الدِّخَانُ حَتَّى أَصْفَرَتْ ؛ وَإِلَى أَظْفِيرٍ قَدْ طَالَتْ ، وَبَرَاجِمٍ^(٣) قَدْ تَوَسَّخَتْ ؛ وَدَرَنْتَ^(٤) ، وَثِيَابَ دَنَسَةٍ ، وَخُلُقَانَ^(٥) ، وَرَائِحَةَ مُنْكَرَةٍ ؛ وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ قَدْ بَاتَ فِي الْمَزَايِلِ ؛ فَانْقَطَعَ طَمَعُهُ مِنْ أَنَّ يُتْرَكَ لِلدَّخُولِ فِي تِلْكَ الدَّارِ بِهَذِهِ الْهَيْئَةِ ؛ فَكَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ دَارَ السَّلَامِ وَدَارَ الْجَلَالِ مَعَ أَوْسَاخِ الدُّنُوبِ وَأَذْنَانِ الْعُيُوبِ ، وَدَرَنِ الْخَطَايَا ، وَتَنَنِ^[٨٠] الْمَعَاصِي ، وَأَقْدَارِ السَّيِّئَاتِ ؛ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حِينَ يُدْعَى إِلَى عُرْسِ الدُّنْيَا أَنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ شَعْرِهِ ، وَيُنْقِي مِنْ دَرْنِهِ ، وَيَغْسِلُ رَأْسَهُ وَلَحِيَّتَهُ ، وَيُقَلِّمُ أَظْفِيرَهُ ، وَيَغْسِلُ ثِيَابَهُ ، وَيَطْيِيبُ وَيَتَزَيَّنُ ؛ فَإِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِ مَعَ هَذِهِ الْهَيْئَةِ أَخَذُوا بِيَدِهِ ، وَأَدْخَلُوهُ ، وَأَجْلَسُوهُ عَلَى الصُّدْرِ ، وَرَقُّوا^(٦) بِهِ عَلَى مَعَالِي الْوَسَائِدِ ؛ وَصَاحَبُ الْعُرْسِ عَالِمٌ بِمَا كَانَ فِيهِ مِنْ هَيْئَةٍ بِالْأَمْسِ ، فَيَعْلَمُ

(١) لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ يونس (١٠ / ٢٥) ودار السلام :

الجنة ، قال الحسن وقتادة : « السلام هو الله ، وداره هي الجنة . وسميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحظون بالسلامة والنجاة من النار » أهـ بتصرف .

(٢) ثَمَّة : هناك .

(٣) رُؤُوس عِظَامِ الْأَصَابِعِ مِنْ ظَهْرِ الْكَفِّ ، إِذَا قَبِضْتَ الْكَفَّ ارْتَفَعَتْ .

(٤) الدرن : وسخ الثوب .

(٥) خلق الثوب : بلي .

(٦) رَقُّوا به : ارتفعوا به .

أَنَّ هَذَا إِنَّمَا هَيَأُ^(١) لِعُرْسِهِ ، فَيُكْرِمُهُ غَايَةَ الْكَرَامَةِ .

فهذا مَثَلُ عَبْدٍ تَائِبٍ قَدْ أزالَ عَنْ نَفْسِهِ الْفُضُولَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، لَمْ يُطْلَقْ لَهُ الشُّرْعُ^(٢) ، وَهِيَ الْمَعَاصِي ؛ وَتَأَدَّبَ بِأَدَبِ الْإِسْلَامِ ، وَتَزَيَّنَ بِالزَّهَادَةِ^(٣) وَالتَّقْوَى ، وَتَطَيَّبَ بِصَدْقِ الْبَاطِنِ مِنْ صِحَّةِ النِّيَّةِ ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ ، وَبَذَلَ النَّفْسَ لِلَّهِ ، وَمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ؛ وَكَانَ وَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ وَقَدْ سَبَقَتْ هَذِهِ الْمَحَامِدُ مَذْمُومَاتِهِ ؛ فَغَفَرَ لَهُ مَغْفَرَةً ؛ لَا يُبْدِي^(٤) لَهُ شَيْئًا مِنْ سَالِفِ^(٥) سَيِّئَاتِهِ ، وَجَادَ عَلَيْهِ بِفَضْلِهِ الَّذِي سَهَّلَ لَهُ سَبِيلَ الشَّفَاعَةِ فِي عَدَدٍ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ .

فَالَّذِي صَارَ إِلَى ذَلِكَ الْعُرْسِ بِتِلْكَ الْهَيْئَةِ الْقَبِيحَةِ مُنْعٍ فِي الطَّرِيقِ عَنْ أَنْ يَأْتِيَ الْبَابَ ، وَجَلَسَ هُنَالِكَ لِيَأْخُذَ مِنْ شَعْرِهِ وَنَشْرَهُ^(٦) ، وَكُلَّ فُضُولٍ أَتَى بِهِ ، فَإِذَا أزالَ مِنْ نَفْسِهِ تِلْكَ الْفُضُولَ أَتَى بِهِ بَعْدَهُ فِي الْمَجْلَسِ وَالْمَائِدَةِ ؛ فَالَّذِي صَارَ إِلَى الْعَرَضَةِ مَعَ هَذِهِ الْهَيْئَةِ السَّيِّئَةِ مُنْعٍ عَنْ دَارِ^(٧) السَّلَامِ ، وَبَقِيَ فِي مَجْلَسِ الصَّرَاطِ ، حَتَّى تَأْخُذَ النَّارُ مِنْ شَعْرِهِ وَنَشْرِهِ أَكْلًا أَكْلًا ، وَحَرَقًا حَرَقًا ، كُلَّمَا احْتَرَقَ عَادَ كَمَا يُرَى لَهُ حَتَّى يَأْخُذَ الْحَقُّ مِنْهُ مَا وَجَبَ لَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ تُذَرِّكُهُ الرَّحْمَةُ مِنْ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ ، فَيَتَخَلَّصَ فَيُكْسَى وَيُطَيَّبُ ، فَيَذْهَبُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ .

(١) هُنَا [أ] وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

(٢) الشُّرْعُ : جَمْعُ شُرَاعٍ .

(٣) الزَّهَادَةُ : الزَّهْدُ .

(٤) يُبْدِي : وَيَبْدُو بِمَعْنَى يَظْهَرُ .

(٥) سَالِفٌ : سَابِقٌ .

(٦) النَّشْرُ : بِالتَّحْرِيكِ الْمَتَشَتِّرِ الْمَتَفَرِّقِ .

(٧) مُنْعٍ عَنْ دَارِ السَّلَامِ : مَحْبُوسٍ عَنِ الْجَنَّةِ .

مثل الذي ينطق بأسماء الله ويدعوه بها ويتلو كتاب الله وليس له نور تلك الأشياء

مَثَلُ الَّذِي يَنْطِقُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَدْعُوهُ بِهَا ، وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَ لَهُ نُورٌ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ فِي صَدْرِهِ ، كَمَثَلِ شَرَرِ الْحَدِيدَةِ الْمُحْمَاةِ^(١) إِذَا ضُرِبَتْ بِالْمِطْرَقَتَيْنِ ، فَرَمَتْ بِالشَّرَرِ ، ثُمَّ يَنْطَفِئُ مِنْ سَاعَتِهِ ، وَلَيْسَ لَهُ لَهَبَانٌ^(٢) وَلَا حَرَارَةٌ وَلَا ضَوْءٌ يُضِيءُ بِهَا .

كَذَا النَّاطِقُ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ ، وَالتَّالِي لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا أَخْرَجَ الْكَلِمَاتِ مِنْ صَدْرٍ تَلَطَّخَ^(٣) بِالشَّهَوَاتِ لَا يَكُونُ لِكَلِمَاتِهِ مِنَ النُّورِ مَا يَنْفُذُ شُعَاعُهُ فَيَسْطِعُ ضَوْؤُهُ .

فَالنَّاطِقُ الَّذِي لَهُ نُورٌ فِي قَلْبِهِ كَمَثَلِ نَفَاطٍ^(٤) رَمَى بِنِفْطٍ ، وَكَحَرِيقٍ اشْتَعَلَ نَارًا ، فَأَحْرَقَ مَا حَوْلَهُ ، وَسْطِعَ ضَوْؤُهُ ، فَأَضَاءَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَإِنْ لِكُلِّ حَرْفٍ مِنْ كَلَامِهِ نُورًا ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ فَإِنَّمَا أَنْزَلَ مَعَ النُّورِ ، فَإِذَا دَنَا مِنَ الصَّدْرِ اسْتَقْبَلَتْهُ أَدْنَا سُ الشَّهَوَاتِ ، وَظُلْمَةُ الْهَوَى ، وَالْحِرْصُ وَالرَّغْبَةُ ، وَالْكِبَرُ وَالْحَمِيَّةُ^(٥) ، وَالْحَسَدُ وَالْبَغْيُ ، وَالتَّجِيرُ وَالتَّعَزُّزُ ، وَالتَّمَلُّقُ وَالْإِقْتِدَارُ ، وَالْعُلُوُّ وَالتَّيَّةُ وَالتَّعْظِيمُ ، رَجَعَ النُّورُ كَأَنَّهُ يَقُولُ : هَذَا لَيْسَ بِمَكَانِي ، إِنَّمَا أَحُلُّ بِصَدْرٍ طَهَّرَ عَنْ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ وَالْأَقْدَارِ ، فَهَنَّاكَ مَحَلَّهُ ، وَمَعْدِنِي يَقِفُ خَارِجًا يَلْتَمِسُ صَدْرًا بَرِيئًا مِنْ

(١) المحممة بالنار .

(٢) اللهبان : اللهب ، ولسان النار بغير دخان .

(٣) تلطخ : تلوث .

(٤) النفاط : من يرمي بالنفط وهو ما توقد به النار .

(٥) الحمية : الأنفة ، والاستكبار ، والاستنكاف .

هذه الأشياء ، فمن احتمل عِلْمَ هذه الأشياءِ عِلِمَ الحروف ، ثم أخذها بالصوت بكلمات ، فذاك العالم .

العلم علمان :

أترى ما قاله عليه السلام : العلمُ علمان ؛ فعِلْمٌ على اللسان ، وذاك حجةُ الله تعالى على خَلْقِهِ . وَعِلْمٌ على القلبِ ، فذاك العلمُ النافع .

فمن احتمل في صَدْرِهِ عِلْمَ هذه الأشياءِ بلا نور فهذا عِلْمُ الدَّهْنِ تلقاه تعلماً وتحفظاً ؛ فهو على لسانه ، ولطائفُ الحروف ومعانيها هو محجوبٌ عنها ومستورةٌ عنه ؛ فإذا لَفَظْتُهَا^(١) شَفَتَاهُ^(٢) ، وهو الحروف ، فهو كالشَّرَرِ يَحْمَدُ وَيَنْطَفِئُ من ساعته فلا يَرْتَفِعُ ، ولا يُضِيءُ الصدورَ ، ولا يُحْرِقُ الشَّهَوَاتِ ، ولا رَيْنَ^(٣) الذُّنُوبِ من خَوْفِهِ ؛ والذي رَاضَ نَفْسَهُ حتى تَطَهَّرَ من تلك الأدناس ، وزَايَلَتْهُ^(٤) تلك الظلمات ، فخلَا صَدْرُهُ من ذلك ، فطاب وطَرِبَ وطَهَّرَ ؛ فجاء النورُ فوجدَ مكاناً قد طابَ وطَهَّرَ ؛ وطهَّارَتُهُ من تَقَوَّاهُ من هذه الأشياءِ في تَقَوَّاهُ ، وطيبُهُ من حياةِ القُرْبَةِ ؛ وذلك أَنَّ العَبْدَ كلما ارْدَادَ طهارةً من هذه الأشياءِ ازداد قُرْبَةً ، وكلما ازداد قُرْبَةً ارْدَادَ حياةً قَلْبِهِ ؛ لأنه إِنَّمَا يَحْيَا قَلْبُهُ بالحيِّ الذي لا يَمُوتُ .

فصاحبُ هذا إذا وجد ذلك النورَ مِثْلَ هذا الصدر وَلَجَ^(٥) فيه نورُ

(١) لفظتها شفتاه : تلفظتا بها .

(٢) في جميع الأصول [شفثيه] وهو تحريف من النساخ .

(٣) الرين : الدنس ، والرجس .

(٤) زايَلَتْهُ : فارقتهُ .

(٥) ولج : دخل .

ذلك الكلام ؛ فإذا نطق به خرج منه الشَّعَاعُ الساطعُ^(١) ، فأحرق ما في
الجَوْفِ ، فأضاء البيت ؛ بمنزلة ذلك الحريق الذي أحرق ما حَوَّلَهُ ،
وأضاء الفضاء ؛ فذاك العِلْمُ النافعُ الذي قاله صَلَّى اللهُ عليه وسلم .

آدم لما أهبط إلى الأرض :

وروي في الحديث أَنَّ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَهْبِطَ إِلَى
الأَرْضِ ابْتُلِيَ بِالْحَرْثِ وَالنَّسِجِ ؛ فقال : يَا رَبِّ ، شَغَلْتَنِي بِهَذَا ، وَقَدْ
كُنْتُ أَسْمَعُ تَسْبِيحَ الْمَلَائِكَةِ وَمَحَامِدِهِمْ ؛ فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ قُلْ
الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يُؤَافِي نِعَمَهُ ، وَيَكْفِي مَزِيدَهُ ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ هَذَا
غَلِبَتْ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي الْمَحَامِدِ وَالتَّسْبِيحِ .

دواوين ثلاثة :

وإنَّما غَلَبَ الْخَلْقَ لِأَنَّ الْعَبْدَ فِي أَثْقَالِ النِّعَمِ ، وَلَا يَنْفَكُ مِنْهَا إِلَّا
بِالْحَمْدِ ، فيحتاج لكل نعمةٍ إِلَى حَمْدٍ لِيَتَخَلَّصَ مِنْهَا .

ودِيوانُ النِّعَمِ غَيْرُ ، ودِيوانُ الْحِسَابِ غَيْرُ ، ودِيوانُ السَّيِّئَاتِ غَيْرُ ،
ودِيوانُ مَظَالِمِ الْعِبَادِ غَيْرُ ؛ فَيُنْشَرُ عَلَى الْعَبْدِ يَوْمَ الْحِسَابِ دَوَاوِينُ ثَلَاثَةٌ ،
كَذَا جَاءَنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فكان الْعَبْدُ مُحْتَاجًا عِنْدَ كُلِّ نِعْمَةٍ إِلَى حَمْدٍ ، فَتَفْضُلُ اللهُ عَلَيْهِ ،
وَأَعْطَاهُ كَلِمَةً جَامِعَةً تَشْعَبُ^(٢) تِلْكَ الْكَلِمَةُ وَتَتَجَزَّأُ عَدَدَ كُلِّ نِعْمَةٍ لِلَّهِ
عَلَيْهِ حَتَّى تَذْهَبَ إِلَى كُلِّ نِعْمَةٍ فَتَلْزِمَهَا ، حَتَّى إِذَا وَقَفَ غَدًا بَيْنَ يَدَيِ

(١) الساطع : المرتفع .

(٢) تشعب : تفرق وتفرج وتجزأ .

اللَّهُ تعالى ، وَيُنْشَرُ عَلَيْهِ دِيوَانُ النِّعْمَةِ ، وَجَدَ عِنْدَ كُلِّ نِعْمَةٍ نُورًا قَدْ لَزِمَهَا ؛ وَذَلِكَ نُورُ الشُّكْرِ ، نَطَقَ بِحَمْدِهِ هَا هُنَا جُمْلَةً ، فَتَوَزَّعَ وَانْقَسَمَ بِأَجْزَائِهَا عَلَى جَمِيعِ النِّعَمِ ؛ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ جُلُّ ذِكْرِهِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَاهَاةِ^(١) : مِلَاثُكْتِي ، هَذَا عَبْدٌ خَلَقْتُهُ مِنْ تُرَابٍ ، فَبَلَغَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ إِيَّايَ أَنْ شَكَرَنِي عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ ، فِيرَى الْمَلَائِكَةُ نِعْمَهُ ، مَعَ كُلِّ نِعْمَةٍ نُورٌ قَدْ لَزِمَهَا ؛ وَهُوَ نُورُ شُكْرِ الْعَبْدِ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ الَّتِي قَدْ نَطَقَ بِهَا ، فَيَقُولُ اللَّهُ تعالى : فَهَذَا لِلنِّعْمَةِ الَّتِي وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدِي ، وَهَذَا النُّورُ الَّذِي وَجَّهْتُ عَبْدِي إِلَيَّ لِمَا تَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ ، فَعَلِمُوا بِذَلِكَ لِلْعَبْدِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَئِذٍ بِتِلْكَ الْمُبَاهَاةِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يُوَافِي نِعْمَهُ ، وَيَكْفِي مَزِيدَهُ ، أَوْفَى^(٢) حَمْدُهُ نِعْمَهُ ، فَلَقِيَ كُلَّ نِعْمَةٍ جِزْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْحَمْدِ ، وَبَقِيَ لِلْمَزِيدِ أَجْزَاؤُهُ حَتَّى يَكْفِيَتْهُ بِهَا يَوْمَ الْمَزِيدِ وَالزِّيَادَةِ ؛ فَإِذَا لَقِيَ الْعَبْدُ لَقِيَّ مِنْ نُورِهِ ، وَكَذَا لَقِيَ الْحَمْدَ وَلَقِيَهِ بِأَجْزَاءِ الْمَكَافَاةِ ، وَهُوَ حُبُّهُ ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُكَافِيَ رَبَّهُ [٨١] عَنْ رُؤْيَتِهِ وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ إِلَّا بِحُبِّهِ إِيَّاهُ ؛ فَإِنَّمَا حَمَدَ الْعَبْدُ بِهَذَا الْحَمْدِ الَّذِي لَهُ مِنْ نُورِ الْحَبِّ مَا يَتَجَزَّأُ ، فَيَلْحَقُ كُلُّ جِزْءٍ مِنْهُ كُلَّ نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ تعالى عَلَيْهِ فَتَلْزِمُهَا ، وَيَلْحَقُ أَجْزَاءُ الْمَزِيدِ فَيَقُومُ ، حَتَّى إِذَا بَرَزَ لِلخَلْقِ يَوْمَ الزِّيَادَةِ ؛ وَلَقِيَ الْعَبْدُ بِحُبِّهِ مَكَافِئًا لِمَا صَنَعَ الرَّبُّ مِنْ رَفْعِ الْحِجَابِ ، وَإِظْهَارِ جَلَالِهِ عَلَى عَبْدِهِ ؛ فَهَذِهِ كَلِمَةٌ قَدْ مَلَأَتْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا قُلْتَ هَذَا فَقَدْ غُلِبْتَ جَمِيعَ مَا خَلَقْتُ ؛ فَإِنَّمَا عَظُمَ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الْكَلَامَ حِينَ جَاءَ جَاءَ مَعَ النُّورِ ، وَوَلَجَ^(٣) صَدْرَهُ مَعَ

(١) يباهي : يفاخر ويكثر .

(٢) أوفى : عدل وساوى .

(٣) ولج : دخل .

نُورِ الكلام ، فلما نطق به خرج من النور والشَّعاعِ ما وسع النِّعمَ
أجزاءه ، وبقي المكافأة يوم المزيد ما يكون كِفَاءَهُ^(١) ، والذي لم يَظْهَرْ
من هذه الأذناس فإنَّما في صَدْرِهِ من عِلْمِ الحروف المؤلَّفة ؛ فتلك
الكلمة والصوت الذي يُبْرِزُهَا^(٢) به فإنَّه قوَّةٌ لتلك الحروف ، حتى
تتجزَّأ ؛ فيلحق كلُّ نعمة ويلزمها ؛ وإنَّما ثبات العَبْدِ على النطق ؛ فإنَّه
قد أعمل العَبْدُ جوارحه^(٣) في الطاعات ، وأثقال النِّعم والشكر باقية
عليه .

نشر ديوان النعم :

فإذا وَقَفَ بين يدي الله تعالى ، ونُشِرَ دِيَوَانُ النِّعم وَجِدْتَ النِّعمَ
خاليةً من أنوارِ الشكر ، فاستحي من لَهْوِهِ وَغَفْلَتِهِ وَبَطَالَتِهِ^(٤) ؛ فيبقى
في شُكر النعمة ، والنعمة تُقْتَضِي شُكْرَهُ ، فحينئذ إما مُعَذِّب وإما
مَغْفُور ؛ فَأَعْطَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ جُمَلَ الكلام ، وأَعْطَاهُمْ شُكْرَ النِّعم
كلمة ؛ فلحق نورها جميع النعم بأجزائها ؛ فصارت كلُّ كلمة مقرونة
بها شكر العبد .

كلمات أعطاها الله العبد :

فأَعْطَاهُمْ لِنَفْيِ الشُّكِّ كلمة صارت مقرونة بكل شيء خلقه الله
تعالى للعباد ، نافية للشُّكِّ عنه ؛ وهي كلمة الشهادة : لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ
محمدٌ رَسُولُ اللهِ .

(١) الكفاء : النظير .

(٢) يبرزها : يظهرها .

(٣) جوارحه : أعضاؤه ، جمع جارحة .

(٤) بطالة الرجل : عدم عمله .

وأعطاهم لتزويجه كلمة : سبحان الله ، فصارت مقرونة بكل مديح إليه ، فإذا سبّحه بحمده فقد أتى بجميع المحامد .

وأعطاهم لذلة العبودة^(١) كلمة ؛ وهي قول : الله أكبر ؛ فإذا كبره فقد تواضع ؛ وألقى بيديه سلماً .

وأعطاهم للقوة على هذه الأشياء كلمة ؛ وهي قول العبد : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فإنما تخرج هذه الكلمة من العبد مع نور الكلمة حتى يعمل بعملها ، ويبلغ مبلغها ؛ فإذا قال العبد ؛ الحمد لله ، فإنما هي كلمة جملة ؛ فإذا شرط وأشار إلى شيء موصوف فقال : حمداً يوافي^(٢) نعمه ، خرجت الكلمة بنورها .

فمن كان له ذلك النور ، فتوزعت وانقسمت على جميع نعم الله تعالى ، فلاحقت كل نعمة قسطها^(٣) فلزمتها ، فيتخلص من أثقال النعم ؛ لأن الله تعالى قال في تنزيله^(٤) : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ .

فإذا عجز العبد عن عد النعم لم يحصها ، فعلمه كلمة تلحق بأجزائها كل نعمة على حدتها ، فوافها حتى اقتربنا : كل نعمة وشكر العبد مقرون بها لما نطق بهذه الكلمة .

وهذا الكلام إنما يخرج من هذه الأفواه حروفاً مؤلفة ، والأنوار

(١) العبودة : الطاعة .

(٢) يوافي : يكافئ ويعادل ويساوي .

(٣) القسط : النصيب والحظ .

(٤) إبراهيم (١٤ / ٣٤) .

كسوتها معها نزلت للعباد من السماء ، والعباد متفاوتون في النطق بهذه الكلمة كالشأن في الأنوار .

مثل ذلك مثل الخواتيم :

وَمَثَلُ ذَلِكَ مِثْلُ الْخَوَاتِيمِ^(١) ، فليس بين خَوَاتِيمِ النَّاسِ كَثِيرُ تَفَاوُتٍ ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَهَا فِيمَا بَيْنَ مِثْقَالٍ وَمِثْقَالَيْنِ ؛ فَعَامَّةٌ أَوْزَانُهَا بِهَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْفِضَّةِ أَوْ مِنَ الذَّهَبِ ، إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي الْفُصُوصِ الَّتِي تَبَايَنَتْ^(٢) جَوَاهِرُهَا : فَرُبَّ جَوْهَرٍ فَصٌّ لَخَاتِمٍ لَا يُسَاوِي دِرْهَمًا ، وَرُبَّ فَصٍّ تَبْلُغُ قِيَمَتُهُ آلَافًا مِنَ الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ . فَكَذَا النُّطْقُ^(٣) بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ مُتَفَاوِتٌ فِي إِبْرَازِهَا لَفْظًا وَقِرَاءَةً وَدُعَاءً ؛ وَلَكِنِ التَّفَاوُتُ فِي الْمَعَادِنِ الَّتِي فِيهَا هَذِهِ الْأَنْوَارُ ، وَعَلِمَ هَذَا الْكَلَامُ .

وتفاوتُ هذا أَكْثَرُ مِنْ تَفَاوُتِ الْفُصُوصِ أَضْعَافًا ؛ فَكَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبٍ ، مَعْدِنُ ذَلِكَ الْقَلْبِ الدُّنْيَا ، فَذَاكَ يَبْغِي بِهِ الثَّوَابَ . وَكَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبٍ ، مَعْدِنُ ذَلِكَ الْقَلْبِ الْعُقْبَى^(٤) . وَكَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبٍ ، مَعْدِنُ ذَلِكَ الْقَلْبِ الْمَلَكُوتُ . وَكَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبٍ ، مَعْدِنُ ذَلِكَ الْقَلْبِ مَالِكُ الْمَلِكِ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَإِنَّمَا اسْتِنَارَ قَلْبُهُ بِذَلِكَ النُّورِ ، وَكُلُّ كَلَامٍ يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ .

(١) الخواتيم : جمع خاتم وهي الحلبي التي للإصبع ، ويقال الأعمال بالخواتيم أي أنها مرهونة بنهاياتها .

(٢) تباينت : اختلفت .

(٣) المنطق [أ] .

(٤) العقبي : الجزاء .

مثل الغافل عن الله تعالى

مَثَلُ الْغَافِلِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى مَثَلُ رَجُلٍ أَخَذَ الْمَلِكُ بِيَدِهِ ، فَطَافَ بِهِ فِي قَصُورِهِ وَبَسَاتِينِهِ وَمُتَنَزَّهَاتِهِ حَتَّى عَايَنَ مَا فِيهَا ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ فِي خَزَائِنِهِ ؛ فَطَافَ بِهِ ، فَأَرَاهُ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِهِ ، ثُمَّ أَفْشَى إِلَيْهِ أَسْرَارَهُ الَّتِي تَكُونُ فِي عِدَادِ الثَّوَابِ وَالدرجاتِ وَأَسْرَارِ تَدْبِيرِ الْمَلِكِ ، أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ يَتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهِ ، وَتَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَيَكُونَ مِنْ خَوَاصِّ خَدَمِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، لَا يَتَّيَرَحُ مِنَ الْخِدْمَةِ ؛ فَتَعَلَّقَ بِهِ قَلْبُهُ ، وَانْدَسَّ فِي أُمُورِهِ ، وَلَزِمَ بَابَ الْمَلِكِ ، وَنَسِيَ أَحْوَالَ نَفْسِهِ ، فَلَوْ وَسَّعَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، أَوْ ضَيَّقَ ، أَوْ بَرَّهَ أَوْ مَنَعَهُ بِرَّهُ ، لَمْ يَتَّيَرَحَ الْبَابَ ، لَمَّا أَطْلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِهِ ؛ لِأَنَّهُ عَرَفَهُ مَعْرِفَةً لَا تَتَّهَمُهُ^(١) فِي الْمَنَعِ وَالضِّيْقِ .

وآخِرَ فَتَحَ لَهُ الْبَابَ ، فَوَقَفَ بِهِ عَلَى الْبَابِ وَلَمْ يُطْفَأْ بِهِ وَلَا أُطْلَعَ عَلَى أَسْرَارِهِ ، وَبَقِيَ عَلَى الْبَابِ لَيْسَ لَهُ دُخُولٌ عَلَى الْمَلِكِ وَلَا مَعَهُ سُرٌّ وَلَا شَيْءٌ ؛ فَإِذَا هَذَا الشَّيْءُ أَحْلَاهُ هَذَا الْمَحَلَّ ، خَرَجَ مِنَ الْبَابِ ، وَقَامَ مَعَ ذَلِكَ الَّذِي لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ بِهَذِهِ الْكِرَامَاتِ ، فَأَعْجَبَ الْعُقْلَاءُ مِنْ فِعْلِهِ هَذَا ؛ أَنَّ الْمَلِكَ اخْتَارَكَ مِنَ الْجَمِيعِ ، وَعَظَفَ عَلَيْكَ ، وَأَظْهَرَ عَلَيْكَ مَحَبَّتَهُ ، وَعَلَيْكَ بَسْطَ رَأْفَتِهِ وَشَفَقَتِهِ ، وَآثَرَكَ^(٢) عَلَى هَذَا الْمَلَأِ^(٣) الْكَثِيرِ ؛ فَأَخَذَ بِيَدِكَ مِنْ جُمْلَتِهِمْ ، وَاسْتَخْرَجَكَ وَخَلَّصَكَ مِنْ بَيْنِهِمْ لِيَطُوفَ بِكَ فِي قَصُورِهِ ، وَلِيُطْلِعَكَ عَلَى أَسْرَارِهِ ، وَاخْتَارَكَ لِكَشْفِ

(١) لَا تَهْمَةُ [أ] تَهْمَةُ [ب] .

(٢) آثَرَكَ : مِنَ الْإِثَارِ ، فَضْلِكَ .

(٣) الْمَلَأُ : الْجَمَاعَةُ .

أسراره عليك في تدبير المملكة ؛ فتركت ما هنالك ، ووليت مُعْرِضاً لم ترَ شيئاً ، وأقبلت على فهمِ نفسك تتشبه في سيرتك وآدابك وأعمالك بهذا المخذول المَطْرُود المحروم على الباب الذي لم يُعْبَأ به ، كأنَّ جميعَ ذلك عندك لا شيء ؛ وتركهم كأنهم في مَفَاة حَيَارَى ، ثم لم يَزَالُوا في أعمالهم حتى أَوْقَعَهُم في أرض شاكة ^(١) مُلْتَفَّة أشجارها ، حَدِيدَة شوكها ؛ فهم في فَيَافٍ ^(٢) جِيَاع عطاش جَرَحَى من ذلك الشوك والحسك ^(٣) ؛ فما الذي يؤمنك أن يَرْمِي بك الملك لتشبهك بهم في آدابهم وسيرتهم ، فَيُنْحِيكَ ^(٤) إلى الباب ، ويسدّه عنك ، حتى تقع في مَفَاة الحيرة والأرض الشاكة .

قربنا جلّ جلاله خلق داراً ، فحشاها بالرحمة ، وملاها بساتين ونعيماً ورياضاً ^(٥) ، وقصوراً ، وأعدّها لعباده ، وخلق سِجْناً ، فحشاها بسلطانه وغضبه ، وملاها بعذابه ، وأعدّها للذاهبين برقابهم ، وأظهر من ملكه في ملكوت عرشه ، ولا حاجة له إلى شيء من ذلك ؛ إنما فعل هذا كله من أجل الأدميين منّة ، [٨٢] فاختار من كل ألف من عباده واحداً ، ففتح الباب له حتى عاين هذه الأشياء ، وترك الباقيين في مفاة الحيرة الشاكة وهي المعاصي ؛ فتردّوا في آبار الكبائر وجرف الجبابرة ، ويرتعون في القاذورات والكناسات ، فإذا كان هذا الواحد

(١) شاكة : كثيرة الشوك .

(٢) الفيافي : الصحارى .

(٣) الحسك : هو نبات تتعلق ثمرته بصوف الغنم وله ورق كورق الرجل ، وعند ورقه شوك صلب ذو شعب ثلاث .

(٤) ينحيك : يقصيك ويبعدك .

(٥) رياض : حدائق ، جمع روضة .

المختار المفتوح له الباب ، والمقبول في الدار ، والمطلع على الخزائن والأسرار ، أحقق لها عن فتح الباب وعمّا اطلع عليه ورجا فيه ، خرج من الدار ، وأقبل على ظلمات نفسه الخائنة ، وغرة العدو ، وأخرجه رويداً رويداً^(١) من الباب الذي فتح له ، فوَلَجَه^(٢) فأبصره بالاستلذاذ وقضاء النهمات^(٣) والأمانى الكاذبة نفسية وشهوانية ، قد أجنب له حتى تأثر نفسه ، وتبطّر^(٤) ، ويمتليء من لذتها والفرح بها ، فيورثه الأشر والبطر حتى يخرج به إلى ما لم يُطلق له من ذلك النوع الذي أحلّ له ، ويتعدى حدود الله فيه حتى أشرب وبطر ، وتعدى حدود الله فيها وتجاوزها ، فقد ظلم نفسه ، حتى يصير عادياً يسترق من الله نفسه وجوارحه ويعدو هارباً ؛ فسمّاه عادياً في تنزيله بفعله ؛ قال الله تبارك وتعالى^(٥) : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ .

فلا يزال العدو يسوقه في مفاوز^(٦) الحياة حتى يرمي به إلى النار سوق الحمار الدبر^(٧) ، الجوال في أفنية^(٨) الدور ، يرتعي في

(١) رويداً رويداً : شيئاً فشيئاً .

(٢) ولجه : دخله .

(٣) النهمات : الشهوات جمع نهمة .

(٤) الأشر والبطر : كفر النعمة وكنودها وعدم شكرها .

(٥) المؤمنون (٢٣ / ٥ ، ٦ ، ٧) راجع مختصر ابن كثير (٥٥٩ / ٢) والبحر المحيط

(٣٩٧ / ٦) بتصرف .

(٦) المفاوز : الصحارى ، جمع مفازة .

(٧) الدبر : بالتحريك قرحة الدابة ، وتجمع على دبر وأدبار .

(٨) أفنية الدار : ما اتسع من أمامها جمع فناء .

كِتَابِهِمْ^(١) حَتَّى يَرْمِيَ بِهِ إِلَى الشَّكَاةِ الْمَلْتَفَةِ أَشْجَارُهَا وَشَوْكُهَا ، فَسَجَنَهُ فِيهَا حَتَّى لَا يَقْدِرَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا ، كُلَّمَا اضْطَرَبَ لَزِمَتْهُ حِدَّةُ الشَّوْكِ ، وَأَوْجَعَتْهُ جِرَاحَتُهَا ؛ وَهِيَ الْكَبَائِرُ مِنَ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْبَغْيِ^(٢) وَالْعُلُوِّ ، وَالْجِرَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى .

فَكُلُّ مَا ذَكَّرْنَا عَايِنَ فِي تِلْكَ الْفُسْحَةِ ، وَالتَّفَتِ إِلَيْهَا ، التَّفَتِ مِنْ بَعْدِ ؛ وَذَلِكَ لِبُعْدِ قَلْبِهِ ؛ فَعَايِنَ ذَلِكَ كَالْجِبَالِ مِنَ الْبُعْدِ الَّذِي تَبَاعَدَ ؛ فَالْقَلْبُ قَلْبُ الْمُوَحِّدِينَ ، وَاللِّسَانُ لِسَانُ الْمُوَحِّدِينَ ، وَالنَّفْسُ نَفْسُ الْكَافِرِينَ بِمَا تَشَبَّهَ بِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ وَالسَّيْرِ .

وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ رَفَعَ اللَّهُ لِقَلْبِهِ عِلْمًا فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ بَعْدَ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ ، حَتَّى يَبْقَى فِي الْعَذَابِ غَدًّا ، وَفِي دَارِ الْهَوَانِ دَهْرًا ، لَا يَدْرِي كَمْ أَمَدُ^(٣) ذَلِكَ الدَّهْرِ .

المرارات :

فَذَاقَ مَرَارَةَ الْحَيَاةِ ، وَذَاقَ مَرَارَةَ الْمَوْتِ ، وَذَاقَ مَرَارَةَ الْقَبْرِ ، وَذَاقَ مَرَارَةَ فَتَانِي^(٤) الْقَبْرِ ، وَذَاقَ مَرَارَةَ عَرَضِ الْمَعَاصِي وَالسُّؤَالِ وَالنُّشُورِ^(٥) ، وَضِيقَ الْمَقَامِ ، وَالصُّرَاطِ وَالصُّحُفِ ، وَوَزْنَ الْأَعْمَالِ ، حَتَّى تَدْرِكَهُ رَحْمَتُهُ يَوْمًا ؛ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ لِكُفْرَانِهِ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى .

(١) الْكَتَابُ : مَا يَسْتَرْبِهِ .

(٢) الْبَغْيُ : الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ .

(٣) الْأَمَدُ : الْغَايَةُ .

(٤) فَتَانَا الْقَبْرِ : هُمَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ .

(٥) نَشْرُ الْمَوْتِ : إِحْيَاؤُهُمْ .

فمن فُتِحَ له الباب ، فكفَرَ النُّعْمَةَ ، واستخفَّ المِنَّةَ^(١) ، وآثَرَ^(٢) الشهوةَ ومَرْضَاةَ النفسِ ؛ فبدَّلَ نعمةَ الله كُفْرًا ، فأَحْلَلَ قَوْمَهُ دَارَ البَوَارِ^(٣) ، جهنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فبِشِّ الْقَرَارِ^(٤) .

فانقلب فيه مَنكوسًا ، وسُلِبَ ما أُعْطِيَ ، وأُخْرِجَ من الباب إلى الآبارِ المتردِّيةِ^(٥) المَنكوسةِ فيها بلا يَدٍ ولا رِجْلٍ ، فَبَقِيَ فيها أَبَدًا ؛ فلا دَاعِيَ ولا مُجِيبٍ ، لا يَدْعُوهُ اللهُ أَبَدًا^(٦) إلى نفسه ، ولا يُجِيبُهُ إِنْ دَعَاهُ .

اعتمال العقل :

وَمَنْ رُزِقَ عَقْلًا فاعتمَل عقله فيما فُتِحَ له من الباب ، فعقد قَلْبَهُ على طاعةِ الناصحِ الرَّشِيدِ ، وهو العَقْلُ الدالُّ على الله تعالى وعلى مَرَاثِدِ^(٧) أُمُورِهِ ، فلم يزل العقلُ يمهِّدُ له ، ويُزَيِّنُ له ، ويُدَبِّرُهُ بالأخلاقِ الكريمةِ ، والأعمالِ السَّيِّئَةِ^(٨) ، والأفعالِ المرضيةِ ، والأقوالِ البَهِیَّةِ^(٩) ، والإشاراتِ الشَّهِيَّةِ ، والمَرَاتِبِ العَلِيَّةِ ، حتى وَقَفَهُ على حَدِّ الأمانةِ ؛ فصار أَمِينًا لله تعالى في أرضه ؛ بلغ سِرَّهُ ، وَمَحَلَّ

(١) المنة : هي النعمة وجمعها المنن .

(٢) آثر : فضل .

(٣) أحل قومه : أنزلهم ، ودار البوار : جهنم والبوار هو الهلاك .

(٤) بش القرار : بش المستقر .

(٥) المتردية : الساقطة في مهواة .

(٦) أبداً : إلى غير انتهاء .

(٧) مرآشد الأمور : صلاح أحوالها .

(٨) السيئة : الرقيقة .

(٩) البهية : من البهاء وهو الجمال والسحر والنضارة .

نَجَوَاهُ^(١) ، وَمَعْدِنُ^(٢) حِكْمَتِهِ ؛ وَخَزَانَةُ جَوْهَرِهِ عِلَّتْ فِي الْمَرْتَبَةِ ، وَأَقَامَ بِالْبَابِ يُلَازِمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَلَا يَبْرَحُ مَكَانَهُ ، وَأَخَذَ مِنَ الْحِظْوِظِ حِظًّا صَارَ عِنْدَ الْمَلِكِ وَجِيهًا^(٣) ، كُلَّمَا شَاءَ دَخَلَ عَلَيْهِ بِلَا إِذْنٍ ، وَأَيْنَمَا شَاءَ قَعَدَ فِي مَجَالِسِهِ مِنَ الْإِقْتِرَابِ وَالْذُّنُو^(٤) ، فَاتَّمَنَّهُ عَلَى خَزَانَتِهِ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُ تَدْبِيرَهُ وَأَسْرَارَهُ ، وَنَفَذَ حُكْمَهُ فِي مُلْكِهِ ، فَيُقَسِّمُ عَلَيْهِ فَيُبِيرُ^(٥) قَسَمَهُ ، وَيَتَمَنَّى فَيُسْعِفُهُ بِمَنَاهِ ؛ وَيَشَاءُ وَيُرِيدُ فَيُمْضِي^(٦) مَشِئَاتِهِ وَإِرَادَاتِهِ ؛ وَهَذَا فِي دَارِ الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ فَيَا لَهُ مِنْ مَقْدَمٍ لَا يُحَاطُ بِوَصْفِهِ : مِنْ سُرُورِهِ بِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَمَكُّنِهِ مِنْ مَعَالِي الدَّرَجَاتِ ، وَالْمَصِيرِ إِلَيْهِ فِي الْفِرْدَوْسِ^(٧) الْأَعْلَى ، زَائِرًا لَا يُحْجَبُ فِي النَّظَرِ ، وَلَا يُؤَخَّرُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا يَعْجِبُنَاكُمْ إِسْلَامُ أَحَدٍ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا عُقْدَةُ عَقْلِهِ ؛ فَالْإِسْلَامُ ظَاهِرٌ ، وَعُقْدَةُ الْعَقْلِ بَاطِنٌ مُسْتَوْرٌ عَنِ الْخَلْقِ ؛ فَمَنْ اعْتَبَرَ بِمَا رَأَى مِنْ ظَاهِرِ الْإِسْلَامِ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ ، فَهُوَ مَغْبُونٌ^(٨) ، حَتَّى يَعْلَمَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ عُقْدَةُ^(٩) الْعَقْلِ ؛ فَوَاحِدٌ قَدْ فَتَحَ لَهُ الْبَابَ ، وَرَزَقَهُ الْعَقْلَ ، فَاطَّلَعَ مَطْلَعَهُ ، وَقَبَلَ مَا عَرَضَ عَلَيْهِ ثُمَّ وَلَا يَظْهَرُهُ ، وَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ مُكِبًّا عَلَى

(١) النجوى : السر ، ومحل نجواه : موضع سره .

(٢) المعدن : الأصل .

(٣) وجيهاً : ذو وجهة وحظ ومرتبة .

(٤) الدنو : والتداني أي القرب .

(٥) يير قسمه : يمضيه على الصدق ، فيكون قد بر به .

(٦) أمضى الشيء : نفذه .

(٧) الفردوس : الجنة وجمعها فراديس ، وأصل الفردوس : البستان يجمع كل ما في البساتين .

(٨) المغبون : المنقوص .

(٩) العقدة : العزم والهمة .

وَجْهٍ لِقَضَاءِ الشَّهَوَاتِ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا ، فَصَارَتْ عَقْدَةً عَقْلَهُ طَلَبُ
النَّهْمَاتِ وَأَحْوَالِ النَّفْسِ ، يَخَادِعُ اللَّهَ وَيَعْمَلُ فِي الْعُبُودَةِ بِالْجُرَافِ
وَالْغَفْلَةِ « وَالشَّايِذِبُودُ » عَلَى التَّجْوِيزِ^(١) ، وَيَتَمَنَّى الْكَرَامَاتِ عَلَى اللَّهِ
تَعَالَى وَمَعَالِي^(٢) الدَّرَجَاتِ ، وَيَعُدُّ تِلْكَ الْأَمَانِي مِنْ نَفْسِهِ رَجَاءً ،
وَيَقُولُ : أَرْجُو رَبِّي وَأُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِ ، وَإِنَّمَا^(٣) هُوَ أَمَانِي وَلَيْسَ بِرَجَاءٍ ؛
وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ^(٤) : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ . مَنْ
يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

مثل معرفة العامة

مَثَلُ مَعْرِفَةِ الْعَامَةِ مِثْلُ رَجُلٍ فِي يَدَيْهِ جَوْهَرَةٌ ، فَهُوَ مُتَحِيرٌ فِي
شَأْنِهَا ، لَا يَدْرِي مَا قِيمَتُهَا ؛ فَمَرَّةً يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا لَا تُسَاوِي إِلَّا دِرْهَمًا ،
فَلَا يَجِدُ فِي قَلْبِهِ كَبِيرَ فَرَحٍ ، وَلَا فِي نَفْسِهِ غَنَاءً^(٥) ، وَمَرَّةً يَأْمُلُ أَكْثَرَ مِنْ
ذَلِكَ ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ : إِنَّ هَذِهِ جَوْهَرَةٌ مِمَّا يُصَابُ بِهَا وَقُرٌّ^(٦) مِنَ الدَّنَانِيرِ
امْتِلَأْ سُرُورًا وَفَرَحًا ، وَانْبَسَطْتَ جَوَارِحُهَا ، وَاسْتَغْنَتْ نَفْسُهُ ، حَتَّى وَجَدَ
قُوَّةً بِالْغَنَاءِ^(٥) فِي جَمِيعِ جَسَدِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْلِكَ الدَّنَانِيرَ ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ

(١) التَّجْوِيزُ : الْإِجَازَةُ .

(٢) مَعَالِي الدَّرَجَاتِ : أَعْلَاهَا .

(٣) كَذَا وَرَدَ بِالْأَصْلِ .

(٤) النِّسَاءُ (٤ / ١٢٣) قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلَكِنْ مَا وَقُرَّ فِي
الْقَلْبِ وَصَدَقَهُ الْعَمَلُ ، إِنْ قَوْمًا أَلْهَتَهُمُ الْأَمَانِي حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَا حَسَنَةَ
لَهُمْ ، وَقَالُوا نَحْسَنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ، وَكَذَبُوا لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ بِهِ لِأَحْسَنُوا الْعَمَلَ . رَاجِعْ
صِفْوَةَ التَّفَاسِيرِ لِلصَّابُونِيِّ (٥ / ٣٠٦ ، ٣٠٧) .

(٥) الْغَنَاءُ : الْكَفَايَةُ وَالِاسْتِفْنَاءُ .

(٦) الْوَقْرُ : بِكَسْرِ الْوَاوِ ، حَمَلُ الْحِمَارِ أَوْ الْبَغْلِ وَفِي جَمِيعِ الْأَصُولِ [وَقُرَّ] وَهُوَ
تَحْرِيفٌ .

يُنْكَشِفَ لَهُ الْغِطَاءُ عَنْ شَأْنِهَا : ماذا يُصِيبُ بِهَا ؟ كان في قَلْبِهِ تَحِيرٌ ،
وفي نَفْسِهِ غَائِلَةٌ (١) ، وجوارِحُهُ مُنْقَبِضَةٌ .

قلوب العامة في معرفة ربهم

فكذا قلوبُ العامةِ في معرفة رَبِّهِمْ ، يزعمون أنهم يعرفون
رَبَّهُمْ ، وتلك معرفةُ التوحيد ، يُوحِّدُونَهُ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً ، وهم في
عَمَى مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ ؛ ولذلك قَدَّرَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُهْزِمَهُمْ هَزْأً عَنِ الْإِسْقَامَةِ
في أحوال النفوس ؛ وَلَهُوَ عَنِ الْوَاحِدِ الَّذِي وَحَّدَهُ رَبًّا .

وَمَنْ عَرَفَهُ مَعْرِفَةَ الْآلَاءِ (٢) ، ومعرفةَ المعروفات ، امتلأ قَلْبُهُ فَرَحاً
وَنَفْسُهُ غِنًى ، بمنزلة مَنْ دَخَلَ بَيْتاً مُظْلِمًا مُمْتَلِئاً دَنَانِيرَ ؛ فهو في تلك
الظُّلْمَةِ مُتَحِيرٌ ضَعِيفٌ ، فلما أَضَاءَ الْبَيْتُ أَبْصَرَ تِلْكَ الدَّنَانِيرَ الَّتِي فِي
الْبَيْتِ ، واستغنى استغناءً بحيث لَا يَضُرُّهُ مَا فَاتَهُ [٨٣] وما أُصِيبَ مِنْهُ
مِنَ الضَّرَرِّ وَالْمَصَائِبِ .

قال له قائل : وما مَعْرُوفَاتُهُ ؟

معروفات الله جل جلاله :

قال : جَلَالُهُ (٣) وَجَمَالُهُ ، وَعَظَمَتُهُ وَبِهَاوُهُ ، وَبَهْجَتُهُ (٤) وَرَحْمَتُهُ ،
وَسُلْطَانُهُ وَمَجْدُهُ ، وَمَنْنُهُ (٥) وَعَظْفُهُ ، وَغِنَاهُ وَسَعَتُهُ ، وَكَرَمُهُ وَرَأْفَتُهُ ؛ فَمَنْ

(١) غائلة : جمعها الغوائل وهي المصائب والغائلة الصداق بالראس .

(٢) الآلاء : النعم .

(٣) الجلال : العظمة .

(٤) البهجة : الإشراق .

(٥) مننه : نعمه وآلؤه .

عَرَفَ رَبَّهُ بهذه المعرفة امتلاً قَلْبُهُ فَرَحاً ، وَنَفْسُهُ غِنًى ، وَقَوِيَتْ جَوَارِحُهُ ، وَفُسِحَ ^(١) أَمَلُهُ ، وَعَظُمَ رَجَاؤُهُ ، وَاسْتَغْنَى بِغِنَى اللَّهِ ، وَتَوَسَّعَ فِي سَعَةِ اللَّهِ ، وَاجْتَمَعَتْ هِمَمُهُ ، وَصَلَبَ إِيمَانُهُ ، وَاسْتَقَامَ هُدَاهُ ، وَثَبَتَ رُكْنُهُ ، وَوَفَّى ^(٢) إِسْلَامُهُ ، وَصَدَقَتْ عُبُودَتُهُ ، وَشَرُفَ ذِكْرُهُ فِي الْعَلَا ، وَنَبَلَ جَاهُهُ ، وَكَانَ مِنَ الْمُخْتَصِّينَ بِرَحْمَتِهِ ، الْمَهْدِيِّينَ بِوَلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

وهذه المعروفات كلها في حَظِّ النفس ، فمتى لم تَعْرِفِ النفسُ رَبَّهَا بهذه الصفات فهي متَحِيرَةٌ فَقِيرَةٌ خَامِلَةٌ مُغْتَرَّةٌ ذَابِلَةٌ .

مثل موت واحد من المؤمنين

مَثَلُ مَوْتِ وَاحِدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِثْلُ شَهَادَةِ شَهِدَا عِنْدَ الْحَاكِمِ فَنَقَصَ مِنْ عَدَدِهِمْ وَاحِدٌ ، إِمَّا بِرُجُوعٍ أَوْ بِغَيْبَةٍ مِنْهَا ، وَإِمَّا بِرُجُوعِهِ عَنْهَا ، فَكَلِمَا نَقَصَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ زَادَ الْوَهْنَ ^(٣) فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ خَلَقَ الْآدَمِيَّ ، وَأَحَلَّهُ مَحَلًّا لَمْ يَحِلَّهُ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَسَخَّرَ لَهُ ^(٤) مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَسَمَّاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فِي تَنْزِيلِهِ ، ذَلِكَ الْإِسْمَانِ عَلَى مَحَلِّهِ ؛ أَحَدَهُمَا الْآدَمِيَّ ، وَالْآخَرَ حَبِيبَ .

فَأَمَّا آدَمُ فَهُوَ الْوَصْلُ ، يُقَالُ فِي اللُّغَةِ : آدَمَنِي أَيَّ وَصَلَنِي ، وَكَذَا سُمِّيَ الْإِدَامُ إِدَامًا ، أَيَّ يُوصِلُ ذَلِكَ الْخُبْرَ .

(١) فسح : اتسع وطال .

(٢) وفى إسلامه ، تم وكمل .

(٣) الوهن : الفتور والضعف .

(٤) سخر له : ذلل وروض له .

وَرُوي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ كِسْرَةَ (١) خُبْزٍ بِيَمِينِهِ وَتَمَرًا بِشِمَالِهِ ، فَأَكَلَهُمَا ، وَقَالَ : هَذِهِ إِدَامُ هَذِهِ ؛ أَيُّ هَذِهِ التَّمَرَةُ وَصَلَةٌ بِهِذِهِ الْكِسْرَةُ .

فَادَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَقَرَّبَهُ بِيَاءِ الْوُصْلَةِ ، فَقَالَ : خُلِقْتَ بِيَدِي ؛ وَالْبَاءُ لِلْوَصْلِ ، وَسَمَّاهُ آدَمَ فِي تَنْزِيلِهِ ، وَسَمَّى أَوْلَادَهُ آدَمِيِّينَ بِهَذَا الْاسْمِ ، فَقَالَ (٢) : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ ؛ ثُمَّ سَمَّاهُ إِنْسَانًا ، وَسَمَّى أَوْلَادَهُ النَّاسَ ، فَقَالَ (٣) : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ ، لِأَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ مِنَ الطِّينِ أَنْسَ (٤) بِهِ وَبِقُرْبِهِ ، فَبَقِيَ تِلْكَ الْإِنْسِيَّةُ فِينَا ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلَادِهِ - بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ - إِلَّا يَأْنَسُ بَرَّهُ فِي الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ ، وَإِلَيْهِ يَلْجَأُ ، وَإِلَيْهِ يَقْزَعُ (٥) ، وَيَذْكُرُهُ يَأْنَسُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأُمُورِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ إِذَا وَجَدَ بُغْيَتَهُ (٦) ، وَأَدْرَكَ نَهْمَتَهُ (٧) مِنْ حَالِهِ ، اشْتَغَلَ بِالْحَاجَةِ وَالْبُغْيَةِ ، وَلَهَا عَنْهُ إِلَّا عَصَابَةً (٨) مِنَ الْمَوْحِدِينَ .

أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى :

وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ عَجَنَ طِينَتَهُمْ بِحُبِّهِ ، فَأَشْرَبَتْ قُلُوبُهُمْ (٩)

(١) الكسرة من الخبز : القطعة منه .

(٢) الأعراف (٧ / ٢٦) راجع القرطبي (٧ / ١٨١) والطبري (١٢ / ٣٥٥) .

(٣) الحجر (١٥ / ٢٦) .

(٤) أنس به : سكن إليه واطمأن إلى جانبه .

(٥) يقزع : يلجأ .

(٦) البغية : المراد والطلبية .

(٧) نهمة : شهوة ومطلب .

(٨) عصابة : وعصبة بمعنى جماعة .

(٩) أشربت قلوبهم حبه : خالط حب الله حبات قلوبهم .

حُبِّهِ ؛ فهم الذين بُغِيَتْهُمْ في الدَّارين مولاهم وخَالِقُهُم ومليْكُهُم ، قد ملك حُبَّهُ قُلُوبَهُم ، ولا يَقْدِرُ شَيْءٌ دُونَهُ أَنْ يَمْلِكَهُمْ .

طائفة أخرى :

فَأَمَّا مَنْ ^(١) دُونَهُمْ من المؤمنين فطائفةٌ منهم أَقَرَّتْ بتوحيده ، وَقَبِلَتْ العُبُودَةَ صِدْقاً من قلوبهم ، ثم ملكَتْهُمْ نفوسُهُم الشَّهَوَانِيَّةَ حَتَّى خَلَطُوا العِبُودَةَ ؛ فَمَرَّةً تَزِلُّ قَدَمَهُ ^(٢) ، ومَرَّةً تَثْبُتُ ؛ فتراه في جميع أَمْرِهِ مَرَّةً مُطِيعاً ، ومَرَّةً عَاصِياً ؛ مَرَّةً لَاهِياً ، ومَرَّةً مُقْبِلاً .

وطائفة نافرة :

وطائفة منهم نَفَرَتْ نَفَرَةً مُنْكَرَةً ، وَأَذْبَرَتْ ^(٣) عن عِبَادَتِهِ ، وَأَقْبَلَتْ على عِبَادَةِ مَنْ دُونِهِ ؛ مِنْ الشَّمْسِ والقَمَرِ وسَائِرِ ^(٤) المخلوقين ؛ وَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ تَعَالَى فِي مُلْكِهِ .

الثابت على التوحيد :

فَمَنْ ثَبَتَ على توحيده ، وقبل ما جاء به الرسول عليه السلام ، سَمَاءَهُ مُؤْمِناً وَمُسْلِماً ، وتائباً وعابِداً ، وحامِداً وصائماً ، وراكعاً وساجداً ، وشاكراً وصابراً ، وَمُحْتَسِباً ^(٥) ، وخالصاً وولياً .

(١) الدون : من هو أدنى وأقل مرتبة وأحط درجة .

(٢) تزل قدمه : لا تثبت .

(٣) أذبرت : رجعت

(٤) سائر : باقي .

(٥) المحتسب : هو البدار إلى طلب الأجر بالتسليم والصبر . وقيل أيها أعظم الشكر على النعماء أم الصبر على البلاء ، وقال أحد الصالحين : لأن أعافى فأشكر ، أحب =

المذبر الذي ركب بعض شهواته :

وَمَنْ أَذْبَرَ بِالْكَلِيَّةِ سَمَاءَهُ مُفْسِداً وَكَافِراً .

ومن رَكَبَ بَعْضَ شهواتِهِ وَقَلْبُهُ معه ، سَمَاءَهُ ظالماً لِنَفْسِهِ مِخْلَطاً^(١) ؛
ثم ذكر في تنزيله : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ؛ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .
وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . وَيُحِبُّ الشَّاكِرِينَ ، وَيُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، وَيُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ . وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

وقال في حقِّ المذبرين : إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ . لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ . لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

فسمَّانا في تنزيله أَجْبَاءَ مع جميع هذه الأسماء التي هي محاسن
الأخلاقِ مِنَّا . فَخَلَقَ هَذَا الْخَلْقَ كُلَّهُ عُلُواً وَسُفْلاً ، وَخَلَقْنَا مِنْ قَبْضَةٍ مِنْ
تُرَابٍ ، فَوَضَعْنَا فِيهَا بَيْنَ هَذَيْنِ سَبْعَةَ أَطْبَاقٍ مِنْ فَوْقَ ، وَسَبْعَةَ أَطْبَاقٍ مِنْ
تَحْتِ ؛ وَالْأَطْبَاقُ الْمَرْفُوعَةُ مِنْ فَوْقَ مَعْلَقَةٌ بِالرَّحْمَةِ ، وَالْأَطْبَاقُ مِنْ تَحْتِ
مَوْضُوعَةٌ عَلَى الْهَبَاءِ^(٢) .

في بيان الهباء :

قال له قائل : ما الهَبَاءُ ؟ قال : غُبَارُ الثَّرَى^(٣) .

= إلي أن أبكي فأصبر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب معك
العافية » .

(١) المخلط : الذي يلبس الأمور على السامعين والناظرين فيشق عليهم تبين الحقيقة من
غيرها .

(٢) الهباء : دقائق التراب ، وهو الشيء المنبث الذي يرى في ضوء الشمس .

(٣) الثرى : التراب .

وجعل الطبَقَ الأعلى الذي نَحْنُ عليه لنا بِسَاطاً ، وَزَيْنَ لنا هذا
 البِسَاطَ بِألوانِ الزينة من الذَّهَبِ والفضة ، من الجِبَالِ والجَوَاهِر ،
 والبحار والنبات ، من القِفَار^(١) ؛ ذات ألوان من المَطَاعِمِ والمَشَارِبِ ،
 والملابس والمَشَامِ ، وسائر المنافع ، والدوابِّ وسائر الحيوان^(٢) ؛ ثم
 بسط على هذا البِسَاطِ بساطَ العُبُودَةِ ، مِنَ الذُّكْرِ والْقِيَامِ ،
 والرُّكُوعِ والسجود ، والصيامِ والصَّدَقَةِ . والحجِّ والجِهَادِ ، وسائر أعمال
 البر والطاعات ، ثم بسط على هَذَيْنِ البساطَيْنِ بساطاً آخر ؛ وهو بساطُ
 الرُّبُوبِيَّةِ والتدبير ؛ ثم أَقَامَنَا مَعَاشِرَ وَلِدِ آدَمَ على بساطِ الهَبَاءِ ، ودَعَانَا
 إِلَى دَارِ مُلْكِهِ ، ودارِ السَّلامِ فِي جَوَارِهِ ، ودارِ القَرَارِ ، ودارِ السُّكُونِ ،
 ودارِ السُّرُورِ ؛ وقد نَشَرَ بِسَاطَ العُبُودَةِ على بساطِ الزَّيْنَةِ ؛ فكلما قَطَعْنَا
 مِنْ بِسَاطِ العُبُودَةِ شِبْرًا ، وَتَخَطَّيْنَاهُ ، وَطَوَيْنَاهُ حَتَّى نَنْتَهِيَ إِلَى الأَجَلِ
 الَّذِي أُجِّلَ^(٣) لَنَا ، وَالْوَقْتِ الَّذِي وُقِّتَ لَنَا ، فدَعَانَا اسْمًا اسْمًا دَعْوَةً لَا
 يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَمْتَنِعَ مِنَ الإِجَابَةِ ، وقد طَوَى مِنْ بِسَاطِ العُبُودَةِ مَا
 طَوَى ، فَتَلَقَّى اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي تِلْكَ العَرَضَةِ يَوْمَ المَوْقِفِ بَيْنَ يَدَيْهِ .

من أراد الله به خيراً :

فمن أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا قَذَفَ فِي قَلْبِهِ نُورًا أَحْيَا قَلْبَهُ بِهِ ، فَفَتَحَ
 عَيْنِي فَوَّادِهِ فِي صَدْرِهِ ، ثُمَّ أَشْرَقَ فِيهِ نُورُ التَّوْحِيدِ حَتَّى أَنَارَ قَلْبَهُ
 وَأَضَاءَ ، ثُمَّ أَعْطَاهُ نُورَ العَقْلِ حَتَّى بَانَ لَهُ أَمْرُ العُبُودَةِ ، فَقَبِلَهَا عَنْ
 رَبِّهِ ، إِنَّمَا يَأْتِمِرُ^(٤) بِجَمِيعِ مَا يَأْتِيهِ عَنِ اللَّهِ ، وَيَنْتَهِي عَنْ جَمِيعِ مَا نَهَاها

(١) القفار : الصحارى .

(٢) الحيوان : الكائنات الحية .

(٣) أجل الشيء : جعل له أجلاً ووقتاً ومدة .

(٤) يأتِمِر : يسمع ويطيع .

الله تعالى عنه ، ثم اقتضاه الوفاء بذلك ؛ فوقع العبد في كدٍّ ومُجَاهِدَةٍ
النَّفْسِ الشَّهَوَانِيَةِ ، والعدوِّ الحاسد ، والهوى المُرْدِي (١) ؛ فلم يزل
العبدُ يَتَشَمَّرُ (٢) لذلك ويَجْتَهِدُ ، وَيُدَاوِمُ على ذلك ، وَيُقَاسِي غُمومه
وَعُسْرَه ، ويتضرَّعُ إِلَى الله تعالى ويستغيثُ به حتى يَرْحَمَه ؛ فأجابَ
دَعْوَتَه ، فَأَيَّدَهُ بِرُوحٍ مِنْهُ .

فلما جاءت تلك الأنوارُ على قَلْبِه سقط عنه الجهد ، واستراح من
المُجَاهَدَةِ ؛ وذلك قوله تعالى (٣) : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ .

فجعله ولياً مِنْ أَوْلِيَائِهِ ، وخليفةً من خُلَفَاءِ أَرْضِهِ ، وإماماً من أئِمَّةِ
الهُدَى ، وَحَبِيباً مِنْ أَحْبَابِهِ ؛ وذلك قوله تعالى (٤) : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ .

فالمرحوم صِفَتُهُ ما ذَكَّرْنَا ، وَمَنْ سَقَطَ عن هذه الصِّفَةِ فهو مَرْحُومٌ
أَيْضاً بِالتَّوْحِيدِ ، حيث أَنْقَذَهُ مِنَ الشِّرْكِ ، وَمَنْ عَلَيْهِ بهداية التوحيد .
وقال (٥) : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

فلما خلقَ الله تعالى [٨٤] هذا الخلقَ ، ابتدأَ خَلَقَ هذه القَبْضَةَ

(١) المردى : المهلك ، من الردى وهو الهلاك .

(٢) شَمَّرَ في عبادته : إذا اجتهد فيها ، وراض نفسه عليها .

(٣) النمل (٢٧ / ٦٢) والمضطر هو المجهود المكدود ذو الضرورة . ويكشف السوء :
يزيل الجور والضمير والضير .

(٤) يوسف (١٢ / ٥٣) راجع تفسير القرطبي (٩ / ٢١٠) والصابوني (١٣ / ٦٥٣) .

(٥) النور (٢٤ / ٣٥) راجع تفسير الطبري (١٨ / ١٠٩) والقرطبي (١٢ / ٢٣١)
واللسان (١ / ٦٦) .

من تُرَاب ، شَهِدَ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَشَهِدَتِ الْمَلَائِكَةُ
بِذَلِكَ ، وَشَهِدَ أُولُو الْعِلْمِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ بِذَلِكَ ، ثُمَّ أُنَارَ شَهَادَتَهُ فِي
قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى شَهِدُوا عَلَى شَهَادَتِهِ ، عَالِمِينَ بِالشَّهَادَةِ مُؤَقِّنِينَ
بِهِ ، عَالِمِينَ بِالْمَشْهُودِ لَهُ ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ^(١) : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . فَهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ أَهْلُ رَحْمَتِهِ ، وَأَهْلُ رَأْفَتِهِ وَأَحْبَابُهُ ،
سَابِقُهُمْ وَمُقْتَصِدُهُمْ ^(٢) وَظَالِمُهُمْ .

السابق والمقتصد والظالم :

فَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ ظَالِمًا كَانَ أَوْ مُقْتَصِدًا أَوْ سَابِقًا فَكُلُّهُمْ حَبِيبُ اللَّهِ
وَمَأْثُورُهُ ، وَمُخْتَارُهُ وَمَرْحُومُهُ ، وَمَرْوُوفُهُ وَمُؤَحَّدُهُ ، وَشَهِيدُهُ فِي
الْأَرْضِ ^(٣) ؛ فَمَتَى مَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَقَدْ نَقَصَ مِنْ أَهْلِ شَهَادَتِهِ شَهِيدٌ
فَقَدْ حُلَّ بِعُقْدَةِ الْوَهْنِ ^(٤) فِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالْجِبَالِ
وَالْبَحَارِ ، وَالشَّجَرِ وَالِدَوَابِّ ، وَالْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ ؛ وَالْكُلُّ إِنَّمَا اسْتَقَرَّ

(١) الزخرف (٤٣ / ٨٦) يقول المفسرون : المراد بـ (من شهد بالحق) عيسى وعزير
والملائكة ، فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله سبحانه وتعالى ، فهؤلاء تنفع
شفاعتهم للمؤمنين ، وإن كانوا قد عبدوا من دون الله .

راجع الصابوني (٢٥ / ١٣٣٠) بتصرف ، وراجع تفسير الآية الشريفة في
الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٢٣) ومختصر ابن كثير (٣ / ٢٩٨) .

(٢) المقتصد : المؤمن العاصي والسابق : التقي ، والظالم لنفسه : الكافر أو الفاسق أو
المشرك .

(٣) قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ
عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ، ذَلِكَ
هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ الآية ٣٢ من سورة فاطر . ثم قال صلى الله عليه وسلم : -
« سَابِقْنَا سَابِقٌ ، وَمُقْتَصِدُنَا نَاجٍ ، وَظَالِمُنَا مَغْفُورٌ لَهُ » -

(٤) الوهن : الفتور والضعف .

على الأرض بتوحيد الموحدين ؛ وذلك قول الله تعالى^(١) : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

وروي في الخبر أن الله تعالى قال : يا موسى ؛ لَوْلَا مَنْ يُوحِّدُنِي لَسِلْتُ جَهَنَّمَ عَلَى الْكَافِرِينَ سَيْلاً .

وإنما دَخَلَ الْوَهْنَ عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ رُفِعَ مِنَ الْأَرْضِ . انقطعت حصَّته^(٢) من الرحمة ، وانقطع مدَّه من البركة .

فإذا افتقدت^(٣) السموات والأرض الرحمة الدائرة من العليِّ إلى العبد ، والبركة المنتشرة في أحوال العبد وأموره ، بكت السموات والأرض .

وإذا افتقدت العبودة السموات والأرض وَمَنْ عَبَدَهُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وأنوار الطاعات المنتشرة من العبد إلى الله تعالى في جَوْ السَّمَاءِ بَكَّتْ لِفَقْدِهِ .

مثل المتكِّل على ماله

مَثَلُ الْمُتَكَلِّلِ عَلَى مَالِهِ مَثَلُ عَبْدٍ أَعْطَاهُ مَوْلَاهُ رَأْسَ مَالٍ لِيَتَصَرَّفَ وَيَتَجَرَّ ، والربح للعبد ؛ فضرِبَ الْعَبْدُ بِهَذَا الْمَالِ يَمِيناً وَشِمَالاً ،

(١) البقرة (٢/ ٢٥١) .

(٢) الحصّة : النصيب .

(٣) وردت بالمطبوعة [افتقدت] وهو تصحيف .

وتصرف في أنواع التِّجارات والبضائع ، فباع واشترى ؛ فصار هذا المال كله نسيئة^(١) . وإذا نظر في الديوان^(٢) رأى أنَّ على فلان كذا وعلى فلان كذا ، وعلى فلان كذا ؛ فتجمع ألف أضعاف رأس المال ، كلها نسيئة ؛ فإذا كان أحق^(٣) طابت نفسه بالآلاف التي يُحصيها واتكل عليها ، ولا ينظر إلى ما تحصل له في يده ، فكم من غريم^(٤) بايعته على الوفاء ، وهو عندك ملي^(٥) ؛ فإذا أتى على ذلك مدة ظهر إفلاسه ، ولوى^(٦) ما عليه ، فلم يحصل له منه إلا كتابة اسمه في ديوانك ، وتقدير ما عليه حساباً ؛ وربما يحصل منه شيء وذهب شيء فأنت على غير ثقة من غرمائك حتى تقبض منه ، وتنقد بعض القبض وتستيقن بأنها خيار تنفق^(٧) في كل سوق إلا في سوق الوضح^(٨) التي لا تباع ولا تشتري إلا بالدرهم الوضح^(٩) .

فالعبد المؤمن قد أعطاه الله تعالى رأس المال ، وهو الإيمان والتوحيد ، وأمره أن يتجر بأنواع من الطاعات وأعمال البر ، والأرباح لك ، لتنفق على نفسك يوم فقرك ؛ فإذا أتجر وربح من الصوم والصلاة والزكاة والحج وسائر^(١٠) أعمال البر ؛ فهذه الأعمال كلها كأولئك الغرماء

(١) نساء : أخره وأجله . (٢) الديوان : ما يقيد فيه الديون على الناس .

(٣) الحق والحماقة : فساد العقل واعتلال الفهم .

(٤) الغريم : المدين .

(٥) المليء : الغني المتمول .

(٦) لوى ما عليه : أنكره .

(٧) تنفق : تروج .

(٨) الوضح : حلي من الفضة .

(٩) الوضح : هي الدرهم الصحيح .

(١٠) سائر أعمال البر : الباقية .

الذين يَرْجُو أَرْبَاحَهُم التي رَبِحَ على رَأْسِ مَالِهِ ، أي أعمال الطاعات كلها ، رِبْحُ التوحيد ، والتوحيد رَأْسُ المالِ لا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا بِهِ ، ومنه يخرج رِبْحُ الْمُؤْمِنِ ؛ لِأَنَّهُ لم يَتَيَّنَ القَبُولَ فهو على غَرَرٍ^(١) مِنْهُ ، فَإِذَا اتَّكَلَ على هذه ، وَحُوسِبَ يَوْمَ الحِسَابِ ، وَحُصِّلَ ما في الصُّدُورِ^(٢) ، وَطُوْلِبَ بالصَّدَقِ والإِخلاصِ منها ، فلم يوجَدَ في كثيرٍ منها الصَّدَقُ والإِخلاصُ ، فَرَضِيَ بذلك العملِ ؛ فكان كهذا الغَرِيمِ^(٣) الذي ظَهَرَ هاهنا إِفْلَاسُهُ ، فلم يَنْلَ مِنْهُ رِبْحاً ، وَخِيفَ على رَأْسِ مَالِهِ أَيْضاً ؛ لِأَنَّهُ عَمِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ تعالى ، واستهزأ بِأَمْرِ اللَّهِ تعالى ، وآثَرَ^(٤) دُنْيَاهُ وَهَوَى نَفْسِهِ على مَحْبُوبِ اللَّهِ تعالى ومختارِهِ ؛ فهذا كهؤلاءِ الغُرَمَاءِ الَّذِينَ ظَهَرَ هاهنا إِفْلَاسُهُمْ ، فلم يَبْقَ في أَيْدِيهِمْ إِلَّا دِيوَانُ الكُتْبَةِ .

فَالْعَبْدُ إِنْ كَانَ كَيْساً^(٥) يَبِيعُ وَيَشْتَرِي نَقْداً بِرِبْحٍ يسيرٍ ؛ لِأَنَّ الْيَسِيرَ من الرِّبْحِ مع قِيَامِ رَأْسِ المالِ خَيْرٌ من الرِّبْحِ الكثيرِ مع هلاكِ رَأْسِ المالِ ؛ أَوْ إِذَا بَاعَ نَسِئَةً يَأْخُذُ بِالثَّقَةِ ، وَعَامَلَ الْغُرَمَاءَ بِالْوَثَاقِ ؛ إِمَّا الرُّهْنُ أَوْ الْكَفَالَةَ^(٦) على مِليءٍ^(٧) ؛ وَاسْتَقْصَى^(٨) النَّظَرَ ، ثُمَّ لم يُقْنِعْهُ ذَلِكَ فهو أَبَدًا خَائِفٌ من أَنْ يَضِيعَ رَأْسُ المالِ وَرُبَّمَا غَرِقَ في الرِّبْحِ لِلنَّسِئَةِ ؛ ومع ذلك الْخَطَرُ باقٍ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ربما يَهْلِكُ الرُّهْنُ فيهلك

(١) الغرر : مجهول الباطن ذو الظاهر المغري باقتنائه .

(٢) حصل ما في الصدور : تميز ما فيها من الخير والشر .

(٣) الغريم : المدين .

(٤) آثر : فضل .

(٥) الكيس : الفطن اللبيب .

(٦) الكفالة : الضمان .

(٧) مليء : غني .

(٨) استقصى النظر : أرسله طويلاً وأمعن فيه .

بما فيه مِنَ الدِّينِ ، أَوْ يَمُوتَ الْكَفِيلُ ، أَوْ يَغِيبَ غَيْبَةً مَنْقُطَةً ؛ فَيَهْلِكُ مَالُهُ .

فَكَذَا مَنْ عَامِلٌ فِي الطَّاعَاتِ وَوَقَعَ فِي الْأَهْوَاءِ ؛ مِثْلَ الْقَدَرِيَّةِ ، وَالْجَبَرِيَّةِ ، وَالْمُعْطَلَةِ ، وَالْمُشَبَّهَةِ ؛ فَغَرِقَ رَأْسُ مَالِهِمْ فِي أَرْبَاحِهِمْ ؛ فَصَارَتْ كُلُّهَا نَسِيئَةً مِنْ غَيْرِ ثِقَةٍ وَلَا مَلَأَةٍ ^(١) .

فَالْكَيْسُ لَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ : إِنِّي لَا أَبَايَعُ وَلَا أُتَاجِرُ أَحَدًا إِلَّا بِرَهْنَةٍ وَكَفِيلٍ ^(٢) وَوَثَاقٍ ؛ فَالْقَلِيلُ مِنَ الرِّبْحِ مَعَ وَفَارَةٍ رَأْسِ الْمَالِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْأَرْبَاحِ مَعَ تَضْيِيعِ رَأْسِ الْمَالِ ؛ فَإِذَا الْمَالُ وَالْأَرْبَاحُ قَدْ ذَهَبَتْ كُلُّهَا ؛ لِأَنَّهَا صَارَتْ فِي غَيْرِ مَلَأَةٍ وَلَا ثِقَةٍ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَرْبَاحَ كُلُّهَا عَلَى خَطَرٍ ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَفِيلُهُ ثِقَةً مُجَانِبَ الْأَهْوَاءِ .

وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ وَتَقَوَّى مِنَ الْإِسْتِمَاعِ إِلَى كَلَامِهِمْ ؛ فَإِنَّهُ كُلُّهُ هَلَاكٌ وَتَوَى ^(٣) ؛ وَالزَّمَّ السَّوَادَ ^(٤) الْأَعْظَمَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الشَّرْعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَاتَّبَعَ سَبِيلَهُ ^(٥) ؛ فَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى فِي تَنْزِيلِهِ بِذَلِكَ ؛ فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ ^(٦) : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ^(٧) .

(١) الملاء : جمع مليء وهو الغني .

(٢) الكفيل : الضامن .

(٣) توى : هلاك .

(٤) السواد : جماعة الناس ومعظمهم .

(٥) السبيل : الطريق .

(٦) الأحزاب (٣٣ / ٢١) راجع مختصر ابن كثير (٣ / ٨٩) .

(٧) الأسوة : القدوة .

فَالْأَسْوَةُ الْحَسَنَةُ اتَّبَاعُ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَسُنَنِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ الَّذِينَ قَضَوْا بِالْحَقِّ ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١) .

وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته : إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلَافاً كَثِيراً ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ (٢) .

فَاتَّكَالَ الْكَيْسُ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَعْطَى مِنْهَا رَأْسَ الْمَالِ ، فَتَلَكَ رَهِينَتَهُ (٣) وَوَثِيقَتَهُ ؛ وَحُسْنُ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى كَفِيلُهُ ، فَأَوْفَرَهُمْ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ أَقْوَاهُمْ كَفِيلاً ، وَأَمْلَوْهُمْ أَدَاءً وَمُقْتَضِيهِ مِنْ غُرْمَائِهِ دَعَوَاتِهِ وَتَضَرُّعُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

فَعَلَيْكَ بِحِفْظِ الرِّهْنِ لئَلَّا يَهْلِكَ فَتُذْهَبَ بِدَيْنِكَ ؛ وَاحْبِسِ الْكَفِيلَ لئَلَّا يَغِيبَ فَيُذْهَبَ بِمَا عَلَيْهِ ؛ وَعَلَيْكَ بِالتَّقَاضِي (٤) كُلِّ يَوْمٍ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالبُكَاءِ بِالنِّيَّاتِ الْخَالِصَةِ لِتُجَابَ .

مثل حركات المؤمنين

مَثَلُ حَرَكَاتِ الْمُؤْمِنِ مَعَ الْحَفَظَةِ مَثَلُ رَجُلٍ لَهُ حُرَفَاءُ (٥) فِي

(١) يعدلون : ينصفون في الحكم فيقضون بالعدل .

(٢) النواجذ : الأسنان التي تبدو عند الضحك ، أو أقصى الأسنان .

(٣) رهينة : مرهونة .

(٤) بالنقاض [أ] ولعله تصحيف .

(٥) حرفاء : جمع حريف وهو المعامل .

السُّوقِ ، يُنْفِقُ مَالَهُ فِيمَا يَظْهَرُ فِيهِ حَاجَةٌ مِنَ السُّوقِ ، يَأْخُذُ مِنَ الْخُبَازِ الْخُبْزَ ، وَمِنَ الْقَصَّابِ (١) اللَّحْمَ ، وَمِنَ الْبُقَالِ الْحَوَائِجَ ، وَمِنَ الْآخَرِ الْفَوَاكِهَ [٨٥] ، وَمِنَ الْبَزَّازِ (٢) مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، فَهُمْ يَكْتُبُونَ حِسَابَهُمْ ، فَإِذَا أَهْلٌ (٣) الْهَلَالُ ، وَأَخْرَجُوا عَلَيْهِ حِسَاباً جَمّاً (٤) وديواناً (٥) طَوِيلًا ، فَإِنْ قَضَى (٦) مَا عَلَيْهِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ شَهْرٍ تَخَفُّ عَلَيْهِ الْمُؤُونَةُ (٧) ، وَهِنَتْ لَهُ النُّعْمَةُ ؛ وَإِنْ تَغَافَلَ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى تَوَالَتْ (٨) عَلَيْهِ وَظَائِفُ الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ غَرِقَ فِي الدِّينِ .

كَذَا الْعَبْدُ بَيْنَ نِعَمٍ كَثِيرَةٍ ، وَدُيُونٍ كَثِيرَةٍ ، وَالْحَقُّ يَقْتَضِيهِ شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَالْعَدْلُ يَقْتَضِيهِ الْإِسْتِغْفَارُ وَالْإِنَابَةُ (٩) مِنْ كُلِّ خَطِيئَةٍ . فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مُنْتَبِهاً حَيَّي الْقَلْبِ أَخَذَ لِكُلِّ نِعْمَةٍ حَمْدًا ، وَلِكُلِّ خَطِيئَةٍ تَوْبَةً وَاسْتِغْفَارًا ، حَتَّى تَخَفُّ عَنْهُ السَّيِّئَاتُ وَأَثْقَالُ النُّعَمِ ، وَيَمَّحِيَ مَا فِي الدِّيَّانِ .

وَإِنْ تَغَافَلَ عَنْ ذَلِكَ ، وَحَمِدَ حَمْدَ الْغَافِلِينَ ، وَاسْتِغْفَرَ اسْتِغْفَارَ السَّكَارَى عَلَى الْعَادَةِ ، خَرَجَ الْحَمْدُ وَالْإِسْتِغْفَارُ مِنْهُ ، وَلَمْ يَجِدْ

(١) القصاب : الجزار ، ويقال قصبه إذا قطعه .

(٢) البزاز : الذي يبيع البز وهو نوع من الثياب .

(٣) أهل : ظهر .

(٤) جمًا : كثيرًا .

(٥) الديوان : الصحف المجتمعة المكتوب فيها الديون والحساب .

(٦) قضى : أدى ، من القضاء .

(٧) المؤونة : الحمل والثقل .

(٨) توالَتْ : تتابعت .

(٩) الإنابة : الرجوع .

مَسَاغًا^(١) ؛ لَأَنَّهُ لَيْسَ بِقَلْبِهِ طَرِيقٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَالطَّرِيقُ مَسْدُودٌ
بِالْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ ، رَجَعَ الْحَمْدُ وَالِاسْتِغْفَارُ إِلَى فَمِهِ ، وَتَرَاكَمَتِ الْأَنْقَالُ
النَّعْمِ وَأَدْنَسَ الذَّنُوبُ عَلَى الْقَلْبِ فُغِرْقَتَهُ ، فَصَارَ الْقَلْبُ غَرِيقًا فِي
الذَّنُوبِ كَالَّذِي ضَرَبْنَا لَهُ فِي الْمَثَلِ ، وَكَالَّذِي يَغْرُقُ فِي الْمَاءِ وَلَمْ يَجِدْ
مَتَعَلِّقًا بِهِ وَلَا تَخْلَصًا يَحْصُلُ بِهِ الْخِلَاصُ فَيَغْرُقُ وَيَهْلِكُ فَيَرْجِعُ إِلَى
أَنْفَاسِهِ لَا يَجِدُ مَتَنَفِّسًا فَيَمُوتُ غَرَقًا . وَمَنْ كَانَ لِقَلْبِهِ طَرِيقٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
وَجَدَ حَمْدَهُ وَاسْتِغْفَارَهُ مَسَاغًا إِلَى مَحَلِّ^(٢) الْحَمْدِ وَالِاسْتِغْفَارِ ؛ فَوَقَعَتْ
فِي مَحَلِّهِ وَمَرَّتَبَتِهِ ؛ فَخَفَّتْ عَلَيْهِ الْأَنْقَالُ ، وَصَارَ كَنَهْرٍ وَجَدَ مَسَاغًا ؛
فَجَرَى بِسَلَاةٍ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَسَاغًا تَرَاوَجَ الْمَاءُ فَصَارَ بَحْرًا يَغْرُقُ فِيهِ
صَاحِبُهُ .

مثل العمال بطاعة الله

مَثَلُ الْعُمَالِ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَثَلُ مَلِكٍ لَهُ عَبِيدٌ اخْتَارَهُمْ لِلْخِدْمَةِ
بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى مَرَأَى الْعَيْنِ ، فَمَنْ اسْتَحْلَى مِنْهُمْ خِدْمَتَهُ يَظْهَرُ ذَلِكَ فِي
حَلِيَّتِهِ وَكِسْوَتِهِ ، فَوَاحِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي قُرْطُقٍ^(٣) وَاحِدٍ وَمِنْطَقَةٍ^(٤) ، وَغَيْرُهُ
يَذُرُّجُ^(٥) بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى قَدَمَيْهِ .

(١) المساغ : السهولة والقبول .

(٢) محل الحمد : مجال وموضع الحمد .

(٣) القرطق : لبس ، وقرطقته : ألبسته ، ويجمع على قرطاق .

(٤) المنطقة : كل ما يشد به الوسط ويسمى أيضاً النطاق ، وبذلك سميت أسماء ذات
النطاقين ، إذ كان لها نطاقان .

(٥) يدرج : يمشي .

وآخر مع قراطق كثيرة ، بَعْضُهَا على بَعْض ، مِنْ بَيْنِ دِيبَاجٍ
وَحَرِيرٍ وَسَاجٍ^(١) ، لَوْنٌ على لَوْنٍ ، وَمِنْطَقَةٌ ذَهَبٌ فِيهَا فُصُوصٌ
وجواهر ، كُلُّ فَصٍّ لَهُ ثَمَنٌ نَفِيسٌ وَإِكْلِيلٌ كَمِثْلِهَا ، وَيَدِيهِ ضَبَائِرُ^(٢) الرِّيحَانِ مِنْ
كُلِّ لَوْنٍ مِنَ الْوَرْدِ وَالْبَانِ وَالْيَاسْمِينِ ، يَفُوحُ^(٣) مِنْهُ رِيحُ الْمِسْكِ .

فَعَيْنُ هَذَا الْمَلِكِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْخَادِمِ ؛ فَإِذَا سَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَارَ
عَلَى مَوَكِبِهِ بِحَرَسِهِ وَلَوَائِهِ .

فَإِنَّمَا نَالِ هَذِهِ الرُّتَبَةَ وَالْمَحَلَّ وَالتَّمَكِينَ ؛ لِأَنَّهُ اسْتَحْلَى صُورَتَهُ
وَخَلَقْتَهُ ، وَهَيَّئَتْهُ وَخِدْمَتَهُ ، وَأَدَبَهُ وَكَيَّاسَتَهُ ، وَظَرَفَهُ ، وَمَحَاسِنَ أَعْمَالِهِ ،
وَطَهَارَةَ خُلُقِهِ ، وَلَوْ كَانَ دَمِيمًا فِي خَلْقَتِهِ ، سَمِجًا^(٤) أَبْلَهَ^(٥) فِي
أَخْلَاقِهِ ، سَيِّءِ الْخُلُقِ ، كَسَلَانَ الْخِدْمَةِ ، لَمْ يَنْلُ مِنْ هَذِهِ الْمُرْتَبَةِ شَيْئًا
إِلَّا مَا يَقِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ، وَيَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ، وَيُشْبِعُ بَطْنَهُ .

فَكَذَا الْعُمَالُ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ؛ فَمَنْ كَانَ
طَاهِرَ الْخُلُقِ ، كَيَّسَ الذَّهْنَ ، فَطِنَ^(٦) الْفَهْمَ ، عَاقَلَ اللَّبَّ^(٧) ، ذَا حَظٍّ
مِنَ الْحِكْمَةِ كَانَ الْإِذْنُ لَهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ أَوْسَعَ وَأَكْبَرَ ، وَكَانَ كَالْعَبْدِ
الَّذِي تَلَوَّنَتْ كِسْوَتُهُ وَزِينَتُهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ ؛ فَإِنَّمَا كَسَاهُ الْمَلِكُ بِهِذِهِ
الْأَلْوَانَ ، لِأَنَّهُ وَجَدَهُ بَحِيثٌ يَلِيقُ بِهِ هَذِهِ الْأَلْوَانُ كُلُّهَا ، وَأَعْطَاهُ ضَبَائِرَ

(١) الساج : هو الطليسان الأخضر أو الأسود .

(٢) ضبائر : مجموعات .

(٣) يفوح : يتشرب ويتضوع .

(٤) السماج : القبح .

(٥) بله : ضعف العقل والفهم .

(٦) الفطن : الذكي الحاذق العارف بالشيء .

(٧) اللب : هو العقل .

الرَّيْحَانِ لَنَزَاهَتِهِ^(١) وَطِيبِهِ وَكِيَّاسَتِهِ ؛ فهذا الْعَبْدُ بَطْهَارَةُ خُلُقِهِ ، وَصَفَاءِ قَلْبِهِ ، وَوَفَارَةٍ^(٢) عَقْلِهِ ، وَإِدْرَاكِ حِكْمَتِهِ ، سَقَاهُ الْمَلِكُ الْأَعْلَى شَرْبَةً مِنْ كَأْسِ حُبِّهِ حَتَّى سَكَّرَ عَقْلَهُ عَنْ جَمِيعِ أَحْوَالِ النَّفْسِ ، حَتَّى صَارَ كُلُّ أُمُورِهِ مِنَ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ عِنْدَهُ حُلُوءًا ، يَجِدُ ثَمَرَةَ الْحُبِّ ، فَبِكْيَاسَةِ ذَهَبِهِ أَدْرَكَ دَفَائِقَ الْحِكْمَةِ ، وَبِفَهْمِهِ وَفِطْنَتِهِ بَلَغَ مَحَلَّ الْخِدْمَةِ ، وَعَرَفَ أَوْقَاتَ الْمَلِكِ وَأَوْقَاتَ الْأَشْيَاءِ ؛ فَإِنَّ الْخِدْمَةَ ذَاتُ أَلْوَانٍ وَفَنُونٍ ؛ وَبِعَقْلِهِ وَلُبِّهِ عَظَّمَ أَمْرَهَا وَصَانَهَا ، وَبِحِكْمَتِهِ أَمْسَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى ؛ فَهَذَا الْكَيْسُ الْفَطِنُ الَّذِي إِذَا نَالَ الْحِكْمَةَ نَظَرَ إِلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ ، فيَقُولُ : مَا هَذَا ؟ فَفَهُمْ أَنَّ هَذَا مَحْبُوبُ اللَّهِ تَعَالَى ، قَامَ إِلَى ذَلِكَ مُحْتَسِبًا^(٣) .

قال له قائل : بَيِّنْ وَاحِدًا مِنْ هَذَا^(٤) حَتَّى نَفْهَمَ .

قال : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَغَيْرِهِمَا ، فَإِذَا نَظَرَ الْكَيْسُ بِنُورِ الْحِكْمَةِ أَنَّ فِي الصَّلَاةِ أَمْرَهُ^(٥) ، وَفِيهَا قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَذَلِكَ عَلَيْهِ عِلْمٌ بِفَهْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، أَنَّهَا مَحْبُوبُ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَهَلْ أَحَبُّ قِيَامِي بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَحَبَّنِي ، فَبِحُبِّهِ إِيَّايَ أَعْطَانِي مَوْطِنَ الْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَاطَّلَعَ بِفَهْمِهِ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ ، يَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ حَبِيبُهُ . وَمِنْ حُبِّهِ أَحَبُّ كَوْنِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَإِذَا فَهَمَ هَذَا كَانَتْ صَلَاتُهُ قُرَّةَ عَيْنِهِ ، وَخُرُوجُهُ عَنْهَا مَصِيبَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَكَذَا فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِرِّ هَذَا .

(١) نزاهته : ترفعه وتنزهه عن المكروه بالعفة .

(٢) الوفارة والوفرة : التمام والكمال .

(٣) احتسب الأجر على الله : إدخره عنده فيما يدخر ليوم القيامة فلا يرجو جزاءه في الدنيا .

(٤) كذا ورد بالأصول .

(٥) أمره : أمره سبحانه وتعالى .

مثل الثناء والتسبيح

مثل الثناء والتسبيح لله تعالى مَثَلُ ملكٍ بين يديه خَدَم ، استقبله أَمْرٌ ، فَوَجَّهَهُمْ إلى عَمَلٍ لا يَنْفَكُ في ذلك العمل^(١) ؛ فَوَجَّهَ عَيْدَهُ وَعَسَّكَرَهُ إلى ذلك الأَمْرِ ، فذهبوا عِجَالاً^(٢) فَأَتَمُّوا ذلك الأَمْرَ ، وَرَجَعُوا إلى مَقَامِ الخِدْمَةِ مُتَّصِينَ ؛ فما مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ رَجَعَ عن طريقه الا أَخَذَهُ مِنْ غُبَارِ الطَّرِيقِ .

ولما أرادوا الدخولَ بين يدي الملك فَأَوَّلًا نَفَضُوا الغُبَارَ عن رُؤُوسِهِمْ وَثِيَابِهِمْ حتى يَدْخُلُوا على الملك على هَيْئَتِهِم التي كانت لهم قَبْلَ ذلك بين يديه ، مع الطَّرَاوَةِ^(٣) والنَّقَاوَةِ^(٤) .

فكذا العِبَادُ المؤمنون إِذَا مَارَسُوا أُمُورَ الدنيا ، وَخَالَطُوا الخَلْقَ لم يَخْلُوا من الغُبَارِ والأَذْناسِ الذي حَلَّ بِهِمْ ، وَإِنْ اجْتَهِدُوا في الصَّدَقِ والتقوى والتدبُّرِ ؛ فيرجعون إلى رَبِّهِمْ بالثَّناء والتسبيح ليكونَ ذلك نَفْضاً لما لَحِقَهُمْ من الأَذْناسِ ، ونالهم من الغُبَارِ والدُّخَانِ ، ليتَطَهَّرُوا ؛ فيصيرون أَهْلًا للدخولِ بين يَدَي مَلِيكِهِمْ .

مثل المجتَمعين على ذكر الله بكرة وعشياً

مَثَلُ المجتَمعين على ذِكْرِ اللَّهِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ، فذكروه ، ثم رَفَعُوا

(١) العلم [ب] .

(٢) عِجَالاً : متعجلين مسرعين .

(٣) الطري : الندي الغض .

(٤) النقاوة : والنقاء أي النظافة .

إليه أيديهم مُرْتَقِبِينَ^(١) ، فَسَأَلُوهُ الرِّغَائِبَ^(٢) مَثَلُ قَوْمٍ مِنَ الْفُقَرَاءِ
وَالْمَسَاكِينِ لَهُمْ « وَارْبِد » بِالْأَعْجَمِيَّةِ . كُلُّهُمْ عَلَى عَصَى اجْتَمَعُوا ،
وَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَ صَاحِبِهِ حَتَّى صَارُوا كُلُّهُمْ كَوَاحِدٍ ، ثُمَّ
اجْتَمَعُوا عَلَى بَابٍ وَبَابٍ وَبَابٍ ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَرْكُضُ بِرِجْلِهِ رَكْضاً^(٣) ،
وَمِنْهُمْ بِرَأْسِهِ هَزْأً ، وَمِنْهُمْ بِالْأَيْدِي شَدًّا ، وَمِنْهُمْ بِالْأَلْسُنِ لَحْنًا ،
وَبِالْأَصْوَاتِ لَحْنًا^(٤) وَغِنَاءً ، وَبِالْعْيُونِ لَحْظًا ؛ فَلَهُمْ دُنُوٌّ^(٥) مِنْ كُلِّ بَابٍ
عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، فَيُخْرَجُ لَهُمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ شَيْءٌ^(٦) ؛ فَمِنْ بَابِ
ثِيَابٍ ، وَمِنْ بَابِ طَعَامٍ ، وَمِنْ بَابِ شَرَابٍ ، وَمِنْ بَابِ فَوَاكِهٍ ، وَمِنْ
بَابِ لَحْمٍ ، وَمِنْ بَابِ إِدَامٍ^(٧) .

فَكَذَا الْمَجْتَمِعُونَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ إِذَا طَابَ ذِكْرُهُمْ ، وَسُقُوا بِالْكَأْسِ
الْأَوْفَى ، فَطَرَبُوا وَمَلَكَتَهُمْ بَهْجَةُ الْحَبِيبِ ، وَدَبَّ فِيهِمْ سُكْرُ الْكَأْسِ ،
وَطَارَتْ عَقُولُهُمْ إِلَى وَلِيِّ الْكَأْسِ ، فَسُقُوا هُنَاكَ [٨٦] صِرْفًا^(٨)
فَاعْتِمَادُ أَوْلَهُمْ وَقَائِدِهِمْ عَلَى مَحَلِّ النَّجْوَى ، وَتُخَفَّةُ^(٩) التَّحِيَّةِ ؛ لَهُمْ
دَوْرَانٌ وَطَوَافٌ عَلَى الْأَبْوَابِ لَا سِيَّمَا وَلَهُمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ اسْمٌ تَحْفَةٌ وَنَوَالٌ
عَلَى قَدْرِ حَظِّهِ مِنْ ذَلِكَ الْأَسْمِ ، وَعَلَى مَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ الْأَسْمُ .

(١) مرتقبين : منتظرين .

(٢) الرغائب : الرغبات .

(٣) ركضاً : قفزاً وجرياً .

(٤) لحن في القراءة : طرب فيها .

(٥) دنو : قرب .

(٦) شيئاً [أ - ب] وهو تحريف .

(٧) الإدام : ما يؤتد به من لحم أو غيره .

(٨) الصرف : الصريح ، والمحض الخالص .

(٩) التحفة : الهدية ، وكل ما أتعفت به غيرك .

مثل أسماء الله تعالى

مَثَلُ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَثَلُ مُلِكٍ لَهُ بُسْتَانٌ أَحَاطَهُ بِحَائِطٍ ، وَلَهُ غَرْسٌ وَأَشْجَارٌ ذَاتُ أَلْوَانٍ مِنَ الْفَوَاكِهِ وَفُنُونٍ^(١) النَّعْمَ ، فَسَاقَ إِلَى عَبِيدِهِ : كُلُّوا مِنْ هَذِهِ الثَّمَارِ ، وَاشْرَبُوا مِنْ هَذِهِ الْأَنْهَارِ ؛ فَهَذَا مَعَاشُكُمْ وَمَأْوَاكُمْ ، وَلَكِنْ شَأْنُكُمْ مَرَمَةٌ^(٢) هَذَا الْبُسْتَانِ ؛ مِنْ جَرَيِ النَّهْرِ ، وَحِفْظِ الْبَسَاتِينِ مِنْ مَنَابِتِ السُّوءِ ؛ فَإِنَّكُمْ لَوْ قَصَّرْتُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَعَنْ قَرِيبٍ أَنْكَبَسَ^(٣) النَّهْرُ ، وَبَسَتْ الْأَشْجَارُ ، وَبَتَتْ مَنَابِتُ السُّوءِ مِنَ الْقَتِّ^(٤) وَغَيْرِهَا ، فَتَتَغَيَّرُ الْأَلْوَانُ ، وَلَا تَتَوَرَّدُ .

فَانظُرُوا إِلَى نَزَاهَةِ هَذِهِ الثَّمَارِ وَالْأَوْرَادِ وَالرِّيَّاحِينَ ، فَمَنْ لَمْ يَسْمَنْ عَلَى أَكْلِ هَذِهِ الثَّمَارِ ، وَشَرَبِ هَذَا الْمَاءِ فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ يَسْمَنْ ؟ فَالْمَاءُ أَصْلُهُ وَاحِدٌ فِي فِي^(٥) الصَّفَاءِ وَالْعُدُوبَةِ ، فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى ثَمَرَةٍ كُلِّ شَجَرَةٍ وَجَدْتَ إِحْدَاهَا حُلُوًّا ، وَأُخْرَى حَامِضًا ، وَأُخْرَى مَرًّا ، وَأُخْرَى بَارِدًا ، وَأُخْرَى حَارًّا ، وَأُخْرَى بَيْنَ الْحَمُوضَةِ وَالْحَلَاوَةِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ نَفْعٌ دُونَ صَاحِبِهِ .

فَكَذَا اللَّهُ تَعَالَى هَيَأَ لِعِبَادِهِ بُسْتَانًا ، وَأَحَاطَ لَهُ حَائِطًا ، وَشَقَّ نَهْرًا ، وَأَجْرَى الْمَاءَ ، وَأَنْبَتَ الْأَشْجَارَ ، وَأَخْرَجَ مِنْ كُلِّ شَجَرَةٍ لَوْنًا مِنَ الثَّمَرَةِ ؛ فَالْحَائِطُ مِلْكُهُ ، وَالنَّهْرُ لِصْقِهِ ، وَالْمَاءُ مَاءُ الْحَيَاةِ ، أَجْرَى مَاءِ

(١) فنون : أنواع .

(٢) المرمة : الإصلاح .

(٣) كبس البثر : طمها بالتراب .

(٤) القَت : حب بري لا ينبت إلا بالآدمي .

(٥) كذا وردت بالأصول .

الحياة في نَهْرِ اللَّطْفِ إلى هذه الأشجار ، وهو أسماؤه الحُسْنَى ،
وأَجْرِي إلى العباد كُلَّ اسْمٍ حُلُوًّا وَحَامِضًا ، وَعَذْبًا وَمُرًّا ، وَبَارِدًا وَحَارًّا ،
فَمِنْ اسْمِهِ الرِّزَاقَ رَزَقَهُمْ ، وَمِنْ اسْمِهِ التَّوَابَ تابَ عليهم ، وَمِنْ اسْمِهِ
الْغَفَّارَ غَفَرَ لَهُمْ ، وَمِنْ اسْمِهِ الْعَزِيزَ جادَ عليهم ، وَمِنْ اسْمِهِ الرُّؤُوفَ
رُؤُوفَ بِهِمْ ، وَمِنْ اسْمِهِ الرَّحْمَنَ رَحِمَهُمْ فِي دِينِهِمْ ، وَمِنْ اسْمِهِ
الرَّحِيمَ رَحِمَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمِنْ اسْمِهِ الْوَكِيلَ تَوَكَّلَ بِهِمْ ، وَمِنْ
اسْمِهِ الْكَفِيلَ تَكْفَّلَ لَهُمْ ، وَمِنْ اسْمِهِ الْعَظِيمَ أَغْنَاهُمْ ، وَمِنْ اسْمِهِ
الْجَلِيلَ أَعَزَّهُمْ ، وَمِنْ اسْمِهِ الْكَرِيمَ أَكْرَمَهُمْ ، وَمِنْ اسْمِهِ الْمَنَّانَ مَنَّ
عليهم بِالرَّحْمَةِ الْعُظْمَى ؛ فَهَذَاهُمْ . وَمِنْ اسْمِهِ « اللَّهُ » اجْتَبَاهُمْ^(١)
وَوَلَّاهُ^(٢) قُلُوبَهُمْ وَعَلَّقَ ؛ فَمِنْ كُلِّ اسْمٍ أَهْدَى إِلَيْهِمْ مَا وُضِعَ فِي ذَلِكَ
الاسم ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَجْلِهِمْ أَخْرَجَ الْأَسْمَاءَ إِلَيْهِمْ ؛ فَمَنْ كَانَ أَشَدَّ مَحَافِظَةً
لَهُمْ ، وَإِكْبَابًا عَلَيْهِمْ ، وَأَدْوَمَ قِيَامًا عَلَى نَفْسِهِ ، كَانَتْ فَوْهَةً نَهْرُهُ
أَوْسَعَ ، وَالْمَاءُ فِيهِ أَكْثَرَ ، وَوَجَدْنَا أَنَّ هَذِهِ الثَّمَرَةَ إِنَّمَا يُسَيِّغُهَا أَكْلُهَا بِالْمَاءِ
الَّذِي فِي قَبْوِ حَنْكِهِ ، وَيَجِدُ لَذَّةَ الْأَشْيَاءِ بِذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ ،
فَبِتِلْكَ الْقُوَّةِ يَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الثَّمَارِ .

فَكَذَا الْقَلْبُ إِذَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ تِلْكَ الْمَحَبَّةُ اللَّذِيذَةُ الَّتِي يَجِدُ
حَلَاوَتَهَا فِي قَلْبِهِ لَمْ يَجِدْ حَلَاوَةَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ ؛ فَبِالْحُبِّ يَنَالُ طَعْمَ مَا فِي
هَذِهِ الْأَسْمَاءِ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي فِي الْأَسْمَاءِ ، فَلِكُلِّ اسْمٍ بِمَا فِيهِ مِنْ
مَعْنَاهُ أَكْلًا يَسْمُنُ عَلَيْهِ ، كَمَا يَسْمُنُ صَاحِبُ الْأَشْجَارِ مِنْ أَكْلِ تِلْكَ
الثَّمَارِ الَّتِي أَثْمَرَتْ هَذِهِ الْأَشْجَارُ ؛ فَالْأَسْمَاءُ ثَمَرَتُهَا مَعَانِيهَا ، وَسُقْيَاهَا

(١) اجْتَبَاهُمْ : اخْتَارَهُمْ .

(٢) الْوَلَّاهُ : شَدَّةُ الْحُبِّ .

ماء الحياة ، فإذا لم يكن القلب حياً لم تكن له تلك المحبة التي من الحياة العطائية ؛ فإذا هذه الأسماء له كالأشجار التي قد انقطع مأوها فلم تثمر^(١) ، ولم تتورق^(٢) ، ولم تتورّد ، ويبست^(٣) الأشجار فلا تصلح إلا للحرق .

وإذا أجرى ماء الحياة ، وانتبه القلب ، وحىي بالله جاءت المحبة .

فبحلاوة المحبة تحلو الأسماء ، ويجد القلب لذة تلك الحلاوة ، ويرطب بذلك اللطف^(٤) ؛ لأن في الأسماء صفات المحبوب ولطفه^(٤) ، وآلاءه^(٥) ، وأخلاقه ، وكرمه ، ورحمته ، وأفضاله ؛ فعلى قدر محبته له يجد حلاوة الصفات ، واللطف ، والآلاء ، والأخلاق ، والعطف ، والكرم ؛ وتعظم أفعاله عندك ، ويأخذ من قلبك سلطان ذلك الفعل ؛ فإذا أثنى على ربّه ، أو مدّحه ، أو دعاه باسم من أسمائه ، فإنه يخرج كلمته من فيه على قدر سلطانه من القلب ، ومملكة القلب من الحياة والمحبة .

مثل من يردد ذكر الله في قلبه

مَثَلُ مَنْ يُرَدِّدُ ذِكْرَ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ مَثَلُ مَاءٍ رَاكِدٍ فِي مَوْضِعٍ

(١) تثمر : تنتج الثمار .

(٢) تتورق : يخرج ورقها .

(٣) يبست : جفت .

(٤) اللطف : الرفق ، ولطف الله رحمته .

(٥) الآؤه : نعمه .

قد أَحَاطَ بِهِ زَبَدٌ^(١) وَغُثَاءٌ^(٢) ، فَإِذَا هَاجَتِ الرِّيحُ فَضَرَبَتِ الْمَاءَ يَذْهَبُ ذَلِكَ الْغُثَاءُ وَالزَّبَدُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الْمَاءِ ، وَبَقِيَ الْمَاءُ صَافِيًا ، فَكَلِمَا اِزْدَادَ هَيَجَانُ الرِّيحِ اِزْدَادَ اضْطِرَابُ الْمَاءِ ، فَازْدَادَتْ صَفْوَةُ الْمَاءِ ، حَتَّى يَأْتِيَ بِمَحْضٍ^(٣) الْمَاءِ الَّذِي فِي وَسْطِهِ .

فَكَذَا كَلِمَا تَرَدَّدَ الذُّكْرُ ، وَتَتَابَعَ ، اِزْدَادَ قُوَّةً فِي قَلْبِهِ ، وَصَفْوَةً فِي ذِكْرِهِ ، حَتَّى تُمَلَأَ مِنْ نُورِ ذِكْرِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ .

وَكَذَا جَاءَنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : إِنْ الْعَبْدُ إِذَا قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ مَلَأَ نُورُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَالَهَا ثَانِيًا مَلَأَ مَا بَيْنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَى^(٤) .

فَفِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ قَالَهَا صَفَّتِ الْمَجْرَى ، وَذَهَبَ الْغُثَاءُ الْمَحِيطُ عَلَى الصَّدْرِ ، فَظَهَرَ الصَّفَاءُ ، فَإِذَا قَالَهَا ثَانِيًا فَإِنَّمَا قَالَهَا مِنْ صَفَاءِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ ، فَازْدَادَ طَرِيقُ مَجْرَاهَا صَفَاءً ، فَأَخْرَجَهَا مِنْ مَحْضِ الْقَلْبِ عَنْ عَيْشِ^(٥) الْحَمْدِ ؛ لِأَنَّ عِلْمَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي قَلْبِهِ ؛ فَكَلِمَا انْكَشَفَ الْغِطَاءُ عَنِ الْعِلْمِ كَانَ أَصْفَى وَأَنْوَرُ ، وَأَعْظَمُ أَجْرًا ، حَتَّى مَلَأَ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ^(٦) وَمِنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَى مِنْ نُورِ الْكَلِمَةِ مِنْ فِيهِ .

(١) الزبد : من البحر كالرغوة .

(٢) الغثاء : ورق الشجر البالي المختلط بزبد السيل .

(٣) محض الماء : خالصه وصافيه .

(٤) الثرى : التراب .

(٥) عيش [أ] .

(٦) الخافقان : المشرق والمغرب .

مثل من يعبد الله بلا علم

مَثَلُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ بِلاَ عِلْمٍ مَثَلُ مَنْ يَتَجَرُّ بِلاَ بَصَرٍ فِي السِّلَعِ ^(١) ،
ولا عِلْمٍ بِأَسْعَارِهَا ولا بِجَوَاهِرِهَا ولا بِقِيَمَتِهَا ، ولا بِنَقْدِ الأَثْمَانِ ، فإذا
اشْتَرَى اشْتَرَى بِغَلَاءٍ ، وَإِنْ باعَ باعَ بِوَكْسٍ ^(٢) ، وَإِنْ اقْتَضَى اقْتَضَى
زُيُوفًا ^(٣) وبهرجة ^(٤) على عَمَى ودُلْسَةٍ ^(٥) .

مَثَلُ مَنْ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ وَلَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ

مَثَلُ مَنْ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ وَلَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ مَثَلُ رَجُلٍ
رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا كَثِيرًا فَكَتَرَهُ تَحْتَ الْأَرْضِ ^(٦) ، فلا يُنْفِقُ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ ،
ولا يَصِلُ النَّاسَ بِهِ ؛ فلا يَنْتَفِعُ بِهِ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ ، وصارَ وَبَالًا عَلَيْهِ فِي
الْمَعَادِ .

وَمَثَلُهُ أَيْضًا مَثَلُ الْكَلْبِ اتَّخَذَ مَأْوًى ^(٧) فِي مَعْلَفٍ ^(٨) فِيهِ تِبْنٌ كَثِيرٌ ؛
لَا يَتَعَلِّفُ هُوَ ، وَلَا يَدْعُ غَيْرُهُ لِيُعْلِفَ بِهِ دَوَابَّهُ ؛ فَكُلُّ مَنْ قَصَدَ ذَلِكَ نَبَحَ
وَدَفَعَهُ ^(٩) عَنْهُ .

(١) السلعة : جمعها سلع وهي البضاعة والبضائع .

(٢) الوكس : النقصان .

(٣) زفت الدراهم : ردأت .

(٤) البهرجة : الرداءة ، ويقال لرديء الفضة « درهم بهرج » وبهرجه [أ ، ب] .

(٥) الدلسة : الخديعة .

(٦) والأمثلة على هذا كثيرة جداً في كل المجتمعات المعاصرة والغابرة .

(٧) المأوى : السكن والملاذ .

(٨) المعلف : موضع العلف وهو ما تأكله الدواب .

(٩) دفعه : منعه ورده .

فهذا أيضاً لا يعملُ به فَيَنْفَعَهُ في الدارين ، ولا يَعْلَمُ غيره ، لا يسلك به طريقَ الجنة هو بنفسه ، ولا يُرْشِدُ غَيْرَهُ .

مَثَلُ مَنْ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ وَيَعْمَلُ بِهِ وَلَا يَعْلَمُ غَيْرَهُ

وَمَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ فَيَعْمَلُ بِهِ وَلَا يَعْلَمُ غَيْرَهُ مَثَلُ رَجُلٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً جَمًّا^(١) ، فَاَنْتَفَعَ بِهِ ، وَتَنَعَّمَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَلَا^(٢) يَعْطِفُ بِشَيْءٍ مِنْهُ عَلَى الْجِيرَانِ وَالْأَقَارِبِ وَالْمُسْلِمِينَ .

مثل من يتعلم العلم ويعمل به

وَمَثَلُ مَنْ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ فَيَعْمَلُ بِهِ مَثَلُ رَجُلٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً طَيِّباً ، فَاَنْتَفَعَ بِهِ وَتَنَعَّمَ بِهِ ، وَأَنْفَقَ عَلَى الْجِيرَانِ وَالْأَقَارِبِ وَالْمُسْلِمِينَ .

مثل من يتعلم العلم ولا يعمل به ويعلمه الناس

وَمَثَلُ مَنْ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ وَيَعْلَمُهُ النَّاسُ مَثَلُ رَجُلٍ [٨٧] رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً كَثِيراً فَكُلُّ مَنْ أَخَذَ مِنْهُ أَوْ سَرَقَ مِنْهُ لَا يُبَالِي بِهِ ، وَلَا يُنْفِقُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى عِيَالِهِ شَيْئاً^(٣) ، وَتَمُوتُ عِيَالُهُ جُوعاً وَعُرْياً^(٤)

(١) مَالاً جَمًّا : وَفيراً كثيراً .

(٢) لَا يَعْطِفُ مِنْهُ بِشَيْءٍ عَلَى الْجِيرَانِ : يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ مِنْهُ .

(٣) شَيْءٍ [فِي الْأَصُولِ] وَهِيَ تَحْرِيفٌ لِأَنَّ الْأَصَحَّ كَمَا أَوْرَدْنَا .

(٤) عُرْيٌ [ب] وَهِيَ تَحْرِيفٌ .

وهو أيضاً في بُؤْس وفاقة^(١) من المطعم والمَشْرَب ، لا يُطيق أَنْ يَأْكَلَ
منه شيئاً^(١) بنفسه ، أو يُنْفِق على عِيَاله ؛ فقد خَسِرَ هو في الدُّنْيَا
والآخرة .

وَمَثَلُ مَنْ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ وَيَبْذُلُهُ لِلنَّاسِ لِلْمُبَاهَاةِ^(٢)
وَالرَّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا مَثَلُ السَّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ .

وَمَثَلُهُ أَيْضاً مَثَلُ رَجُلٍ وَضَعَ السَّرَاجَ عَلَى طَرَفِ سَطْحِهِ فَانْتَفَعَ بِهِ
الْمَارُونَ ، وَهُوَ فِي بَيْتٍ مَظْلَمٍ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ لَذَلِكَ .

وَمَثَلُ مَنْ يَطْلُبُ الْعُلُومَ الْكَثِيرَةَ وَجَمَعَهَا ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِهَا ، وَلَا
يُرَى أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَيَجْمَعُ الْعُلُومَ وَالْكَتَبَ دَائِماً وَلَا يَشْبَعُ مِنْ طَلِبِهَا
مَثَلُ مَنْ يَجْمَعُ كُلَّ يَوْمٍ وَسَاعَةً طَعَاماً كَثِيراً فِي بَيْتِهِ مِنْ فُنُونِ الْأَطْعِمَةِ
وَالْأَشْرِبَةِ وَالْفَوَاكِهِ وَالطَّيْرِ مِمَّا يَتَسَارَعُ^(٣) إِلَيْهِ الْفَسَادُ ، وَلَا يَطْعَمُ مِنْهُ شَيْئاً
وَهُوَ جَائِعٌ غَرْنَانٌ^(٤) ؛ فَكُلَّ يَوْمٍ يَأْكُلُ مَقْدَارَ رَغِيفٍ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ
يَسَّ وَتَكَرَّجَ^(٥) ، وَيَنْظُرُ إِلَى أَلْوَانِ الْأَشْيَاءِ ، وَيَبْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَا
يَشْبَعُ مِنْ جَمْعِهِ كُلَّ يَوْمٍ ، إِلَى يَوْمِ مَوْتِهِ ، فَيَتَنَبَّهُ بِئْتِهِ ، وَفَسَدَتِ
الْأَشْيَاءُ ، فَتُلْقَى ، وَلَا يَأْكُلُهَا أَحَدٌ وَقَدْ مَضَى .

(١) الفاقة : الفقر .

(٢) المباهاة : المفاخرة .

(٣) يتسارع : يسرع .

(٤) الغرنان : الجائع .

(٥) تَكَرَّجَ : فسد .

مَثَلٌ مَنْ يَتَّبِعِي نَزُولِ الرَّحْمَةِ قَبْلَ التَّوْبَةِ

مَثَلٌ مَنْ يَتَّبِعِي ^(١) نُزُولَ الرَّحْمَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى قَبْلَ التَّوْبَةِ مَثَلٌ سَاكِنٍ فِي بَيْتٍ قَدْ آذَاهُ الْحَرُّ وَالْغَمُّ وَالذَّبَّانُ ، فَكَلِمَا دَخَلَهُ يَتَصَبَّبُ فِيهِ عَرَقًا ، وَيَتَقَلَّبُ فِي غَمِّهِ ، وَيَتَأَذَى بِالذَّبَّانِ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ فِيهِ ، وَيَتَنَعَّمَ بِالْجُلُوسِ وَالنَّوْمِ وَالْقَرَارِ ، فَأَوَّلًا يَنْبَغِي أَنْ يُخْرِجَ مَا فِي الْبَيْتِ مِنَ الْقُمَاشَاتِ ^(٢) وَالْأَطْعَمَةِ الَّتِي فِيهَا مَجْمَعُ الذَّبَّانِ ، فَذَهَبَ فَاحْتَالَ لَهُ فَرَشُهُ ، فَلَا يَزَالُ يُدِيمُ الرِّشَّ بِالْمَاءِ حَتَّى يَبْرُدَ ، وَيَبْرُدَ الْمَاءُ ؛ فَكَلِمَا دَخَلَهُ اسْتَقْبَلَهُ رَوْحٌ ^(٣) ذَلِكَ الرِّشُّ ، وَطِيبُ ذَلِكَ الرُّوحِ ، فَأَوَّلَ فِعْلِهِ أَنْ يَبْتَدِيَ فِي كُنْسِهِ ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ قَمَاشٌ وَنَثَارٌ ^(٤) الطَّعَامِ ، وَمَجْمَعُ الذَّبَّانِ ، وَثَقُلَ ^(٥) الْفَوَاكِهِ ، وَمَا يُرْمَى بِهِ ؛ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هَذَا الَّذِي يُرِيدُ رَوْحَهُ أَنْ يَتَرَكَ هَذَا الْبَيْتَ شِبْهَ كُنَاسَةٍ ، وَيَرْشُهُ بِالْمَاءِ لِيَرْوَحَ عَنْهُ ^(٦) مَغْتَمَهُ ، فَإِنَّ هَذَا يَزِيدُهُ رَائِحَةً مُنْكَرَةً وَنَتْنًا ، وَلَكِنْ يَكْنُسُهُ مَرَّةً ثُمَّ أُخْرَى بِالْمِكَنَسَةِ الثَّقِيلَةِ ، ثُمَّ يَكْنُسُهُ بِالْمِكَنَسَةِ اللَّيِّنَةِ ، ثُمَّ يَرْشُهُ بِالْمَاءِ رَشًّا بَعْدَ رَشٍّ ، فَإِذَا دَخَلَهُ وَجَدَ رَوْحَ ذَلِكَ الرِّشِّ ؛ فَإِنَّ فِي الْمَاءِ رَطُوبَةً وَبُرُودَةً ؛ فَيَرْشُ الْمَاءَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ حَتَّى تَنْشَفَ الْأَرْضُ الْمَاءَ ؛ وَيَكْنُسُهُ أُخْرَى ، وَيَرْشُ الْمَاءَ ، ثُمَّ يَبْسُطُ الْحَصِيرَ حَتَّى يَطِيبَ ، وَتَزُولَ عَنْهُ الرَّائِحَةُ

(١) يَتَّبِعِي : يَطْلُبُ .

(٢) الْقَمَاشَاتُ : وَهِيَ الْقَمَاشُ ، مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ فَنَاتِ الْأَشْيَاءِ .

(٣) الرُّوحُ : نَسِيمُ الرِّيحِ وَهُوَ الرَّاحَةُ .

(٤) النَثَارُ : مَا يَتَنَاطَرُ مِنَ الشَّيْءِ .

(٥) الثَّقُلُ : الْحَثَالَةُ مِنَ الشَّيْءِ ، وَهُوَ الشَّخِينُ الْمَجْتَمِعُ الْمَتْرَسِبُ أَسْفَلَ الصَّافِي .

(٦) عِنْدَ [ب] وَهُوَ تَحْرِيفٌ خَطِيرٌ .

الْمُنْكَرَةِ ، فإذا انتشفت الأرض رطوبة الماء بقي روح البرودة هناك ،
وذهبت الحرارة والغمة^(١) ؛ فحينئذ إذا دخل يجد الروح والراحة ،
فافترق الذبان .

فكذلك صدر الأدمي وقلبه ؛ فإن الشهوات في قلبه ؛ فنفس
الأدمي كالأتون^(٢) الذي يتلظى^(٣) لهب ناره من الشهوات والهوى ،
وشعلها متأدية إلى جوارحه ، فشعلة منها تتأدى إلى العين ، فكلما رمى
ببصره بقوة تلك الشعلة إلى شيء من زينة الدنيا رجعت إلى النفس بلذة
يسكر عقله بها ؛ لأن تلك اللذة سرى حُبها في نفسه ، فتأدى بذلك
الحب إلى الصدر ، فسكر العقل من ذلك وتدنس^(٤) ، فانكمن في
الدماغ ، وامتنع من الإشراق ، واقتقد الصدر شعاعه الذي كان يرمي
إلى الصدر فيشرق على الصدر ، ويستنير منه ؛ بمنزلة شمس شعاعها
تضيء به الأرض^(٥) ، فيحول بينها وبين الأرض سحابة سوداء قامت
بإزائها^(٦) ، فذهب ضوءها ، فيصير البيت مظلماً كالليل أو شبّهه .

وشعلة منها تتأدى إلى السمع ، فكلما ألقى سمعه إلى شيء تلذذ
به السمع ، فتأدت اللذة إلى النفس ، فثار دُخانها إلى الصدر .

(١) الغمة : تكاثف الغيم والضباب .

(٢) الأتون : الكانون .

(٣) يتلظى : يلهب .

(٤) الدنس : الوسخ وجمعها أدناس وأوساخ .

(٥) تأمل أيها القارئ حفظك الله أن المؤلف ربما كان يحيط علماً بالنظرية الجيولوجية
التي تقول أن نور الشمس ينعكس عند سطح القمر ، لأنه يجعل نور الأرض مطلقاً
من الشمس ، وهذا مجرد استنباط ، وقد يكون قول عارض له .

(٦) إزاء الشيء : محاذياً له .

وَشُعْلَةٌ مِنْهَا تَتَأَدَّى إِلَى اللِّسَانِ . وَشُعْلَةٌ إِلَى الْحَلْقِ ، وَشُعْلَةٌ إِلَى
الْفَرْجِ ، وَشُعْلَةٌ إِلَى الْيَدِ لِلْبَطْشِ وَالتَّناوُلِ وَالْبَذْلِ ؛ وَشُعْلَةٌ إِلَى الرَّجْلِ .

فهذا الصَّدْرُ كَمَزْبَلَةٍ ، وفيه فَوْرَانُ هذه الشهواتِ ؛ والبَطْنُ
كالْأَثُونِ الذي يُطْبَخُ فِيهِ اللَّبْنُ قد احتَدَّتْ حَرَارَتُهُ وَحَمِيَّانُهُ ، فصار اللَّبْنُ
فيه أَجْزَاءً^(١) ، يقال بِالْأَعْجَمِيَّةِ (بخته) ؛ فلا يزال يَمْضُرُ^(٢) اللَّبْنُ
وَيَذُوبُ حَتَّى يَصِيرَ كَزُبْرَةٍ^(٣) الْحَدِيدِ ، فكذا الشهواتُ فِي البَطْنِ ، حَتَّى
صَارَتْ بِتِلْكَ الصِّفَةِ ، فَمَتَى يُفْلِحُ هَذَا ؟ وَكَيْفَ يَعْبُدُ رَبَّهُ ؟

تطهير الصدور

قال الإمامُ أَبُو عَبدِ اللَّهِ^(٤) رَحِمَهُ اللَّهُ : فَمَنْ شَأْنُهُ أَنْ يَبْتَدِيَءَ فِي
كَنْسِ هَذَا الصَّدْرِ أَنْ يَقْمَهُ^(٥) حَتَّى يُخْلِيَ صَدْرَهُ مِنْ كُنَاسَةِ الذُّنُوبِ ،
وَقَمَاشَاتِ الْعُيُوبِ وَالْفُضُولِ الَّتِي فِيهَا ؛ فَإِذَا جَاهَدَ فِي هَذَا حَقَّ جِهَادِهِ
كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ فِي تَنْزِيلِهِ^(٦) : ﴿ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ فَإِذَا فَعَلَ
ذَلِكَ فَحِينَئِذٍ أَمَطَرَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مَطَرَ الرَّحْمَةِ ، فَرَشَّ صَدْرَهُ بِمَاءِ
الرَّحْمَةِ ، فَثَارَتْ البرودةُ إِلَى الْجَوْفِ ، فَأُطْفِئَتْ نيرانُ الشهواتِ ، فَبَرَدَ
الْأَثُونُ ، وَصَارَ الصَّدْرُ مُرَوِّحاً يَبْرِدُ الرَّحْمَةَ الَّتِي أَمَطَرَتْ عَلَيْهِ .

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ هَذَا مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلْ وَصَلَ إِلَيْهِ مَطَرُ الرَّحْمَةِ

(١) أَجْزَاءً [ب] .

(٢) مضر اللبن : حمض ، وبيض .

(٣) الزبرة : القضيب من الحديد .

(٤) وهو المؤلف .

(٥) قمه : كنسه .

(٦) الحج (٢٢ / ٧٨) .

فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا الَّتِي فِي جَوْفِهِ ، هَلْ سَكَنَ تَلَظُّيَهَا^(١) ، وَانْقَطَعَ لَهْبُهَا عَنِ الْجَوَارِحِ ؟ وَهَلْ سَكَنَتْ حَدَّةُ بَصَرِهِ بِالنَّظَرِ ، وَحِدَّةُ سَمْعِهِ بِالِاسْتِمَاعِ ، وَحِدَّةُ حَلْقِهِ عِنْدَ الْمَضْغِ وَالتَّلْمِظِ^(٢) ، وَحِدَّةُ لِسَانِهِ ، حَتَّى يَنْطِقَ فِي وَقْتِ دَوْرَانِ الْعَرَقَيْنِ بِذَلِكَ اللِّسَانِ ، وَحِدَّةُ يَدِهِ حِينَ تَنَاوَلَ ، وَحِدَّةُ وَرِكَئِهِ حِينَ يَضْطَرِبَانِ بِاخْتِلَافِ الْقَدَمَيْنِ وَتَخْطِي الرِّكْبَتَيْنِ ؛ فَإِذَا افْتَقَدَ الْحِدَّةَ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ فَقَدْ اسْتَيْقَنَ أَنَّ التَّلَظُّيَ قَدْ سَكَنَ فِي الْجَوْفِ ، وَأَنَّ الْقُوَّةَ - قُوَّةَ الشَّهْوَةِ - قَدْ ضَعُفَتْ ؛ فَعِنْدَهَا يَعْلَمُ أَنَّ مَطَرَ الرَّحْمَةِ مِنَ الْمَاجِدِ الْكَرِيمِ ، الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ، قَدْ حَلَّتْ بِهِ ، وَأَمْطَرَتْ عَلَى صَدْرِهِ وَقَلْبِهِ حَتَّى طَفِئَتْ نَارُ الشَّهَوَاتِ فِي نَفْسِهِ ، وَبَرَدَ الْأُتُونُ^(٣) .

فَالْكَيْسُ هَاهُنَا فَهَمَّ وَأَدْرَكَ أَمْرَهُ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : لَمْ يَزَلْ رَبِّي مَاجِداً رَحِيماً جَوَاداً ، فَكَيْفَ احْتَبَسْتُ عَنِّي رَحْمَتُهُ حَتَّى عَمِلْتُ هَذِهِ النِّيرَانَ فِي جَوْفِي مَا عَمِلْتُ ، حَتَّى فَضَحَنِي عِنْدَ رَبِّي وَعِنْدَ مَلَائِكَتِهِ الْكَتَبَةِ ، وَعِنْدَ سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ ؛ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عَقْلِهِ فَبَصَّرَهُ عَقْلُهُ أَنَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ امْتَنَعَتْ عَنْكَ ؛ لِأَنَّكَ تَحْتَاجُ إِلَى غَسْلِ بَيْتِكَ حَتَّى تُطَهَّرَهُ مِنَ الْأَذْنَانِ وَالْأَوْسَاحِ ، فَأَقْبَلَ إِلَى الْإِزْدِيَادِ كَنَساً بَعْدَ كَنَسٍ ، حَتَّى صَارَ بِهِئَةٍ مِنْ كَثْرَةِ تَفْقُّدِهِ أَلَّا تَسْخُو^(٤) نَفْسُهُ أَنْ يَتْرَكَ فِيهَا تِبْنَاً أَوْ أَدَقَّ^(٥) مِنَ التَّبْنَةِ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ حَتَّى يَرْفَعَهَا [٨٨] ، فَكَلِمَا أَزْدَادَ مِنْ ذَلِكَ تَوْقِيّاً

(١) تَلَظُّيَهَا : تَوَقَّدَهَا .

(٢) تَلْمِظُ : أَخْرَجَ لِسَانَهُ فَمَسَحَ بِهِ شَفْتَيْهِ .

(٣) الْأُتُونُ : الْكَانُونُ .

(٤) تَسْخُو نَفْسُهُ : تَرْضَى ، وَتَجُودُ .

(٥) أَدَقُّ : أَصْغَرُ .

وَتَفْقُداً أَزْدَادَ رَوْحِ قَلْبٍ ، وَطَيْبَ نَفْسٍ لِلرُّوحِ وَالْقَلْبِ ؛ فَالنَّفْسُ الدُّنْيَا^(١) إِذَا شَعَرَتْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَعَلِمَتْ بِذَلِكَ ، تَنْزَهَتْ فِي سَاحَاتِ رِيَاضِهَا ، وَمَرَحَتْ فِي جَنَّاتِهَا^(٢) وَأَشْرَتْ وَبَطَرَتْ^(٣) ؛ فَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ أَبْلَهُ^(٤) غَيْمًا^(٥) ، وَأُعْطِيَ عِلْمَ الرَّحْمَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَحِيمٌ ، نَقَلَ ذَلِكَ الْعِلْمَ إِلَى النَّفْسِ حَتَّى تَأْشُرَ^(٦) وَتَبْطُرَ ، وَتَسْتَرْوِحَ ، وَتَرْكُضَ فِي فُسْحَةِ اللَّذَاتِ ، وَتَسْتَرْوِحَ إِلَى ذَلِكَ الْعِلْمِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رُؤُوفٌ رَحِيمٌ ، يَتَرَدَّى^(٧) بِذَلِكَ فِي آبَارِ الْهَلَاكِ .

فَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ كَيْسًا نَقَلَ ذَلِكَ الْعِلْمَ إِلَى الْعَقْلِ ، فَيُبْصِرُ الْعَقْلُ ، وَقَالَ لَهُ : هَلْ يَسْتَحِقُّ الْمَوْصُوفُ بِالرَّحْمَةِ أَنْ تَبْدُلَ نَفْسَكَ وَتَقُومَ لَهُ بِأَمْرِهِ عَلَى أَشْفَارِ عَيْنَيْكَ ، وَتَضَعَ أُمُورَهُ عَلَى رَأْسِكَ مِنَ التَّعْظِيمِ ؛ فَإِنَّ الرَّحْمَةَ مَدِيحُهُ ، وَالْمَمْدُوحُ بِالرَّحْمَةِ مِنْ عِبِيدِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا تَسْمُو إِلَيْهِ الْأَبْصَارُ ، وَتَهْتَشُّ^(٨) إِلَيْهِ النَّفُوسُ بِهَذِهِ الْخَصْلَةِ الْمَوْجُودَةِ فِيهِ .

وَكَذَا كُلُّ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْكَرَمِ مِنَ الْحُسْنِ وَالْبَهَاءِ تَجِدُهَا فِي عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِهِ ، فَإِذَا عَرَفْتَهُ بِتِلْكَ الْخَصْلَةِ^(٩) أَحْبَبْتَهُ عَلَيْهَا حُبًّا يَأْخُذُ

(١) الدنية : الوضيعة من الدناءة والدنو .

(٢) جنان : جمع جنة ، والجنة هي البستان والروضة .

(٣) الأشر والبطر : الكنود ، وكفر النعمة ، وعدم الشكر على نعمتها .

(٤) أبليها [أ ، ب] .

(٥) غتم : عيى ، لا يستطيع الإفصاح عن شيء .

(٦) نشر [ب] .

(٧) يتردى : يسقط ، ويهلك من التردى والردى .

(٨) تهتش : من الاغبطاط والارتياح والنشاط .

(٩) الخصلة : الصفة .

بقلبك ، وَيَسْبِي نَفْسَكَ ؛ فَرَبُّكَ الممدوح بهذه المَدَائِح الموصوف بهذه الصفات أَحَقُّ وَأَقْمَنُ ^(١) أَنْ تَأْخُذَ مَدَائِحَهُ قَلْبَكَ وَتَسْبِي نَفْسَكَ ؛ فإذا علمت أَنَّهُ رَحِيمٌ فَرِذٌ فِي تَعْظِيمِهِ وَتَوْقِيرِهِ بِأَنْبِيَائِهِ وَأَحْبَائِهِ وَشُغُوفاً بِكَلَامِهِ ، وَنَصَائِحِهِ ، وَمَوَاعِظِهِ لَكَ شَفَقَةٌ عَلَيْكَ وَرَأْفَةٌ بِكَ .

فهذا الْعَقْلُ يَدُلُّ هَذَا الْقَلْبَ الْكَيِّسَ عَلَى هَذَا .

فإذا كَانَ أَهْلُهُ مَالٌ إِلَى النَفْسِ ، وَقَارَنَهَا بِالْفَرَحِ بهذه الرحمة أَنَّ رَبَّنَا مَلِكٌ كَرِيمٌ رَحِيمٌ ، فَتَعَالَ حَتَّى نَسْرُكُضَ فِي هَذِهِ الشَّهَوَاتِ وَالنَّهَمَاتِ ^(٢) نَنْتَظِرُ بِهَا ، وَنَسْتَقْصِي فِي نَهَمَاتِهَا ؛ فإذا عَلِمَهُ فِي هَذَا بِأَنَّ رَبَّنَا رَحِيمٌ ، قَدْ سَوِدَ وَجْهَهُ ، وَأَحْرَقَ جَسَدَهُ ، وَنَكَّسَ قَلْبَهُ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ دُبُرَ ^(٣) كُلِّ صَلَاةٍ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ ؛ لِأَنَّهُ قَلْبُ أَهْلِهِ ^(٤) جَاهِلٌ بِرَبِّهِ ، فَهُوَ وَإِنْ عَلِمَ أَنَّ رَبَّهُ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ بِالرَّحْمَةِ ، لَا يَذَرِي مَا الرَّحْمَةُ إِلَّا عِلْمَ اللِّسَانِ ؛ فَعِلْمُهُ بِالرَّحْمَةِ مَقْدَارٌ مَا أَنْ يَقُولَ فِي نَفْسِهِ : إِنَّهُ إِذَا رُجِمَ فَقَدْ نَجَا مِنَ النَّارِ ، وَلَا يَعْلَمُ بِجَهْلِهِ بِنَفْسِهِ وَبِرَبِّهِ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى نَقَمَاتٍ وَسَطَوَاتٍ يَتَمَنَّى الْعَبْدُ أَنْ يُصْرَفَ بِهِ إِلَى النَّارِ .

العار والخزي بين يديَّ الله

حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ مَخْلَدٍ ، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْمُقَدَّمِيُّ ،

(١) أقمن : أجدر وأحق .

(٢) النهمة : الشهوة .

(٣) دبر كل صلاة : بعد كل صلاة .

(٤) الأبله : ضعيف الفهم والعقل .

عن الْمُعْتَمِر بن سليمان ، عن خاله فَضْل بن مُؤَمِّل الرَّقَاشِي ، عن محمد بن الْمُنْكَدِر^(١) ، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ الله عنه ؛ قال : قال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم : والذي نَفْسُ محمدٍ بيده ، إِنَّ العَارَ والتَّخْزِيَةَ لَيَبْلُغَانِ بِالْعَبْدِ فِي الْمَوْقِفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَتَمَنَّى أَنْ يُنْصَرَفَ بِهِ ، وقد علم أَنَّمَا يُنْصَرَفُ بِهِ إِلَى النَّارِ .

فالْعَارُ والخِزْيُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَعُهُ عَلَى الْأَكْبَادِ وَالْقُلُوبِ ، وَعَلَى الْأَرْوَاحِ ، وَوَجَعُ الْأَرْوَاحِ وَالْقُلُوبِ وَالْأَكْبَادِ يَضْعَفُ^(٢) عَلَى وَجَعِ الْأَجْسَادِ أَضْعَافًا لَا تُحْصَى ؛ لِأَنَّ الرُّوحَ بِحَيَاتِهِ يَأْلَمُ ، وَالْجَسَدُ بِالرُّوحِ يَجِدُ الْأَلَمَ ؛ فَإِذَا خَلَصَ إِلَى الْجَسَدِ شَيْءٌ أَلَمَ الرُّوحُ مِنْهُ ، وَإِذَا خَلَصَ إِلَى الرُّوحِ شَيْءٌ تَضَاعَفَ الْأَلَمُ لِلْحَيَاةِ الَّتِي فِي الرُّوحِ وَشِدَّةِ شَعُورِهِ بِالْأَلَمِ .

المعذب من الموحدين

فَالْمُعَذَّبُ مِنَ الْمَوْحِدِينَ إِذَا أُلْقِيَ فِي النَّارِ أُمِيتَ إِمَاتَةً حَتَّى تَحْرَقَ النَّارُ جَسَدَهُ ، ثُمَّ يَحْيَا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ هَكَذَا رَوَى لَنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ

(١) محمد بن المنكدر : هو محمد بن المنكدر القرشي التميمي من بني تميم بن مرة المدني ، زاهد من رجال الحديث ، من أهل المدينة ، أدرك بعض الصحابة وروى عنهم ، له نحو مائتي حديث ، قال ابن عيينة : « ابن المنكدر من علامات ومعادن الصدق » اهـ . راجع تاريخ الإسلام (٥ / ١٥٥ - ١٥٨) وتهذيب التهذيب (٩ / ٤٧٣) وقد توفي سنة ١٣٠ هـ . وقيل إنه توفي سنة ١٣١ هـ وعاش ٧٦ سنة . راجع الإعلام لخير الدين الزركلي (٣٣٣ / ٧) .

(٢) ضَعْفُهُمْ : كَثُرَ هُمْ بِالضَّعْفِ .

تعالى (١) : ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ . قال : أمّا الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون ولا يحيون . وأمّا الذين ليسوا من أهلها فإنّ النار تميته إماتة ثم يقوم ويشفع .

معناه عندنا أنّ الذين لا يموتون فيها ولا يحيون ، ليست لهم تلك الحياة التي في الجنة ؛ لأنّ حياة أهل الجنة من قُدس الحياة تحت العرش ، فَنَسِيَمُهَا يَحْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ .

حياة أهل النار :

وحياة أهل النار من غُسالَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حين يشربون من ماء الحياة على باب الجنة حتى تزول عنهم أَدْنَسُ الْأَدَمِيَّةِ ، وَأَسْقَامُهَا ، وَأَثْقَالُهَا وَأَذَاها ؛ فتجري تلك الغُسالَةُ إلى باب النار فتسقي أهل النار حتى يحيوا بتلك الغُسالَةِ ؛ ولا يتهنّون بها ؛ فتلك حياة يجدون بها أَلَمَ الحياة ولا يجدون طيبَ الحياة ؛ فلا حياة ولا موت ؛ فهذا الموقف بين يَدَيِ اللَّهِ تعالى في العار والتخزية أشدّ عذاباً في ذلك الخوف والهول والحَيَاءِ مِنَ الَّذِي أُمِيتَ فِي النَّارِ ، وَالنَّارُ تَحْرِقُ جَسَدَهُ ؛ وَالرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ تعالى محيطة به ، لا يزال يقتضي بها نجاته وخلاصه حتى يخلصه الله تعالى ، ثم يُرْمَى به إلى الجنة طاهراً .

مثل من يحشر في الموقف على تلون (٢) الأحوال

مثل مَنْ يُحْشَرُ إِلَى الْمَوْقِفِ غَدًا عَلَى تَلَوْنِ الْأَحْوَالِ مَثَلُ عَسْكَرٍ

(٢) تلون الأحوال : تغييرها .

(١) طه (٧٤ / ٢٠) .

نُودِي فِيهِمْ بِالرَّحِيلِ حِينَ انْفِجَارِ الصُّبْحِ ، فَفُتِحَ بَابُ الْمَدِينَةِ ،
فَخَرَجُوا ؛ فَرَكَبَ عَلَى هِمْلَاجٍ ^(١) بَلَغَ الْمَنْزَلَ ^(٢) ضَحْوَةً قَبْلَ أَنْ يَنَالَهُ حَرُّ
النَّهَارِ ، فَوَجَدَ الْمَنْزَلَ خَالِيًا فَنَزَلَ عَلَى مُخْتَارِهِ فِي الْطَفِّ مَكَانَ وَأَنْزَلَهُ
وَأَكْثَرَهُ مَرْفَقًا ، وَوَجَدَ الْأَعْلَافَ مُهَيَّاةً ، وَالسُّوقَ مُزِينًا خَالِيًا ، وَالْمِيَاهَ
صَافِيَةً ، وَالْمَسَاقِي نَظِيفَةً طَيِّبَةً ؛ فَيَنَالُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى مُنْتَهَى
وَاخْتِيَارِهِ ، حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ جَاءَتِ الرُّكْبَانُ عَلَى دَوَابِّ الْحُمْرِ مَعَ
الْأَنْثَقَالِ ، وَازْدَحَمُوا عَلَى الْمَنَازِلِ فِي الْمَنَازِلِ ، وَمَالُوا عَلَى الْأَعْلَافِ
وَالْأَسْوَاقِ حَتَّى تَضَايَقَتِ الْأَمْكِنَةُ وَالْأَعْلَافُ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى سَقْيِ الدَّوَابِّ
عَلَى الْإِزْدَحَامِ ؛ فَإِذَا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ جَاءَتِ أَصْحَابُ الدَّوَابِّ
الْقُطْفِ ^(٣) ، فَوَجَدُوا بَقِيَّةَ الْمَاءِ وَالْأَعْلَافِ ، وَلَمْ يَجِدُوا مَكَانًا فِي
الْمَنْزَلِ ، فَنَزَلُوا فِي الصَّحَرَاءِ ، وَهُمْ بَعْدُ فِي ضَرْوِ النَّهَارِ يُبْصِرُونَ أَنَّ
يَنْزِلُوا وَيَجِدُوا ^(٤) شَيْئًا مِنَ الْعَلْفِ وَالْمَاءِ وَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا
أَمْسَوْا جَاءَتِ الرَّجَالَةُ ^(٥) فَنَزَلُوا حَوْلَ الْمَنْزَلِ بِالْبُعْدِ مِنَ الْمُرَافِقِ ، وَلَمْ
يَجِدُوا شَيْئًا مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَعْلَافِ إِلَّا بَقِيَّةَ ، وَمِنَ الْمَسَاقِي الْمَاءَ مَعَ
الْكِدُورَةِ وَالطُّيْنِ ، حَتَّى إِذَا جَنَّ ^(٦) اللَّيْلُ جَاءَتِ الرَّجَالَةُ الزَّمْنَى ^(٧)
وَالْأَعْرَجُونَ ^(٨) وَالْعُمَيَّانِ وَنَحْوَهُمْ يَتَخَبَّطُونَ الطَّرِيقَ وَلَا يَجِدُونَ مَوْضِعَ

(١) الهملاج : هو البرذون الذلول .

(٢) المنزل : المكان الذي ضربوا فيه أوتادهم واستقرت به نواهم ، وألقوا فيه عصاهم .

(٣) قطفت الدابة : ودابة قطوف أي ضاق مشيها .

(٤) أن ينزلون ويجدوا [أ ، ب] وهو تحريف خطير من الناسخ .

(٥) الرجالة : الذين يسبرون على أرجلهم .

(٦) جن الله : أقبل بظلامه .

(٧) الزمنى : مفردها الزمن وهو المريض .

(٨) الأعرجون : جمع مفرده أعرج .

نزولٍ إِلَّا فِي الْخَرَابَاتِ وَالْأَرْضِ الشَّائِكَةِ^(١) وَالْكُنَاسَاتِ وَالْمُتَغَوِّطِ^(٢) ،
فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَهَجُومِ الْبَرْدِ وَالرِّيحِ وَالْأَنْدَاءِ مِنَ الثَّلُوجِ وَغَيْرِهَا ، فَلَا
مَكَانَ وَلَا عِلْفَ [٨٩] وَلَا مَرَفَقَ وَلَا كِنَّ^(٣) وَلَا مُسْتَقَرًّا ؛ فَهَمَّ يَتَمَنُّونَ
انْكَشَافَ^(٤) اللَّيْلِ وَانْفِجَارَ الصَّبْحِ ، وَلَا صُبْحَ .

فَهَذَا مَثَلُ أَهْلِ الْحَشْرِ غَدًّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ
تَعَالَى^(٥) : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ . وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ
جَلَالُهُ^(٦) : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ
يَنْسِلُونَ ﴾ .

يَحْشُرُ النَّاسَ رُكْبَانًا وَرَجَالَةً وَعَلَى وُجُوهِهِمْ :

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يُحْشَرُ النَّاسُ أَثَلَاثًا :
ثُلُثَ رُكْبَانٍ ، وَثُلُثَ رَجَالَةٍ ، وَثُلُثَ عَلَى وُجُوهِهِمْ . رُكْبَانُهُمْ قَوْلُ اللَّهِ
تَعَالَى^(٧) : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ . قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ نَجَائِبَ .

وَإِنَّمَا تَلَوْنَ حَشْرَهُمْ لِأَنَّ الْمَرَائِبَ مُتَفَاوِتَةٌ كَمَا ضَرَبْنَا فِي الْمَثَلِ :

(١) الشاكة : ذوات الأشواك .

(٢) المتغوط : المكان يتغوط فيه .

(٣) الكن : الستر .

(٤) انكشاف [ب] .

(٥) الكهف (١٨ / ٩٩) فجمعناهم جمعاً : أي جمعنا الإنس والجن في عرصات
القيامة للعرض على الله سبحانه وتعالى .

(٦) يس (٣٦ / ٥١) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥ / ٤٠ ، ٤١) والطبري
(٢٣ / ١١) وتفسير غريب القرآن ص ٣٦٦ بتصرف .

(٧) مريم (١٩ / ٨٥) .

مِنْ فَارِسٍ ، وَرَاكِبِ حِمَارٍ ، وَصَاحِبِ قَطُوفٍ ، وَرَاجِلٍ ، وَمَنْ دَوْنَهُ مِنَ الزَّمَنِ وَغَيْرِهِمْ ؛ فَيَصِلُ إِلَى الْمَوْقِفِ عَلَى قَدَرِ مَرْكَبِهِ ، وَمَرْكَبُهُ مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَذَاكَ مَرْكَبُ قَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَدَرِ مَعْرِفَتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، يَصِلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِنَيْتِهِ فِي الْأَعْمَالِ (١) ؛ فَفُرْسَانُهُمُ السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ ؛ وَتَفَاوُتُ سَبَقِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ بِتِلْكَ الْقُلُوبِ الْفَوَارِسِ عَلَى قَدَرِ تَفَاوُتِ مَرَاجِلِهِمْ ، كَتَفَاوُتِ الْخِيُولِ هَاهُنَا فِي دَارِ الدُّنْيَا ؛ فَرُبَّ فَرَسٍ تَبْلُغُ قِيَمَتُهُ وَثْمَنُهُ أَلْفًا (٢) مِنَ الدَّرَاهِمِ ، وَرُبَّ فَرَسٍ أَلْفٌ مِنَ الدَّنَانِيرِ ؛ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِمُ الْمُقْتَصِدُونَ وَهُمْ عَلَى قُطْفِ الدَّوَابِّ وَالْأَثْقَالِ وَالْحُمُولَاتِ ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِمْ أَصْحَابُ الْحُمْرِ يَفْتُرُونَ (٣) مَرَّةً وَيَقُومُونَ أُخْرَى ، مَرَّةً رُكْبَانًا ، وَمَرَّةً مُشَاةً ، يَسُوقُونَ حُمْرَهُمْ بِالْعَنَاءِ وَالْعَجْزِ ، حَتَّى بَلَّغُوا الْمَنْزِلَ ؛ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِمُ الرِّجَالُ حُفَاةً وَأَصْحَابُ كَارَاتٍ (٤) عَلَى ظُهُورِهِمْ وَأَعْنَاقِهِمْ ، قَدْ حَفِيتْ أَقْدَامُهُمْ ، وَنَكَبَتْ (٥) أَكْتَافُهُمْ ، وَانْعَقَرَتْ (٦) مِنَ الْحُمُولَاتِ الَّتِي عَلَى أَعْنَاقِهِمْ وَمِنْ تِلْكَ الْكَارَاتِ ؛ فَهُمْ رِجَالُ الدِّينِ ؛ لَيْسَ لَهُمْ نِيَّاتٌ وَلَا تَقْوَى وَلَا تَقِيَّةٌ ، يَخْتَبِطُونَ الطَّرِيقَ فِي الدِّينِ تَخْبِطًا عَلَى الْعَادَةِ « وَالشَّايِذْبُودِ » ، يَعْمَلُونَ عَلَى الْعَادَةِ وَالتَّجْوِيزِ ؛ فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الْعَامَّةِ فِي أَسْوَاقِهِمْ ، يَسْتَتِرُونَ بِالْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ ، وَالصُّومِ ، وَالصَّدَقَةِ ، وَالشَّرَائِعِ ؛ وَقُلُوبُهُمْ مَشْحُونَةٌ

(١) لَأَنَّ الْأَعْمَالَ مَنْوُطَةَ بِالنِّيَّةِ وَلَا ثَوَابَ إِلَّا بِالنِّيَّةِ وَالْأُمُورُ بِمَقَاصِدِهَا وَالْأُمُورُ مَرْهُونَةٌ بِالْمَرَادِ مِنْهَا ، وَنِيَّةُ فَاعِلِهَا .

(٢) أَلْفٌ [أ ، ب] وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٣) يَفْتُرُونَ : تَنْكَسِرُ حَدَّتُهُمْ وَتَلِينُ طَبِيعَتُهُمْ بَعْدَ الشَّدَةِ .

(٤) الْكَارَاتُ : جَمْعُ مَفْرَدَةِ الْكَارَةِ مِنَ الثِّيَابِ وَهِيَ مَا يَجْمَعُ وَيَشُدُّ .

(٥) نَكَدَتْ [ب] ، وَهِيَ تَصْحِيفٌ .

(٦) انْعَقَرَتْ : جَرَحَتْ .

بحبِّ الدنيا ، ومفتونةٌ بالشَّهوات ، قد ضَيَّعُوا أَحْكَامَ الْفَرَائِضِ ،
وَتَوَثَّبُوا^(١) فِي الْحُدُودِ ، وَيَعْمَلُونَ أَعْمَالَ الْبِرِّ عَلَى الْعَادَةِ بِالْجُزَافِ^(٢)
وَالْتَخَبُطُ ، قَدْ نَسُوا الْمَعَادَ ، وَخَلَوْا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَخَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى
فِي السِّرِّ ، وَأَهْمَلُوا الْوَرَعَ ؛ فَهَمَّ سُرَّاقُ الْأَسْوَاقِ فِي مَكَايِلِهِمْ
وَمَوَازِينِهِمْ ، وَتَضَيَّعَ أَمَانَاتُهُمْ .

ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِمْ هَؤُلَاءِ الْمُتَهَوِّكُونَ^(٣) الْمَفْتُونُونَ فِي الدُّنْيَا حَيَارَى
سَكَارَى ، فَهَمَّ عُرْجٌ وَزَمْنَى^(٤) وَعُغْمَى ، لَا يَصِلُونَ إِلَى الْمَنْزِلِ إِلَّا بَعْدَ
أَهْوَالٍ وَشِدَائِدٍ وَعَجَائِبَ ، ثُمَّ بَقُوا فِي ظُلْمَةِ الصَّرَاطِ ، وَنَفَخَاتِ النَّارِ ،
وَدُخَانِ الْحَرِيقِ .

صفة فارس من السابقين :

قال له قائل : صِفْ لَنَا فَارِساً مِنَ السَّابِقِينَ مَا صِفَّتُهُ ؟

قال : ذَاكَ فَارِسٌ رَكِبَ مَرْكَباً مِنْ مَرَاكِبِ الْمَعْرِفَةِ يَطِيرُ قَلْبُهُ إِلَى
اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَمْرٍ وَحُكْمٍ ، حَتَّى لَوْ اسْتَقْبَلَتْهُ نِعْمَةٌ طَارَ قَلْبُهُ
إِلَى الْمُنْعِمِ ، وَلَهَا عَنِ النِّعْمَةِ ، وَإِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ شِدَّةٌ طَارَ قَلْبُهُ إِلَى
الْمُقَدَّرِ ، وَوَقَفَ بِيَابِ الْقُدْرَةِ يَنْظُرُ إِلَى تَقْدِيرِهِ لَهُ ذَلِكَ قَبْلَ اللَّوْحِ
وَالْقَلَمِ ، وَخَلَقِ الْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَهَابَ^(٥) أَنْ يَلَاحِظَ
غَيْرَ ذَلِكَ الَّذِي قَدَّرَتْ لَهُ نَفْسَهُ بِشَهَوَاتِهَا وَأُمْنِيَّتِهَا ، وَإِنْ ذَكَرَ الرِّزْقَ طَارَ

(١) تَوَثَّبُوا فِي الْحُدُودِ : اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا ، وَاحْتَلَوْهَا .

(٢) الْجُزَافُ : الْمَسَاهَلَةُ ، وَهُوَ أَيْضاً بَيْعُ الشَّيْءِ لَا يَعْلَمُ لَهُ كَيْلٌ وَلَا وَزَنٌ .

(٣) الْمُتَهَوِّكُونَ : جَمْعُ مُتَهَوِّكٍ وَهُوَ الْمُتَحِيرُ ، وَالْمُتَهَوِّرُ .

(٤) زَمْنَى : مَرْضَى .

(٥) هَابَ : تَهَيَّبَ .

قَلْبُهُ إِلَيْهِ ، وَإِنْ ذَكَرَ أَمَرَ الرِّزْقَ طَارَ قَلْبُهُ إِلَى الرَّازِقِ ، فَوَجَدَ الْأَمْرَ
مَفْرُوعًا مِنْهُ^(١) ، وَأَنَّهُ قَدْ ضَمِنَ لَهُ ذَلِكَ ، وَأَبْرَزَ ضَمَانَهُ فِي اللَّوْحِ ،
وَإِنْ نَابَتْهُ نَائِبَةٌ^(٢) طَارَ قَلْبُهُ إِلَى مَا نَابَهُ عَنْهُ ، فَنَزَلَ مَنَازِلَ الْوَائِقِينَ
بِكْرَمِهِ ، وَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِ ، وَوَثِقَ بِهِ ، وَسَكَنَ فِي مَحَلِّهِ لِرَبِّهِ ، مَطْمَئِنًّا
الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ ؛ وَإِنْ أَعْوَزَهُ أَمْرٌ وَأُزْعَجَهُ ، طَارَ قَلْبُهُ إِلَى الْمَدْبَرِّ ،
فَتَعَلَّقَ بِهِ مَضْطَرًّا إِلَيْهِ مُفْتَقِرًا إِلَى مَا أَمَلَهُ وَرَجَاهُ ؛ فَهَذَا رَاكِبٌ نَالَ مَرْكَبًا
سَرِيًّا بِهِيًّا هَنِيئًا ، مَا أَسْرَعَ مَا يَبْلُغُ بِهِ يَوْمَ الْمَحْشَرِ إِذَا بُعِثَ مِنْ قَبْرِهِ فَيَجِدُ
مَكَانًا فِي ظِلِّ الْعَرْشِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَجِيءَ الرَّحْمَةُ ، وَقَدْ نَالَ أَهْلُ الْمَحْشَرِ
فِي الْمَوْقِفِ مِنَ الْعَطَشِ وَالْجُوعِ وَالْحَرِّ .

حدثني محمد بن يحيى بن أَكْرَم بن حَزْم القطيعي ، حدثني
بِشْرِ بن عُمَرَ الزُّهْرَانِي ، حَدَّثَنِي ابْنُ لَهِيْعَةَ ، عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ ،
عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : طُوبَى^(٣) لِلْسَّابِقِينَ إِلَى ظِلِّ اللَّهِ تَعَالَى .
قِيلَ : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا الْحَقَّ قَبَّلُوهُ ، وَإِذَا
سُئِلُوا بِذَلُولِهِ ، وَالَّذِينَ يَحْكُمُونَ لِلنَّاسِ بِحُكْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ .

فصاحبُ هذه الصِّفَةِ قَلْبُهُ حَيٌّ بِاللَّهِ ، وَنَفْسُهُ سَخِيَّةٌ مُنْقَادَةٌ^(٤) لِلَّهِ ،
قَدْ ذَلَّتْ بِحِدَّةِ الْحَيَاةِ لِلَّهِ وَاقِفًا عَقْلُهُ بِعَدْلِ اللَّهِ ، يَحْكُمُ لَخَلْقِهِ بِحُكْمِهِ
لِنَفْسِهِ ، فَمَرْكَبُهُ مِنْ أَعَالِ الْمَرَائِبِ ، وَأَجُودُ الْحَيَوَانِ .

(١) مفروغاً منه : منتهياً .

(٢) نائبة : باقعة ونازلة وداهية .

(٣) طوبى : لإسم الجنة ، وقيل هي شجرة فيها .

(٤) منقادة لله : مستسلمة في خشية وإخبات .

مثل العامل يعمل أعمال البر

مَثَلُ الْعَامِلِ الَّذِي يَعْمَلُ أَعْمَالَ الْبِرِّ عَلَى طَرِيقِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ
مَثَلُ نَهْرٍ اجْتَمَعَ فِي مَوْضِعٍ فِيهِ مِنَ الْبَرْدِيِّ وَالْحَطْبِ ، وَأُصُولِ الْأَبَاءِ
وَنَحْوِهَا ، فَخَاضَ فِيهِ إِنْسَانٌ ؛ فَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ وَصَلَتْ يَدُهُ يَقَعُ فِي يَدِهِ
شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ ، وَبَعْضُهَا عَلَى ظَهْرِهِ وَرَأْسِهِ وَبَطْنِهِ ، فَيَخْرُجُ مِنَ
النَّهْرِ مَتَلَوْنًا بِهَا .

فَأَهْلُ الْغَفْلَةِ يَجْمَعُونَ حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ ، وَلَيْسَ لَهُمْ
مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الظَّاهِرُ فِي مَقَاصِدِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ إِلَّا الثَّوَابَ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ
لِعَمَّالِهِ بِذَلِكَ ، فَعَلَى قَدْرِ طَهَارَتِهِمْ وَصِدْقِهِمْ يُثَابُونَ مِنَ الْجَنَّةِ أَجُورَ
عَمَالَتِهِمْ ، وَتَعَبَ أَجْسَادِهِمْ ؛ وَتِلْكَ الطَّاعَةُ تُنَالُ مِنْ أَنْوَارِ الْإِيمَانِ ،
وَتِلْكَ نِيَّاتُ أَنْوَارِ الْإِيمَانِ الَّذِي اعْتَقَدُوهُ فَقَطْ .

فَأَمَّا أَهْلُ الْإِنْتِبَاهِ فَيَعْمَلُونَ الْأَعْمَالَ عُبُودَةً^(١) لِلَّهِ ، عَارِفِينَ مُوقِنِينَ
عَالِمِينَ بِاللَّهِ ؛ فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ مَنْ يَغُوصُ فِي الْبَحْرِ وَالْأَنْهَارِ ، فَيَضْرِبُ
بِيَدِهِ فِي غَوْصِهِ ، فَيَبْلُغُ فِي يَدِهِ جَوْهَرَةً لَا يُحِيطُ بِشَمْنِهَا عِلْمٌ مِنْ
نَفَاسَتِهَا^(٢) وَصَفَائِهَا ، فَهُمْ يَدْخُلُونَ فِي الطَّاعَاتِ بِحَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ ،
وَلَكِنْ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا تَعْجَبُ الْمَلَائِكَةُ إِذَا رَفَعَتْ إِلَى اللَّهِ
تِلْكَ الْحَرَكَاتُ فِي حَشْوِهَا مِنَ الْأَنْوَارِ مَا يَمْلَأُ الْأَفُقَ الْأَعْلَى .

وَأَهْلُ الْغَفْلَةِ حَشَوْ حَرَكَاتِهِمْ فِي الطَّاعَاتِ أَنْوَارُ نِيَّاتِهِمْ

(١) العبودية : العبودية ، الطاعة والخشوع .

(٢) نفس الشيء نفاسة : أي علا قدره .

وَمَقَاصِدِهِمْ ، وتلك من نُورِ الإيمانِ الذي اعتقدوه .

وأهل الانتباه حَشَوْ حركاتهم في الطاعات ؛ لأنَّ في حركات جَوَارِحِهِمْ نُورَ الحُبِّ ، ونورَ الحياءِ ، ونورَ الشوقِ والحنين ، والتضرُّع ، والقلق ، والبُسرور والبَهْجَة ؛ والشُّكر ، والذِّكْر الصافي [٩٠] ، والإقبال على الله ، والإنابة ، والخشية ، والخضوع والتسليم ، ورؤية المِنَّة^(١) ، والتَّبَرِّي من الحَوْل^(٢) والقُوَّة ؛ فهؤلاء عَوَاصُونُ يَغُوصُون في كل حَرَكَة في بُحُور المعرفة^(٣) في وقت مُرُورهم في استعمال الجَوَارِحِ ومُضِيِّهِمْ فيها بقلوبهم ؛ ويستخرجون من غَوْصِهِم الدَّرَّ اليتيم^(٤) ، والجَوْهَر النَّفِيس ؛ لأنَّ القلب خزانةُ الله تعالى ، وفيها نوره ؛ فإذا طَهَّرَ العَبْدُ سَاحَةَ الخزانة ، وهي الصِّدْر ، ظهرت في تلك الساحة من باب الخزائن في وقت عمل يعملُه عجائب لا توصَفُ من هذه الجواهرِ والدُّرَر ، وحركات الطاعات ذات صور ؛ فكلُّ طاعةٍ لها صورةٌ ومِثَال ، وفي كل صورة يعملها ثَوَابٌ^(٥) فَيَرَاهُ بِهَا رَبُّهُ ، ويتزيَّن العَبْدُ بتلك الصورة لما فيها من الجَوَاهِر لمعبوده ؛ فهذا عَبْدٌ يتزيَّن بجواهره من كنوزه ، حتى إذا جازَ هذه الخُطَّة ، ووصل إلى فَرْدِيَّتِهِ^(٦) ، فكان هذا عبداً^(٧) تَزَيَّنَ لِلَّهِ بِاللَّهِ ، وكان الله مُسْتَعْمِلَهُ في قَبْضَتِهِ ، وهي دعوةُ أَجَلِّ العبادِ ، واحد من السبعة الذين لقيهم يونس

(١) المنة : النعمة .

(٢) الحول : القدرة والقوة .

(٣) تأمل هذا التعبير الصوفي .

(٤) الدر اليتيم : الذي لا نظير له .

(٥) ثواباً [أ ، ب] وهو تحريف من الناسخ .

(٦) فرديته : وحدانيته ، والأنسب والأليق أن يقول (الأحدية) .

(٧) عبد [ب] وهو تحريف .

صلواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وكان يَدْعُو ويقول : اللهم بك أَتَزَيُّنُ فاجْعَلُ
اليقين شِعَارِي ، والصَّبْرُ دِثَارِي^(١) ؛ فهذا عَبْدٌ تَزَيَّنَ بِاللَّهِ لَهُ .

مثل من وثق بالله في ضمان رزقه

مَثَلُ مَنْ وَثَقَ بِاللَّهِ فِي ضَمَانِهِ فِي رِزْقِهِ وَكِفَايَتِهِ وَمَوَاعِيدِهِ مَثَلُ
مَنْ ضَافَ^(٢) مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ ، فَدَعَاهُ الْمَلِكُ ، فَخَافَ مِنْ دَعْوَتِهِ ،
وَامْتَنَعَ وَاحْتَالَ لِنَفْسِهِ هَرَبًا وَامْتَنَاعًا لِقَلَّةِ ثِقَّتِهِ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَذِرِي مَا لَهُ عِنْدَ
الْمَلِكِ فِي الْغَيْبِ ؛ فَعَلِمَ الْمَلِكُ بِحَالِهِ ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَدًا مِنْ أَوْلَادِهِ
رَهِينًا^(٣) عِنْدَهُ ، وَقَالَ : هَذَا وَلَدِي عِنْدَكَ وَثِيقَةً ، فَاحْضُرْ إِلَيَّ ، فَإِنِّي
أُفِي لَكَ بِالْأَمَانِ وَالْوَفَاءِ بِكُلِّ مَا وَعَدْتُكَ .

فَسَكَنَ الْخَائِفُ بِذَلِكَ الرَّهْنِ ، وَاطْمَأَنَّ نَفْسُهُ ، وَعَلِمَ أَنَّ
الرَّهَانَ^(٣) لَطْمَأْنِيَةِ الْقَلْبِ وَالْأَمَانِ ، وَلَا مُحَالَةَ يَفِي لَهُ بِذَلِكَ .

فَالْمُؤْمِنُ وَضَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ نُورَهُ ، ثُمَّ ضَمِنَ لَهُ الرِّزْقَ
وَالْكَفَايَةَ ، وَأَمَرَهُ بِالْعُبُودَةِ ، وَدَعَاهُ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَوَعَدَهُ حُسْنَ الْمَأْبِ^(٤) ؛
فَكُلَّمَا نَظَرَ الْمُؤْمِنُ إِلَى هَذَا الرَّهْنِ الَّذِي عِنْدَهُ اطمأنَّ ، وَحَسُنَ ظَنُّهُ
بِهِ ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : لَوْلَمْ يُرَدِّ بِي خَيْرًا مَا وَضَعَ مِثْلَ هَذَا الْجَوْهَرِ

(١) الشعار : هو ما ولي الجسد من الثياب ، ولكن الدثار فهو ما يتدثر به الإنسان ويتلفف
به وهو الكساء فوق الشعار .

(٢) ضاف ملكاً : نزل به ضيفاً عنده .

(٣) الرهين : كل ما احتبس به شيء .

(٤) المآب : المرجع .

النفيسِ في وثيقة ورهنًا ، فبذل نفسه له ، وألقى ^(١) بيده ، وارتفعت
التهمة وسوء الظن وخوف الرزق .

مثل أهل الثبات في الأعمال

مثل أهل الثبات في الأعمال مثل ملك له ثلاثة أعبد ، فأعطى
كل واحد منهم قضيب كرم ليغرسه ويعمره ويثمره ، ويحمل شراب
عصيره إليه ؛ فعمد ^(٢) أحدهم إلى كرمه فجعله مربى ^(٣) له ، وقام
بعمارته في السقي ، وتقلب الأرض ، يكرهه ^(٤) ويسرقنه ^(٥) ويشده وما
يصلح ^(٦) لها ، حتى أدرك وأثمر ؛ فإذا جاء أوان عصيره فعصره فملاً
زقاً صافياً صرفاً ^(٧) من العصير .

وعمد الآخر إلى قضيبه فسقاه سقياً دون سقي ، ولم يثمره ، ولم
يقيم بعمارته مثل الأول ؛ فأدرك الكرم ، ولكن ليس لشجره نزاهة
وطراوة ، ولا لعنبه من الحلاوة ما يكون لمثله ، فعصر وملاً زقه ممزوجاً
بالماء .

وعمد ^(٨) الثالث إلى قضيبه فسقاه واحدة ، ولها عنه ، ولم يثمره ،

(١) ألقى بيده : سلم .

(٢) يقال عمد إلى الشيء : قصده .

(٣) مربى له : مكان يربى فيه وينمو .

(٤) يكرهه : يحفره من جديد ، ومنه سميت الكراكة أي الآلة التي تقوم بالكراية .

(٥) يسرقنه : من السرقين وهو الزبل .

(٦) كذا ورد بالأصول .

(٧) صرفاً : محضاً خالصاً .

(٨) عمد إلى الشيء : قصد إليه .

ولم يَقُمْ بعمارته بشيء ، حتى أَدْرَكَ عَيْنُهُ ، كُلَّهُ حَامِضٌ ، ليس فيه من الطَّرَاوَةِ والماءِ شيء ، فعصره كذلك ، فلم يَمَلَأِ الزُّقُّ ، فنفخ فيه حتى امتلأ ريحاً ، فصار في رَأْيِ العين كالممتلئ .

يَحْمِلُ كُلُّ وَاحِدٍ زَقَّهُ إِلَى الْمَلِكِ فَرَأَى الْمَلِكُ كُلَّهَا ، فِي رَأْيِ عَيْنِهِ مَمْتَلِئٌ ؛ فَحَلَّ مِنَ الْأَوَّلِ وَكَاءَهُ^(١) فذاقه ، فَرَأَهُ شَرَاباً صِرْفاً لذيذاً ، فَأَعْجَبَ الْمَلِكُ بِذَلِكَ وَقَبَلَهُ وَاسْتَحْلَاهُ ، وَوَافَقَهُ وَأَعَدَّ لَهُ جَزَيْلاً^(٢) ، وَأَكْرَمَهُ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ خِلْعَةً^(٣) بَهِيَّةً^(٤) ؛ فَحَلَّ وَكَاءَ الثَّانِي فذاقه فوجده ممزوجاً بالماءِ ، وَلَمْ يَجِدْ لَهُ كَثِيرَ حَلَاوَةٍ ؛ فَرَمَى بِهِ وَجْهَهُ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ .

فَلَمَّا حَلَّ وَكَاءَ الثَّالِثِ خَرَجَتْ الرِّيحُ ، فَبَقِيَ فِي الزُّقِّ شَيْءٌ قَلِيلٌ ، فَلَمَّا ذَاقَهُ وَجَدَهُ حَامِضاً غَيْرَ مُدْرِكٍ^(٥) ، فَضَرَبَ بِالزُّقِّ عَلَى رَأْسِهِ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَسَقَطَتِ الْجِلْدَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ .

عمال الله تعالى على ثلاثة أصناف

فُعْمَالُ اللَّهِ تَعَالَى ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ : فَعَامِلُ تَصَدُّرُ أَعْمَالِ بَرِّهِ مِنْ قَلْبٍ سَقِيمٍ ، فَصَدْرُهُ مُغَيَّمٌ بِسَقَمٍ قَلْبِهِ مِنْ أَمْرَاضِ الذُّنُوبِ ، وَغَيِّمَهُ مِنْ دُخَانِ الشَّهَوَاتِ وَقَضَاءِ الْمُنَى ؛ فَقُوَّةُ عَمَلِهِ إِنَّمَا هِيَ^(٦) مِنْ نُورِ التَّوْحِيدِ

(١) الوكاء : حبل يشد به رأس القربة .

(٢) الجزيل : العطاء الكثير .

(٣) الخلعة : ما يمنحه الإنسان لغيره من الثياب .

(٤) بهية : جميلة ، من البهاء وهو الحسن والجمال .

(٥) غير مدرك : غير ناضج ..

(٦) إنما هو [ب] وهو تحريف من الناسخ .

فقط ، فإذا خرج عَمَلُهُ حشو نورِهِ الذي بدر من التوحيد ؛ فالأعمالُ
قوالبُ ، وحشوهاً الأنوار ، فصاحبُ هذه الصِّفَةِ كصاحبِ زُقٍّ^(١) منفوخ
فيه حين حُلِّ وكأُوهُ خرجت الريحُ ، وبقي في أسفلهِ شيءٌ يسير قليلٌ ،
وتساقط الزُقُّ ؛ فإذا رُفِعَ عَمَلٌ هذا إلى الله تعالى لم يظهر منه من النور
إلا بمقدار النور الذي ذكرنا ، وسائرُها^(٢) حركات الجوارح بلا نور .

والثاني خرج عَمَلُهُ إلى الله تعالى ممتلئاً نوراً ممزوجاً بنور الرجاء
والنوال^(٣) من الله تعالى ؛ فطمع نواله أذهب حلاوة عَمَلِهِ .

والثالث خرج عمله إلى الله تعالى ممتلئاً نوراً من نور القُرْبَةِ ،
حشواً ذلك النور حُبُّ الله تعالى ، لم يَتَغ (٤) به غير وجهه الكريم من
غير أن يلتفت إلى نفس ولا طمع ؛ فلما رُفِعَ إلى الله تعالى ظهر منه
من النور ما أحاط بالمعرض من العرش ، وانتشر في جوانبه ، وملاً
الخزائن ؛ فهذا عَمَلُ الْمُقَرَّبِينَ والثاني عَمَلُ الْمُقْتَصِدِينَ ، والثالث عَمَلُ
الْمُخْلِصِينَ الظالمين لأنفسهم .

مثل الطاعات في الزينة

مَثَلُ الطاعات في الزَّيْنَةِ مَثَلُ زِينَةِ الثَّوبِ المنسوج المنقوش بالوانِ
النقوشِ ، فكلُّ مَنْ نظر إليه في هذه الزينة دُهِلَ عَقْلُهُ من حُسْنِهِ

(١) الزق : جلد يجز ولا يتنف للشراب وغيره ، وهو أيضاً السقاء .

(٢) سائرُها : باقيها .

(٣) النوال : العطاء .

(٤) يتغى : يطلب .

وَبَهَائِهِ ، وَسَبَى قَلْبَهُ بِهَجْتِهِ ؛ فَالْناظِرُونَ إِلَى زِينَةِ الْأَعْمَالِ أَحَقُّ أَنْ تَسْبِيَّ مِنْهُمْ قُلُوبُهُمْ بِزِينَتِهَا وَبَهَائِهَا وَبِهَجْتِهَا .

قال له قائل : ما زينة الأعمال ؟

قال : زِينَتُهَا فِي لَبِقِهَا^(١) ؛ فَمَنْ احْتَظَى مِنَ اللَّبِقِ زَيْنَهَا ؛ فزينة الثياب إنما ازدادت باجتماع الألوان المنسوجة بعضها ببعض ، فإذا تَلَوْنَتْ عَلَى الْعْيُونِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَنُقُوشِهَا التَّدَّتْ بِتَأْلِيفِهَا ، فزينة الأعمال نِي لَبِقِهَا ، فَمَنْ احْتَظَى مِنَ اللَّبِقِ رَأَى زِينَتَهَا .

قال له قائل : ضَرَبْتَ الْمَثَلَ بِشَيْءٍ فَأَفْهَمْنَا بِهِ ، فَبَيِّنْ لَنَا نَوْعاً^(٢) مِنْ ذَلِكَ نَفْهَمُ .

قال : فَاَنْظُرْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا هِيَ قِيَامٌ ، ثُمَّ انْتِصَابٌ ، ثُمَّ تَكْبِيرٌ ، ثُمَّ وَقُوفٌ ، ثُمَّ ثَنَاءٌ^(٣) ، ثُمَّ تِلَاوَةٌ ، ثُمَّ رُكُوعٌ ، ثُمَّ سُجُودٌ ، ثُمَّ جُثُوءٌ^(٤) ، ثُمَّ ارْتِغَابٌ^(٥) ثُمَّ تَسْلِيمٌ ؛ فَهَذِهِ أَعْمَالٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَأَقْوَالٌ مُتَبَايِنَةٌ ؛ وَلِكُلِّ فِعْلٍ زِينَةٌ ، وَلِكُلِّ زِينَةٍ بَهَاءٌ ؛ وَبَهَاؤُهُ مِنْ أَصْلِهِ الَّذِي مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ .

فإذا اجتمعت هذه الأنواع على التَّفَاوُتِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ تَلَوْنَتْ [٩١] ، وَازْدَانَتْ ، وَالتَّدَّتْ الْقُلُوبُ بِتِلْكَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ ؛ ثُمَّ الْمَلْتَدُّونَ بِهَا عَلَى دَرَجَاتِهِمْ فِي التَّرَائِي ؛ فَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ تَلَحَّظُ فِي

(١) لَبِقٌ بِهِ الثَّوبُ : لَاقَ بِهِ وَنَاسَبَهُ .

(٢) نَوْعٌ [ب] وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٣) الثَّنَاءُ : الْمَدْحُ .

(٤) الْجُثُوءُ : الْجُلُوسُ عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ .

(٥) ارْتَغَبَ : ابْتَهَلَ وَضَرَعَ .

أعمالهم إلى حركاتهم فيها على الخضوع والذلة ؛ يتذلّلون لمليّكهم
بتلك الحركات عبوداً وأسراً .

وطائفة تُلحظُ إلى حركاتهم فيها إلى فرح الله بفعل العبيد ؛
فهم يتقلّبون ويتصرفون فيها التذاذاً بفرح الله تعالى ومسرّاته بتلك
الأفعال ، وقوله لعيسى عليه السلام : يا عيسى ، تحرّ (١) مسرتي ؛ وهو
قوله صلى الله عليه وسلم (٢) : لله أفرح بتوبة العبد من أن يضل
أحدكم راحلته (٣) في أرض فلاّة ، عليها زاده ومتاعه ، فيضرب يميناً
وشمالاً فلا يجد ، فيقول في نفسه : أرجع إلى ذلك الموضع فأموت
فيه ، فوطّن نفسه (٤) على ذلك ؛ فإذا رجع إلى ذلك الموضع وجد
راحلته قائمة هناك عليها زاده وشرابه ومتاعه .

وكذلك الصّوم إنما هو دعوة القلب النّفس إلى ترك الشهوات
ليومه الذي يريد أن يُصبح فيه ، والنفس تتأقّل وتتفرّ عن ذلك النّفرة
التي تفرّ ، وتتأقّل عن تركها حتى إذا أجابت القلب إلى ذلك ارتحل
القلب إلى الله تعالى بانقياد النّفس له ومتابعتها إياه ، وقبول القلب من
الله تعالى ذلك التّرك والكفّ عن الشهوات من الطعام والشراب
والنّساء ، والحفّظ للسمع والبصر واللسان عمّا لا يحلّ ، ثم إلى النفس
عازماً ؛ فذاك الارتجاع زينة عمله في العزيمة عند الرجوع إلى النفس
وقبوله من الله تعالى ؛ فجاء بذلك القبول ، فأحاط بالنّفس ؛ فتلك

(١) يتحرى : يتعمد .

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه .

(٣) الراحلة : المركب من الإبل .

(٤) وطّن نفسه على أمر ما : مهّدها لفعله وروضها وذلّلها .

الإحاطةُ عَزِيْمَةُ القلبِ ، وانقيادُ النفسِ وثاقه^(١) إِيّاها ، فَرَبَضَتِ النفسُ ساكنةً .

هذا مُبْتَدَأُ^(٢) الصَّوْمِ ؛ فَمِنْ مُبْتَدَأِ هذا اليومِ إِلَى آخِرِهِ فِي صَدْرِهِ خَوَاطِرٌ ، وَعَلَى ظَاهِرِ جَوَارِحِهِ عَوَارِضٌ تَحْتَاجُ النَّفْسُ إِلَى أَنْ تَتَجَرَّعَ مَرَارَةَ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ خَاطِرَةً^(٣) كَانَتْ أَوْ عَارِضَةً ؛ فَكَلِمَا خَطَرَ بِيَالِهِ فِي صَدْرِهِ بَيْنَ عَيْنَيْ قُوَادِهِ خَطَرَةٌ هَاجَ الْبَالُ ، وَاشْتَهَتْ النَّفْسُ لَتِلْكَ الشَّهْوَةِ ، وَسَكَّنَهَا الْقَلْبُ فَرِيضَتُ^(٤) ، كَانَ لَهَا بِكُلِّ خَاطِرَةٍ وَعَارِضَةٍ تَتَجَرَّعُ النَّفْسُ مَرَارَةَ التَّرْكِ جَزَاءً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَمِنْ يُحْصِي هَذِهِ الْخَطَرَاتِ وَالْعَوَارِضَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى .

وَلِذَلِكَ قَالَ : الصَّوْمُ لِي ، وَأَنَا أُجْزِي بِهِ ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ تَجَرَّعَتْ مَرَارَةَ التَّرْكِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَالْقَلْبُ وَفَى بِمَا قَبِلَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَالْثَوَابُ بِتَجَرُّعِ الْمَرَارَةِ ، وَالْجَزَاءُ لِلْقَلْبِ بِالْوَفَاءِ .

فَطَبَقَةُ مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْخَطَرَاتِ وَالْعَوَارِضِ فِي دَرَجَةِ مَلَا حِظَةِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ .

وَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ فِي دَرَجَةِ مَلَا حِظَةِ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى فَتَلَا شَتِ الْمَرَارَاتِ بِحَلَاوَةِ حُبِّهِ .

وَطَبَقَةٌ مِنْهُمْ فِي دَرَجَةِ مَلَا حِظَةِ مَسَرَّاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُرَّةِ^(٥) الْعَيْنِ ،

(١) كَذَا وَرَدَ بِالْأَصُولِ .

(٢) مُبْتَدَأُ الصَّوْمِ : أَوَّلُهُ .

(٣) الْخَاطِرَةُ : مَا يَخْطُرُ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ خَطَرَاتٍ .

(٤) رِيضَتْ : ذَلَّتْ ، مِنْ رَاضٍ ، يَرُوضُ .

(٥) قُرَّةُ الْعَيْنِ : سَكِينَتُهَا .

فَيَقْتَدُونَ المَرَارَاتِ لِابْتِهَاجِ نَفُوسِهِمْ بِمَسَرَاتِ اللَّهِ تَعَالَى .

مثل المعرفة التي لم تَضء

مَثَلُ المَعْرِفَةِ التي لم تُضِءْ مَثَلُ لَوْلُؤَةٍ بِيضَاءٍ صَافِيَةٍ نَقِيَّةٍ ، ثم تجدها قد دَخَلَتْهَا صُفْرَةٌ بطول استعمالها من العَرَقِ والحرِّ والبرْدِ وأُدْناسِ الجسَدِ وغيرها ، وترى ياقوتَةً أيضاً بمائها وَصَفَاءٍ لونها قد ذهب صَفَاؤها وتَغَيَّرَ لونها بطول لُبْسِها ؛ فأَصْحَابُ الجواهر أَبْصَرُ بما يغسلون تلك اللؤلؤة لتزول صُفْرَتُها وتعودَ إلى حَالِها .

وكذا الياقوتَةُ تُعَالَجُ حتى تعودَ إلى مائها وَصَفَائِها .
فكذا المعرفة تجدها حُلُوءَةً نَزْهَةً نَيِّرَةً ، فعلى طُولِ مُجَاوَرَتِها بشهواتِ النَّفْسِ وَمَلَامَسَتِها إِيَّاهَا تجدها مُتَغَيِّرَةً قد افْتَقَدَتْ حَلَاوَتِها ونَزَاهَتِها وَطَيِّبِها ؛ لأنها قد تَدَنَسَتْ بِأُدْناسِ الشهواتِ ، فيجب أن يُحْتَالَ لَأَمْرِهَا حتى تعودَ كما كانت .

قال له قائل : فكيف يكون ذلك ؟

قال : أليس هذه ^(١) الياقوتة ، واللؤلؤة - جوهرها ^(٢) قائم ؟ وإنما افْتَقَدَ صَفَاؤها وماؤها لِمَا لَزِقَ بها من الدَّنَسِ ، وتَغَيَّبَ عنها صَفَاؤها ؛ فبالمعالجة زالَ عنها ما كان لَزِقَ بها ، وعادت إلى حَالِها ، وظهر صَفَاؤها ؟ فكذا المعرفة قائمةٌ إِلَّا أَنَّ أَدْناسَ الشهواتِ حَجَبَتْ عَنْكَ إِشْرَاقَهَا لما حَلَّتْ فِي عَيْنِ قُودِكَ فِي صَدْرِكَ ، فصارت كشمس

(١) هذان [أ] .

(٢) جوهر كل شيء : أصل خلقته المجبول عليها .

انكسفت ، فذَهَبَ ضَوْوُهَا وإِشْرَاقُهَا ، فَإِذَا انْجَلَّتْ عَنِ الْكَسُوفِ عَادَ إِلَيْهَا مُضِيئًا .

فكذا المعرفة إِذَا غَشِيَتْهَا^(١) الكبائرُ فقد انكسفت شَمْسُكَ ، فَصِرْتَ فِي لَيْلٍ دَامِسٍ^(٢) ، فَلَوْ اجْتَنَبْتَ الْكِبَائِرَ دُونَ الصَّغَائِرِ وَهِيَ السَّيِّئَاتُ ، فَأَنْتَ فِي نَهَارِكَ فِي سَحَابٍ وَغُيُومٍ ؛ فَلَوْ دَامَ هَذَا الْغَيْمُ وَالسَّحَابُ لَمْ يَنْعَقِدْ لَكَ حَبَّةٌ مِنْ حُبُوبِ الْأَرْضِ ، وَلَا نَضَجَتْ ثَمَرَةٌ مِنْ أَثْمَارِ أَشْجَارِكَ ؛ وَوَجَدْتَ الْآدَمِيَّ مَقْسُومًا عَلَى ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ :

قلب بما فيه من الإيمان ، وروح بما فيه من الطاعة ، ونفس بما فيها من الشهوة . والقلب يقتضي الإيمان ، والروح تقتضي الطاعة ، والنفس تقتضي^(٣) شُكْرَ النعم ؛ وَالْعَبْدُ مُقْصِرٌ فِي الثَّلَاثِ كُلِّهَا ؛ فَحُبُّهُ لِرَبِّهِ يُوْفِي تَقْصِيرَاتِهِ ، فَكُلَّمَا كَانَ حُبُّهُ أَوْفَرَ كَانَ أَثْمَرُ تَوْفِيرِ تَقْصِيرَاتِهِ ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الْمَعْرِفَةِ قَائِمَةٌ ، لَكِنِهَا مُتَغَيِّمَةٌ ، فَإِذَا أَحْبَبْتَهَا كُلَّهَا عَمِلْتَ بِلَا تَقْصِيرٍ ، فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى التَّوْفِيرِ .

وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ عَبْدَيْنِ لَكَ اقْتَضَيْتَهُمَا الْإِقْرَارَ لَكَ بِالْعُبُودَةِ وَالِاسْتِقَامَةَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَاقْتَضَيْتَهُمَا مَا وَظَّفْتَ^(٤) عَلَيْهِمَا مِنَ الْخَرَجِ ، وَاقْتَضَيْتَهُمَا شُكْرَكَ ؛ فَقَصَّرَا فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ؛ وَكَانَ أَحَدُهُمَا أَظْهَرَ حُبًّا لَكَ مِنَ الْآخَرِ ؛ فَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَالْآخَرُ أَقَلَّ ، فَانْظُرْ إِلَى قَلْتِهِ ، وَقُلْتَ فِي نَفْسِكَ : وَهَذَا يَحِبُّنَا فَنَحْنُ نَقْبَلُ مِنْهُ بِحُبِّهِ إِيَّانَا مُؤَفَّرًا .

(١) غشيتها : غطتها أو أعتتها .

(٢) الليل الدامس : المظلم .

(٣) تقتضي : توجب .

(٤) ما وظفت : ما قدرت .

مثل الائتمار بأمر الله

عن زيد بن أسلم رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ لِي : حَدِيثَانِ أَحَدُثَ بِهِمَا إِذَا خَلَوْتَ :

مَثَلُ الْإِئْتِمَارِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِثْلُ الْقُلُوبِ مِثْلُ أَمِيرٍ وَلِيِّ عَلَى كُورَةٍ^(١) فَوَرَدَهَا ، فَوَجَدَ الْكُورَةَ غِيَاضاً^(٢) وَمُرُوجاً^(٣) وَآجَاماً^(٤) ، فِيهَا الْخَنَازِيرُ وَالسَّبَّاعُ وَمِيَاهُ النَّزْرِ^(٥) ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا رَجَعَ نَاكِصاً عَلَى عَقْبِيهِ^(٦) ، فَقَالَ : لَيْسَ مَعَ هَذَا النَّزْرُ قَوَامٌ ، وَلَا مَعَ هَذِهِ الْخَنَازِيرِ عَيْشٌ وَلَا إِمْرَةٌ .

وَوَلِّيَ آخَرَ عَلَى كُورَةٍ أُخْرَى ، فَوَجَدَهَا ذَاتَ قُصُورٍ وَبَسَاتِينَ ، وَأَنْهَارٍ جَارِيَةٍ وَأَشْجَارٍ ، وَمَسَاكِنَ نَزْهَةٍ ، وَسُكَّانَ كَثِيرَةٍ ، وَأَسْوَاقَ مُزَيَّنَةٍ ، فِيهَا أَلْوَانُ الْمَتَجَرِّ ؛ فَحَلَّ بِهِمْ ، وَاسْتَقَرَّ قَرَارُهُ ، وَمَلَكَهُمْ وَتَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ ؛ فَفَتَحَ بَابَ خَزَائِنِهِ ، وَقَسَمَ كُنُوزَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ [٩٢] حَتَّى أَغْنَاهُمْ وَقَوَّاهُمْ .

فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأُمُورٍ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَسْيَاءَ ، لَا لَجَرٍ نَفْعٍ وَلَا لِدَفْعِ ضَرٍّ ، لَكِنْ رَحْمَةً مِنْهُ عَلَيْهِمْ ، وَرَأْفَةً بِهِمْ ، فَمَنْ وَافَاهُ^(٧) أَمْرُهُ

(١) الكورة : المدينة .

(٢) الغياض : جمع غيضة ، وهي الشجر الكثيف الملتف .

(٣) المروج الخضراء : هي الأرض ذات النباتات والمرعى ، جمع مرج .

(٤) آجام : جمع أجمة وهي الشجر الكثير الملتف .

(٥) النز : هو ما يتحلب من الأرض من الماء .

(٦) نكص على عقبيه : رجع .

(٧) وافاه : آتاه .

فوجد صدره مشحوناً بأشغال أحوال النفس ، وقلبه مشغوفاً^(١) بحب الدنيا ، ونفسه مفتونة بالشهوات والمُنَى ، وعقله معتوهاً^(٢) بالهوى رجع الأمير قهقري ، ولا يجد محلاً ولا مستقراً ؛ لأن في هذا القلب من العتاهة ، وفي هذه النفس من النهمات^(٣) والشهوات ، وفي هذا الصدر من الأماني والفتن ، والمكر والغُل ، والحسد والخيانة ، وأشغال وسواس العبد ما هو أقبح ؛ لأن هذه الأشياء أقبح من الخنازير ؛ ومن الهوى ما هو أكثر ضرراً من النَّز ، فكيف يَقْدِر الأمير أن يملك هذا القلب ، ويحلَّ^(٤) بهذا الصدر ، ويتملِّك على هذه النفس ؟ وكيف يقتضي العقل القيام بها ؟

وَمَنْ وَافَى إِمْرَتَهُ فوجد قلباً مشحوناً بحبِّ الله تعالى ، وصَدرًا مُشرقاً بنور الله تعالى ، ونَفْساً مُزَيَّنَةً بنزْهة بساتينِ الله تعالى ، وَعَقْلاً مشحوناً بنور وجهِ الله تعالى حلَّ به الأمير فشرب القلب حلاوة الأمر ، وطَعِمَت^(٥) النفس لُبَابَهُ^(٦) ، وازداد العقل بالرافة التي تَضَمَّنَت الأمر ، وظهر العمل على الأركان على حَسَب ما وَصَفْنَا مِنَ الْبَاطِن .

وهذا لما ذكرنا أن الله تعالى لم يأمر عباده أمراً لجر منفعة ؛ ولا نهاهم لدفع مضرة ؛ ولكن أمرهم رافة بهم ورحمة عليهم ؛ ولما فيه مصالحهم ؛ ودفع المضار عنهم .

(١) مشغوفاً : كلفاً متعلقاً .

(٢) المعتوه : ناقص العقل إلا أنه ليس بمجنون .

(٣) النهمات : الشهوات ، جمع نهمة .

(٤) يحل : ينزل ويقيم .

(٥) طعم الشيء : ذاقه .

(٦) اللباب من كل شيء : خالصه وصريحه .

أمر الله على نوعين :

فَأَمْرُهُ عَلَى نَوْعَيْنِ : فَأَمْرٌ مِنْهُ مُوَافِقٌ طَبْعِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾^(١) . . . الآية . فَتَهْتَشُّ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَتَسْرُبُهُ .

وَأَمْرٌ يَتَنَاقَلُ عَلَيْهِ وَيَتَبَاطَأُ ، كَقَوْلِهِ : صَمَّ عَنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، فَمَنْ سَاكَنَ قَلْبُهُ حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظَمَتُهُ وَجَلَالَتُهُ ، فَشَرِبَ قَلْبُهُ حَلَاوَةَ الْأَمْرِ ؛ لِأَنَّ حَلَاوَةَ الْحُبِّ تُحْلِيهِ ، وَعَظَمَتُهُ تَعْظُمُهُ ، وَجَلَالُهُ يَجْلُهُ ، فَتَعْمَلُ الْأَرْكَانُ عَلَى مَا فِي الصَّدْرِ وَالْقَلْبِ ؛ فَإِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مُحِبُّوياً فَهَذِهِ صِفَتُهُ ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُوهاً لَاحِظَتْ عَيْنُ فَوَائِدِهِ رَحْمَةَ اللَّهِ وَرَأْفَتَهُ عَلَيْهِ ؛ فَمَرَّ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ كَالسَّهْمِ ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ أَثْقَالُهَا ، وَرَأَى أَنَّ أَبَاهُ إِذَا أَقْعَدَهُ بَيْنَ يَدَيْ الْخِتَانِ لِيُخْتِنَهُ ، أَوْ بَيْنَ يَدَيْ الْحِجَامِ لِيَحْجِمَهُ ، أَوْ بَيْنَ يَدَيْ الطَّبِيبِ لِيُشْرِبَهُ دَوَاءً مِنَ الْأَدْوِيَةِ الْمُؤَرَّةِ الْبَشْعَةِ ، فَلَمْ يَخُلْ مِنْ وَجَعٍ وَأَلَمٍ وَأَذَى ، وَلَكِنْ لَمْ يَتَّهِمْ وَالِدَهُ فِي ذَلِكَ لِمَا عَلِمَ مِنْ رَأْفَتِهِ وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِ ، فَكَذَا لَمَّا رَأَى مِنْ رَأْفَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِ لَا يَتَّهِمُهُ بِهَذَا الْأَمْرِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُوَافِقٍ طَبْعِهِ ؛ فَقَبِلَهُ مَسْرِعاً ، وَقَامَ بِهِ عَلَى الْإِهْتِشَاشِ .

فَهَذَا أَمِيرٌ وَافٍ قَلْباً غَنِيّاً ، وَصَدْرًا عَامِراً ، وَنَفْساً طَيِّبَةً نَزْهَةً ، وَمَنْ كَانَ بَخْلَافِ تِلْكَ الصِّفَةِ فَقَدْ وَافَى أَمْرُهُ قَلْباً خَرِيباً ، وَصَدْرًا ذَا مُرُوجٍ وَخَنَازِيرَ ، وَنَفْساً بَطَّالَةً شَرِهَةً ، وَعَقْلاً مَعْتُوهاً بِالْهَوَى ، فَأَمْرُ اللَّهِ جَلٌّ وَعَلَا عَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ كَمَا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا

(١) كل واشرب [أ] الآية وهو تحريف ، الأعراف (٣١/٧) راجع أسباب النزول (١٦٩ ، ١٦٨) وتفسير القرطبي (١٨٩/٧) والطبري (١١٨/٨ ، ١١٩) والبحر المحيط (٢٨٩/٤) والدر المنثور (٧٨/٣) .

مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورَضِيَ عنهم ؛ لهم مقارَنة معهم في مَغَاذِيهِ^(١) ، وَمَجْمَع الصلاة والصيام والْجُمُع والأعياد ، وقلوبُهُمْ حَزْبَةٌ^(٢) ، فقد مضت تلك الصِّفَةُ ، ولا يزال في كلِّ قَرْنٍ منهم يزدادُ وَيَكْثُرُ حتى امتلأت الأرضُ منهم ، وَغَلَبَتْ ، وَقُلْ أَهْلُ الصَّدَقِ .

وكذلك رُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يَأْتِي على الناسِ زَمَانٌ لا يَبْقَى من الإسلامِ إلا اسْمُهُ ، ومن القرآنِ إلا رَسْمُهُ ، ومساجدهم عامرةٌ من أبدانهم ، وقلوبُهُمْ حَزْبَةٌ^(٣) من الهدى ؛ أولئك شَرٌّ مَنْ تُظِلُّ السماءُ ؛ منهم تخرجُ الفِتْنَةُ ، وعليهم تَعُودُ .

الأجساد قوالب :

ثم إِنَّ اللَّهَ تعالى خَلَقَنَا ؛ فجعل أجسادَنَا قوالبَ للقلوب ، ونُفُوسَنَا مَعْدِنًا للشهوات ، ورؤُوسَنَا مَعْدِنًا للعقل ، وصدورَنَا مَعْدِنًا للعلم ، وقلوبَنَا مَعْدِنًا لكنوز المعرفة ، وأكبادَنَا موضعاً للقوة ، وَمَجْمَعاً للعروق التي تَجْرِي فيها القُوَّةُ مع الدم ، وطِحالَنَا مَعْدِنَ الرَّافَةِ ، وَجَعَلَ فينا رُوحاً حَيّاً اشتمل على الجميع منّا ؛ فظهرت الحركات بتلك الحياة في جميعنا ، وأشرق في قلوبنا نور المحبَّة لِتَحْيَا قلوبُنَا بِاللَّهِ ، وَكَتَمَ فيها نُورَ الهدايةِ لِنَهْتَدِيَ في تلك الحركات بِهَدْيِ اللَّهِ الذي هَدَى به أَجْبَاءَهُ ؛ وجعل المعرفة أَمِيراً على العقل ، وخلقَ الْهَوَى وجعله قَرِينَ الْعَدُوِّ ، وجعل لهما سبيلاً إليه حتى يُؤَسِّسَ الْعَدُوِّ ، وجعلَ لِلْهَوَى سُلْطَاناً حتى يَقْهَرَ^(٤) بسلطانهِ العقل ، وَيَطْمِسَ الْعِلْمَ ، وَيَحْسِمَ بابَ

(١) المغازي : الغزوات . (٢) قلوب حزبة : مهمومة محزونة .

(٣) لعله يقصد (خربة) وهذا ربما يكون تصحيحاً .

(٤) يقهر . يغلب .

الكبر ، ويغلب الروح ، وَيَخْدَعُ النَّفْسَ ، ويجعلها أميراً ؛ فإذا ذاقَت النفس طَعْمَ الإِمَارَةِ وَعِزَّهَا انْخَدَعَتْ وَمَرَّتْ مَعَهُ ، فتظاهراً^(١) وخرَجَا على القلبِ ، فَأَخَذَاهُ ، بمنزلة خارجي متغلب خرج على والي الكُورَةِ ، فَأَخَذَهُ وَقَيْدَهُ وَسَجَنَهُ وَأَوْثَقَهُ^(٢) ، وأغار على كنوزه ، وَفَرَّقَ جُنُودَهُ ، وقعد أميراً ، فَخَرَّبَ الكُورَةَ ، وَأَفْسَدَ الرِّعْيَةَ .

فَأَمَرْنَا رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا بِأُمُورٍ ، وَنَهَانَا عَمَّا يُفْسِدُ تَدْبِيرَهُ فِينَا ، وهو المعاصي ؛ وذلك دَوَاؤُنَا وَشِفَاؤُنَا ، وصحة النفس من الأسقام ؛ أسقام الدين .

ثم يَنْصَحُنَا كَمَا يَنْصَحُ الطَّبِيبُ الرَّفِيقُ بِشِفَاءِ الدَّوَاءِ .
ثم حَذَّرَكَ عَنْ أَشْيَاءَ ، وَأَمَرَكَ بِالْحِمَايَةِ عَنْهَا ، فحَذَّرْنَا رَبَّنَا اتِّبَاعَ الهوى ، وَزِينَةَ الدُّنْيَا ، وَمُكَايَدَةَ الْعَدُوِّ وَإِجَابَةَ دَعْوَتِهِ ، وَأَيْدَكَ بِالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْحِفْظِ وَالذَّهْنِ وَالْفِطْنَةِ ، وَأَيْدَكَ بِكَلَامِهِ الْمُهَيِّمِ عَلَى الْكُتُبِ نُوراً وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً ، وَأَيْدَكَ بِأَسْمَائِهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ .

الدعاء لم يكن لسائر الأمم

وفتح لك باب الدُّعَاءِ مَا لَمْ يَكُنْ لِسَائِرِ الْأُمَمِ ، يقول الله تعالى (٣) : ﴿ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ .

(١) التظاهر : المعاونة .

(٢) أوثقه : قيده .

(٣) غافر (٦٠/٤٠) والدعاء هو العبادة ، وهو التوحيد ، وبالعبادة والتوحيد يغفر الله الذنوب ، فإن قوله أذعوني أي وحدوني واعبدوني ، قال أنس رضي الله عنه : « قال =

وإنما كانت للأنبياء خاصة دُونهم ، حتى إذا نابهم نائبة فزَعُوا إلى الأنبياء لِيَدْعُوا لهم ؛ فلذلك كثرت أنبياءهم لحاجتهم إلى ذلك ، حتى كَانَ لِكُلِّ مَحَلَّةٍ ^(١) نَبِيٌّ وَنَبِيَّانِ وثلاثة وأربعة وأكثر : لِحَاجَةِ ^(٢) الْعَبْدِ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ .

قال له رَبُّهُ : أَعْطَيْتَكَ ثَلَاثَةً مِنَ الْأَمْرَاءِ ، مَا مِنْ أَمِيرٍ إِلَّا وَلَهُ سُلْطَانٌ وَجُنْدٌ وَنَفَازٌ أَمْرٍ ؛ أَمَّا كَانَ لِأَمْرَائِكَ مِنَ الْعُدَّةِ وَالْقُوَّةِ مَا يَغْلِبُونَ هَوَاكَ ؟ بلى ، قد كَانَ ؛ وَلَكِنَّكَ قَدْ مِلْتَ إِلَى هَوَاكَ ، وَوَضَعْتَ يَدَكَ فِي يَدِهِ حَتَّى أَسْرَكَ ، وَضِيعْتَ أَمْرًا لِي ، وَالْمَحَارِبَةَ لِلنَفْسِ مَعَ أَمْرَائِي ، وَقَدْ أَمَرْتُكَ بِالْمُجَاهَدَةِ ؛ وَقُلْتُ ^(٣) ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ، وَأَعْطَيْتَكَ الْأَمْرَاءَ مَعَ الْجُنُودِ لِمُجَاهَدَةِ نَفْسِكَ وَهَوَاكَ ، فَمِلْتَ إِلَى النَّفْسِ وَالْهَوَى ، وَأَعْرَضْتَ عَنِ الْأَمْرَاءِ وَالْجُنُودِ ، وَأَلْقَيْتَ نَفْسَكَ أَسِيرًا بَيْنَ يَدَيِ الْهَوَى ، حَتَّى وَضَعْتَ فِي يَدِ الْعَدُوِّ ؛ وَفَضَحَكَ [٩٣] ، فَخَرَجْتَ إِلَى هَذَا الْمَجْمَعِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ وَالْأَنْبِيَاءِ ، وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ ؛ مَعَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ وَالْفَضَائِحِ : اللَّسَانُ لِسَانُ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْمَالُ أَعْمَالُ الْأَعْدَاءِ ؛ أَفْ لِعَبْدٍ أَحْمَقٍ ، وَزَبُونٍ أَبْلَهٍ ؛ أَيْنَ كَانَ عِلْمُكَ حَتَّى تَبْلُغْتَ ؟ وَأَيْنَ كَانَ عَقْلُكَ حَتَّى تَحْمَقْتَ ؟ وَأَيْنَ كَانَ ذِهْنُكَ حَتَّى أَعْرَضْتَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَقْبَلْتَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَتَصَامَمْتَ عَنْ

= النبي صلى الله عليه وسلم : « ليسأل أحدكم ربه حاجته حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع » ١ هـ .

راجع الجامع لأحكام القرآن (٣٢٦/١٥) .

(١) المحلة : المكان يستقر فيه القوم .

(٢) في حجة [ب] وهو تحريف .

(٣) الحج (٧٨/٢٢) .

أَدَّبَ اللَّهُ تَعَالَى وَكَلَامِهِ وَمَوَاعِظِهِ ، وَأَصْغَيْتَ إِلَى وَسَاوِسِ شَيْطَانِكَ ؟
اتَّهَمْتَ مَصَالِحَ اللَّهِ ، وَأَنْخَدَعْتَ لِعَدُوِّكَ ؛ وَعَدَّكَ عَدُوُّكَ الْفَقْرَ ، وَأَمَرَكَ
بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ وَعَدَكَ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ؛ فَاتَّزَتْ وَعْدُهُ وَأَمْرُهُ عَلَى وَعْدِ
رَبِّكَ وَمَغْفِرَتِهِ وَفَضْلِهِ ؛ وَإِنَّمَا أُوتِيَ الْعَبْدُ هَذَا مِنْ قِبَلِ رِقِّ النَّفْسِ ؛ لِأَنَّ
النَّفْسَ إِذَا مَلَكَهَا الْهَوَى صَارَتْ رَقِيقًا لِلْهَوَى مَمْلُوكَةً ذَلِيلَةً ، تَنْقَادُ لِلْهَوَى
حَيْثُمَا قَادَهَا ، حَتَّى يَهْوِيَ (١) بِهَا فِي النَّارِ الَّتِي مِنْهَا خَرَجَ إِلَى النَّفْسِ .

فَالْهَوَى هُوَ نَفْسُ النَّارِ ، فَإِذَا تَنَفَّسَتْ فَإِنَّمَا لَهَا لَهَبَانِ وَنَفْسَانِ :
نَفْسٌ مِنَ السَّمُومِ ، وَنَفْسٌ مِنَ الزَّمْهِيرِ (٢) ؛ فَكِلَاهُمَا فِي الْهَوَى : بَرْدُ
الزَّمْهِيرِ (٢) ، وَحَرَارَةُ السَّمُومِ ؛ فَإِذَا خَلَصَ إِلَى الْقَلْبِ بَرْدُ زَمْهِيرِ
الْهَوَى ، خَمَدَتْ حَرَارَةُ حَيَاةِ الْقَلْبِ ؛ فَإِذَا ذَهَبَتِ الْحَرَارَةُ مَاتَ الْقَلْبُ ،
وَجَمَدَ الدَّمُ .

أَلَا تَرَى إِذَا خَرَجَ الرُّوحُ جَمَدَ الدَّمِ ، ثُمَّ النَّفْسُ ، وَبَقِيَ دَمُ
العُرُوقِ عَلَى حَالِهِ ، وَتِلْكَ دِمَاءُ الطَّبِيعَةِ .

فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ حَيَاتَانِ :

فَفِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ حَيَاتَانِ : حَيَاةُ الرِّيحِ ، وَحَيَاةُ الْمَعْرِفَةِ ؛ وَفِيهِمَا
الْحَرَارَةُ ؛ فَإِذَا جَاءَ الْهَوَى بِبَرْدِهِ خَمَدَتْ الْحَرَارَةُ الَّتِي فِي الْقَلْبِ ، فَبَرَدَ
الْقَلْبُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَنْ دَارِ الْآخِرَةِ ، وَجَاءَ الْعَدُوُّ بِزِينَةِ الدُّنْيَا عَلَى
أَثَرِ الدُّنْيَا حَتَّى سَبَى قَلْبَهُ بِتِلْكَ الزَّيْنَةِ ، وَيُغْوِيهِ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ؛

(١) يَهْوِي : يَسْقُطُ .

(٢) الزَّمْهِيرُ : شِدَّةُ الْبَرْدِ .

والغِيَّ حَوَّلَ^(١) القلب عن الرشد ، وبالرُّشْدِ لازمت المعرفة القلب ،
فهي ملازمته أبداً ، وبالرشد ثبات المعرفة ، والغِيَّ ضدُّ الرُّشد .

الرشد سر الله في قلب المؤمن :

قال الله تبارك وتعالى في تنزيله حيث بَعَثَ رَسُولَهُ^(٢) : ﴿ قَدْ
تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ . والرُّشْدُ : سِرُّ الله تعالى في قلوب المؤمنين ،
لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَام ، وَالْأَوْلِيَاءُ فَمَنْ دُونَهُمْ عَجَزُوا
عَنْ مَعْرِفَةِ كُنْهِهِ^(٣) ؛ فَالَرْقُ بَرْدُ القلب وخموده عن حرارة حياة القلب
بالله تعالى ، وَمَوْتُ القلب عن الله تعالى ، وَبَرْدُ النَّفْسِ وخمودها عن
التحلُّلِ لِلْأَرْكَانِ فِي أَمْرِ الله تعالى ، فظهر على القلب الجمودُ
وَالْعَجْزُ ، وعلى النفس الْقَهْرُ وَذَهَابُ الْقُوَّةِ وَالْكَسَلُ .

فكُلُّ مَنْ مَلَكَهُ هَوَاهُ فَقَلْبُهُ مَقْهُورٌ ذَلِيلٌ لَا يَعْتَزُّ بِأَمْرِ الله ، وَلَا يَهْتَزُّ
لَهُ ؛ لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى مَلَكُهُ وَسُلْطَانُهُ ، وَزِينَتُهُ وَبِهَاؤُهُ وَحَلَاوَتُهُ ، فَإِذَا
وَأْفَى قَلْبًا مَأْسُورًا وَصَدْرًا مُظْلِمًا بِأَشْغَالِ الدُّنْيَا ، قَدْ خَرَّبَهُ الْهَوَى ، وَصَيَّرَ
صَدْرَهُ مُرَوِّجًا وَغِيَاضًا وَآجَامًا ، يَخْوَضُ فِيهَا الْخَنَازِيرُ ، وَتَتَرَدَّدُ فِيهَا
الذُّنَابُ وَالسَّبَّاعُ ، وَالْأَسَدُ وَالثَّعَالِبُ ، لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ لِلْأَمِيرِ سُلْطَانٌ ، فَإِذَا
لَمْ يَكُنْ لِلْأَمِيرِ مَمْلَكَةٌ وَلَا سُلْطَانٌ فَلَمْ تَبْرُزْ زِينَتُهُ وَبِهَاؤُهُ ، وَلَمْ تَوْجِدْ
حَلَاوَتَهُ ؛ فَلِذَلِكَ لَا يَجِدُ صَاحِبُ الْهَوَى طَعْمَ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَلَاوَتِهِ ،
وَلَا يَرَى بِهَاءَهُ وَسَنَاءَهُ^(٤) وَزِينَتَهُ ؛ فَإِذَا عَمِلَ ذَلِكَ الْأَمْرُ كَانَ كَالْمُكْرِهَةِ^(٥)

(١) حال [أ] وهو تحريف .

(٢) البقرة (٢/٢٥٦) .

(٣) كنه الشيء : حقيقته .

(٤) السناء : الضوء .

(٥) المكروه : المجبر .

الذي لا يَجِدُ بُدًّا ، أو كالذي يُجَرُّ برجليه على مَوائد النِّعم وبساتين
النُّزْهة ، كما تُجَرُّ جِيْفُ المَيِّتَةِ لَتُرْمَى ، ولا يَجِدُ طَعْمَ ما حَلَّ بالموائد ،
ولا يَشْمَ رِيَّاحِينَ البَسَاتِينِ ولا يَلْتَذُّ بِنُزْهَتِهَا .

ومن خلص مِنْ رِقِّ الهَوَى فَيُوسَمُ سِمَةً^(١) الأحرار قَعَدَ على موائد
النِّعم ونُزْهَةِ السَّنَنِ ، فكانت الأعمالُ موائدَ غِرَاسِهِ ، والذُّكْرُ بساتينه
ونزْهته ، فالرِّقُّ يُدْنِسُ الْقَلْبَ وَيَقْهَرُهُ^(٢) ، فإذا صار حُرًّا تَطَهَّرَ الْقَلْبُ مِنْ
الأَدْناسِ ، وخرج من قَهْرِ الهَوَى ، فاعْتَزَّ بِاللَّهِ ، واستَغْنَى بِاللَّهِ .

مثل اعمال البر في الجسد

مَثَلُ أَعْمَالِ الْبِرِّ فِي الْجَسَدِ مَثَلُ أَيَّامِ الرَّبِيعِ إِذَا هَاجَ الْحَرُّ مِنْ
تَحْتَ الْأَرْضِ ، وَذَهَبَ الْبَرْدُ مِنَ الْجَوِّ ، فَإِذَا غَشِيَ الْحَرُّ بُزُورَ
الْأَرْضِ ، وَعُرِيقُ الْأَشْجَارِ ، انْفَطَرَتْ^(٣) الْأَرْضُ ، وَاهْتَزَّتْ^(٤)
وَرَبَّتْ^(٥) ، وَتَوَرَّدَتِ الْأَشْجَارُ وَالْأُورَادُ ، وَاخْضَرَّتِ الزَّرُوعُ وَالنَّبَاتُ فِي
الْأَوْدِيَةِ وَالْجِبَالِ وَالْبَرَارِيِّ^(٦) ؛ فَهَاجَتْ رِيحُ كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَطَابَ الْهَوَاءُ ،
فَإِذَا طَابَ الْهَوَاءُ مِنْ انْفِطَارِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، وَوَصَلَ نَسِيمُ الْأُورَادِ
وَالرِّيَّاحِينَ إِلَى الْخِيَاشِيمِ ، فَصَارَتْ شِفَاءً لِأَجْسَامِهِمْ ، وَصَلَحًا

(١) السمة : العلامة .

(٢) يقهره : يغلبه .

(٣) انفطار الأرض : انشقاقها .

(٤) اهتزت : تحركت .

(٥) ربت : ارتفعت وزادت .

(٦) البراري : الصحارى .

لطبائعهم ، وَمَرَمَّةٌ لأعضائهم ، وَذَهَبَتْ عَنْهُمْ زُهْمَةٌ^(١) الشتاءِ والدُّخانِ والأَذْناسِ .

فكذا الأعمالُ السيئةُ كدَّرتْ أحوالَ المؤمنين ، ودُنَّستْ جَوَارِحَهُمْ ، وثقلتْ أركانَهُمْ ، وَوَهنتْ^(٢) أَعْضَاءُهُمْ ؛ فإذا خالطَتْهَا الأعمالُ الصالحةُ صارتْ شِفَاءً للقلوبِ ، وَقُوَّةً للأركانِ ؛ كأيَّامِ الربيعِ ، وطيبَ الهواءِ للأجسادِ التي وَصَفْنَا ؛ وَحَيَّتِ القلوبُ بالأعمالِ الصالحةِ التي ماتت مِنْ تَعَاطِيِ الشهواتِ ، كالأَرْضِ حَيَّتْ بِالْأَمْطَارِ فِي الربيعِ مِنْ مِيَاهِ الْحَيَاةِ ، وكذا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ^(٣) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾^(٤) ؛ أَيِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى دَعَاكُمْ إِلَى طَاعَتِهِ فَأَجِيبُوهُ ، وَوَفُّوا لَهُ بِمَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ تَحْيَى قُلُوبُكُمْ بِهِ .

مثل القلب والنفس

مَثَلُ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ مَثَلُ الْقَوْسِ أَعْلَاهَا أَوْسَعُ مِنْ أَسْفَلِهَا ؛ فَإِذَا غَفَلَ عَنْهَا صَاحِبُهَا أَخَذَ الْبَيْتَ الْأَسْفَلَ مِنَ الْبَيْتِ الْأَعْلَى قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَصِيرَ الْأَعْلَى ضَيْقًا وَالْأَسْفَلَ وَاسِعًا ؛ فَلَا تَخْرُجُ الرَّمِيَّةُ عَنْ قُوَّةٍ ، وَلَا تَبْلُغُ الْمَقْصِدَ^(٥) .

فكذلك القلبُ ؛ هو فِي غِنَاهُ وَسِعَتِهِ وَقُوَّتِهِ مَتَمَكِّنٌ فِي التَّدْبِيرِ ،

(١) الزهوم : ريح اللحم السمين الممتن ، المتعفن .

(٢) وهنت أعضاءهم : أضنتها ، من الوهن وهو الضعف .

(٣) الأنفال (٢٤/٨) راجع تفسير الطبري (١٤٣/٩) بتصرف .

(٤) الاستجابة : الإجابة .

(٥) المقصد : المراد .

وهذه الجوارح والنفس في ضيقها وفقرها وحاجتها ، فلا تزال تأخذ من سعة القلب ومن قوته حتى يضعف القلب ؛ ويقل غناه ، ويضيق ؛ فلا تخرج رميته مستوية ، ولا عن قوة ؛ فلا يصل إلى المقصود .

قال له قائل : ما الرمية ؟

قال : النية الصادقة ؛ فالنية من القلب إذا خالطه علائق^(١) النفس ضعفت النية ، وخرج الفعل غير مستويا صاف .

قيل : مثل ماذا ؟

قال بيانه : رجل أخرج شطر^(٢) ماله ليتصدق به ابتغاء وجه الله تعالى ؛ فهذه نية صادقة خرجت من قلب صاف صادق ، ثم قال : أين أصعها ؟ فحدثته نفسه أن ضعها في غريمك^(٣) فلان ، لك عليه ذراهم ليرد عليك قضاء مالك^(٤) عليه ، أو ضعها في تابعي من خدمك ؛ فهذه علائق خالطت الصدق الذي ادعى أنه يريد به وجه الله تعالى ، أراد به غير [٩٤] وجه الله تعالى ، عرضاً من عرض^(٥) الدنيا ؛ فزاغ^(٦) قلبه عن الاستيواء إلى الميل إلى شيء عن اليمين إلى الشمال ، وعن الأعلى إلى الأسفل ؛ كالقوس إذا جعلت بيت أسفله أعلاه ، وأعلاه أسفله ؛ فإذا وجدت النفس إلى ذلك سبيلاً اعتادت ذلك ، فمرة أخرى

(١) العلاقة : بفتح العين ، وكسرهما : الحب المتمكن من القلب ويجمع على علائق .

(٢) شطر المال : نصفه .

(٣) الغريم : المدين .

(٤) عمالك [ب] .

(٥) العرض : متاع الحياة الدنيا .

(٦) زاغ : انحرف ومال .

أَخَذَتِ الْقُوَّةَ مِنَ الْقَلْبِ .

ثم أخرج من ماله شطراً آخر لِيُنْفِقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ؛
فَقَالَ : أَيْنَ أَضَعُهُ ؟ فَطَمِعَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَى مَلَأ^(١) مِنَ
النَّاسِ ، فَتَحَمَّدَكَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ سَخِيٌّ خَيْرٌ ؛ فَقَدْ زَالَ
عَنِ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى أَنْ بَطَلَتْ رَمِيَّتُهُ حَتَّى خَرَجَتْ مِنَ الْقَوْسِ ، فَسَقَطَتْ
بِالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى مَقْصُودِهِ مِنَ الرَّمِيَّةِ .

ثم أخرج دِرْهَمًا آخَرَ ، فَقَالَ : أَيْنَ أَضَعُهُ ؟ فَذَهَبَ فَوَضَعَهُ فِي
مَعْصِيَةٍ ، فَهَذِهِ رَمِيَّةٌ لَمْ يَعْمَلِ الْقَوْسُ فِيهَا ، فَالْقَوْسُ مُعْطَلَةٌ ، وَالْوَتَرُ
مَنْقُطٌ ، وَالسَّهْمُ مُعْوَجٌّ ، وَالرَّمِيَّةُ غَيْرُ مُسَدَّدَةٍ .

مَثَلُ الْمَحْقُوقِ وَالْمُبْطِلِ

مَثَلُ الْمَحْقُوقِ وَالْمُبْطِلِ مَثَلُ رَجُلٍ بِيَدِهِ الْيَمْنَى كَوْزٌ مَمْلُوءٌ مِنْ مَاءٍ
عَذْبٍ بَارِدٍ صَافٍ هَنِيئٍ مَرِيٍّ ، يَجِدُّ عَذُوبَتَهُ فِي لَهَاتِهِ^(٢) ، وَبَرْدَهُ فِي
فِيهِ ، وَحِلَاوَتَهُ فِي حَلْقِهِ ، وَهَنَاءَتَهُ وَمَرَائَتَهُ فِي جَوْفِهِ ؛ وَبِيَدِهِ الْيُسْرَى
كَوَزٌ فِيهِ بَوْلٌ قَدِرٌ مُنْتِنٌ ، وَتَرَاهُ يُؤَثِّرُ^(٣) هَذَا عَلَى الْمَاءِ الصَّافِي الْعَذْبِ ،
وَيَشْرَبُ مِنْ هَذَا الرَّجْسِ^(٤) ، فَمَنْ نَظَرَ إِلَى فِعْلِهِ أَلَيْسَ يُقْضَى عَلَيْهِ بِأَحَدٍ
الْحَالِينَ : إِمَّا جَنُونَ ، أَوْ سَكْرَانٌ ؟

(١) ملأ من الناس : جماعة وجمهرة منهم .

(٢) اللهاة : هي اللحمية المشرفة على الحلق ، أقصى الفم .

(٣) الإيثار : التفضيل .

(٤) الرجس : القذر .

قال : فَإِنَّمَا مَثَلْتُهُمَا بِكُوزَيْنِ ؛ لِأَنَّ الْكُوزَ وَعَاءٌ لِلْمَاءِ ، وَالْأَعْمَالُ وَعَاءُ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَعَمَلُ رَضِيَ اللَّهُ بِهِ ، وَأَمْرُكَ بِهِ ، وَأَحَبُّهُ ، فَالْحَقُّ فِيهِ ، وَذَلِكَ الْعَمَلُ وَعَاءُ ذَلِكَ الْحَقِّ ؛ فَأَيُّ مَاءٍ أَعَذَبُ وَأَبْرَدُ وَأَصْفَى وَأَهْنَأُ وَأَمْرَى مِنَ الْحَقِّ !

وَفِعْلُ آخِرِ زَجَرِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ وَسَخِطَهُ وَأَبْغَضَهُ^(١) ، وَنَهَاكَ عَنْهُ ، وَمَقَّتْ^(٢) فَاعِلَهُ ، فَالْبَاطِلُ فِيهِ ، وَذَلِكَ وَعَاءُ ذَلِكَ الْبَاطِلِ ، فَمَثَلُهُمَا كَمَثَلِ الْكُوزَيْنِ فِي يَدِي ذَلِكَ عَلَى مَا وَصَفْنَا ، أَخَذَهُمَا رَجُلٌ بِيَدِهِ عَلَى مَا وَصَفْنَا ؛ فَمَنْ آثَرَ كُوزَ الْبَوْلِ عَلَى كُوزِ الْمَاءِ الْعَذْبِ الْهَنِيِّ الْمَرِيءِ لَمْ يُوضَعْ أَمْرُهُ إِلَّا عَلَى الْجَنُونِ أَوْ السَّكْرِ ؛ فَمَنْ آثَرَ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ لَدُنْيَا يُصِيبُهَا^(٣) أَوْ لِنَفْسٍ يَغُرُّهَا وَيُبَاهِي بِهَا فَإِنَّمَا هُوَ لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ الْمَعْرِفَةُ قَدْ اخْتَبَأَتْ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ شَاكٌّ فِي رَبِّهِ أَوْ مِمَّا يَشْرَبُ صِرْفًا^(٤) مِنْ حَلَاوَةِ حُبِّ الدُّنْيَا فَأَسْكَرَتْهُ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : حُبُّكَ الشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ ؛ فَإِذَا أَصَمَّهُ وَأَعَمَّاهُ نَافِقٌ ، فَإِذَا آثَرَ الْبَاطِلَ انْمَحَقَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ^(٥) ؛ وَإِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا^(٦) ، وَتَلَاشْتَ الدُّنْيَا عَنْهُ ، وَبَطَلَ مُلْكُهُ بِهَا ، وَانْتَقَلَتْ إِلَى غَيْرِهِ ، وَنَفْسُهُ الطَّالِبَةُ لِلْعَزِّ وَالْجَاهِ عَادَتْ جِيْفَةً مُتْنِنَةً ، مَلَأَ بَطْنُهُ صَدِيدٌ وَدِيدَانٌ .

(١) أَبْغَضَهُ : مَعْنَاهُ كَرِهَهُ مِنَ الْبَغْضِ وَهِيَ الْكَرَاهَةُ .

(٢) مَقَّتْ فَاعِلُهُ : كَرِهَهُ .

(٣) دُنْيَا يُصِيبُهَا : يَنَالُهَا وَيُظْفِرُ بِهَا .

(٤) صِرْفًا : خَالِصًا .

(٥) زَهَقَ الْبَاطِلُ : بَطَلَ وَزَالَ وَانْمَحَى .

(٦) رَاجِعُ « الْإِسْرَاءِ » (٨١ / ١٧) .

مثل العارف المتبّه

مَثَلُ الْعَارِفِ الْمُتَبِّهِ قَبْلَ الْإِنْتِبَاهِ مَثَلُ عَبْدٍ لَهُ مَوْلَى ، وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ مَنْ مَوْلَاهُ^(١) ، وَكَانَ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ ، وَكُلُّهُمْ مَوَالِي الْعَبِيدِ ، فَقَالَ : أَيُّهُمْ مَوْلَايَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ ؟ فَأَشَارُوا لَهُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ : إِنَّ هَذَا مَوْلَاكَ وَسَيِّدُكَ ؛ فَنَظَرَ إِلَيْهِ بَعَيْنَ الرِّضَا ، فَوَجَدَهُ أَجْمَلَهُمْ وَجْهًا ، وَأَغْنَاهُمْ مَالًا ، وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا ، وَأَطْهَرَهُمْ سِيرَةً ، وَأَجْوَدَهُمْ كَفًّا ، وَأَحْلَاهُمْ مَنْطِقًا ، وَأَنْفَذَهُمْ قَوْلًا ، وَأَفْرَسَهُمْ فَارِسًا ، وَأَعْلَمَهُمْ عِلْمًا ، وَأَبْهَاهُمْ زِينَةً ، وَأَرْفَعَهُمْ كِسْفَةً ، وَأَوْسَعَهُمْ مُلْكًا ، وَأَعْظَمَهُمْ رَحْمَةً وَتَحَنُّنًا ، وَأَشْكَرَهُمْ لِعَبْدِهِ ؛ فَامْتَلَأَ هَذَا الْعَبْدُ فَرَحًا لَمَّا وَجَدَ مَوْلَاهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ؛ وَاسْتَطَالَ^(٢) بِهِ عَلَى سَائِرِ^(٣) الْعَبِيدِ مِنْ نَظَائِرِهِ ، وَاخْتَلَفَ وَافْتَخَرَ بِهِ ، وَوَجَدَ الْقُوَّةَ فِي ظَهْرِهِ كُلَّ الْقُوَّةِ ، وَالسُّرُورَ فِي قَلْبِهِ ؛ وَرَأَى نَفْسَهُ لِهَذَا الْمَوْلَى الَّذِي وَجَدَهُ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ كُفْوًا^(٤) مِنْ أَشْكَالِهِ مِنَ الْعَبِيدِ بِمَا وَجَدَ مَوْلَى مِثْلَ هَذَا .

فَهَذَا حَالُ الْعَارِفِ إِذَا انْتَبَهَ مِنْ رَقْدَتِهِ ، وَعَرَفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا ، وَوَجَدَ فِي أَسْمَائِهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ صِفَةً ، فَكُلُّ اسْمٍ إِذَا دَعَاهُ بِهِ عَرَفَ أَنَّ هَذَا اسْمُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الصِّفَةَ مِنْ وَرَاءِ الْاسْمِ ، قَدْ أَعَدَّ لَهُ مَا وَضَعَ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ لِعَبْدِهِ ، فَمَتَى يَسْعُ هَذَا الْعَبْدُ فِي الدُّنْيَا وَفِي

(١) المولى : السيد .

(٢) استطال به : فخر به .

(٣) سائر : باقي .

(٤) الكفو : النظير .

العُقْبَى (١) متى وَجَدَ سَيِّدَهُ بهذه الصفات !

مَثَلُ الْعِلْمِ مِثْلُ الْمَاءِ

مَثَلُ الْعِلْمِ مِثْلُ الْمَاءِ ؛ فَإِنَّ فِيهِ حَيَاةَ الْأَرْضِ ، فَالْمَاءُ يَخْرُجُ بِهِ
النَّبَاتُ ، وَيَشْتَدُّ نَبَاتُهَا بِالثَّرَابِ الْمُلَقَّى (٢) فِيهَا ؛ فِيهِ (٣) تَتَقَوَّى الْأَرْضُ ،
وَيَشْتَدُّ نَبَاتُهَا ؛ فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا غَرَسَ أَغْرَاسًا (٤) ، ثُمَّ لَهَا عَنْهَا ، فَلَمْ يُلْقِ
فِيهَا الثَّرَابَ ، وَلَمْ يَسْقِهَا بِالْمَاءِ ، يَبْسُتُ الْأَغْرَاسُ ، وَيَبْطُلَ عَمَلُهُ .

فَكَذَا الْعِلْمُ فِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ؛ يَحْيَا الْقَلْبُ بِالْعِلْمِ ، وَيَقْوَى وَيَشْتَدُّ
بِاسْتِعْمَالِ الْعِلْمِ بِالْعَمَلِ .

فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا تَعَلَّمَ الْعِلْمَ ثُمَّ لَهَا عَنْهُ ، فَلَمْ يَعْمَلْ فِي انْكِشَافِ
الْغِطَاءِ عَنْهُ ، حَتَّى يَصِيرَ الْعِلْمُ لَهُ مُعَايِنَةً ، وَيُتَصَوَّرَ فِي صَدْرِهِ ؛ لِأَنَّ
مِرَاتِهِ فِي صَدْرِهِ ؛ فَالَّذِي يَسْمَعُ بِأُذُنِي رَأْسِهِ يَتَأَدَّى (٥) إِلَى أُذُنِ فُؤَادِهِ
وَبَصَرُ فُؤَادِهِ ، فَفِي أُذُنِي فُؤَادِهِ وَقَرَّ مِنْ رِيَّاحِ الشَّهَوَاتِ وَأَهْوِيَّتِهَا ؛ فَضَلَّ
سَمْعُهُ ، فَتَلَاشَى مَا سَمِعَ بِأُذُنِي الرَّأْسِ ، وَعَمِيَ بَصَرُ فُؤَادِهِ عَنْ صُورَةِ مَا
يَتَصَوَّرُ مِنْ ذَلِكَ الْعِلْمِ فِي قَلْبِهِ ، فَتَرَاكُمُ (٦) دُخَانُ الشَّهَوَاتِ وَفُورَانِ
حَرِيقِهَا الْمَتَّادِي مِنْ جَوْفِهِ إِلَى صَدْرِهِ ، فَأَظْلَمَ عَلَيْهِ إِشْرَاقُ نُورِ شَمْسِ

(١) العقبي : الآخرة .

(٢) الملقاه فيها [ب] وهو تحريف .

(٣) فيها [ب] وهو تحريف .

(٤) الأغراس والغراس : جمع غرس ، وهو المغروس المزروع .

(٥) يتأدى : يصل .

(٦) راكم [أ] وهو تحريف .

المعرفة عن صَدْرِهِ ، فَبَقِيَ على لسانه كلامُ ذلك العلم ؛ وذلك الكلام
وذاك عبارة العِلْم .

فَأَمَّا العِلْمُ فقد احتجب وَغَاب في ظُلْمَةِ ذلك الدُّخَانِ والفَوْرَانِ ،
فذهب عنه استعماله ، فلم يَبْقَ عِلْمٌ ولا عَمَلٌ ، إِنَّمَا بَقِيَتْ عِبَارَةُ
اللُّسَانِ ، وتلك حِجَّةُ اللَّهِ على ابن آدم .

فهذا بمنزلة غَارِسٍ غَرَسَ أَشْجَاراً ثُمَّ لَهَا عن سَقِيهَا وتربيتها حتى
يَبْسَ وَيَبْطُلَ عَمَلُهُ ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

مثل التائب

مَثَلُ التَّائِبِ مَثَلُ عَبْدٍ لِلْمَلِكِ أَبَقَ^(١) مِنْهُ ، فَصَارَ إِلَى بَلَدٍ مِنَ
الْبُلْدَانِ ، فَوَجَدَ الْمَلِكُ عَلَيْهِ وَجْداً^(٢) شَدِيداً بِكُفْرَانِهِ بِنَعِيمِهِ ، وَذَهَابَهُ
بِالرَّقَبَةِ ، وَإِثَارِهِ النَّهْمَةَ عَلَى الْكَوْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْخِدْمَةِ ، وَسَقَطَ مِنْ
عَيْنِهِ .

فلما افتقد^(٣) الْعَبْدُ عِزَّ الْقُرْبَةِ ، وَشَرَفَ الْخِدْمَةِ ، وَحِلَاوَةَ الْقِيَامِ ،
وافتقد مرافقه ، وَغَلَبَهُ الْعَجْزُ ، وَالشُّعْثُوثَةُ ، وَالْكُدْرَةُ ، وَالْعِنَاءُ^(٤) فِي
طَلَبِ الْمَعِيشَةِ ، وَحَالَةُ الْبُؤْسِ وَالْفَقْرِ مِنْ تِلْكَ الْمُرَافِقِ ، وَرَخَاءِ
الْعَيْشِ ، نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ لِمَا حَلَّ بِهِ ، وَلَمْ يَدْعُ^(٥) شَقَاوَةَ نَفْسِهِ أَنْ

(١) أَبَقَ الْعَبْدُ : هَرَبَ .

(٢) وَجَدَ عَلَيْهِ : غَضِبَ وَسَخَطَ عَلَيْهِ .

(٣) افْتَقَدَ : فَقَدَ .

(٤) الْعِنَاءُ : الْجَهْدُ وَالْمَشَقَّةُ .

(٥) يَدْعُ : يَتْرُكُ .

يرجع بنفسه إلى مَوْلَاه .

وَقَدْ عَلِمَ الْمَلِكُ بِمَا أَصَابَهُ وَبِمَا نَدِمَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِكُسْوَةٍ
وَرَاحِلَةٍ^(١) وَكَتَبَ كِتَاباً أَنْ ارْجِعْ إِلَيْنَا ، فَلَكَ عِنْدَنَا مَا كَانَ لَكَ .

فَارْتَحَلَ عَنْ وَطْنِهِ ذَلِكَ رَاجِعاً إِلَى الْمَلِكِ ، فَكَلَّمَا مَرَّ بِمَضْرٍ وَقَرْيَةٍ
فِيهَا نُزْهَةٌ مَكْتٌ أَيَّاماً ، وَقَضَى نَهْمَهُ [٩٥] ثُمَّ يَرْتَحِلُ فَيَهْجُمُ عَلَى
أُخْرَى مِثْلَهَا فَمَكْتُ هُنَاكَ ؛ ثُمَّ يَرْتَحِلُ ، وَالْمَلِكُ يَنْتَظِرُ وَصُولَهُ وَهُوَ يَتَبَاطَأُ
إِلَى اقْتِضَاءِ الْأَوْطَارِ وَالْمُنَى .

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ الْمَلِكُ قَاصِداً فَأَخَذَهُ وَقَيْدَهُ وَسَجَنَهُ هُنَاكَ
فِي بَعْضِ السُّجُونِ إِلَى يَوْمٍ يَدْعُوهُ لِلْمُعَاتَبَةِ وَالْحِسَابِ ؛ يَوْمَ مَوْقَتٍ
بِذَهَابِ الْعَلَّةِ .

وَعَبْدٌ آخَرُ قَصَّتُهُ هَذِهِ الْقِصَّةُ ، فَلَمَّا ارْتَحَلَ مِنْ مَتَبَدِلِ أَمْرِهِ لَا يُسْرِعُ
إِلَّا إِلَى مَا لَا بَدَّ لَهُ مِنْهُ ، وَقَطَعَ الْبُلْدَانَ وَالْمَفَاوِزَ وَالْبُحُورَ وَالْجِبَالَ
وَالْأَكَامَ^(٢) ، لَا يَنَامُ وَلَا يُنِيمُ ، كَلَّمَا أَزْدَادَ قُرْباً بِحَضْرَةِ الْمَلِكِ اهْتِاجَ
سَيْراً وَجِداً ، حَتَّى وَصَلَ بَابَ الْمَلِكِ ، فَأَقِيمَ بِالْبَابِ فَتَزَلَ ، وَأُشِيرَ لَهُ
إِلَى مَكَانٍ يَحْطُ رَحْلَهُ ؛ فَفَعَلَ . وَبَقِيَ هُنَاكَ مَدَّةً لِيَتَزَيَّنَ وَيَتَأَدَّبَ ، وَيَعْتَادَ
وَيَتَوَقَّرَ ، وَلِتَزُولَ عَنْهُ الْخِيفَةُ وَالْإِسْتِبدَادُ وَالْعَجَلَةُ ، وَيَلْبَسَ أَثْوَابَ
الْخَدَمِ ، وَيَتَهَيَّأَ لِلْخِدْمَةِ تَهَيُّؤاً يَصْلُحُ لَهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ ؛ فَلَا يَزَالُ
هَكَذَا فِي مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ حَتَّى يُرْفَعَ السُّتْرُ ، وَيُؤَدَّنَ لَهُ بِالدَّخُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ،

(١) الراحلة : هي المركب من الإبل .

(٢) الأكام : جمع أكمة وهي المكان المرتفع عما حوله من الأرض .

فهو ما دام يفكر ما فَعَلَ يأخذه بما صنع بالإباق حتى لا يَذْري ما يَصْنَع
مِنَ الْحَيَاءِ .

فإذا عَلِمَ الملكُ مِنْ حاله أَنَّهُ يَسْتَحِي من ذلك بسطَ له بَسْطاً ،
وَبَرَّهَ بِرّاً ، ولم يذكر له شيئاً مما صنع ؛ وَقَبْلَهُ وَوَلَّاهُ وَايَةً سَنِيَّةً ، وَخَلَعَ
عليه خِلْعاً يظهر عنده أَنَّ الملكَ مِمَّنْ قد رَضِيَ عنه رِضاً لا يَسْخَطُ
بَعْدَهُ ، وعاد كما كان في محلِّه وَمَرَّتَبَتِهِ ؛ وذلك قولُ رسولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عليه وسلَّم صاحبِ الشُّرعِ : التائبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ .

مثل الخاشي

مَثَلُ الْخَاشِي^(١) مَثَلُ رَجُلٍ وَقَعَ فِي مَفَازَةٍ لَا يَرَى فِيهَا أَشْيَاءَ وَلَا
عُمُرَانَ وَلَا نَبَاتَ ، فَقَدْ اِمْتَلَأَ خَشْيَةً مِنْ ضَلَالِ^(٢) الطَّرِيقِ ، وَمِنْ
الظُّلُمَاءِ ، وَمِنْ قَلَّةِ الْقُوَّةِ .

وكمثلُ رَجُلٍ وَقَعَ فِي غِيَاضِ^(٣) ومُروِجٍ ، قد سَبَقَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ بِأَنَّ
المَروِجَ مواضعُ الأَسَدِ ؛ فَالْخَشْيَةُ مِنَ الأَسَدِ كائِنَتْ فِيهِ .

مثل الخائف

وَمَثَلُ الْخَائِفِ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى فِي هَذِهِ المَروِجِ آثارَ خُطَاهُ وَمَأْوَاهُ
الَّذِي يَأْوِي إِلَى أَشْبَالِهِ^(٤) .

(١) الخاشي : المتوجس الخائف .

(٢) ضلال الطريق : عدم الاهتمام .

(٣) الغياض : جمع غيضة ، وهي الشجر الكثير الملتف .

(٤) الشبل : ولد الأسد وجمعه أشبال .

مثل العارف

وَمَثَلُ الْعَارِفِ كَمَثَلِ مَنْ عَايَنَ الْأَسَدَ ، وَنَظَرَ إِلَى شَخْصِهِ فِي ذَلِكَ الْمَرْجِ (١) ، فَأَخَذَتْ هَيْبَةُ الْأَسَدِ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ ، وَرَكِبَتْ أَهْوَالُهُ نَفْسَهُ ، وَصَارَ كَثُوبٌ بِالِ وَجَلْسٍ مُلْقَى (٢) مِنْ رَوْعِ (٣) الْقَلْبِ وَفَزَعِ النَّفْسِ .

مثل أهل الإرادة

مَثَلُ أَهْلِ الْإِرَادَةِ فِي دَرَجَاتِهِمْ مَثَلُ خَدَمِ الْمَلِكِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ اتَّخَذَ عَلَى رَأْسِهِ إِكْلِيلًا وَبَارِقَةً فِي يَدِهِ لِيَلْقَى بِهَا الْمَلِكَ يَوْمَ الْعَرْضِ ، فَعَمَدَ أَحَدُهُمْ إِلَى الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ الصَّافِي فَصَاغَهُ ، ثُمَّ عَمَدَ (٤) إِلَى جَوَاهِرِ ثَمِينَةٍ مِنَ اللَّالِئِ وَالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُّدِ فَرَكَّبَهَا فُصُوصًا ، فَلَبِغَتْ قِيمَةُ إِكْلِيلِهِ مِائَةَ أَلْفٍ وَزِيَادَةً .

وَأَخَّرَ عَمَدَ (٥) إِلَى ذَهَبٍ مَعْمُولٍ مَغْشُوشٍ فَصَاغَهُ وَرَكَّبَ فِيهِ مِنَ الْفُصُوصِ مَا يُبَاعُ (٦) بِثَمَنِ يَسِيرٍ مِنَ الْأَخْزَافِ (٦) وَنَحْوِهِ ، وَعِظَامِ صَدْفٍ ؛ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْعَرْضِ ، وَلَقِيَهِمُ الْمَلِكُ فَأَنْفَذَهُمْ إِلَى سُوقِهِ

(١) المرج : الأرض الخضراء بالنبات ، وجمعها مروج .

(٢) جلس : كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرجل .

جلس ملقاة [أ] وهو تحريف .

(٣) روع القلب : خوف .

(٤) عمد إلى الشيء : قصده .

(٥) ما يبلغ [ب] .

(٦) الخزف : الأنية المعمولة من الطين ، والفخار هو هذه الأنية المطبوخة .

لِيُعْطِيَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَمَنَهُ مِنَ الْخَزَانَةِ ؛ فَعِنْدَهَا يَظْهَرُ الْأَسْفُ وَالنَّدَمُ عَلَى مَا فَرَّطَ فِي ذَلِكَ .

فَعَمَّالُ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْمَرَاتِبِ عَلَى إِرَادَتِهِمْ ؛ فَمَنْ عَمَلَ عَلَى طَرِيقِ الْحُبِّ وَالتَّحَنُّنِ فَعَمَلُهُ كَتَلِكِ الْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ وَالذَّهَبِ الْخَالِصِ ، فَأَوْفَرَهُمْ حَبًّا لَهُ أَعْلَاهُمْ ثَمَنًا لَجَوْهَرِهِ ، وَأَصْفَى فِي ذَهَبِهِ ؛ فَالذَّهَبُ الْخَالِصُ صِدْقُهُ ، وَالْفُصُوصُ الْمُرَكَّبَةُ حُبُّهُ لِمَوْلَاهُ .

فَعَمَّالُ اللَّهِ تَعَالَى هَكَذَا صِفَتَهُمْ ؛ فَعَامِلٌ يَخْلُطُ وَيَشُوبُ^(١) ؛ فَهُوَ كَالذَّهَبِ الْمَعْمُولِ الَّذِي شَابَهُ ذَلِكَ النِّحَاسُ وَالصُّفْرُ وَالْأَدْوِيَّةُ مَعَ التَّخْلِيطِ ؛ إِذَا صَفَتْ إِرَادَتُهُ بِجَهْدِهِ لَمْ يَتَفَكَّرْ فِي الْعِلَاقَةِ ، فَعَمَلُهُ مَعَ طَلَبِ الثَّوَابِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ ؛ فَهَذِهِ فُصُوصٌ لَيْسَ لَهَا كَثِيرٌ أَثْمَانٍ ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوَاهِرٍ ، وَكَيْفَ تَكُونُ جَوَاهِرَ وَقَدْ شَانَهَا^(٢) طَلَبُ نَجَاةِ النَّفْسِ وَثَوَابِهَا ، فَبَالَ النَّفْسُ قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَاهُ ، وَقَلْبُهُ حِجَابٌ كَثِيفٌ يَحْجُبُهُ عَنْ مَوْلَاهُ .

وَأَصْحَابُ الْجَوَاهِرِ فِي أَعْمَالِهِمْ ؛ مَنْ عَمَلَ لِرَبِّهِ بِلَا عِلَاقَةٍ ؛ وَصَدَقَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ بِالْمُجَاهَدَةِ بِطَلَبِ الصَّدَقِ ، وَخَرَجَ الْعَمَلُ مِنْهُ مِنْ نَارِ الْحُبِّ وَفَوْرَانِهِ ، فَصَعَدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَلَا يَنْتَهِي حَتَّى يَصِيرَ إِلَى مَحَلِّ الْحُبِّ ؛ فَهَنَّاكَ يُعْرَضُ ، وَهَنَّاكَ يُقْبَلُ ، وَهَنَّاكَ يُثَابُ . وَأَعْمَالُ هَؤُلَاءِ الْآخَرِينَ مُنْتَهَاهَا إِلَى الْعَرَضِ عَلَى الْعَرْشِ .

(١) يشوب : يمزج ويمزج ويمزج .

(٢) شَانَهَا : عَابَهَا مِنَ الشَّيْنِ وَهُوَ مُشِينٌ : مُعِيبٌ .

أعمال هذه الأمة على ثلاث مراتب

فصارت أعمال هذه الأمة على ثلاث مراتب : صِنْفٌ منهم يرفع عملهم إلى الخزائن ، ويربى^(١) هناك بالرحمة ، فيصير الواحد عشرة ؛ وهو عمل المخلصين ، وذلك قول الله جل ذكره^(٢) : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ .

وصِنْفٌ آخر يرفع عمله إلى عليين إلى السدرة التي أصلها في الجنة ورأسها بباب الله ، فيربى هناك بالرفقة ، فيصير الواحد سبعمئة ؛ وهو عمل الصادقين ؛ وذلك قول الله تعالى جل ذكره^(٣) : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾^(٤) .

وصِنْفٌ يرفع عمله إلى الله تعالى حتى يُقبل الله عليه ، فينظر الله إليه قرباه هناك بنصرته ، فيصير الواحد آلاف ألف ، ولا يحصي عددها إلا الله تعالى ، وذلك قول الله تعالى^(٥) : ﴿ فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ .

وإنما كان كذلك لأن هذه الأمة أبرزت باليقين ، فاستقرت قلوبهم إلى حكم الله تعالى ، وأنفذت إلى حب الله تعالى ، فوقعت أعمالهم في تربية الله تعالى .

(١) يربي : ينمي ويزيد .

(٢) الأنعام (٦/١٦٠) .

(٣) البقرة (٢/٢٦١) .

(٤) الحب : كل ما يزرعه الناس ويقتاتون به ويعيشون عليه .

(٥) البقرة (٢/٢٤٥) .

مثل العمال في اخلاصهم في العمل

مَثَلُ الْعُمَالِ فِي إِخْلَاصِهِمْ فِي الْعَمَلِ مَثَلُ عَبْدٍ دَفَعَ إِلَيْهِ مَوْلَاهُ ثَوْبًا مَنْسُوجًا مُخْتَلِفَ السَّدَى ؛ فطَاقَةً مِنْهُ كَثَانٌ ، وَطَاقَةً مِنْهُ صُوفٌ ، وَطَاقَةً مِنْهُ شَعْرٌ ، وَطَاقَةً مِنْهُ إِبْرَيْسَمٌ ^(١) ؛ فَقَالَ مَوْلَاهُ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ : اسْتَخْرِجْ طَاقَةَ الْإِبْرَيْسَمِ مِنْ هَذِهِ الطَّاقَاتِ ، لِيَمْتَحِنَ حَذَاقَتَهُ ^(٢) ، فإِذَا قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ عَظُمَ شَأْنُهُ عِنْدَ مَوْلَاهُ ، وَصَارَ أَمْرُهُ بَيْنَ الْعَبِيدِ عَجَبًا .

فَكَذَا الْمُؤْمِنُ إِذَا أَخْلَصَ الطَّاعَةَ مِنْ بَيْنِ شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَإِعْجَابِهَا وَعَلَاتِقِهَا ^(٣) ، مِنْ الرُّغْبَةِ ، وَالرُّهْبَةِ ، وَالْجِرْصِ وَالشُّرِّهِ ، وَالْعَذْرِ ، وَالْعُلُوِّ ، وَالْكِبَرِ ، وَالْحَسَدِ ، وَالْغِلِّ ، وَالْعِيْشِ ، وَالْمَكْرِ ، وَالْخِيَانَةِ ؛ أَخْلَصَ طَاعَةً مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الدَّنِيئَةِ الرَّجْسَةِ الدَّنِيسَةِ ، ثُمَّ خَرَجَ بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَظُمَ شَأْنُهُ ، وَصَارَ أَمْرُهُ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ عَجَبًا ؛ كَيْفَ قَدَّرَ عَلَى مِثْلِ هَذَا ؟ وَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ وَدَمٌ وَطِينٌ وَتُرَابٌ ، وَشَهَوَاتٌ ، وَلَا تَعْلَمُ الْمَلَائِكَةُ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْقُوَّةِ فِي سِرِّ أَسْرِهِ ^(٤) مِنْ الْجَمِيعِ ، فَيَتِلَّكَ قَدَّرَ عَلَى مِثْلِ هَذَا .

مثل الأعمال في زيتها

مَثَلُ الْأَعْمَالِ فِي زَيْتِهَا وَبَهَائِهَا مَثَلُ الْأَثْوَابِ مِنَ الدِّيَابِيحِ ^(٥)

(١) الإبريسم : الحرير .

(٢) الحذق : المهارة .

(٣) علائقها : ما يتعلق بها .

(٤) أسره : أخفاه واستبطنه .

(٥) الديابيح : جمع ديباج .

وَالْوَشَائِش^(١) ، فالوشايش فيها بِالْوَانِ . وَالْأَعْمَالُ [٩٦] أَنْوَاعٌ ؛ فَثَوْبٌ مِنْهَا أَبْيَضٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَلْوَانِ وَالنَّقُوشِ ، وَمَعَ ذَلِكَ خَشِينٌ لَيْسَ بِجَوْهَرِيٍّ ، لِأَنَّهُ مَغْشُوشٌ فِي أَصْلِهِ ؛ فَهَذَا غَيْرُ ثَمِينٍ ؛ وَإِنْ كَانَ فَيَكُونُ قَلِيلًا نَمُودَجَ شَيْءٍ مِنَ الثِّيَابِ ، فَلَا يَشْتَرِكُ الْإِبَاقُ^(٢) وَوَكْسُ^(٣) الثَّمَنِ ؛ فَهَذَا عَمَلٌ مِنْ صَاحِبِ تَخْلِيْطٍ ، وَخُلِقَ سَيِّئًا وَخُسُونَةً رُوحٌ ، فَلَا يُعْبَأُ بِعَمَلِهِ بِشَيْءٍ .

وَتَوْبٌ لَيْسَ لَهُ جَوْهَرٌ إِلَّا أَنَّهُ خَالِصٌ وَلَا نَقْشَ لَهُ ، فَهَذَا مِمَّا يُشْتَرَى وَيُرْغَبُ فِيهِ .

فَهَذَا الصَّادِقُ الْمُرِيدُ يَطْلُبُ مَرْضَاتِهِ ، الَّذِي قَدْ لَانَتْ جَوَارِحُهُ لِلنِّفْسِ ، وَخَشَعَتْ قَلْبُهُ .

وَتَوْبٌ جَوْهَرِيٌّ خَالِصٌ كَذَلِكَ ذُو الْوَانِ مِنَ النَّقُوشِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ طَرَاوَةٌ ؛ وَلَنْ تُؤْخَذَ الْعَيُونُ بِحَلَاوَتِهِ فَهَذَا صَدِيقٌ صَارَ إِلَى اللَّهِ بِجُهِدِهِ ، فَجُهِدَهُ نَصَبَ عَيْنِهِ كُلَّمَا عَمِلَ عَمَلًا رَأَى نَفْسَهُ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ ، فَهُوَ يَعْمَلُ عَلَى التَّعَظُّمِ ، وَيَجْتَهِدُ فِي الْعَمَلِ وَنِيَّتِهِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ لَبَقٌ^(٤) .

وَتَوْبٌ جَيِّدٌ جَوْهَرِيٌّ خَالِصٌ الْغَزْلُ مِنَ الْإِبْرَيْسَمِ^(٥) ، مُحْكَمٌ

(١) الثوب الموشى : المنقوش المنمّم .

(٢) الإباق : هروب العبد من سيده .

(٣) الوكس : نقصان الثمن .

(٤) لبق : ماهر حذق .

(٥) الإبريسم : الحرير .

النَّسج ، مَلُونِ النُّقُوشِ بِفُنُونٍ^(١) الْأَشْيَاءِ ، مِنْ الْأَشْجَارِ وَالطُّيُورِ ،
وَالْتَمَاثِيلِ وَالتَّصَاوِيرِ ؛ فَيَزْدَادُ بِثَمَنِهِ عَشْرَةُ أَضْعَافٍ ، كُلُّ مَرَّةٍ تَأْخُذُهُ
الْعَيُونَ بِحُلَاوَةِ لَبِقِهِ .

فَهَذَا عَمَلُ أَهْلِ الْمَحَبَّةِ ، وَهُمْ أَهْلُ اللَّبَقِ فِي أَعْمَالِهِمْ ، قَدْ
زَايَلَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ وَالنَّفْسُ ، وَالْاِلْتِفَاتُ إِلَى شَيْءٍ سِوَى الْعُبُودَةِ ، وَالْفَرَحِ
بِشَيْءٍ سِوَاهُ ؛ فَأَعْمَالُهُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ ، وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ ،
وَحَشَوُهَا^(٢) حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى .

مثل عمل الذي لا لبق له

فَمَثَلُ عَمَلِ الَّذِي لَا لَبَقَ لَهُ مَثَلُ تِلْكَ النُّقُوشِ الَّتِي تُنْقَشُ عَلَى
الْحِيطَانِ وَالْعِيدَانِ بِالْأَلْوَانِ النُّقُوشِ ، وَلَا تَلْتَنُّ الْعَيُونَ بِرُؤْيَيْهَا ، وَلَا تَذُوقُ
حُلَاوَتَهَا ، حَتَّى تُذَهَّبَ بِالذَّهَبِ ؛ فَحِينَئِذٍ صَارَ لَهَا بَرِيقٌ وَإِشْرَاقٌ ؛
فَعِنْدَهَا تَلْتَنُّ الْعَيُونَ بِحُلَاوَةِ زِينَتِهَا .

فَكَذَا الْأَعْمَالِ ؛ وَإِنْ صَدَرَتْ لَا لَبَقَ لَهَا إِلَّا بِحُلَاوَةِ لَبِقِهَا ، وَهُوَ
حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ أَقْوَى الْأَنْوَارِ ، وَأَنْوَرُهَا وَأَعْلَاهَا وَأَسْنَاهَا ؛ فَهُوَ
جَوْهَرِيٌّ مُحْكَمٌ ، وَإِنْ طَالَ اسْتِعْمَالُهُ وَابْتِدْأَلُهُ فَهُوَ طَرِيقُ النُّقُوشِ ، حَسَنُ
الْهَيْئَةِ ، كَالثُّوبِ الْجَوْهَرِيِّ الْمُحْكَمِ عَلَى مَا وَصَفْنَا .

وَإِذَا كَانَ خَشِينًا لَا جَوْهَرَ لَهُ فَبِقِلِيلِ الْاِبْتِدَالِ وَالِاسْتِعْمَالِ دَرَسَتْ^(٣)

(١) فنون الأشياء : مختلف أنواعها .

(٢) حشوها : ملؤها .

(٣) درست : مثل اندرست أي عُنِيَ عليها .

تلك النقوش وتهافتت^(١) ، وبرزت قيمته إلى ثوب أبيض خلق^(٢) .

فكذا العامل الذي قام به ، واجتهد في طلب الصّدق ، مع خشونة وأخلاق سيئة لا تدّعه ، فقد نقش عمله وزينه ، ولكن إذا طالت المدة ، وكبرت سنّه ، تهافتت عنه تلك النقوش والزينة ؛ لأنه كلما كبر ازداد سوء خلقه ، وضيق صدره ، وخشونته ؛ فتعود حاله وقدره عند الله تعالى كما عاد ذلك الثوب الذي قد درس ، وصار ثوباً خلقاً لا نقوش فيه ، وتراجعت قيمته إلى قيمة ثوب أبيض خلق .

مثل من يجاوب الذاكرين

مَثَل مَنْ يَجَاوِبُ الذَّاكِرِينَ وَالْمُؤَذِّنِينَ عِنْدَ التَّهْلِيلِ^(٣) عَلَى طَرِيقِ
المُساعدَةِ بِلا رَوِيَّةٍ ولا اسْتِعْمَالِ عَمَلٍ ، مَثَلُ رَجُلٍ يُلْقِي فِي زَرْعِهِ مِنْ
الترَابِ وَالْعَلْفِ لِيُقَوِّيه ، ثُمَّ امْتَنَعَ مِنْ سَقْيِهِ ، فَمَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ إِلَّا
يَبْسًا^(٤) ، ويلقي عنه النبت^(٥) . وَمَنْ سَقَاهُ سَقِيًّا مُتَرَادِفًا^(٦) مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا
اسْتَخْرَجَ الْمَاءَ قُوَّةَ ذَلِكَ الْمَلْقِي ، فَأَذَاهَا إِلَى الزَّرْعِ ، فَنَبَتَ وَقَوِيَ وَاشْتَدَّ
سَاقُهُ ، وَسَنَبِلَ^(٧) ، وَتَفَرَّعَ ، حَتَّى أُدْرِكَ الزَّرْعُ وَقَوِيَ .

(١) التهافت : التساقط شيئاً فشيئاً .

(٢) الثوب الخلق : الثوب البالي .

(٣) التهليل : قول (لا إله إلا الله) .

(٤) يبس : جف .

(٥) ويبقي عن النبت [أ ، ب] .

(٦) المترادف : التابع .

(٧) سنبل الزرع : إذا أخرج سنبله .

فكذا مَنْ جَاوَبَ الْمُهْلَلُ بِدُونِ حَيَاةِ الْقَلْبِ وَلَا يَفْعَلُ مَا يَقُولُ ،
 فذلك كالترابِ الذي يُلْقَى فِي الزَّرْعِ ، وَمُنْعِ سَقْيَاهُ ، لَمْ يَزِدْ إِلَّا
 ثِقَلًا ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا اقْتَضَى التَّهْلِيلَ فِي جَمِيعِ عُمْرِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَهُوَ الْإِقْرَارُ
 بِتَوْحِيدِهِ ، وَمَا سِوَاهُ تَجْدِيدُ الْوَلَةِ ؛ فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ إِنَّمَا تَقْتَضِي مِنْهُ وَلَهُ
 الْقَلْبَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا لَمْ يُؤَلِّهِ قَلْبُهُ إِلَيْهِ لَمْ يُقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا آمَنَ
 أَطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ ، وَوَلَّهُ بِالْوَاحِدِ ؛ فَكَلِمَا ذَهَبَ مِنْ وَلِهِ ^(١) قَلْبُهُ عَنْهُ إِلَى
 شَيْءٍ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا يَذْهَبُ سَهْوًا لَا عَمْدًا ^(٢) ، فَإِذَا سَهَا ^(٣) عَنْ ذِكْرِ
 الصَّانِعِ ، وَاشْتَغَلَ بِالصَّنُوعِ ؛ لَغَلَبَةِ حَلَاوَةِ الْمَصْنُوعِ عَلَى قَلْبِهِ ، وَحِدَّةِ
 شَهْوَتِهِ لَهُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَإِذَا بَقِيَ فِيهِ خَرِبَ قَلْبُهُ ، وَأَظْلَمَ صَدْرُهُ ؛ فَإِذَا
 هَلَّلَ فَإِنَّمَا يَجِدُّ الْوَلَةَ ، وَيَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَيَرْبِطُ الْقَلْبَ ، وَتَعُودُ
 النَفْسُ طَرِيقَةً .

فهذا المجاوبُ إِذَا سَمِعَ تَهْلِيلَهُ ، فَجَاوَبَهُ عَلَى طَرِيقِ الْمُسَاعَدَةِ
 وَالْغَفْلَةِ فَهُوَ كَالْتُرَابِ الْمُلْقَى عَلَى ذَلِكَ الزَّرْعِ بِلَا سَقْيٍ ؛ فَلَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ
 إِلَّا ثِقَلًا ، كَذَا هَذَا الْمَجَاوِبُ لَا يَزِيدُهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا خَسَارًا وَحِجَةً ^(٤) .
 وَمَنْ نَطَقَ بِهِ عَلَى كَشْفِ الْغَطَاءِ كَانَ كَمَنْ سَقَى زَرْعَهُ بَعْدَ إِقَاءِ
 التُّرَابِ فِيهِ ، فَرَطَبَ ذَلِكَ التُّرَابَ ، وَتَأَدَّتْ قُوَّتُهُ إِلَى الزَّرْعِ ، فَقَوِيَ
 وَاشْتَدَّ سَاقُهُ ، وَأَعْجَبَ الزَّرْعَ لِيَغِيظَ بِهِ عَدُوَّهُ الْكَافِرَ ، وَوَعَدَ اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ أُولَئِكَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ^(٥) :

(١) وله قلبه : شدة حبه .

(٢) العمد : القصد .

(٣) سها : غفل .

(٤) أي حجة عليه .

(٥) الفتح (٢٩/٤٨) راجع تفسير الإمام الطبري (٧٢/٢٦) والقرطبي (٢٩٥/١٦)
 واللسان (٩٤/١) والبحر المحيط (١٠٢/٨) .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

مثل من يستمع قلبه إلى حديث نفسه

مَثَلُ مَنْ يَسْتَمِعُ قَلْبُهُ إِلَى حَدِيثِ نَفْسِهِ فَيَقْبَلُ مِنْهَا ، وَيَسْتَشِيرُهَا فِي أُمُورِهِ ، وَيَقْبَلُ مَا تُشِيرُ عَلَيْهِ ، مَثَلُ رَجُلٍ مَعْرُوفٍ بِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ذِي خَطَرٍ^(١) وَجَاهٍ ، يَسْتَشِيرُهُ النَّاسُ فِي أُمُورِهِمْ ، أَقْبَلَ عَلَى صَبِيٍّ مَعَ خُلُقَانٍ وَأَدْنَسٍ^(٢) ، وَبِزَاقٍ^(٣) وَمُخَاطٍ ، يَلْعَبُ بِالتَّرَابِ لِعَبِّ الصَّبِيَّانِ ؛ فَهُوَ يَسْتَشِيرُهُ فِي الْأُمُورِ ، وَيَسْتَمِعُ مَقَالَاتِهِ ، وَيَقْبَلُ مِنْهُ ، فَكُلُّ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْعُقَلَاءِ تَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَتَعَجَّبَ مِنْ فِعْلِهِ .

فَكَذَا النَّفْسُ فِي جَوْفِ الْأَدَمِيِّ بِهَذِهِ الصِّفَةِ : نَهْمُهَا اللَّعْبُ وَالْبَطَالَةُ ، مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالنَّهْمَاتِ ، مَعَ خُلُقَانِ الْأَعْمَالِ وَأَدْنَسِ الذُّنُوبِ ، وَبِزَاقٍ^(٣) الْغَضَبِ ، وَمُخَاطِ الْبُكَاءِ ، جَزَعًا عَلَى فَوَاتِ الدُّنْيَا ، وَمَصَائِبِ أَحْوَالِهَا .

فَإِذَا ذَهَبَ الْقَلْبُ الَّذِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَعْرِفَتِهِ ، وَزَيَّنَهُ بِالْعَقْلِ ، وَشَرَّفَهُ بِعِلْمِ أَسْمَائِهِ وَعِلْمِ الْقُرْآنِ ، فَأَعْرَضَ عَنْ هَذِهِ الْعَطَايَا وَالْهُدَايَا ، وَأَقْبَلَ عَلَى حَدِيثِ النَّفْسِ وَإِشَارَاتِهَا ، وَإِلَى مَا تَدْعُو إِلَيْهِ ، فَقَبِلَ مِنْهَا وَاسْتَفَادَ بِهَا ؛ فَهَذَا شَأْنٌ عَجِيبٌ ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ فِيهِ حَيْرَةٌ .

(١) الخطر : القدر والدرجة ، وقد وردت (ذا خطر) في [أ ، ب] .

(٢) الأدناس : الأوساخ .

(٣) البزاق : هو البصاق .

مثل عمال الله تعالى على طريق الرجاء والثواب

مَثَلُ عَمَّالِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى طَرِيقِ الرَّجَاءِ وَالثَّوَابِ مَثَلُ بَعِيرِ الرِّحَا^(١) ، يَشْدُ عَلَى عَصَارِي حَجَرِ الرِّحَا وَأَخَذَ بَعَيْنَيْهِ ، فَهُوَ يَدُورُ عَلَى ذَلِكَ الْقُطْبِ^(٢) وَالْبَكْرَةَ فِي أَرْضِ عَشْرَةِ أَذْرَعٍ ، لَا يَبْرَحُ مِنْ تِلْكَ الْبُقْعَةِ فِي شَهْرِهِ وَذَهْرِهِ ، وَلَا يَعْرِفُ سِوَى ذَلِكَ شَيْئاً ؛ فَالرِّحَا الْأَعْمَالُ الثَّقَالُ ، وَتَعَبُ الْأَرْكَانِ فِيهَا ، وَطِحْنُهَا^(٣) الَّذِي تَرْمِي بِهِ تِلْكَ الْأَنْوَارُ الَّتِي تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ ، وَالْقُطْبُ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ أَعْمَالُهُمْ نِيَّاتُهُمْ وَمَقَاصِدُهُمْ يَبْتَغُونَ^(٤) بِهَا [٩٧] الثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَهَمُ الشَّهْرُ وَالذَّهْرُ مَشَاغِيلُ فِي الْأَعْمَالِ ؛ وَدَوْرَانُ قُلُوبِهِمْ عَلَى طَلَبِ ذَلِكَ النَّوَالِ لَا يَبْتَغُونَ غَيْرَ ذَلِكَ .

مثل الصديقين العارفين في الأعمال

وَمَثَلُ الصَّدِيقَيْنِ الْعَارِفَيْنِ فِي الْأَعْمَالِ مَثَلُ أَرْجِيَةِ الْمَاءِ ؛ جَاءَ الْمَاءُ مُنْحَدِراً جِدًّا وَدَارَ الْقُطْبُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَجْنَحَةِ ؛ فَالْمَاءُ عِلْمُهُمْ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ وَعِلْمُهُمْ بِاللَّهِ .

(١) الرِّحَا : هي الطاحونة .

(٢) قُطْبُ الرِّحَا : ما تدور عليه .

(٣) الطحن : المطحون أو الطحين .

(٤) يَبْتَغُونَ بِهَا الثَّوَابَ : يَلْتَمِسُونَهُ وَيَطْلُبُونَهُ .

مثل خاص الأولياء

مَثَلُ خَاصِّ الْأَوْلِيَاءِ مِثْلُ أَرْحِيَةِ الرِّيحِ ، جَاءَتْ الرِّيحُ فَتَحْمِلُ ذَلِكَ الرِّيحَا ، فَهُوَ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ يَدُورُ كَالطَّائِرِ يَطِيرُ ، وَسَبَبُ دَوْرَانِهِ مُنْكَمِّنٌ ، فَهَؤُلَاءِ الْمُسْتَعْمِلُونَ فِي الْقَبْضَةِ ، أَسْبَابُ أُمُورِهِمْ قَدْ انْقَطَعَتْ عَنْ أَسْبَابِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَخَفِيَتْ لَأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى .

مثل المؤمن والكافر والمنافق

مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مَثَلُ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ أَتَوْا نَهْرًا عَظِيمًا فِي مَفَازَةٍ ، فَوَقَعَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي النَّهْرِ فَسَبَحَ سَبْحًا ، وَخَرَجَ ؛ وَوَقَعَ الثَّانِي ؛ فَكَلِمَا كَادَ أَنْ يَصِلَ إِلَى شَطِّ النَّهْرِ^(١) نَادَاهُ الثَّالِثُ الَّذِي لَمْ يَدْخُلْ بَعْدُ فِي النَّهْرِ : أَنْ يَا فُلَانُ ، هَلُمَّ^(٢) إِلَيَّ ، فَإِنَّ الطَّرِيقَ مَخُوفٌ فَتَهْلِكُ ، ارْجِعْ إِلَيَّ ، فَإِنِّي أَعْلَمُ بِطَرِيقٍ آخَرَ يُعْبَرُ بِالسَّلَامَةِ عَلَى الْقَنْظَرَةِ ؛ وَالَّذِي خَرَجَ يُنَادِيهِ : أَنْ إِلَيَّ إِلَيَّ ؛ فَإِنَّ الطَّرِيقَ آمِنٌ ، وَعِنْدِي مِنَ النِّعَمِ مَا لَا يُوصَفُ ، فَمَا زَالَ يَذْهَبُ إِلَى هَذَا وَإِلَى ذَاكَ حَتَّى يَغْرُقَ فِي الْمَاءِ وَيَهْلِكُ .

قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَالْأَوَّلُ الَّذِي عَبَرَ مُؤْمِنٌ مُخْلَصٌ ، وَالَّذِي لَمْ يَعْْبُرْ بَعْدُ كَافِرٌ ، وَالَّذِي دَخَلَ مُنَافِقٌ يَدْعُوهُ الْمُسْلِمُ مِنْ وَرَائِهِ ، وَالْكَافِرُ يَدْعُوهُ مِنْ خَلْفِهِ ، وَهُوَ مُشَرَّدٌ مُتَذَبِّذٌ^(٣) حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ ،

(١) شط النهر : ساحله .

(٢) هلم إلي : أقبل ، وهي إسم فعل .

(٣) المتذبذب : المتردد .

فيموت مُنافِقاً ، فيبقى في قَعْرِ جَهَنَّمَ في أسفل السافلين .

ومصدقُ هذا قولُ اللَّهِ سبحانه وتعالى (١) : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ (٢) .

ومثلهم أيضاً مثلُ أهلِ بلدةٍ بقُوا في جُذوبةٍ وقَحطٍ ، وشِدَّةٍ ويُبوسةٍ ، وعُسْرٍ وضيقٍ وفقرٍ ، فجاء رجلٌ بهيَّ سَخِيٍّ ، كريمٍ جَوَادٍ ، رؤُوفٍ رحيمٍ ، وقال لهم : أنا لَكُمْ ناصحٌ أمينٌ ، وإنكم بَقِيتُمْ في هذه البُقْعَةِ في هذه الشدةِ والمِحْنَةِ (٣) ، فإني أدُلُّكم على أرضٍ فيها خِصْبٌ وسَعَةٌ ، وخُضرةٌ وماءٌ ، ونعيمٌ ؛ فَارْتَحِلُوا إِلَيْهَا تَنْجُوا مِنْ هَذِهِ الْمِحْنَةِ ؛ فقوموا قَبْلُوا نَصِيحَتَهُ وَارْتَحِلُوا إِلَى تِلْكَ الْبُقْعَةِ ؛ فوجدوا ما أَخْبَرُوا وَزِيَادَةً ، وقومٌ لم يصدَّقوه ولم يلتفتوا إلى كَلَامِهِ ، وَبَقُوا فِي أَرْضِهِمْ فِي الْقَحْطِ (٤) وَالشِدَّةِ وَجَازُوا ذَلِكَ ، فَتَزَلُّوا فِيهَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا فَرَحِينَ بِهَا ، مُعْجَبِينَ بِهَا ، وَأَرْسَلُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ بَقُوا فِي دِيَارِهِمْ وَأَخْبَرُوهُمْ بِذَلِكَ : إِنَّا وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا الرَّجُلَ وَزِيَادَةً ، تَعَالَوْا مَعَنَا تَنْجُوا مِنْ هَذِهِ الشِدَّةِ ، فَلَمْ يَقْبَلُوا ، وَلَمْ يَخْرُجُوا ؛ فَلَمَّا لَبِثَتْ تِلْكَ الطَّائِفَةُ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ زَمَاناً وَشَهُوراً وَسَنِينَ مُتَنَعِّمِينَ جَاءَ الرَّجُلُ ثَانِياً ، وَقَالَ : إِنَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَرْضاً أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ ، وَنَعِيمُهَا وَمِيَاهُهَا وَأَشْجَارُهَا وَثِمَارُهَا أَضْعَافٌ مِنْ هَذَا ، فَارْتَحِلُوا إِلَى هُنَالِكَ .

فصدَّقَ بعضُ منهم وارتحلوا ، فوجدوا هُنَالِكَ أَكْثَرَ وَأَطْيَبَ مِمَّا وَعَدَهُمُ الرَّجُلُ ، فمكثوا ثَمَّةً (٥) ، وَأَخَذُوا فِي التَّنْعَمِ ، وَبَقُوا فِي

(١) النساء (٤/١٤٥) .

(٢) المطر عن الناس .

(٣) ثمة : هناك ، وتقال أيضاً (ثم) .

(٤) الدرك : أسفل الشيء وقعره .

(٥) المحنة : الابتلاء والاختبار .

الرَّفَاهِيَةِ ، وَبَعَثُوا إِلَى أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي الْأَرْضِ الْأُولَى فِي النِّعَمِ : أَنْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا الرَّجُلَ الْأَوَّلَ وَزِيَادَةً ، هَلُمُّوا^(١) إِلَيْنَا نَعِيشُ وَنَتَنَعَّمُ ، فَأَبَوْا ، وَقَالُوا : لَا نُعْطِي الْمَوْجُودَ بِالْمَفْقُودِ ، وَلَا نَبْدُلُ ؛ فَإِذَا سَحَابَةٌ جَاءَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَضْرِبَتِ الْأَشْجَارَ ؛ فَيَبَسَتْ بَسَاتِينُهُمْ وَمِيَاهُهُمْ وَمَا عِنْدَهُمْ حَتَّى هَلَكُوا جَمِيعًا .

فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِي ظُلْمَةِ الْكُفْرِ وَشِدَّةِ الشُّرْكِ وَالْقَحْطِ وَالضُّيْقِ فِي مَفَاوِزِ الْكُفْرِ حَيَارَى فِي عُسْرِ^(٢) وَضَيْقٍ ، فَجَاءَهُمُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ، وَنَصَحَهُمْ ، وَبَيَّنَ لَهُمْ طَرِيقَ الْحَقِّ وَالصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، فَأَمَنَ بِهِ بَعْضُهُمْ وَنَجَوْا مِنْ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ وَالْبُؤْسِ وَالْفَاقَةِ^(٣) ، وَأَخْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ طَرِيقُ الرُّشْدِ مِنَ الْغَيِّ .

وَقَوْمٌ لَمْ يَقْبَلُوا نَصِيحَةً ؛ وَهُمْ الْكَفَّارُ فَبَقُوا فِي مَفَازَةِ الْكُفْرِ ، فِي أَرْضِ الْقَحْطِ وَالْجُدُوبَةِ ، وَالضُّيْقِ وَالضَّنْكِ^(٤) .

ثُمَّ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا^(٥) ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ، بَدَّلُوا مَا عِنْدَهُمْ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا ، وَارْتَحَلُوا إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ .

(١) هلموا إلينا : أقبلوا علينا .

(٢) العسر : الشدة والضيق .

(٣) الفاقة : الفقر .

(٤) الضنك : الضيق .

(٥) الارتياب : الشك .

والمنافقون قالوا : لا نُعْطِي المَوجودَ بالمفقود ، فَخَابُوا وَخَسِرُوا ؛
ذهب المَوجودُ مِن أيديهم ، ولم يَصِلُوا إلى الآخرة ، فَبَقُوا فِي نِفَاقِهِمْ
وَشَكُّهُمْ .

وأما المؤمنون فخرجوا إلى الأَرْضِ الثَّالِثَةِ وهم الصادقون ، كما
قال اللهُ تعالى فِي وَصْفِهِمْ^(١) : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ بِقَبُولِهِمْ دَارَ
الْآخِرَةِ خَالِصاً ، لِأَنَّ إِيْمَانَهُمْ كَانَ خَالِصاً مُخْلِصاً ؛ قال اللهُ تَعَالَى^(٢) :
﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ^(٣) ﴾ .

(١) الحشر (٨/٥٩) .

(٢) الأنبياء (٢١/١٠٥، ١٠٦، ١٠٧) .

(٣) الزبور : كتاب داود والذكر هو توراة موسى .

العباد الصالحون : أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

والقوم العابدون : هم أهل الصلوات الخمس من الموحدين .

وقد جاء في آخر النسخة (ب) ما يأتي :

(تم بحمد الله ومنه وحسن عونه ، وصلى الله على محمد نبيه وأزواجه وذريته وأصحابه وكافة أمته وجعلنا منهم بمنه وطوله) .

وفي نهاية النسخة (أ) ما يأتي :

(تم بحمد الله ومنه وحسن عونه ، وصلى الله على محمد نبيه ، وأزواجه ، وذريته وأصحابه ، وكافة أمته ، وجعلنا منهم بفضله وطوله .

واتفق تمامه على ידי الفقير إلى رحمة الله علي بن سليمان بن أحمد بن سليمان المرادي الأندلسي ، نفعه الله به ، وعلمه ما فيه ، وجعله من المؤتمين بنبيه ، بفضله ورحمته ، وغفر له ولوالديه ، ولكافة أمة محمد صلى الله عليه وسلم) . ا هـ .

الفهرس

٥	مقدمة في ضرب الأمثال
١٤	الأمثال مرآة النفس
١٦	العلم بالله يورث الحياة
١٦	الأمثال من القرآن :
١٧	مثل المنافقين
١٨	مثل اليهود مع النبي
١٩	مثل المنافقين بتكذيب القرآن
٢١	مثل الذين كفروا
٢١	مثل محمد صلى الله عليه وسلم مع الكافرين
٢٣	مثل المنافق ماله في طاعة الله
٢٥	مثل المرائي والمشرک
٢٥	مثل ما ينفقون في هذه الدنيا
٢٧	مثل الذي آتينا آياتنا فانسلك منها
٢٩	مثل الحياة الدنيا
٣٠	مثل الماء الذي جرى في الأودية
٣١	مثل الكافر إذا دعا
٣٢	مثل كلمة طيبة
٣٢	مثل أعمال الكفار
٣٣	مثل الوثن الذي يعبدونه من دون الله
٣٤	مثل ناقض العهد

٣٥	مثل لأصنام أهل مكة
٣٦	مثل قلب المؤمن وأعماله وقلب الكافر وأعماله
٣٧	مثل أعمال الكفرة
٣٨	مثل بيت العنكبوت
٣٩	مثل الشرك
٤٠	مثل المشرك
٤٠	مثل المنافقين
٤١	مثل الذين حملوا التوراة
٤١	الأمثال من الأخبار والسنة :
٤٢	مثل العالم
٤٣	مثل الرسول في الدعوة
٤٣	مثل الآدمي ومثل الموت
٤٣	مثل القرآن
٤٤	مثل من لعب الميسر
٤٤	مثل قارئ القرآن
٤٥	مثل المنافق القارئ للقرآن وغير القارئ له
٤٥	مثل الكافر
٤٥	مثل كلمة الشهادة
٤٥	مثل من يقرأ القرآن وهو يعلم تفسيره ولا يعلم
٤٦	مثل من أعطي القرآن ولم يعط الإيمان
٤٧	مثل الرسول والأنبياء
٤٧	مثل المنفق ومثل البخيل
	مثل الصلوات الخمس
٤٨	مثل لموت المرأة المعجب بها زوجها
٤٩	مثل من جاء مسجده
٥٠	مثل الرؤيا حين تعبر
٥٠	مثلكم ومثل اليهود والنصارى
٥١	الناس كإبل مائة
٥١	مثل المؤمن مثل النخلة
٥٢	مثل الصحابة

٥٢	مثل الرسول صلى الله عليه وسلم
٥٢	مثل المؤمنين
٥٣	مثل التاجر
٥٣	مثل المنافق
٥٤	مثل النبي ومثل الساعة
٥٤	خمس كلمات وأمثالها
٥٥	مثل المصلي الذي لا يتم ركوعه وسجوده
٥٦	الحكماء يضربون الأمثال :
٥٧	مثل العلماء
٥٧	مثل الإمام
٥٧	مثل الناس والإمام
٥٨	مثل المجلس الصالح
٥٨	مثل القلب
٥٨	مثل العالم
٥٨	مثل المؤمن المنتبه
٦٠	مثل المؤمن المخطيء الغافل
٦٠	مثل العاقل المحق
٦٠	مثل المؤمن المخطئ
٦٢	مثل المصلي الساهي
٦٢	مثل الدعوات دون حضور القلب
٦٣	مثل من يشني على ربه عن غفلة
٦٣	مثل من يشني ولا يعلم معنى ما نطق به
٦٤	مثل من يشني ويعقل معنى الثناء تعريفاً
٦٤	مثل من يشني ويعقل عقل مشاهدة
٦٥	مثل التالي كتاب الله في غفلة
٦٩	مثل الناظر إلى حروف القرآن
٧٠	مثل التالي كتاب الله من غير فهم
٧٠	مثل من يربي القرآن
٧٣	مثل التالي لكتاب الله
٧٤	التمثيل والتشبيه

٧٥	المرأة التي في لسانها بذاء
٧٧	مثل التالي ولا يعلم التفسير
٧٩	مثل من يقرأ القرآن بالحن
٨٢	في التوراة
٨٣	مثل صاحب الأخلاق
٨٦	الأخلاق أصولها في الطبع
٨٨	الأسخياء والأجواد
٩٠	الفضاظة ضد الكرم
٩١	مثل من يسبح بتسبيح غيره
٩٢	مثل النفس مثل الكرش
٩٣	مثل التسبيح والثناء والقرآن مع التقوى
٩٤	مثل قلب يتردد فيه الذكر
٩٥	الكنوز
٩٦	حب الله تعالى
٩٨	تغطية الشهوات
٩٩	أصحاب هذه الصفة صنفان
١٠٢	مثل المعرفة مثل قطب الرحا
١٠٤	مثل من استعمل عقله وذهنه في أمور الدنيا
١٠٥	مثل الذي يختلف إلى مجالس العلم
١٠٦	مثل الذي يغوص في البحر والأنهار
١٠٧	مثل المتعرف إليك باختلافه إليك
١٠٨	مثل الحب بين الأشياء
١٠٩	الحب سر الله في العباد
١١٠	فرح الله بتوبة العبد
١١١	المفردون
١١٤	مثل رجل له عبد رباه بين يديه
١١٧	مثل الهوى في الآدمي
١٢١	الآخرون مثل العنكبوت
١٢١	ما في خطبة له عليه السلام
١٢٣	السلام للأمة من إبراهيم

١٢٣	مثل رجل غرس غرساً
١٢٥	مثل القلب والنفس
١٢٨	مثل من سار إلى الله حتى وصل إلى محل القربة
١٣٠	مثل الذي يترك مجاهدة النفس
١٣٠	مثل من ترك المجاهدة في وقت طاعة النفس
١٣١	مثل من يقصر في الفرائض
١٣٢	مثل من يضيع حقوق الله
١٣٢	مثل من قرأ القرآن بغير فهم
١٣٣	مثل الواعظ الناصح
١٣٦	مثل من أعطي نور الهداية
١٣٨	أهل اليمن ألين قلوباً وأرق أفئدة
١٤١	ما رزق عبد شيئاً أفضل من إيمان صلب
١٤٢	إيمانك بالله يصلب قلبك
١٤٢	مثل انقياد النفس
١٤٥	حال المشفق
١٤٥	المحب لربه لا يرضى أن يعمل له على خبث النفس
١٤٧	ابن عباس قدوة في هذا
١٤٨	وعلي والزبير رضي الله عنهم أسوة
١٤٩	مثل عمل الله
١٥٠	بساط الربوبية وبساط العبودية
١٥٠	الأنبياء أعظم أجراً
١٥٠	تفضيل الموحدين
١٥١	القلب يدعو إلى الله والنفس تدعو إلى الشهوات
١٥٥	مثل المؤمنين ومثل اليهود والنصارى
١٥٦	مثل الحمد للموحدين
١٦٠	مثل عبد دعاه مولاه فوكله بعمل له
١٦٢	مثل قوة العقل في الأعمال والأقوال وملكها
١٦٣	مثل الهوى إذا مزج العقل في أمر واحد
١٦٤	شأن الآدميين مع الله
١٦٥	من سار سيرة هواه

١٦٥ العاقل والأحمق
١٦٧ مثل إثبات الرزق في اللوح
١٦٧ مثل الراغب في الدنيا
١٦٩ مثل الدنيا وانخداع الأحمق بها
١٧٠ مثل من يخلط أعمال السوء بأعمال البر
١٧٠ مثل من يقوم بأمر الله مخلصاً أو غير مخلص
١٧٣ مثل موسرين ينفق أحدهما فيما يهوى ، وينفق الآخر في وجوه الخير
١٧٤ مثل من يعظ القلوب الحزينة
١٧٧ مثل الدنيا مثل بحر عميق
١٧٩ مثل الشهوات وترددها في الصدور
١٨٢ اجتناب أبواب الكلام
١٨٤ مثل رياضة النفس
١٨٧ مثل طيب الإيمان على القلب
١٨٨ مثل الإيمان في القلب
١٩٠ مثل الإيمان مثل الضيف الكريم
١٩٢ مثل الإيمان وصحته وسقمه
١٩٥ ما أنزل الله في شأن قوم يعم الخلق
١٩٨ إكرام الله تعالى
١٩٩ وجه تشبيه القلب بالكعبة
١٩٩ قلب المؤمن
٢٠٤ تدبير الله تعالى في إبراز أسمائه
٢٠٨ أعظم التقوى
٢١٠ علم المعرفة
٢١٢ العلم علماً
٢١٦ من يغلب شهوات الدنيا
٢١٧ مثل التقوى
٢٢٠ التقوى على سبع جوارح
٢٢٢ لا عمل لمن لا نية له
٢٢٧ مثل من يعمل على الغفلة
٢٢٩ مثل الواعظ

٢٣٣	مثل المدعو إلى دار السلام
	مثل الذي ينطق بأسماء الله ويدعوه بها وليس له
٢٣٥	نور تلك الأشياء
٢٣٧	آدم لما أهبط إلى الأرض
٢٣٧	دواوين ثلاثة
٢٣٩	كلمات أعطاه الله العبد
٢٤١	مثل ذلك مثل الخواتيم
٢٤٢	مثل الغافل عن الله تعالى
٢٤٥	المرارات
٢٤٦	اعمال العقل
٢٤٢	مثل معرفة العامة
٢٤٩	قلوب العامة في معرفة ربهم
٢٤٩	معروفات الله جل جلاله
٢٥٠	مثل موت واحد من المؤمنين
٢٥١	أولياء الله تعالى
٢٥٢	طائفة أخرى
٢٥٢	وطائفة نافرة
٢٥٢	الثابت على التوحيد
٢٥٣	المدبر الذي ركب بعض شهوره
٢٥٣	في بيان الهباء
٢٥٤	من أراد الله به خيراً
٢٥٦	السابق والمقتصد والظالم
٢٥٧	مثل المتكل على ماله
٢٦١	مثل حركات المؤمن
٢٦٣	مثل العمال بطاعة الله
٢٦٦	مثل الشناء والتسييح
٢٦٦	مثل المجتمعين على ذكر الله بكرة وعشياً
٢٦٨	مثل أسماء الله الحسنى
٢٧٠	مثل من يريد ذكر الله في قلبه
٢٧٢	مثل من يعبد الله بلا علم

٢٧٢	مثل من يتعلم العلم ولا يعمل به ولا يعلمه الناس
٢٧٣	مثل من يتعلم العلم ويعمل به ولا يعلمه غيره
٢٧٣	مثل من يتعلم العلم ويعمل به
٢٧٣	مثل من يتعلم العلم ولا يعمل به ويعلمه الناس
٢٧٥	مثل من يبتغي نزول الرحمة قبل التوبة
٢٧٧	تطهير الصدور
٢٨٠	العار والخزي بين يدي الله
٢٨١	المعذب من الموحدين
٢٨٢	حياة أهل النار
٢٨٢	مثل من يحشر في الموقف
٢٨٤	يحشر الناس ركبانا ورجالة وعلى وجوههم
٢٨٦	صفة فارس من السابقين
٢٨٨	مثل العامل يعمل أعمال البر
٢٩٠	مثل من وثق بالله في ضمان رزقه
٢٩١	مثل أهل الثبات في الأعمال
٢٩٢	عمال الله تعالى على ثلاثة أصناف
٢٩٣	مثل الطاعة في الزينة
٢٩٧	مثل المعرفة التي لم تضاء
٢٩٩	مثل الائتمار بأمر الله
٣٠٢	الأجساد قوالب
٣٠٣	الدعاء لم يكن لسائر الأمم
٣٠٥	في قلب المؤمن حيتان
٣٠٦	الرشد سر الله في قلب المؤمن
٣٠٧	مثل أعمال البر في الجسد
٣٠٩	النية الصادقة
٣١٠	مثل المحق والمبطل
٣١٢	مثل العارف المنتبه
٣١٣	مثل العلم مثل الماء
٣١٤	مثل التائب
٣١٦	مثل الخاشي

٣١٦	مثل الخائف
٣١٧	مثل العارف
٣١٧	مثل أهل الإرادة
٣١٩	أعمال هذه الأمة على ثلاث مراتب
٣٢٠	مثل العمال في إخلاصهم في العمل
٣٢٠	مثل الأعمال في زينتها
٣٢٢	مثل العمل الذي لا لبق له
٣٢٣	مثل من يحارب الذاكرين
٣٢٥	مثل من يستمع قلبه إلى حديث نفسه
٣٢٦	مثل عمال الله تعالى على طريق الرجاء والثواب
٣٢٦	مثل الصديقين العارفين في الأعمال
٣٢٧	مثل خاص الأولياء
٣٢٧	مثل المؤمن والكافر والمنافق
٣٣٣	الفهرس